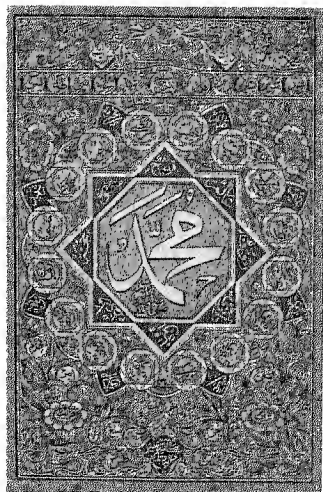


الشيخ عبد الله لعلايلي

مَشَاهِد وقَصَص

مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ



دار الجدي

الشيخ عبد الله عيسى

مِن أَيَّامِ النَّبُوَّةِ مَشَاهِدٌ وَقَصَصٌ

دار الجدي

© دار الجديد، طبعة ثانية مُنقَّحة، ١٩٩٣

٣٤٣٧٥٢ - ٥٢٢٢ / ١١ - نصّيد النص: علي حمدان - صَبَطَه بالشَّكل على

أُصوله: محمود عشاف - خطّ الخطوط: علي عاصي - رَسَم الغلاف: محمد شمس الدين -

صورة الغلاف مُقتبسة من: *L'Islam nelle Stampe*, BE-MA Editrice, Milano, 1988

مَنبَهَةٌ... لهذه الطبعة

أَبَتْ هَذِهِ الدَّارُ الْكَرِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مِنْ بَعْضِ قَدِيمِي جَدِيداً
كَاسِمِهَا، فَأَخَذْتُ بِأَسْبَابِ نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ، بِحُلَّةِ قَشِيَّةٍ فِي
حَوَاشِيهَا إِغْرَاءً، شَأْنُهَا فِيمَا تَنْشُرُ.

وَأَقْتَرَحْتُ عَلَيْهَا أَنْ يُمَثَّلَ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِعُتْوَانِ جَدِيدٍ،
كَوَلِيدِ تَقْمِصٍ فِي يَوْمِهِ غَيْرِ ثَوْبِ أَمْسِهِ... أَوْ تَنَاسُخٍ فِي خَلْقِهِ
خَلْقُهُ الْبَدِيءُ، وَأَنْتَظَمْتُهُ أَمْشَاجَ تَكُونِهِ الْأَوَّلِ. فَأَكْبَرُ فُصُولِ
الْكِتَابِ تَدَوُّرُ عَلَى أَسْمِهِ هَذَا الْمُسْتَحْدَثِ: مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ - مَشَاهِدُ
وَقَصَصُ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ دَفَعْتُهُ إِلَى الْقَارِيءِ مِنْ قَبْلِ سَنَةِ ١٩٤٧ عَنْ
دَارِ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ أَيَّامَ يَفَاعِيهَا وَحَبْوِهَا، إِبَّانَ كَانَتْ تَنَاقُلُ بَيْنَ
الْحَبْوَةِ وَالْحَبْوَةِ، وَتَتَشَنَّى بَيْنَ الْخَطْوَةِ وَالْخَطْوَةِ، بِأَسْمِ: أَيَّامِ
الْحُسَيْنِ.

وَلَمْ أَبْعُدْ بِالتَّسْمِيَةِ الْخَاصِرَةِ الْعَتِيدَةِ عَنْ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ
الْعَهِيدَةِ، فَالْحُسَيْنُ (ع)، فِي جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ،
وَهَذَا أَكْبَرُ لَهُ وَأَزْحَبُ وَأَغْنَى وَأَحَبُّ.

وَجَاءَ اقْتِرَاحُ الدَّارِ، دَارِ الْجَدِيدِ، عَلَيَّ، بَعْدَ إِبْلَالِي مِمَّا أَلَمَّ بِي
وَأَذْخَلَنِي الْمُسْتَشْفَى. وَاتَّفَقَ لِي لِلْأَوْنَةِ أَنْ رَأَيْتُ الَّذِينَ
بَلَوْتُهُمْ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٣٥، أَعَانِيهِمْ وَأَعَانِي مَعَهُمْ إِلَى أَعْوَامي هَذِهِ
الْأَخِيرَةِ، عَلَى حَقَائِقِهِمْ. فَكَانَتْ حَصِيلَةُ بِيَادِرِي مِنْهُمْ، فِي أَكْبَرِ
شَأْنِهَا، زُؤَانًا إِلَّا بَقِيَّةً هِيَ الْكَرَائِمُ مِنَ الْحَبِّ وَاللُّبَابِ، شَفَعَتْ بِمَا
كَانَ اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنَ أَكْدَاسِ «غَرَابِيبِ سُود».

فَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْكَرِيمِ الَّذِينَ ذَكَرُونِي أَيَّامَ
تَقَطَّرْتُ أَلْمًا حُزْبَائِي وَسُوَيْدَاءُ نَفْسِي، مِنْ أَصْحَابِ السَّمَاخَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدٍ مَهْدِي شَمْسِ الدِّينِ الَّذِي قَالَ، وَلَمْ يَتَوَرَّغْ، عَلَى مَسْمَعٍ
وَمَزَأَى، وَلَكِنْ بِتَغْيِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَغْنَاهُ: مَا اتَّفَقَ لِي وَشَهِدْتُ ظُلُمًا مِنْ
ذَوِيهِ كَالْعَلَايِلِيِّ، وَلَا رَأَيْتُ ظُلُومًا كَقَوْمِهِ، وَالشَّيْخِ الصَّدِيقِ ابْنِ
الشَّيْخِ الصَّدِيقِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ رَاغِبٍ الْقَبَانِي الْقَائِمِ بِأَعْبَاءِ
الْفَتْوَى... وَمِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ سَلِيمِ الْخُصِّ وَرَشِيدِ الصَّلْحِ
وَشَفِيقِ الْوَزَانِ... وَمِنْ أَصْحَابِ أَلْعَالِي مِشَالِ إِدَّة، وَمِنْ سُورِيَّةِ
تَفَضَّلَ بَيْنَ نَابِ عَنْهُ أَلْدُّكْتُورُ عَبْدِ الرَّؤُوفِ أَلْكَسَمِ حَامِلًا بَاقَةَ زَهْرٍ.
وَحَصَصْتُهَا بِالذِّكْرِ إِذْ كَانَ لِي فِيهَا أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ
وَالْخَمْسِينَاتِ، وَلَا سِيَّما يَوْمُ أَلْمِهْرَجَانِ أَلْتَّابِينِي الْأَوَّلِ لِعَدْنَانِ
أَلْمَالِكِيِّ وَكَانَ عَرَبِيًّا جَامِعًا، يَوْمَ ٥ آبِ سَنَةِ ١٩٥٥. وَأَكْتَفِي
لِتَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ وَقْعِي عَلَى النَّاسِ أَنْ تُرَاجَعَ الصَّحَافَةُ فِيهَا
يَوْمَئِذٍ، وَبِخَاصَّةِ مَجَلَّةِ أَلْجَيْشِ أَلْسُورِيِّ نَفْسِهِ. وَلَكِنِّي أَتَعَزَّى بِمَا
قَالَ ابْنُ الْمَقْرِيِّ صَاحِبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْخُطُوطَ فَلَا عِثَابَ وَلَا مَلَامَةَ
أَعْمَى، وَأَعشى، ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وَرَزَقَاءُ الْيَمَامَةِ
وتَوَجَّ عيادتي، أَنَّهُ أَقْبَلَ مُهْزولاً صَاحِبُ الفَخَامَةِ رَئِيسُ
الْجُمْهُورِيَّةِ، وَلَا تَظُنُّهُ مَنْ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِكَ أَوْ مَنْ تَعْرِفُ، بَلْ
هُوَ الْأَرْفَعُ وَالْأَكْرَمُ وَالْأَحَبُّ، إِنَّهُ فَخَامَةُ رَئِيسِ جُمْهُورِيَّةٍ عَبَقَرُ،
الْإِبْدَاعِي سَعِيدُ عَقْلٍ.

وَلَا تَأْسَ أَوْ تَبْتَئِسْ مِنْ قِلَّةِ الرِّعْيَةِ فِي جُمْهُورِيَّتِكَ، فَقَدِيمًا
قَالَ رَصِيفُكَ السَّمَوَّلُ:

تَعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلُ

وَكَانَ سَبَقَ دُخُولِي الْمُسْتَشْفَى، بِادِرَةِ مُوَاسِيَةٍ عَلَى غَيْرِ
أَنْتِظَارٍ، بَلْ عَلَى تَفْتَةٍ، أَيْ عَلَى حِينِ بَغْتَةٍ، مِنْ الْقِيَمَةِ الْمَشْرِفَةِ عَلَى
مَسَاعِ إِنْسَانِيَّةٍ فِي صَيْدَا، أَخْتَصَّصْتَنِي بِدِرْعِ مُؤَسَّسَاتِهَا، وَلأنَّهَا بَاتَتْ
أَلآنَ فِي مَكَانٍ مَسْئُولِيَّةٍ أَتَجَاوَزُ وَأَطْوِي أَلَأَسْمَ، لِئَلَّا تَنْقَلِبَ كَلِمَةُ
الشُّكْرِ كَلِمَةً زُلْفَى... وَأَنَا مَا تَعَوَّذْتُهَا وَأَنَا بَعْدُ فَتَى، فَكَيْفَ بِي وَأَنَا
الْثَمَانِيْنِي...

فَكَانَ هَؤُلَاءِ «مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي»، وَهُمْ عَلَى أَيْ
حَالٍ أَهْمٌ وَأَجَلٌ مِنْ مِجَنِّ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ «ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ
وَمُغْصَرٌ».

وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ فِي شَرِيطِ هَذِهِ التَّرَاثِيَاَتِ، تَبَدَّى لِي حَامِلُ قَلَمٍ
كَانَتْ كَلِمَتِي فِي رِثَاءِ أَبِيهِ وَخَدَهَا شَافِعَةً لِيَذْكُر... وَحِينَ أُنَوِّهُ

بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ أُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا كَلِمَةٌ^(١) كَانَ يَحْفَظُ وَيُرَدِّدُ أَكْثَرَ

(١) أثبت نصها الكامل هنا لتلا يذهب بها دهر الدُّهَاري، وتَلَسَّفُها دُوَامَةُ الأعاصير كأكثر ما كنت كتبت. فلم تُنشر إلا في جريدة الحياة لصاحبها المرحوم كامل مروة، وذلك بتاريخ ٢١/٢/١٩٤٧ عدد ٤٩٦ وهذا نصها:

وَأَيُّهَا الْفَقِيدُ الْكَبِيرُ: هُنَيْيَةً وَتَغْضُهَا كَانَ لِي مِنْ غُمْرِكَ، يَوْمَ مَشَى الْقَدَرُ عِنْدِي بِحَظِّ سَعِيدٍ، فَعَرَفْتُكَ وَمَا كَانَ طَوِيلًا وَلَقَيْتُكَ وَمَا كَانَ كَثِيرًا.

وفي حُسْنِ الْقَلْبِ، أَيُّ شَأْنٍ لِلزُّمَنِ الَّذِي يُخْتَصِرُ بِجَبَرُوتِهِ عِنْدَ عَتَبَتِهِ، فَقَدْ آتَقَلَبْتُ وَكَأَنَّ أَمْسِي مَا آتَسَّعَ إِلَّا لَكَ، وَكَأَنَّ يَوْمِي لَيْسَ يَمِي إِلَّا ذِكْرَكَ.

هي هُنَيْيَةً، وَلَكِنْ مِمَّا تَرَكْتَ فِي حُسْنِ نَفْسِي بَتْ أَشْعُرُ لَكَأَنَّمَا هُوَ غُمْرِي كُلُّهُ جَاءَ فِي مِقْدَارِ هُنَيْيَةٍ.

عَرَفْتُكَ إِنْسَانًا، وَلَا أَزِيدُكَ، بِصِفَاتِ أَنْتَ تَمْلِكُ أَكْرَمَهَا، فَلَيْسَ قَلِيلًا فِي دُنْيَايَ وَدُنْيَاكَ، أَنْ تَعْرِفَ إِنْسَانًا يَعْشُقُ حَقًّا بِقَلْبِهِ، بِكِبَرِيَاءٍ قَلْبِهِ؛ إِنْسَانًا يَعْشُقُ بِحَقَائِقِهِ؛ بِغُرِّي حَقَائِقِهِ؛ إِنْسَانًا يَعْشُقُ بِقِيَمِهِ، بِوُغْيِ قِيَمِهِ فِي نَاسٍ، دَحِ الْمَغْنَى الْإِنْسَانِي، ثُمَّ قُلْ: إِنَّهُمْ يَعْشُقُونَ بِمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ، وَلَا أَحَاوِرُكَ، بَلْ لَعَلِّي أَجَارِيكَ.

فَرَأَيْتُكَ فَحَبَبِكَ إِلَيَّ مَا قَرَأْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُكَ فَأَحْسَسْتُ مَا قَرَأْتُ لَكَ حَيَاةً، فَالْحَرْفُ مَا كَانَ يَنْحَدِرُ عَنْ قَلْبِكَ، إِلَّا بِحَرْفٍ مِثْلِهِ أَنْحَدَرَ إِلَيْهِ مِنْ مَغْنَاكَ.

فَمَا أَكْثَرْتُ مِنْكَ وَلَا غَيْرَكَ عِنْدِي، بَلْ لَكَأَنِّي يَوْمَ عَرَفْتُكَ أَقْرَأَكَ أَيْضًا، وَلَكِنْ فِي نَبْرَةٍ هِيَ أَكْثَرُ أَشْيَاءًا، وَمَا كَانَ لِهَذَا الْوَرَقِ أَنْ يَنْهَضَ بِكُلِّ حَرَاظَتِهَا.

فَكُنْتُ، فِيمَا تَحُطُّ وَتَقُولُ، تَتَقَدَّمُ إِلَى هَيْكَلِ هَذَا الْوَطَنِ بِدُورِكَ وَقَرَابِيِّكَ... كَالَّذِي يُضَلِّي، وَمَعْنَى اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ أَكْبَرُ صَلَاتِهِ، فَوْقَ آخَرِينَ أَكْبَرُ مَعْنَى اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ حُطُّ أَنْفُسِهِمْ، فَصَلَاتُهُمْ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ رَجَسٌ، وَصَلَاتُكَ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ قُدْسٌ...

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْزُفْرَةِ الَّتِي أَنْطَوَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ، حُرُوفٌ اسْتَرَتْ فِي الْفَاطِ، مِثْلَمَا تَعَوَّدُ أَنْ يَجِدَ الْنَّاسُ فِي كَلِمَاتِ دُمُوعِهِمْ وَأَفَانِيْنِ دُمُوعِهِمْ... وَأَمَّا هِيَ خَشَاشَةٌ أَرْفَطْتُ قَطْرَاتِهَا، وَجَرَتْ فِي حُرُوفٍ رَسَمْتُهَا، ثُمَّ جَمَعْتُهَا فِيهَا.

مَقَاطِعِهَا، وَلَعَلَّكَ تَسْتَغْرِبُ وَلَا تُصَدِّقُ، أَمِينُ نَخْلَةِ الَّذِي كَانَ، فِي
الْعَرَبِيَّةِ، الْأَدَبِ، الْأَدَبِ الدَّمَقَسِ الْحَرِيرِ.

وَأُرَدُّدُ مَعَ شَاعِرِنَا الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ لِبَيْدِ قَوْلُهُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَيَقِيتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وَقَوْلِ الْآخَرِ الْعَبَّاسِيِّ:

فَمَ فَاسْقِيَنِي بِالْكَبِيرِ وَعَشِي ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

وَالْأَغْرَبُ الْأَغْرَبُ فِي هَذَا الزَّمَنِ، الزَّمَنِ ذِي التَّعَاجِبِ، أَنَّ
الْقَدَرَ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ سَيِّدًا مِنْ أَجَلَّةِ
الْعِلْيَةِ الَّذِي اخْتَفَى فَجَاءَهُ، إِلَّا قَنْطَرَةٌ غُبُورٍ لِشَيْءٍ لَا أَذْرِي مَا أَسْمُهُ،
لِيُضْبَحَ وَخَدَهُ الدُّنْيَا، كُلُّ الدُّنْيَا، وَبِكُلِّ حَذَافِيرِهَا أَيْضًا...

وَيَنْقَطِعُ عَجَبِي كُلُّهُ، أَنَّنِي فِي مِضْمَارِ عَرَضٍ بَغْضٍ مِنْ أَيَّامِ
الثَّبُوءِ، وَسَبَقْتُ بِأَنَّ الْحُسَيْنَ مِنْ أَكْبَرِ أَيَّامِهَا، فَلَا بَدْعَ أَنْ أَبْلِسَ

وَأَنَا، عَلِمَ اللَّهُ، مَا كُنْتُ لِأُجْرِي خَرْفًا عَلَى قِرْطَاسٍ، لَوْ أَنَّ مِنْ أَكْثَبِ عَنْهُ يَقْرَأُنِي، أَوْ يَقْرَأُ لِي
يُؤْمِي عَنْ أَمْسِيهِ.

وَلَكِنْ هِيَ ذِكْرَاهُ الَّتِي أَفَلْتُ عَلَيَّ، يَوْمَ بَاتَتْ أَخْبَرَ مِنْ حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَأَوْسَعَ مِنْ وَاقِعِهَا
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

أَيُّهَا الرَّاجِلُ الْكَرِيمُ: لَقَدْ أَبْطَلْتُ شَأْنَ النَّاسِ هُنَا، فَانْزِلْ الْغُرْبَةَ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَ يَذْهَبُ أَلَكْ
سَطَطِهَا غُرْبَةً إِلَى غُرْبَةٍ، هِيَ قَرِيبَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا عِنْدَ مُنْخَدَرِ يَدِكَ، وَبَعِيدَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا وَرَاءَ
مُنْخَدَرِ الشَّمْسِ.

فَيَا أَيُّهَا الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ لَنْ نَقْفِدَكَ، فَأَنْتَ يَوْمًا ذَهَبْتَ تَهْدِيهِمْ وَتَبِي، وَهَذَا مِيرَاثُكَ.

وَأَنْتَ الْيَوْمَ ثَبَارُكَ وَتُشِيرُ، وَهَذَا هَمْسُكَ هَمْسُ ذِكْرَاكَ...».

بُرَحَاءَ بَلَوَايَ بِالْعِظَائِمِ مِنْ بُرَحَاءِ بَلَوَاهُ الَّتِي تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا
الْعِزَاءَ، لِطَائِفَةِ الْمُعَذِّبِينَ، وَالطَّمَأْنِينَةَ كُلَّ الطَّمَأْنِينَةِ لِلْمَفْجُوعِينَ
الْمَكْرُوبِينَ، مِنْ دَهْرِهِمْ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ...

عَلَى أَنِّي أَتَأَسَّى بِقَوْلَيْنِ لِشَاعِرَيْنِ سَبَقَا فِي أَدْبِنَا الزَّاهِرِ،
أَحَدُهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الْجُزْجَانِيُّ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِ النَّاسُ غَزَلَتَهُ فَأَجَابَ
مُتَعَلِّيًا:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ أَنْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوُا رَجُلًا عَنْ مَنْزِلِ الدَّلِّ أَحْجَمًا
إِلَى أَنْ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُتَلَوِّمًا:
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةٌ إِذَا فَاتَّبَاعَ الْجَهْلُ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
ثُمَّ أَخَذْتُ نَفْسِي بِمَا أَخَذَ بِهِ صَاحِبُنَا أَبُو ذُوئَيْبٍ الْهَذَلِيُّ الَّذِي
رَاضَ مُيُولَ هَوَاهُ، وَكَبَّحَ جَمَاحَ صَبَوَاتِهِ فِي قَدَرٍ وَحَدٍّ:
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَفْتَنُ
وَكَانَ عُقْبَى كُلِّ أَوْلَيْكَ أَنِّي سَعِدْتُ سَعَادَةً بَوَذَا بِمَعْنَى لَقَبِهِ
فِي السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ: الْمُسْتَنِيرِ.

أَيْسْتُ بِوُخْدَتِي وَرَضِيْتُ بُغْدِي فَطَابَ الْجَوْ لِي وَدَنَا السُّرُورُ
وَأَحْكَمَنِي الزَّمَانُ، فَلَا أَبَالِي ... أَسَارَ الْجَيْشِ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ

الفاتحة

هذه فُصولٌ من حياةٍ تَمَجَّدَتْ فيها أخلَامُ الإنسانيةِ، واتَّصَلَتْ
في الواقعِ بِقَدْرِ غَيْرِ مَحْدُودٍ مِنْ رَوْعَةِ الأَحْلَامِ...

فلم تَعُدْ تَحْمِلُ اسْمَهَا التَّقْلِيدِيَّ «الأَحْلَامُ النَّائِيَّةُ» الَّذِي أَعْطَاهُ أَقْدَمُ
نَاطِقِي الشُّعْرِ، مُنْذُ فَجَّرَ الإنسانيةَ، يَوْمَ غَدَتْ واقِعاً حَيّاً لِكَاثِرِينَ حَيٍّ...

*

وكانَ هذا الفَجْرُ قَدْ آنَبَتَقَ فِي الغَابِ، وَاتَّصَلَ بِأَلْأَلِيهِ فِي المِغَاوِرِ
وَالكُھُوفِ، حَيْثُ أَطْلَّ الْإِنْسَانُ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، إِلَى الْأَفْقِ مُتَأَمِّلاً، وَشَعَرَ
بِوُجُودِهِ...

ولكنْ لَمْ يَشْقُطْ مِنْ وُجُودِهِ إِلَّا عَلَى أَشْبَاحٍ وَرُؤُوسٍ، ثُمَّ لَمْ يَفْهَمْ...

*

اتَّصَلَتْ حَيِّزَةُ الْإِنْسَانِ بِكُنْهِهِ إِنْسَانِيَّتِهِ فِي مَرَاكِحِ التَّشَوُّعِ الْعَقْلِيِّ، وَمَدَّ
الْحَيَالَ فِي مَعْنَى الْحَيِّزَةِ...

ولم يزل يلج، مَعْصُوبَ الْعَيْنَيْنِ، هَيْكَلَ الْوُجُودِ الْأَصَمِّ، حَيْثُ لَا
يَكُونُ لِلصَّوْتِ رَجْعٌ وَلَا صَدَى، إِلَّا حَفِيفاً خَافِئاً وَلَغْطاً يَنْبَعِثُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،
يَبْدَأُ أَنَّهُ مُبْهَمٌ كَنَغْمَةِ الْوَتْرِ الْمَقْطُوعِ، أَوْ رَجْفَةِ الْحَنَنِ الشَّارِدَةِ الدَّائِيَةِ...

*

يَمُرُّ شَرِيطُ الْوُجُودِ سَرِيعاً كَاللُّمَحَّةِ الْمُضْمَحِلَّةِ. وَمَا يَبْهَتْ مِنْهُ إِلَّا
رُؤْيَى يَمُدُّهَا الشَّرَابُ وَالْآلُ، كَتَلِكِ الرُّؤْيَى الَّتِي تَتَرَاقُصُ عَلَى الْقِمَمِ فِي عَيْنِ
الْفَجْرِ وَأَعْتِمَاضِ الْغُرُوبِ...

إِنَّ إِنْسَانَ الْيَوْمِ، حِينَ يَلْتَقِي، فِي بَعْضِ مُنَحَدَرَاتِ (*) الطَّرِيقِ، بِإِنْسَانِ
التَّارِيخِ الْبَعِيدِ، لَنْ يَجِدَ لَدَيْهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الزَّمَنِ الطَّوِيلَةِ بِهِ، مَا يُخْبِرُهُ عَنْهُ...

*

وَأخيراً ثَبَتَ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنَّ بَحْثَ الْوُجُودِ يَحُولُ دُونَ تَذَوُّقِهِ،
فَانْكَفَأَ عَلَيْهِ، وَنَسَجَ أَحْلَامَهُ عَنِ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ...

وَكثيراً ما كان يَمُرُّ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، فِي جَوْ الْإِنْسَانِ، كَوَاكِبُ
مُلْتَمِعَةٍ تُضِيءُ جَوَانِبَ هَذَا الْوُجُودِ، وَهِيَ تُجَنِّحُ أَحْيَاناً وَتَذْهَبُ صُعُداً أَحْيَاناً،
لِتَنْقُلَ الْبَشَرَ مِنَ الْحَيْرَةِ إِلَى التَّأَمُّلِ، مَأْخُودِينَ بِنَشْوَةِ خَفِيفَةٍ تَظَلُّ الذِّكْرَى تُشْيِعُهَا
أَبداً...

وإلى هذه الذِّكْرَى، الَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى أَرْلِيَّاءَ، قَصَدْنَا فِي عَرْضِ ذِكْرَى

(*) كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبْرِ.

النُّبُوَّةُ التَّارِكَةُ أَلْوَانَهَا الْمِثَالِيَّةَ تُشِيرُ إِلَى الْخُلُودِ، وَتَنْسِدِلُ بِشَفَقِهَا الْمُشِيعِ عَلَى
الْبَقَاءِ...

مُقدِّمة

لم أقصِدُ في هذه المَشْهَدِيَّاتِ إلى التاريخ، إلا فيما يَدْخُلُ في حَدِّ تَصْحيحِ الروايةِ أو الحَبْرِ، وأما ما وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ أَوْسَعْتُ تَحْقِيقَهُ وَدَرَسُهُ فِي تَارِيخِ الْحُسَيْنِ: نقد وتحليل الَّذِي خَصَّصْتُهُ بِالْوَجْهِ التَّارِيخِيِّ الْمَحْضِ، وما يَدْخُلُهُ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ، لكي يَتَسَنَّى لِلْمُطَّلِعِ أَنْ يَتَّصِلَ بِالشَّخْصِيَّةِ، الَّتِي يَدُورُ الْبَحْثُ عَلَيْهَا، اتِّصَالاً تَاماً يُحَوِّلُهُ أَنْ يُصْدِرَ حُكْماً، بِسَلْبٍ أَوْ إِيجَابٍ.

وحاولنا، هناك، أَنْ نَتَفَهَّمَ حَرَكَاتِ الثَّبُوتِ وَالنَّبْيِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عَوَامِلِ الْعَصْرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ مَجَارِي التَّارِيخِ، إِنَّ لِلْجَمَاعَةِ أَوْ لِلْأَفْرَادِ.

وهذه العواملُ، الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ أَلْوَانِ الزَّمَنِ، نُسَمِّيها تَارِيخاً حِينَمَا تَقَعُ فِي الْمَكَانِ، وَتُحَرِّكُ الْجُمُوعَ عَلَى مَا آسَتْتَتْ مِنْ أَتْجَاهَاتٍ وَحَدَّدَتْ مِنْ مَذَاهِبٍ. وبدونها لَا نَفْهَمُ مِنَ التَّارِيخِ إِلَّا أَنَّهُ تَكَرَّرَ لِحَرَكَاتٍ مُبْهَمَةٍ لَا تُعْبِّرُ لَنَا عَنْ شَيْءٍ يَدْخُلُ فِي حَدِّ فَايِدَتِنَا.

وَيَكُونُ الْغَرَضُ مِنَ التَّارِيخِ قَدْ ضَاعَ، حِينَ لَا يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَصِلَ الْجَانِبَ الْوَاقِعِيَّ مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا بِالْجَانِبِ التَّارِيخِيِّ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ كَلِمَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْوَاقِعِ وَالتَّارِيخِ جَمِيعاً، وَإِنَّ الْجُزْءَ الْأَهَمَّ فِينَا، جَمَاعَاتٍ كُنَّا أَوْ أَفْرَاداً، تَارِيخِيٍّ مَحْضٍ. وما دُمْنَا لَمْ نَسْتَطِيعْ أَنْ نَصِلَ مَا آسَتْوَى فِينَا مِنَ الْوَاقِعِيَّةِ بِمَا آسَتْوَى فِينَا مِنَ التَّارِيخِيَّةِ،

فلنْ تَكُونْ لَنَا فَايِدَةً مِنَ التَّارِيخِ.

يَبْدَأُنَا نَشْعُرُ بِالْحَاجَةِ إِلَى التَّارِيخِ. حَتَّى لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ لَدَى الْإِنْسَانِ، طِفْلاً وَشَيْخاً، حَاسَةً سَادِسَةً تَارِيخِيَّةً تُلْخِصُ فِيهِ بِحَاجَتِهَا، وَتُشَيِّعُ فِي دَخِيلَتِهِ أَطْمِئْنَاناً مَشْفُوعاً بِتَلَبُّسٍ لِلْقِصَّةِ، كَأَنَّمَا هُوَ يَسْمَعُ حِكَايَةَ نَفْسِهِ، أَوْ كَأَنَّمَا آتَنَقَّلَ، عَبْرَ الزَّمَنِ، إِلَى حَيْثُ يَكُونُ الزَّمَانُ الْمُؤَهَّمُ، وَتَقُومُ وَقَائِعُ الْمَاضِي.

وَهَذَا الْمَثَلُ فِي الْإِنْسَانِ يَرْجِعُ، عِنْدِي، إِلَى مَا اسْتَوَى فِي مِزَاجِ النَّفْسِ وَوَحَدَتِهَا مِنَ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ، فَإِذَا صَادَفَ مَا يَبْعَثُهُ تَحْرُكٌ بِقُوَّتِهِ، وَأَخْضَعَ الْمَشَاعِرَ لِمَدِّهِ فِي نَوْعٍ مِنَ الْهَيَامِ وَالْحَنِينِ، وَفِي نَوْعٍ مِنَ الْإِحْسَاسِ الْعَمِيقِ بِأَنَّهُ شَيْءٌ يَتَّصِلُ بِهِ آتِصَالاً ذَاتِيّاً، كَأَنَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مُنْذُ بَعِيدٍ.

وَهَذَا يُبَيِّحُ لَنَا أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْفُطْرِيَّ - أَوْ بِعِبَارَةٍ أَشْمَلٍ، الْإِنْسَانَ الَّذِي لَمْ يُكُونْ لَهُ تَارِيخاً - يَفْقِدُ هَذَا الْجُزْءَ، وَلِذَلِكَ هُوَ لَا يَتَحَسَّسُ بِهَذَا الْمَثَلِ أَوْ التَّرْوَعِ.

وَعَلَيْهِ فَفَقَّرُ الْقِصَّةَ، أَوْ عَدَمُهَا، فِي أَدَبِ أُمَّةٍ مَا، يَرْجِعُ إِلَى ضَعْفِ هَذَا التَّرْوَعِ، إِلَى عَدَمِ تَوَافِي الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِيهَا وَاسْتِوَائِهِ. وَهَذَا ظَاهِرٌ لَدَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ لَمْ تَكُنِ الْقِصَّةُ تَسْتَهْوِيهِمْ أَسْتَهْوَاءَ يَجِيءُ فِي دَرَجَةِ شَهَوَاتِ النَّفْسِ أَوْ الْجَسَدِ الْأُخْرَى؛ بَيْنَمَا نَجِدُ الْقِصَّةَ بَدَأَتْ تَبَرُّزُ فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الَّذِينَ اسْتَقَرُّوا وَكَوْنُوا لَهُمْ تَارِيخاً نَوْعاً مَا، كَالْحَيَرِيِّينَ فِي عَهْدِ الْمَنَاذِرَةِ، وَالشَّامِيِّينَ فِي عَهْدِ الْعَسَاسِيَّةِ، فَتَوَلَّدَ لَدَيْهِمُ الْمَثَلُ إِلَى قَصَصِ التَّارِيخِ. وَلَعَلَّ فِي الظَّاهِرَةِ الْآتِيَةِ مَا يَقْطَعُ كُلَّ رَيْبٍ فِي صِحَّةِ هَذَا الرَّأْيِ، وَهِيَ أَنَّ الْقِصَّةَ الْمُرَكَّزَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ لِلْأُمَّةِ تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ.

فَالْعَرَبُ عَادُوا، بَعْدَ التَّارِيخِ، إِلَى تَذَوُّقِ الْقِصَّةِ، لِأَنَّهُ تَوَافَرَتْ فِيهِمْ لَذَّةُ

الاستماع التي ينعثها الجزء التاريخي في النفس، وقد قويت هذه اللذة إراكاً مع التاريخ، وتقوى كذلك في كل أمة وقبيل.

ونحن نلُحس، في عصرنا الحالي، ميلاً أشد إلى القصة، حتى كادت تتميز بأسم الأدب وتشتبه به عما سواها، ولقد قال بعض التأقدين: إن الأدب هو القصة في القرن العشرين.

وأما الشعور بكلية الحياة، والشعور بأن التاريخ والقصة يعبران عن معان مشتركة، هما اللذان يُعَلَّل بهما، عادة، الميّل إلى القصة، فقد تولّد، بلا ريب، بعد التاريخ. فإن هذين الشعورين نتيجة تجربات ومقارنات قام الإنسان بها بين نفسه وبين الماضين، وأدرك هذه الصلة وتحقق من كلية الحياة بعدها. فتقليل الميّل إلى التاريخ والقصة، بهذا الشعور التجريدي الكلي، تغليل بالسبب المنفعل دون السبب الفاعل الحقيقي.

وهذا الرأي، الذي نُعطيه من بواعث القصة ولذتها وتعلق الجمهور بها، حتى وصلت إلى درجة أن تُصبغ الأدب وتُسيطر عليه بصبغتها، حقيقي جداً... وأنا أشعر بحاجة إلى الزيادة من إيضاحه، لأنه يُصحح جملة الأوهام، وطائفة الأخطاء الشائعة في الموضوع.

لا ريب في أن الإنسان، الذي أسلمته التاريخ إلى العصور، يمتاز بحاسة تاريخية خاصة، تفضله عن الإنسان الذي أسلمته الطبيعة الأولى، والذي آتبع من يد الله. وهذه الحاسة تزدد عملاً في الإنسان بآزدياد عمل التاريخ فيه، وتنبه العصور في أعماقه. والميّل إلى التاريخ أو القصة وليد وجود الحاسة المذكورة وتوافرها، وهو - أي الميّل - يتفاوت على مقدار تفاوت الجزء التاريخي في الكائن البشري. ومن الخطأ الظن بأن ميّل الإنسان إلى القصة فطري أو غفوي، بل هو نتيجة تلبد أجيال من التاريخ في جوهره النفسي ومدّه بإحائها. وهذه الحاسة

التاريخية الحية تَتَطَلَّبُ غِذاءَهَا، وتَكُونُ في بَعْضِ مِنَ الشُّعُوبِ نَهْمَةً، وَنَهْمَةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّهْمَ لَيْسَ مَثْرُوكاً لِلْعَفْوِ والطَّبِيعَةِ العَرَفِيَّةِ، بَلْ هُوَ خَاضِعٌ لِسُنَّةِ نُسُوئِيَّةِ خَالِصَةٍ، مَا دَامَتِ الْأُمَّةُ قَدِ اتَّصَلَتْ بِالتَّارِيخِ وَاتَّخَذَتْ خُطُواتِهَا فِيهِ.

وهذا الرَّأْيُ يَنْتَهِي بنا إِلَى تَفْسِيرٍ: لِمَاذَا كَانَ أَدَبُ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنَ الْقِصَّةِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ؟

ولماذا أَثَرُوا بِالْقِصَّةِ بَعْدَ التَّارِيخِ؟

ولماذا كَانَ أَدَبُ الْعَرَبِ كَأَدَبِ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَثَرَى بِهَا بَعْدَ التَّارِيخِ، حَتَّى بَلَغَتْ قِمَّتَهَا فِي أَلْفِ لَيْلَةٍ؟

ولماذا بَلَغَ نَهْمُ الْحَاسَّةِ التَّارِيخِيَّةِ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِي الْجُمْهُورِ الْعَرَبِيِّ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَنْبُتْ أَمَامَهَا نَحْوُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَنِّ، كَمَا تَشْهَدُ بِهَذَا قِصَّةُ حُبِّ عَلِيِّ بْنِ آدَمَ، وَالبَحْلَاءُ لِلجَاحِظِ، وَرِسَالَةُ الْغُفْرَانِ لِلْمَعْرِيِّ، وَالتَّوَابِعِ وَالزَّوَابِعِ لِأَبْنِ شَهِيدٍ، وَحَيَّ أَبْنُ يَقْظَانَ لِأَبْنِ طُقَيْلٍ، وَالْمَقَامَاتُ لِلحَرِيرِيِّ، وَأَحَادِيثُ أَبْنِ دُرَيْدٍ الْأَرْبَعُونَ، وَمَصَارِغُ الْعُشَاقِ لِأَبْنِ السَّرَّاجِ، وَأَعْطَتْ عُصُورُ النَّهْمِ قِصَصَ عَنَتَرَةَ، وَأَبْنِ زَيْدٍ الْهَلَالِيِّ، وَالْمَلِكِ سَيْفٍ؟

ولماذا زَادَ الْمَيْلُ إِلَى الْقِصَّةِ، فِي الْأَدَبِ الْأُورُوبِيِّ الْحَدِيثِ، عَنْهُ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى؟

وَنَحْنُ إِنَّمَا نَخْصُرُ نَظَرَنَا فِي الْأَدَبِ، دُونَ أَنْ نَلْتَمِسَ أَنْحَاءَ أُخْرَى، لِأَنَّ الْأَدَبَ أَكْثَرَ اسْتِجَابَةً إِلَى رَغَبَاتِ الْجُمْهُورِ وَتَطَلُّعِ الْحَاطِظِ، وَهُوَ، إِلَى ذَلِكَ، يَتَلَوَّنُ بِمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ، وَيَحْفَظُ بَتَلَوْنِهِ تَرَاوُخَ الْعَوَامِلِ الَّتِي أَثَرَتْ فِيهِ.

فَعَدَمُ وُجُودِ أَدَبِ الْقِصَّةِ، فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيِّ، مَعْنَاهُ عَدَمُ مَيْلِ الْجُمْهُورِ إِلَيْهَا، أَوْ ضَعْفُ هَذَا الْمَيْلِ عِنْدَهُ، التَّابِعُ لَضَعْفِ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِي مِزَاجِ النَّفْسِ

وَوَحْدَتِهَا.

فَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِذَا مُؤَرِّخُو الْأَدَابِ، مِنْ إِسْنَادِ خَصَائِصَ وَاسْتِعْدَادَاتٍ مِزَاجِيَّةٍ لِبَعْضِ الشُّعُوبِ دُونَ بَعْضٍ أَقْتَضَتْ ذَلِكَ، خَطَأً مَحْضٌ؛ نَاهِيكَ أَنَّ تَعْلِيلَ غَارِقٍ بـ «أَوْهَامِ الْكَهْفِ وَالسُّوقِ»^(١) عَلَى مَا يُسَمَّى ذَلِكَ يَكُونُ فِي مَنْطِقِهِ الْجَدِيدِ، كَمَا أَنَّهُ تَعْلِيلٌ يُعْطِي فِي كُلِّ مِثَالٍ^(٢) رَأْيًا، وَلَا يَقُومُ فِي قَانُونٍ يَبَيِّنُ الْعِلَاقَةَ الْمُوَحَّدَةَ بَيْنَ حَادِثِ السَّبَبِ وَحَادِثِ الْأَثَرِ.

وَالْقِصَّةُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ وَبِإِطْلَاقٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْشَأَ إِلَّا فِي أُمَّةٍ اجْتَمَعَ لَهَا تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ، وَمَرَّ بِهَا زَمَنٌ كَانَ كَفِيلًا بِتَرْوِيدِ الْأَفْرَادِ بِحَاسَةِ تَارِيخِيَّةٍ تَجْعَلُهُمْ يَتَذَوَّقُونَهَا، وَيَمِيلُونَ إِلَيْهَا.

وَهَذَا الرَّأْيُ الَّذِي تُقَرِّرُهُ يَكْشِفُ، عِداَ الْخَطَأِ الْمَذْكُورِ، عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ التَّزْوِيَّةِ الَّتِي جَنَحَتْ إِلَى الْقِصَّةِ، كَأَسْلُوبِ الْأَطْفَالِ بِتَعْمِيمِ خَاطِيءٍ. بَلْ لَا بُدَّ لِسَلَامَةِ التَّطْبِيقِ مِنْ مُرَاعَاةِ مُرُورِ الزَّمَنِ، وَقِيَمَةِ هَذَا الزَّمَنِ فِي تَوْفِيرِ الْحَاسَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْوَسْطِ الْمُشْتَرَكِ لِلطُّفْلِ وَتَفَاوُتِهَا. وَقَدْ يَنْتَهِي بِنَا هَذَا الرَّأْيِ إِلَى إِخْضَاعِ الْأَسْلُوبِ التَّرْبَوِيِّ لِلْقِصَّةِ لِمَنْ هُمْ فَوْقَ الطُّفُولَةِ، إِذَا كَانَتِ الْحَاسَةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ تَحْكَمًا وَاقْتِيادًا. كَمَا يَدُلُّنَا عَلَى السَّبَبِ الصَّحِيحِ لِإِخْفَاقِ أَدَبِ الْقِصَّةِ لَدَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، وَالسَّبَبِ فِي عَدِّهَا نَسِيجًا أَعْلَى عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، وَأَيْضًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ

(١) بِمَعْنَى بِالْكَهْفِ شَخْصِيَّةِ الْفَرْدِ الَّتِي تُكَوِّنُهَا الطَّبِيعَةُ وَالْبَيْتَةُ وَالْمُغْذِيَةُ وَالتَّزْوِيَّةُ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْقَوَائِلُ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَفْرَادِ كَانَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ تَرْاعُتُهُ الْحَاسَةُ وَأَخْطَاؤُهُ الْحَاسَةُ. وَبِمَعْنَى بِالسُّوقِ عَقْلِيَّةِ الْوَسْطِ، وَلَهَا أَوْهَامٌ تَنْحَلُ فِي نَفْسِهِمُ الْأَفْرَادِ وَتَعْقِلُهُمْ.

(٢) مِنْ مِثْلِ قَعْرِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِعَدَمِ اسْتِعْدَادِ الْعَرَبِ الطَّبِيعِيِّ لَهَا، وَتَغْلِيلِ الْقِصَّةِ عِنْدَ بَعْضِ الْأَدْبَاءِ الْعَرَبِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ بِالتَّأَثُّرِ الْأَدَبِيِّ وَالْدُمُوعِيِّ، وَتَغْلِيلِ ظُهُورِ أَلْفِ لَيْلَةٍ بِالمِزَاجِ الْأَدَبِيِّ الْحَلِيطِ، وَتَغْلِيلِ الْقُوَّةِ وَالضَّغَبِ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَ الْأُمَمِ الْمُشْتَعِدَّةِ لَهَا، فِي مَزْعُمِهِمْ، بِتَعَالِيلٍ شَتَّى لَا تَشْتَبِهُ إِلَى تَغْلِيلِ يَقُومُ عَلَى مُؤَرِّرٍ وَاجِدٍ.

العناصر، التي تَلَزَمُ لِتَذَوِّقِ القِصَّةِ، تَتَفَارَقُ بِتَفَاوُتِ الحَاسَّةِ المَذْكُورَةِ. والقِصَّةُ، في نظري، لا فَنٌّ لها ولا عناصرَ قَاعِدِيَّةٍ إِلَّا نِسْبِيَّةٌ فَقَطْ، فهي مَحْدُودَةٌ بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْكَائِنِ. والمُحَاكَاةُ أَوْ الِاخْتِذَاءُ وَهَمٌّ وَبُعْدٌ عَنْ فَهْمٍ مَا ثَبَتَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ الْمُتَحَوِّلِ، الَّذِي يَمَسِّحُ الْفَنُّ بِتَهَاوِيلِهِ، وَيُمَدُّ الْأَدَبُ بِالحَيَاةِ وَالرُّوحِ.

فَالدَّاعِيَةُ الحَقِيقِيَّةُ فِينَا إِلَى التَّارِيخِ وَالْقَصَصِ الَّتِي نُحِسُّ بِهَا ظَامِئَةً عَلَى الدَّوَامِ، مُتَطَلِّعَةً عَلَى الدَّوَامِ، هِيَ وَلِيدَةٌ مَا اسْتَحَالَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ مِنْ أَشْيَاءِ الْمَاضِي الْمُتَلَبِّدِ، وَتَمَدَّدَ فِي بَنَائِهِ كَهَلَامِيَّاتٍ عَامِلَةٍ حَيَّةٍ. وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ فِينَا جَانِبًا تَارِيخِيًّا، فَلَا مُتَغَلَّبَ لَنَا عَنْ أَنْ نَفْقَهُمُ وَقَائِعَ الْمَاضِي كَتَارِيخٍ، وَأَنْ نَتَّصِلَ بِالمُشَاعِرِ الَّتِي سَيَطَّرَتْ فِيهِ كَعَرُوضٍ وَقَصَصٍ، وَبِذَلِكَ يَظَلُّ التَّارِيخُ مَادَّةَ حَيَّةٍ شَاعِرَةٍ.

وَأَشْتَوَاءُ الحَيَاةِ فِي الْحَاضِرِ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى دَوَائِعِ الْمَاضِي وَجَوَازِبِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى التَّارِيخِ التَّعْلِيلِيِّ مِنْ حَيْثُ نَتَّصِلُ بِالمُؤَثَّرَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَدَاعِيَّةٍ إِلَى التَّارِيخِ الوَصْفِيِّ، مِنْ حَيْثُ نَرَى الصُّورَ الْمُخْتَلِفَةَ الَّتِي طَفَّتْ عَلَى سَطْحِ الحَيَاةِ الْمُتَحَنِّجَةِ.

وَنَحْنُ، هُنَا، نُحَاوِلُ عَرُوضَ مَا اتَّصَلَ بِالنُّبُوَّةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْقَصَصِ الْوَاقِعِيِّ، الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُنْبِئَ فِينَا كَامِنَ الْحِسِّ بِمَا يَبْثُ مِنَ الْإِيحَاءِ الصَّامِتِ، وَيُهِيمُ جَوْهَرَ النَّفْسِ لِمَا سَمَّاهُ تُولَسْتُوِي «عَدْوَى الشُّعُورِ»، وَهُوَ ذُو أَثَرٍ بَعِيدٍ، فَعَالٍ فِي تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَنَازَةِ.

وَقِصَّةُ عَصْرِ النُّبُوَّةِ لَا تَدْعُنَا نَخْرُجُ بِتَأْمُلٍ سَلْبِيِّ تَخْتَلِطُ فِيهِ الدُّهْشَةُ بِالإِعْجَابِ فَقَطْ، بَلْ تُزَوِّدُنَا بِمَا يَدْعُونَهُ «الِاشْتِرَاكُ فِي الْوَعْيِ» أَيْ، بِتَأْمُلٍ إِيْجَابِيِّ، يَجْعَلُ فِينَا أَشْتِرَاكًا فِي الصِّفَةِ الشُّعُورِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ تَسْتَحِيلُ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ اسْتِحَالَةً أُخْرَى بِمَا أَسْمِيهِ «عَدْوَى التَّارِيخِ». فَعَلَيْنَا لِذَلِكَ أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نَسْتَنْمِرُ التَّارِيخَ مِثْلَ قُوَّةٍ تَنْصَبُ فِي شَرَابِينَا وَغُرُوقِنَا، وَكَيْفَ نُحَوِّلُ تَيَازُهُ الْمُبْتَغَرَّ فِي اللَّجِّ الْبَاهِتِ لِيزِيدَ حَيَاتِنَا حَرَكَةً، وَحَاضِرَنَا

آندفاعاً ومضاء.

وتابع النبوة شخصية إيمان ومبادئ، وشخصية دعة وسلام. فهو يُرينا في كُلِّ جانبٍ من جوانب الحياة ألوانا وألوانا.

فَيَكُونُ جُزْءٌ من تاريخه عقيدة، والجُزءُ الآخرُ جهاداً، فَيُكْتَبُ الخلودُ له، وَيُكْتَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتَمَّ بِهِ لِنُجَرِّبَ إِيمَانَنَا فِي الْجِهَادِ، وَجِهَادَنَا فِي الْإِيمَانِ.

وَأَيُّهُ شَخْصِيَّةٌ هِيَ أَحْفَلُ مِنْ شَخْصِيَّتِنَا الَّتِي نُدِيرُ الْحَدِيثَ عَلَيْهَا، بِمَعْنَوِيَّاتِهَا وَفَعَالِيَّاتِهَا، وَأَيُّهَا أَحْظَى بِأَثَارِهَا، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا مَعْدِلٌ عَنْ أَنْ نَتَوَخَّأَهَا وَنُسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي الذِّكْرِ، كَمَا اسْتَفَدْنَا مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ.

وَلَسْتُ أَزْعُمُ لِنَفْسِي شَيْئاً مِنَ الْفَضْلِ، وَإِنْ جَهِدْتُ فِي تَفْهَمِ الْمُسْلِمِ الْمُحْمَدِيِّ زَمَناً غَيْرَ يَسِيرٍ، فَإِنِّي كُلَّمَا أَوَّغَلْتُ فِيهَا رَأْيِي أَخْرَجْتُ مَا أَكُونُ إِلَى آئِدَاءِ دَرْسِهَا مَرَّةً أُخْرَى بِمَعْنَى جَدِيدٍ. وَكَذَلِكَ سَتَظَلُّ يَنْبُوْعاً يَرِدُّهُ الصَّادِي، وَهُوَ يَجِدُ فِي كُلِّ رَشْفَةٍ مَعْنًى وَلَذَّةً وَنَكْهَةً، ثُمَّ لَا يَحُورُ مَغْنَاهَا وَلَذَّتُهَا وَنَكْهَتُهَا فِي مَذْهَبِ إِحْسَاسِهِ وَشُعُورِهِ.

يوم المدينة

كُنْتُ تَرَى النَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَرُوحُونَ أَفْوَاجاً وَيَغْدُونَ أَفْوَاجاً، وَالْغِبْطَةُ تَمْلَأُ
جَوَانِحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْحَمِيدِ. وَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْصُبُوا «قَوْسَ النَّصْرِ» حَقّاً، فَقَدْ كَانَ
مَعْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمِ الطَّافِحَةُ بِكِبْرِيَاءِ الْعَقِيدَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْنَى، وَفِي عَزَائِمِهِمِ الطَّافِحَةُ
بِكِبْرِيَاءِ الذَّائِئَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَجْدِ. وَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِطُونَ وَيَتَحَلَّقُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
وَعَلَى أَفْوَاهِهِمْ كَلِمَاتٌ ضَاحِكَةٌ بِسِرِّ الْمَرْحِ الْمُنْشُورِ، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ الظَّفَرِ
يَتَذَرُ^(١).

عَدَّتِ الْمَدِينَةُ، مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، بَلَدَ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ لَبِثَتْ زَمناً وَهِيَ بَلَدُ
الْعَقِيدَةِ، وَفَازَتْ بِتَجْرِبَتِهَا الرَّائِعَةِ، وَخَطَّتْ أَنْهَى سَطْرٍ فِي مَجْدِ الْعَرَبِ وَمَجْدِ
الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعاً. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا النَّصْرُ تَسْجِلاً لِهَزِيمَةِ فَرِيقٍ وَظَفَرٍ آخَرَ، بَلْ كَانَ
تَسْجِلاً لَظْفَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُحَرَّرَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّجْعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ، إِنْسَانِيَّةِ
الْأَغْلَالِ وَالْقِيودِ، وَإِنْسَانِيَّةِ الْاسْتِعْبَادِ الْوَحْشِيِّ الْمُنْكَرِ.

كَانَ هَذَا الظَّفَرُ، فِي حَقِيقَتِهِ، ظَفَرُ الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْمُتَطَلِّعَةِ، وَظَفَرُ
الْمِثَالِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ عَلَى الْمَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ الْجَامِحَةِ، وَكَانَ يَوْمَ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ

(١) الْمَغْرَبَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكُبْرَى ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ.

من شتى العبوديات الدينية والاجتماعية، ويوم تجديد الإنسان وإنشائه آخر.
 غدت المدينة، في أبنائها وأمجادها الحفيلة، بلداً جديداً، فلم تعد «يُرب
 القديمة» التي كانت، كغيرها، وتُكرأ من أوكار الفكر البالي والعقلية الجامدة، التي لا
 لون لها سوى ذلك اللون القاتم، وكان يشيع في جزيرة العرب، ولم تعد ألبسة، بعد
 اليوم، موزناً للنظام الاجتماعي المتأخر الموروث من شرائع الغاب، وفيه الطبيعة
 البربرية، وكان يشيع بشتى مظاهره في كل العالم القديم. فالشعب ضحية
 الطبقات، وهؤلاء جميعاً ضحايا فزء مُستبد يلاشي كيان الأمة في كيانهِ، ويحول
 تيار النشاط في الشعب إلى ما يُغذي أطماعه ويُشبع ميوله ورغباته.

غدت المدينة، منذ هذا اليوم، مركز الفكر التاهض المشيع، والنظام
 الإصلاحي في كل حفل من حقول الاجتماع، ومركز الدولة الحية الجديدة التي
 بدأت تنزع الأغلال السابغة عن كل إنسان في كل مكان. وكذلك آمنت
 وأنطلقت، كما تمتد وينطلق خيط النور سريعاً سريعاً، حتى انتظمت مُعظم العالم
 القديم.

لبت المدينة أياً ما مديدة وهي غارقة بتهجاتها، مُنتشبة بما أحرزت من نجاح،
 فقد حملت شعلة الإصلاح، وغدت رسول المدائن والأمصار، وهي لن تتنازل عن
 رسالتها إلى العالم مهما كلفها تبليغ هذه الرسالة من تضحيات دامية وثبات
 حمراء.

إختصت المدينة عقيدة خالدة ونظاماً إصلاحياً خالداً، ثم ألفت جزباً
 خلافاً، فدولة مُحَرَّرة. وكان من حظ بلاد العرب أنها شهدت، لأول مرة، تجربة
 نظام مُحمَّد الاجتماعي، وقد نجحت في حدودها ونجحت خارج حدودها، وفيها
 القُدرة على النجاح دائماً.

كَانَ فِي أَقْوَاهِ النَّاسِ حَدِيثٌ وَاجِدٌ كُلُّهُ إِعْجَابٌ، مُنْذُ تَسَنَّى لِفَقَةٍ قَلِيلَةٍ
مُؤْمِنَةٍ أَنْ تُحْطَمَ حَمَلَةٌ كَامِلَةٌ جَهَّزَتْهَا مَكَّةُ وَتَمَزَّقَتْ شِعَاعاً. وَخُطُورُهُ النَّصْرِ تَرْجِعُ إِلَى
أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ نَوْعِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَحْدُثُ كَثِيراً وَتَقَعُ كَثِيراً، وَأَمَّا كَانَتْ
صِرَاعاً بَيْنَ مَبْدَأَيْنِ وَعَقْلِيَّتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَقَدْ آتَتْهُيْ بَغْلَبَةِ الْأَصْلَحِ مِنْهُمَا فِي كُلِّ
أَوَّلِكَ جَمِيعاً، فَشَاعَ فِي النَّاسِ كَافَتِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ الْعَقْلِيِّ كَالَّذِي يُحْسِنُ بِهِ
رَجُلُ الْفِكْرِ، وَهُوَ يَجْهَدُ جُهْدَهُ بِسَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ النَّفْسِيِّ كَالَّذِي
يَسْتَحْجِفُ الْمَكَافِخَ الظَّافِرَ وَالْأَمِلَ الْوَاجِدَ.

وَكَانَ يَمُرُّ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ رَجُلَانِ يَهُودِيَّانِ مُطْرِقَيْنِ فِي تَأَمُّلٍ، فِي أَكْثَرِ
تَطَوُّفِهِمَا، وَأَحْيَاناً يَأْخُذَانِ بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ الْخَفِيفِ الْهَامِسِ، وَهُمَا: مُخَيَّرِقُ^(٢)
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

قَالَ مُخَيَّرِقُ: لَشَدَّ مَا يُدْهِشُنِي وَيَرُوعُنِي هَذَا الظَّفَرُ الَّذِي أَحْزَرَهُ مُحَمَّدٌ
وَجَزَبُهُ، فَقَدْ كَانَ ظَفَراً سَرِيعاً وَنَاجِحاً، وَلَا يَنْشَبُ أَنْ يَنْخَطِي حُدُودَهُ الضَّيِّقَةَ،
وَيَشْمَلُ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا بِنِظَامِهِ الْإِصْلَاحِيِّ الْقَوِيمِ، وَتَعَالِيهِ الْوَاعِيَةِ الْأَخَازِ، حَتَّى لَقَدْ
بَلَغَ مِنْ مَدَى فَاعِلِيَّتِهَا أَنَّهَا تُحَقِّقُ لِنَفْسِهَا الْإِنْتِشَارَ السَّرِيعَ دُونَ مَا دِعَايَةٍ وَتَبْشِيرِ.
قَالَ آبْنُ سَلَامٍ: لَكَأَنَّكَ - يَا مُخَيَّرِقُ - تُحْسِنُ بَمَا فِي نَفْسِي وَتَنْطَلِقُ عَنْ
لِسَانِي، فَإِنِّي دَهِشْتُ كَدَهْشَتِكَ وَمَزُوعٌ كَارْتِيَاعِكَ، وَمَا أَحْسَبُ مُحَمَّدًا إِلَّا مُفْضِياً
إِلَى مُنْتَهَى عَظِيمِ جَلَالٍ، وَكُلُّ مَا يَتَدَوَّلِي يُنْذِرُنِي بِهَذَا الْمُنْتَهَى، إِنَّ لَمْ يَكُنْ أَقْلٌ مَا
سَيَبْلُغُ إِلَيْهِ.

(٢) هُوَ مُخَيَّرِقُ النَّصْرِيُّ الْإِسْرَائِيلِيُّ. قِيلَ مِنْ بَنِي قَيْسِقَاعَ، وَقِيلَ مِنْ بَنِي الْفَيْطُولِ. وَذَكَرَ الْوَائِدِيُّ وَالتَّبْلَاوِيُّ
أَنَّهُ كَانَ عَالِماً وَأَسْلَمَ. قَالَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ أُحُدٍ: أَلَا تَنْظُرُونَ مُحَمَّدًا؟ وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ نُصْرَتُهُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ
بِمُقْتَضَى الْمَعَاهِدَةِ. فَقَالُوا: الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ. فَقَالَ: لَا سَبْتَ. وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَلَحِقَ بِالتِّي فَجَرِحَ جِرَاحاً قَاتِلَةً،
فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أُمُورِي إِلَى مُحَمَّدٍ يَضَعُهَا حَيْثُ شَاءَ. رَاجِعِ الْإِصَابَةَ لِآبْنِ حَجَرٍ الْعَشَقْلَانِيِّ، ج ٦،

ومحمد واثق كأشد ما يكون، فقد أوجد مادة حيّة، وصحّحها تصحيحاً مفعولياً، وولّد فيها قوى لا حد لها، وغدّاها بتعاليم تفاعلت مع نفسيّات العرب تفاعلاً يكفي أن يكون بينهم وحدة في الصّفة العقليّة والشّعوريّة، كما غرس في قلوبهم طبيعة الإيمان الصحيح الذي يزّدي هبة العاصفات، وحرّز أفيدتهم من الأساطير والأوهام، وبلّور عليهم الفكر، وعوّدهم النظام، وألزمهم الطاعة وكلمة التقوى، فكانوا أحق بها وأهلها. وليس يُخطئني ظني في أنه لن تقوم لشرعيته شريعة، ولن يثبت لقومه قوم.

قال مُخَيَّرٌ: هَيَّجَتْ، وَائِثْمُ اللَّهِ، فِي نَفْسِي حَدِيثاً طَالَمَا كُنْتُ أَدُوْدُهُ عَنْ لِسَانِي ذِياداً، حَتَّى لَا يَجْرِي بِهِ، وَلَا أَرَانِي إِلَّا مُفْضِياً بِهِ إِلَيْكَ:

نَظَرْتُ فِي شَرَائِعِ الْعَالَمِ وَنُظْمِهِ، عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا، وَقَلْبْتُهَا عَلَى شَتَّى وَجُوْهِهَا، فَانْتَهَيْتُ إِلَى أَنَّهَا تَتَنَاصَرُ عَلَى سَخْقِ قُوَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ وَاسْتِغْلَالِهِمْ اسْتِغْلَالاً أَنَانِيّاً صَارِماً. وَهَذِهِ الشَّرَائِعُ وَالتُّظُمُ مُتَعَاوِنَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا، مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ الَّتِي لَا تَتَقَيُّ بِحَالٍ وَالْحُرِّيَّةُ الدَّائِمَةُ لِلْبَشَرِ، فَسَبِيلُهَا الْقَضَاءُ عَلَى الْكِفَايَاتِ وَالْقَابِلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ عُتْوَانُ آمْتِيَارِ الْإِنْسَانِ، لِيُحَوِّلُوا دُونَ أَنْ يُتِمَّ الشُّعُوءُ دَوْرَتَهُ، وَبِذَلِكَ يَسْتَسْلِمُ لَهُمُ الْقَطِيعُ.

ولقد باتَ المَجْمُوعُ البَشَرِيُّ، مِنْ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَدْوَارِ، فِي رَوْحِيَّةٍ جِدِّ مَرِيضَةٍ، وَانْكَفَاتِ الْجَمَاعَاتِ تَهْوِي فِي أَتُونِ التَّنَارُعِ السَّاجِقِ، حَتَّى لَكَأَنَّ الْبَشَرِيَّةَ فِي دَوْرٍ اخْتِصَارٍ، لَا تَلْبَثُ مَعَهُ طَوِيلاً أَنْ تَنْقَلِبَ هَامِدَةً لَا خَرَكَ فِيهَا.

فَلَمْ يَعُدْ فِي الْأَدْيَانِ مَا يَزْوِي ظَمَأَ النَّفُوسِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، غَدَتِ الْأَدْيَانُ مَادَّةَ الظُّمَأِ، كَطَالِبِ الرِّيِّ بِالْحَنْظَلِ، فَإِنَّهُ لَا يَزْوِي، وَلَكِنَّهُ يَزِيدُ شُعُوراً بِالْحَاجَةِ إِلَى الرِّيِّ. فَالْأَدْيَانُ الدَّائِمَةُ الْكَسِيفَةُ، وَالْهَرَوَطَقَاتُ الْمُسْتَطِيرَّةُ، وَالْأَوْضَاعُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْفَاسِدَةُ، وَالتُّظُمُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ الَّتِي أَذْكَتْ نِضَالَ الطَّبَقَاتِ بِشَرَّتِهِ الْمُفْطِئَةِ، وَالتَّدَاعِي

الأخلاقي، وبَقْظَةُ الإِبَاحِيَّةِ الطَّامِسَةِ، كُلُّ ذَلِكَ أَعَدَّ الْعَالَمَ، بِقَصْدٍ، وَدُونَ قَصْدٍ، إِلَى أَنْتِظَارِ كَلِمَةِ الْبِنَاءِ الْعَالَمِيِّ. وَلَا أَظُنُّ مُحَمَّدًا إِلَّا ذَلِكَ الْبِنَاءَ الْعَالَمِيَّ الْأَعْظَمَ، وَلَا أَظُنُّ دَوْلَتَهُ الصَّغِيرَةَ، فِي حُدُودِ الْمَدِينَةِ، إِلَّا نَوَاةَ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْعَالَمِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي سَتَضَهُرُ فِي بَوْتَفَتِهَا الْفَوَارِقِ الْمَلِيَّةِ، وَتَشْتَغِلِي عَلَى الْأَجْنَاسِ وَالشُّعْبِ، فَالْإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ وَدَوْلَةٌ وَأَنْتِمَائِيَّةٌ.

عَرَفَ مُحَمَّدٌ سِلْسِلَةَ الْأَرْبَابِ الْمُتَرَابِطَةِ فِي نَسَبِي، وَعَرَفَ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَنْ تَتَحَرَّرَ مِنْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّاتِ الْمُرْكَبَةِ الْمُتَدَاخِلَةِ، الَّتِي تُؤَلَّفُ خَطَرًا عَلَى الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ، وَبَوَارِزِ الْاِمْتِيَازِ الْإِنْسَانِيِّ، وَتُعْلِلُ التَّشَاطُ الْحَيَوِيِّ بِمَا تَزْرُخُ بِهِ كَكَابُوسٍ ضَاغِطٍ وَجَائِثٍ مُزْرِعٍ إِلَّا بِعَمَلٍ عَنِيفٍ، وَعَرَفَ أَنَّ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي بِنَايَةِ الْعُبُودِيَّاتِ الشَّامِخَةِ هِيَ الطَّبَقَةُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِي تَسُوقُ الْجُمُوعَ طَائِعَةً بِمَا تُسَيِّطِرُ بِهِ عَلَى مَنَاطِقِ اللَّادُعِيِّ وَمَرَاكِزِ اللَّاشُعُورِ. فَأَعْمَلَ مِعْوَلَهُ الْأَقْدَسَ فِي بِنَايَةِ الْعُبُودِيَّاتِ الرَّاسِخَةِ، الَّتِي شَهِدَتْ، مِنْ نَوْعِ تِلْكَ الْعَوَاصِفِ، شَيْئًا كَثِيرًا، فَمَزَقَتْ رِيَاخَهَا الْمُتَنَاوِخَةَ الْمُزْمَجِرَةَ، وَبَقِيَتْ فِي مَحَلِّهَا شَامِخَةً رَاسِخَةً. لَكِنَّ مُحَمَّدًا عَرَفَ سِرَّ نَبَاتِهَا فَسَدَّدَ ضَرْبَتَهُ الْأُولَى الْمَاضِيَّةَ إِلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَرُبُوبِيَّتِهَا^(٣)، وَتَحَدَّاهَا فِي نَوْعٍ مِنَ الشُّخْرِيَّةِ وَالْاِسْتِغْزَازِ الْمُثِيرِ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَزَلْزَلَ حَجَرُ الْأَسَاسِ، وَخَرَّتْ صُرُوحُ الرُّبُوبِيَّاتِ، الَّتِي سَخِرَتْ بِالزَّمَنِ مَذْرُورَةً، مُتَنَائِرَةً فِي حَالَتِي تَبَعُّثٍ وَتَرَاكُمٍ.

ثُمَّ وَقَفَ مُحَمَّدٌ فَوْقَ أَطْلَالِهَا شَامِخًا، يُغْلِلُ حُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِ^(٤) وَحَقُوقَهُ فِي

(٣) قَالَ تَعَالَى: «وَتَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران ٣: ٦٤).

(٤) قَالَ تَعَالَى: «وَنَحْشُرْ قُنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ تَكَالُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى» (الذاريات ٧٩: ٢٥). وَقَالَ: «فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ» (الزخرف ٤٣: ٥٤). وَقَالَ «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيِّطٍ» (الغاشية ٨٨: ٢٢). وَقَالَ: «رَبُّنَا إِنَّا أطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا الشُّيْلَا» (الأحزاب ٣٣: ٦٧).

الاستقلال^(٥)، الذاتِي، ويُغليحُ حُرِّيَّة^(٦) العمل والإنتاج والجُهد، ويُقرِّرُ مَبْدَأ^(٧) المَسْئُولِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي الْحُقُوقِ وَالْجَزَاءِ وَنَظَرِيَّةَ الْجَزَاءِ لِلْحَقِّ الْعَامِ^(٨)، وَيُنْزِعُ أَغْلَالَ الْفِكْرِ. فَمَحَمَّدٌ حَارَبَ الرُّبُوبِيَّةَ فِي شَخْصِ الْأَوْثَانِ الْجَامِدَةِ، وَحَارَبَ الرُّبُوبِيَّةَ فِي شَخْصِ الْأَوْثَانِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَيَّةِ، وَبِذَلِكَ حَرَّرَ الْفِكْرَ وَحَرَّرَ الْمُجْتَمَعَ.

والمُدْهَشُ - يَا آتِينَ سَلَامٍ - فِي مَنَهِجِ مُحَمَّدٍ الْإِصْلَاحِيِّ أَنَّهُ قَامَ عَلَى الزَّلْزَلَةِ الْفِكْرِيَّةِ، لِيُعِدَّ النَّفْسَ الَّتِي خَلَصَتْ^(٩) مِنْ وِرَاثَاتِهَا إِلَى آغْتِنَاقِ كُلِّ مَبْدَأٍ صَالِحٍ، مَهْمَا بَدَأَ نَائِباً وَالْمَبَادِيءَ السَّائِدَةَ، وَيَفْسَحَ لِلْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ سَبِيلَ التَّفَكُّيرِ الْمُطَبَّقِيِّ الْهَادِيءِ الْخَالِي مِنْ شَوَائِبِ الْأَفْكَارِ الْأُولَى وَنَزَغَاتِهَا. وَكَذَلِكَ لَمْ يَغْمِذْ إِلَى تَصْحِيحِ الْأَوْضَاعِ الْقَائِمَةِ وَتَغْيِيرِهَا فَقَطْ، كَمَا عَمَدَ الْمُصْلِحُونَ مِنْ قَبْلُ، بَلْ قَصَدَ إِلَى تَصْحِيحِ فِكْرَةِ الْحَيَاةِ أَوَّلًا، لِيُضْمَنَ رُوحِيَّةً جَدِيدَةً يَتَوَقَّى مَعَهَا الرَّدَّةُ وَالْإِنْتِكَاسُ اللَّاشْعُورِيِّينَ، وَكَانَا آفَةً كُلُّ إِصْلَاحٍ خَرَجَ عَنْ يَدِ الْمُصْلِحِينَ السَّالِفِينَ.

أُولَئِكَ كَانُوا يُصَحِّحُونَ الْأَوْضَاعَ وَيُشِيعُونَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ، وَرُوحِيَّةُ الْجَمَاعَةِ لَمْ تَزَلْ غَارِقَةً فِي الْأَوْحَالِ وَالْأَمْرَاضِ، وَلَمْ تَزَلْ تَالِفَةً أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّلَفُ. فَلَا تَلَبُّثْ

(٥) قَالَ تَعَالَى: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» (البقرة ٢: ٢٨٦). وَيَتَبَيَّنُ أَنَّ يَلَاخِظُ أَنَّ الْقَانُونَ الْعَامَّ يَخُضَعُ لِلْقَانُونِ الْأَدْنَى.

(٦) قَالَ تَعَالَى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَغِيغُهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى» (النجم ٥٣: ٢٩، ٤٠، ٤١).

(٧) قَالَ تَعَالَى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» (سورة الإسراء ١٧: ١٣). وَقَالَ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (الإسراء ١٧: ١٥).

(٨) قَالَ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة البقرة ٢: ١٧٩).

(٩) قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ٢: ١٧). وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحْرِيرٌ لِلْعَقْلِ مِنَ الْوَرَاثَاتِ، وَدَعْوَةٌ إِلَى تَقْدِيرِهَا عَلَى ضَرْوَةِ الْمُطَبَّقِ وَالْفِكْرِ الْحُرِّ، وَبِذَلِكَ قَضَى الْقُرْآنُ عَلَى الْوَرَاثَاتِ كَأَسَاسٍ لِلْفِكْرِ وَحَكْمَ الْعَقْلِ بِهَا، فَلَمْ تَشْجِبِ الْقَدِيمَ الْمُوروثَ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلِ الْقَدِيمُ الَّذِي يَصْطَلِحُ بِالْمُنْطِقِ فِي سُنَّةِ النَّشْوءِ، وَجَاءَ تَحْرِيرُهُ لِلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَضَى عَلَيْهَا كَأَسَاسَ لِلْفِكْرِ.

الأوضاع أن تفسد بفساد روجية الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاودة الحُمى، ويكون المصلح لم يزد عن أنه نجم التمتع فجأة، ثم ابتلعه خضم الليل الحالك... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة أولاً، ثم صحح الظلم والأوضاع، وبذلك ضمن سلامة المجتمع أبداً، ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحمى.

فمحمداً لم يصنع أمة في عداد الأمم، بل صنع أمة في عداد الرسل إلى كل الأمم، وأكبر ظني أن أمة ستنتطق في جسم العالم المتداعي، كما تنطلق العصاة، وفيها الحرارة والحياة والحركة. فهذا اليوم - يا آبن سلام - بداءة دنيا جديدة، وأول يوم من تاريخ عالم جديد، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة أخرى كما أراد محمداً أن تكون، وكذلك يفرض المصلح نفسه على الزمن.

قال آبن سلام: أراك - يا مخيرق - تتكلم بكلام من استهوته رسالة محمداً، وما أبرئك، ومع ذلك فإني أنصفك بأنك لم تجاوز المنطق في دائرة أولها الفكر وأخرها الحس. ولقد شاءت لي الظروف أن أجمع ببعض من أتباعه، وهو وإن لم يكن له بجلاء منطقك، ودقة تحليلك، فقد غمرتني روجيته ولعبت بي تياراتها، وما أحسب نفسي أقل أنجذاباً منك.

وأذكر أنني سمعت آية^(١٠) تدعو إلى الإيمان العقلي من قرآن محمداً، وما هي إلا أن تمددت في قلبي وعقلي جميعاً. فتمددت لها نفسي وأخذت طريقها إلى ما وراء القوى الواعية، ومضت تفعل فعلها، تارة في الفكر، وتارة في مذاهب الشعور، حتى انتهت بتوكيز فلسفتها علي وتركيزي عليها، وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بأنها فلسفة، ينبغي أن أعهد لها في أول ما أعهد من قضايا العقل، وإذا بي أحس إحساساً عقلياً بأنها كل المنطق، حتى لم يعد لي مغدل عن أن تكون مقدمة

(١٠) قال تعالى: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَيِّنَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» (يوسف : ١٢ : ١٠٨).

الفكر.

والعجب - يا مخيريق - أن مُحَمَّدًا عَالَجَ قَضَايَا الدِّينِ والعقلِ والحياةِ والاجتماعِ، وأعطى حلولاً هي ما ظَلَّتِ الإنسانيَّةُ تائِهَةً عنها وعَبَثًا تَنْشُدُهَا. ولعلَّ أعظمَ ما يَسْتَوْفُقُنِي ويُغْرِنِي حُلُّهُ لِمُعْضَلَةِ الأديانِ، فهو لم يَنْقُضْهَا بَلْ صَحَّحَهَا مِنْ الطُّفِيلِيَّاتِ العالِقَةِ عليها، فَإِنَّ فِي كُلِّ دِينٍ قَضَايَا الحَقِّ الأولى، وقد تناوَلَهَا كُلُّ قَبِيلٍ بنوعِ عقليَّتهِ، وما ثَبَتَ فيها، فَلَوَّثَهَا بِلَوْنِهِ، وما زالَ يُلبِّسُهَا، ويُضِيفُ إليها، وَيَحْمِلُ عليها، حَتَّى آخَتَفَتْ قَضَايَا الحَقِّ وراءَ أَسْتَارِ صَفِيْقَةٍ، وَغَدَتْ كَاللُّبَابِ تَحْجُبُهُ قُشُورٌ قاسِيَةٌ. والذي يَثْبُتُ في عقلِ الجماعةِ مَظَاهِرُ الأشياءِ دونَ حَقَائِقِهَا المحجوبةِ، فَوَقَفَ إيمانُ الجُمُوعِ عندَ حَدِّ المَظَاهِرِ، وعَمِلَ التاريخُ عَمَلَهُ في هذا الإيمانِ فَتَحَجَّرَ عليها، برُغْمِ أَنَّ هذه المَظَاهِرَ والأشْكَالَ ليستْ سِوَى آنِعْكَاسٍ من وراثاتِ القَبِيلِ.

ولكنَّ مُحَمَّدًا اسْتَطَاعَ، بِإِعْجَابٍ، أَنْ يَكْشِفَ قَضَايَا الحَقِّ الأولى، وَأَنْ يُبَيِّنَ مَكَانَهَا فِي كُلِّ دِينٍ، رُغْمَ كُلِّ الأَسْتَارِ الصَّفِيْقَةِ، فَأَعْلَنَ لِلنَّاسِ، عَلَى آخْتِلَافِهِمْ، وَخِدَّةِ الأديانِ، وَأَنَّ قَضَايَا الحَقِّ الأولى وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ دِينٍ، وهي لا تَتَغَيَّرُ إِلَّا إِذَا تَسَنَّى لِنَامُوسِ الطَّبِيعَةِ أَنْ يَتَغَيَّرَ، وَأَعْلَنَ أَنَّ مَا يَتَوَهَّمُهُ النَّاسُ لُبَاباً هُوَ قُشُورٌ فَقَطْ، وبِضْرِيَّةِ حَطَمِهَا، وَأَعْطَى تَحْدِيدَهُ الدَّقِيقَ للدِّينِ الجديدِ. فَكَانَ عَمَلُهُ وَجْهَادُهُ فَقَطْ فِي تَجْرِيدِ قَضَايَا الحَقِّ مِمَّا رَانَ عَلَيْهَا وَعَلِقَ بِهَا، أَوْ رَدَّ النَّاسِ إِلَى حَقَائِقِ دِيانَاتِهِمْ الَّتِي أَفْسَدَهَا النُّضَالُ الطَّبِيقِيُّ والقَوْمِيُّ، وَأَفْسَدَ كُلُّ مَجْتَمَعٍ مِنْ وراثتها، رُغْمِ أَنَّ الأديانَ ما جَاءَتْ إِلَّا لِمَحْوِ هذا النُّضَالِ.

وكما قُلْتُ - يا مخيريق - ليسَ مِنَ المُمَكِّنِ لِلْمُصْلِحِ، إِذَا أَرَادَ البِنَاءَ المُكِينِ، أَنْ يَتَّجِعَ إِلَى العقلِ المُلَوَّثِ المُتَحَرِّفِ، والفِكرِ الغَارِقِ بالأوهامِ، وَيَحْمِلُهُ رِسَالَتُهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مُهَاجِمَةِ هذا العقلِ، وهذا الفكرِ، حَتَّى إِذَا تَطَهَّرَا آتَجَّهُ إِلَيْهِمَا مِنْ جَدِيدٍ وَذَهَبَ يَبْنِي، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ، ذَهَبَ يَخْلُقُ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُحَمَّدٌ، وَكَانَ لَهُ مِيزَةٌ عَلَى

المُصلِحين، ويُنَبِّغي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ مُغَامِرًا يَتَسَتَّرُ بِخُطَّةِ الإِصْلَاحِ، وَأَمَّا كَانَ مُضْلِحًا دَفَعَ الْمُغَامَرَةَ فِي طَرِيقِ الإِصْلَاحِ. وَبَيْنَهُمَا أَنَّ أَوَّلَهُمَا أَنَا نِيَّ بَلَحْمِهِ وَدَمِهِ، يُطْلِقُ الْعَاصِفَةَ كِعِمْلَاقٍ وَيَدْفَعُ الْجُمُوعَ إِلَى التَّوَاتُبِ فَوْقَ الْقِمَمِ، وَزَلَّةً فِي الْعَاصِفَةِ تَتْرُكُ الْجُمُوعَ فِي فُضَاءِ الْهَارِيَةِ طُيُورًا تَحُومُ فِي الْمُنْحَدِرِ السَّرِيعِ السَّحِيقِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالتَّهْدِيمِ لِيَقِفَ، مِنْ بَعْدُ، عَلَى أَطْلَالِ الْأَشْلَاءِ مِسْحًا جَاحِظًا مُتَقَلِّصًا، وَثَانِيَهُمَا غَيْرِيَّ فِي شُعُورِهِ وَضَمِيرِهِ، يَضْبُطُ الْعَاصِفَةَ وَيَصْرِفُ مَخْزُونَهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالْإِنْشَاءِ وَتَوْفِيرِ الْقُوى وَالطَّاقَاتِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالْإِنْيَاءِ لِيَقِفَ، وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَعْدُ، عَلَى الْقِمَمِ.

قَالَ مُخَيَّرِي: لِلَّهِ كَمْ تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي التُّفُوسِ، فَإِنَّهَا تَصْنَعُ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً، وَقُوَّةً لَا حَدَّ لَهَا. أَلَا تَرَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ كَيْفَ غَدَوْا، بِفَضْلِ الْعَقِيدَةِ الْخَلَاقَةِ، قُوَّةً لَا تَنْصِلُ بِالضَّعْفِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضَعْفًا لَا يَتَّصِلُ بِالْقُوَّةِ... وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ، وَالْحَيَاةُ تَصْنَعُ الْقُوَّةَ، فَلَا قُوَّةَ بَدُونِ فِكْرَةٍ تَقْذِفُ الطَّاقَةَ وَالْحَيَاةَ جَمِيعًا.

بَلَّغْنِي، وَأَنَا بِمَا بَلَّغْنِي فِي عَجَبٍ، إِحَالُكَ تَعْرِفُ فَتَى قَرِيشٍ، وَطَالَمَا شَاهَدْتُهُ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَنْ يَنْتَعِنُونَهُ بِحَامِي الْإِسْلَامِ، عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، بَلَّغْنِي أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْتَبَسَالِهِ، وَتَفَانِيهِ فِي نَصْرَةِ مَبَادِيءِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، مَا جَعَلَهُ، فِي بَذْرِ الْكُبْرَى، أُمَّةً مِنَ الْأَبْطَالِ كَأَنَّهَا تَنْطَلِقُ فِي كُلِّ مَجَالٍ إِذَا أَنْطَلَقَ، فَمِنْ كُلِّ وَجْهِ عَلَيٍّ، وَمِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَلِيٌّ نَفْسُهُ، حَتَّى لَا جِدُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ: إِنَّ فَتَى قُرَيْشٍ هَزَمَ الْجُمُوعَ مِنْ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: أَذْكُرُ أَنِّي أَعْرِفُهُ، وَأَذْكُرُ أَنَّ لَهُ سَيِّمَاءَ نَاطِقَةً بِالصَّلَاةِ وَالْعَزَمِ الْقَصِيِّ، وَرُغَمَ حَدَائِثِهِ فَقَدْ قَذَفَ فِي رُوعِي مِنَ التَّجَلَّةِ، وَأَنْوَاعًا مِنَ الْأَسْرِ، حَتَّى لَا أَحْسِبُنِي بِتٍّ مَأْخُودًا عَنْ نَفْسِي سَاعَةً بِشَيْءٍ لَا أَفْهَمُ كُنْهَهُ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ سِحْرَ

الشَّخصية.

وأذكرُ أنّ حديثه اليوم على كلِّ لسانٍ، وهم يشفَعُونَهُ بإعجابٍ طائِفٍ
متمدِّدٍ: «أليس الذي فعَلَ الأفاعيلَ بقريشٍ»، هذه عبارَتُهُم التي لا تكادُ تَسْقُطُ من
حديثٍ أحدٍ عنه، حتَّى غَدَتْ تقليديَّةً وطبيعيَّةً. قالَ هذا، وسَكَتَ مُطَرِّقاً، ويَدُهُ
تُدَاعِبُ جَبْهَتَهُ كالذي يُريدُ أنْ يَتَذَكَّرَ شيئاً قَدَرَ أَنَّهُ خطيرٌ، وعلى فُجاءةٍ نَفَرَ جَبْهَتَهُ
نُفْرَةً شاعَ سرورُها في مُقلَّتَيْهِ وأَسَارِيرِهِ.

قال: يا مُخيريقُ سأُخِيرُكَ خَبَرَ فَتَى قريشٍ، يومَ تَزُولُ في فراشٍ محمَّدٍ، ليلةَ
الهجرةِ، إيهاماً عنه... قال مُخيريقُ: أَذْكَرُ أَنِّي سَمِعْتُ شيئاً من ذلك... وَمَضَى آبُنُ
سَلَامٍ في حديثه: إِنَّهَا مُغامَرَةٌ يَظُنُّهَا البُسْطَاءُ دُونَ اسْتِيسَالِهِ في معركةٍ بَذَرٍ، لَكِنَّهَا
عِنْدِي، من رُجْهَةِ العقيدةِ، أَعْظَمُ شَأْناً وقد لا يَغْدِلُهَا مَوْقِفٌ. فَإِنَّ الاستِيسَالَ قَدْ
تَوَلَّدَهُ حماسَةُ المَشْهَدِ، وَأَصْوَاطُ الجُمُوعِ المَائِجَةِ، وَقَدْ تَوَلَّدَهُ خُيَلَاءُ الذَّاتِيَّةِ في مَوْقِفٍ
لا مَفَرٍّ من الظُّهورِ فيه، وكثيراً ما بَدَّلَتْ هذه المشاهدُ نَفْسِيَّةَ الجَبَانِ، كما لا تَدُلُّ
على أثرِ العقيدةِ دائماً.

ولكنَّ تلكَ، هي مُغامَرَةُ العقيدةِ المُجَسِّمَةِ، فقد كانتَ تَغْرِضاً للنَّفْسِ دُونَ
تَذَرُّعٍ بِأسبابِ الدِّفاعِ، وبُكُلِّ هُدُوءٍ، فليسَ فيها آنْفِعالٌ عَنِيفٌ يُنْسِي المَرْءَ ذَاتَهُ،
وَيَذْفَعُهُ إلى عَدَمِ المَبَالَاةِ دَفْعاً قَسْرِيّاً، وهي مُغامرةٌ، إِنَّ كَانَتْ تُعَبِّرُ عن شيءٍ فَإِنَّمَا تُعَبِّرُ
عن نِسْيَانِ الذَّاتِ على كُلِّ حالٍ، بِفاعِلِيَّةِ العقيدةِ وَحَدِّهَا، التي طَعَتْ على كُلِّ
المشاعِرِ وَاسْتَبَدَّتْ بها. إِنَّ التَّضْجِيَّةَ رَهِيْبَةً، يا مُخيريقُ، دائماً، وَلَكِنَّهَا أَرْهَبُ ما
تَكُونُ في المواقِفِ الهادِئَةِ التي لا تُثِيرُ الأعصابَ بِشعورٍ غيرِ عاديٍّ.

إِنَّ مُحَمَّدًا عَرَفَ كَيْفَ يَجْعَلُ النَفْسَ العربيَّةَ مُؤْمِنَةً ذاتَ آفاقٍ في الإيمانِ،
فكَانَتْ بِذَلِكَ قُوَّةً ذاتَ آفاقٍ في القُوَّةِ. خُصوصاً وإيمانُ مُحَمَّدٍ يَجْعَلُ المَرْءَ لا يَرَى
شيئاً في حدودِ الإيمانِ، وَيَرَى الإيمانَ في حدودِ كُلِّ شيءٍ، كَتَلْكَ الفَرَاشَةُ التي

أَسْلَمَهَا الْمِصْبَاحُ إِلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَحُولُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا تَحُولُ عَنِ الْحَيَاةِ. وَبِهَذَا صَغُرَتِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةُ، وَفِكْرَةُ مَتَاعِهِمَا، فِي قَلْبِ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّ عَقْلَهُمْ لَمْ يَغْدُ يَتَّبِعُ مِنْ حُدُودِ غَرَائِزِهِمْ بَلْ مِنْ حُدُودِ تَعَالِيهِمْ. وَالْاِعْتِقَادُ نَفْسُهُ غَرِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَبَيْنَ الْغَرَائِزِ، كَمَا بَيْنَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، تَنَاحُزٌ عَلَى الظُّهُورِ وَالْبُرُوزِ، وَأَكْثَرُ مَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِلْغَرَائِزِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أَدْخَلُ، غَضَبِيًّا، فِي تَرْكِيبِ الْكَائِنِ الْحَيِّ، وَلَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِهَذِهِ الْغَرَائِزِ أَلْبَسَةً، إِلَّا وَتَشُدُّ إِلَيْهَا الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ، فَيَفْسُدُ الْعَقْلُ، وَيَنْحَطُّ الْقَلْبُ.

فَعَمَلُ الْمُصْلِحِ يَنْحَصِرُ فِي تَنْشِيطِ غَرِيزَةِ الْاِعْتِقَادِ، لِكَيْ تُسَيِّطَرَ بِرُوحِ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ، وَهِيَ تَشُدُّ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ إِلَيْهَا، فَيَصْلُحُ الْعَقْلُ وَيَسْمُو الْقَلْبُ، حَتَّى الْغَرَائِزُ الدُّنْيَا تُصْبِحُ دُنْيَا، بِمَعْنَى جَدِيدٍ. فَهِيَ لَا تَتَّبِعُ فِي شَهْوَةِ الْجَسَدِ، بَلْ فِي شَهْوَةِ الرُّوحِ الْمُرَكَّزَةِ بِالْإِيمَانِ، وَإِنَّ شَهْوَةَ الرُّوحِ الشُّعُورُ بِذَاتِيَّتِهَا الْعُلْيَا فِي الْفِطْرَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، حَتَّى يَجْعَلَ فِي الْغَرَائِزِ عَقْلًا، وَفِي الشَّهَوَاتِ إِرَادَةً وَأَخْلَاقًا. فَمُحَمَّدٌ صَحَّحَ نَفُوسًا، وَأَوْجَدَ مَادَّةَ مُؤْمَنَةٍ، تَنْطَلِقُ، كَمَا يَنْطَلِقُ الْقَدَرُ الْوَاقِعُ، إِلَى مَصِيرِهَا وَغَايَتِهَا، وَهِيَ بِهَذَا الشُّعُورِ مُجْتَمِعَةٌ كَمِثْلِهَا مُتَفَرِّقَةٌ، فَقَلْبُ الْجَمَاعَةِ شُعُورٌ مُتَجَاوِبٌ بَيْنَ قَلْبٍ وَقَلْبٍ.

وَيُعْجِبُنِي فِي فَتَى قُرَيْشٍ أَنَّهُ يَمْلِكُهُ إِيْمَانُهُ، حَتَّى فِي أَخْرَجٍ مَا تَكُونُ رَهْبَةً النَّفُوسِ، وَقَلِيلٌ هُمْ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَمْلِكُهُمُ الْإِيمَانُ، وَهَذِهِ مِيزَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، بَيْنَمَا الْآخَرُونَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَمْلِكُوا الْإِيمَانَ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ شَيْئًا فِيهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يُصَرِّفُهُ الْإِيمَانُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَصَرَّفُ بِهِ.

قَالَ مُخْبِرِي: لَشَدَّ مَا تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النَّفُوسِ، وَلِلَّهِ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ كَمْ هِيَ أَخَاذَةُ تَعَالِيكَ... قَالَ هَذَا، وَسَكَتَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ يَبْدُو مُهِمًّا، وَلَبِثَ طَوِيلًا يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ النُّقْطَةَ الَّتِي يَبْتَدِئُ مِنْهَا الْحَدِيثَ، فَاطَّرَدَ مُعِينًا، يَقُولُ:

يَسْرُنِي أَنَّا مُتَّفِقَانِ فِي الْفِكْرَةِ وَالْمِثْلِ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي يَحُولُ بِالْيَهُودِ عَنْ مُحَمَّدٍ، عَلَى رُغْمِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سَيَعْمُرُهُمْ لَا مُحَالَةً؟ فَإِذَا طَاوَلُوهُ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ يَوْمٌ كِيَوْمِ بَحْتَنْصَرَ... وَكَانَ مُجَرَّدُ ذِكْرِ بَحْتَنْصَرِ كَافِيًا لِبُعْثِ آلَامِهِ الْقَوْمِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، فَتَغَشَّتُهُ سَحَابَةٌ حُزْنٍ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ حَدِيثَهُ:

أَعْرِفُ أَنَّ قَوْمَنَا شَرُّدُوا مَرَّاتٍ، وَأَضْطُهِدُوا كَرَّاتٍ، وَمِنْ شُعُوبٍ مُخْتَلَفَةٍ، فَحَقَّدُوا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَتَأَمَرُوا بِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَبُثُوا رُوحَ الْإِنْتِقَامِ فِي كُلِّ تَصَارُيفِهِمْ، مُتَّخِذِينَ كُلَّ شَعْبٍ هَدَفًا، غَيْرَ مُفَرِّقِينَ بَيْنَ قَبِيلٍ وَقَبِيلٍ، وَبِذَلِكَ أَخْطَأُوا فِي عَدَمِ تَحْدِيدِ التَّيَعَّةِ، الَّذِي أَكْسَبَ نَفُوسَهُمْ صِفَةَ الْغُلِّ السَّحِيقِ، وَأَفْقَدَهُمْ رَغْبَةَ التَّعَاوُنِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَصِفَةَ التَّبَادُلِ الْخَالِصِ، حَتَّى مَعَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، كَهَوْلَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ أَخْتَضَّنُونَا بَيْنَهُمْ، وَأَحْلَوْنَا مَحَلَّ أَنْفُسِهِمْ، وَأَخْتَضَّنُونَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَطْفِ، فِي هَجْرَتِنَا الْأُولَى^(١١) وَالثَّانِيَةِ إِلَى جَزِيرَتِهِمْ.

قَالَ أَبُو بَرٍّ سَلَامٌ: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ سَبَبٌ، وَلَكِنْ وَرَاءَهُ أَشْبَابٌ أَكْثَرُ فَاعِلِيَّةٍ فِيمَا أَعْتَقِدُ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ رُوحِيَّةَ الْيَهُودِ، مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا الْبَارِزِ فِي كُلِّ دَوْرٍ، مُغْضِلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً، وَعَنَاصِرُ هَذِهِ الرُّوحِيَّةِ كَمَا أَحْسَنُ:

أ - الْمَادِّيَّةُ: الَّتِي آسَتْهُوَتْهُمْ آسَتْهُوَاءُ فَطِيعًا، وَتَحَلَّلَتْ مَعْنَوِيَّتَهُمْ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْهُمْ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ اسْتِخْدَامِ أَسْمَى مِثَالِيَّاتِهِمْ وَمِثَالِيَّاتِ مَنْ يَحِلُّونَ بَيْنَهُمْ بِسَبِيلِ الْمَطَامِعِ، وَلَا يَعُوقُهُمْ وَيَنْأَى بِهِمْ عَنْهَا أَنَّهَا دَنِيَّةٌ أحيانًا. فَكَانَ لِهَذَا أَثَرٌ فِي تَوَلِيدِ صِفَةِ الْجَشْعِ وَالسَّرَّهِ وَالْإِفْتِرَاصِ، وَحِينَ تَكُونُ الْمَادِّيَّةُ هِيَ مِثَالِيَّةَ الْأُمَّةِ فَقَدْ بَاتَتْ خَطَرًا، وَشَكَلَتْ مُغْضِلَةً دَائِمًا.

ب - طَبِيعَةُ التَّطَفُّلِ: حَقٌّ لِلْفَرْدِ أَنْ يَجْنِيَ ثَرْوَةً كَدْحِهِ، وَحَقٌّ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ

(١١) راجع كتاب: تاريخ اليهود في جزيرة العرب، للدكتور ولفنسترون.

تَجْنِي ثَمَرَاتِ جُهِودِهَا، وَأَمَّا أَنْ يَجْنِيَ الْمَرْءُ ثَمَرَةَ جُهِدِ الْآخَرِينَ فَبِهَذَا عُذْوَانٌ مُنْكَرٌ. والحياةُ قائِمةٌ على الجُهدِ، فَمَنْ لَا يَجْهَدُ لَا يَحْيَا. هذا مَنْطِقُ الطَّبِيعَةِ، وَخَفَّفَ الْمُصْلِحُونَ مِنْ جِدَّتِهِ بِالتَّعَاوُنِ الَّذِي يَحْفَظُ تَوَازُنَ الطَّبَقَاتِ، عَلَى سُكُلٍ مَا تَرَى فِي تَعْلِيمِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدِ، فِي نِظَامِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ. وَالْيَهُودِيُّ، مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَبْذُلُ جُهِدًا يُوَازِي الْفَائِدَةَ، بَلْ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى أَكْثَرِ فَائِدَةٍ بِأَقَلِّ مَجْهُودٍ. وَهَذَا لَا يَأْتِي إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التَّطَفُّلِ عَلَى جُهِدِ الْآخَرِينَ وَاسْتِغْلَالِهِمْ. فَتَوَلَّدَتْ بَيْنَهُمْ طَبَقَاتُ الْمُرَابِينَ وَالْمُضَارِبِينَ وَمَا شَاكَلَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُشْكِلُونَ، فِي النَّظَرِ الاجْتِمَاعِيِّ، بَيِّنَةً طُفِيلِيَّةً شَدِيدَةً لَخَطَرِ عَلَى سَلَامَةِ أَيِّ مُجْتَمَعٍ كَانَ.

فَالْيَهُودُ طُفِيلِيُونَ يَمْتَصُّونَ الْمُجْتَمَعَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ وَالْوَسَائِلِ، كَالِهَوَامِ الَّتِي تَطْلُبُ حَيَاتَهَا عَلَى جِسْمِ حَيٍّ، وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الطَّرِيقُ الْهَيِّنُ فَالْفُؤُوهُ وَافْتَنُوا فِي أَشْكَالِهِ مُسْتَفِيدِينَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ عَصْرٍ.

ج - الْقَوُضِيَّةُ: عَرَفَ الْيَهُودُ أَنَّ وَسَائِلَهُمْ لِلْاِمْتِنَاصِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْكَشِفَ مَا دَامَ الْمُجْتَمَعُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْهُدُوءِ، فَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِيجَادِ أَسْبَابِ الْاضْطِرَابِ وَالْقَوُضَى، تَارَةً بِاخْتِرَاعِ مَذَاهِبٍ دِينِيَّةٍ وَمَحَافِلٍ سِرِّيَّةٍ، وَأَوْنَةً يَبْتَغِي مَبَادِيءَ اجْتِمَاعِيَّةٍ حَدِيثَةٍ، وَأُخْرَى بِتَرْزِيهِ الْحُرُوبِ. وَتَبَيَّنَتْ هَذِهِ الْقَوُضِيَّةُ فِيهِمْ طَبِيعَةً حَتَّى غَدَوْا مَادَّةَ الْقَوُضَى وَالتَّوَارِثِ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ.

مِنْ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ تَأَلَّفَتِ الزَّوْجِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ.

وَالْيَهُودِيُّ قَدْ يَصْلُحُ إِذَا آرْتَدَّ إِلَى الْأَرْضِ، وَفَارَقَ صِفَةَ التَّجَوُّبِ الَّتِي تَجْعَلُهُ لَا يُخْلِصُ لِأُمَّةٍ مَهْمَا عَاشَ بَيْنَهَا، وَاسْتَرَدَّ مِثَالِيَّتَهُ الصَّائِعَةَ. أَلَسَتْ تِلَاحِظُ مَعِيَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ الْمُرَارِعِينَ أَكْثَرُ مِثْلًا لِلتَّعَاوُنِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَدَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ مِنْ بَنِي قَيْثَفَاعِ الْمُرَابِينَ؟

قال مُخَيِّرِي: بلى نَعَمْ ما تُلاحِظُ... وَمَضَى آئِنُ سَلامٍ في حَدِيثِهِ: وَلَسْتُ
أَتَرَدُّ أَلْبَتَّةَ في أَنَّ هَذِهِ الرُّوحِيَّةَ البَغِيضَةَ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَمُحَمَّدٍ الَّذِي
حَارَبَ هَذَا الْخَلِيطَ الْمُتَكَرِّرَ في رُوحِيَّتِهِمْ.

قال مُخَيِّرِي: أَلَا تُجِيبُنِي إلى أَمْرٍ قَدْ يُحَقِّقُ فِكْرَةَ إِنْقاذِ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ النَّائِيهِ،
وَأَنْتِشَالِهِ مِنْ أَوْحَالِ المادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ الَّتِي لا تَلْبِثُ أَنْ تَقْضِي عَلَيهِ وَتُحَطِّمَهُ؟ فَانْتَ
خَبِرِ الْيَهُودَ وَلَكَ مَحَلُّكَ وَمَقَامُكَ، وَلِي مَنْزِلِي وَمَكَانِي، فَتَنْضَمْ وَأَنْضَمْ إلى جِزْبِ
مُحَمَّدٍ، فَتَضَعِصْ مِنْ قُوَّةِ مَوْقِفِهِمُ السَّلْبِيِّ تِجاءَ الحَرَكََةِ التَّحْرِيرِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلا بُدَّ أَنْ
نَثْرَكَ بَيْنَهُمْ أَثْراً يَكْفُلُ لَنَا عَدَداً، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ عَدَدٍ، خُصُوصاً وَتَفْسِيَّةَ الجَماعَةِ
سَرِيعَةَ التَّرَدُّدِ سَرِيعَةَ الاسْتِشْلالِ.

قال آئِنُ سَلامٍ: هَذَا ما فَكَّرْتُ فِيهِ، وَعَقَدْتُ العَزَمَ عَلَيهِ، وَكَأَنَّ القَدَرَ ساقَكَ
لِتَشْجِعَنِي...

وعلى ذَلِكَ آفَتَرَقا... فَمَضَى مُخَيِّرِي في الطَّرِيقِ المُؤَدِّي إلى المَسْجِدِ، مَوْكِرَ
الدَّعْوَةِ والدَّوْلَةِ... وَتَمَهَّلَ آئِنُ سَلامٍ حَتَّى يَجْعَلَ لِدُخُولِهِ صَدًى أَوْسَعَ أَنْتِشاراً وَأَشَدَّ
وَقْعاً. وَلَكِنَّهُ ظَلَّ شاخِصاً في إِكْبارِ لَتَضْمِيمِ مُخَيِّرِي الَّذِي هُوَ دَلِيلُ النَّفْسِ الكَبِيرَةِ،
وَفِي إعْجابٍ بِمَنْطِقِهِ الدَّقِيقِ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ الفِكرِ التَّابِعِ...

*

الإِسلامُ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ وَحِياةٌ وَنِظامٌ...

ولهُ في الأَفْرادِ والجَماعاتِ تَفاعُلاتٌ على أَنْحاءٍ أَرْبَعَةٍ:
تَتَفاعَلُ العَقِيدَةُ فِيهِ مَعَ الأَوْهامِ العالِقَةِ بالفِكرِ، فَيَعْدُو فِكرًا جَدِيداً بِمَنْطِقِ
جَدِيدٍ...

وَيَتَفاعَلُ العَمَلُ فِيهِ مَعَ الجُهدِ المُبَدَّدِ، فَيَعْدُو جُهداً مُتَيجاً...

وَتَتَفَاعَلُ الْحَيَاةُ فِيهِ مَعَ الْحَيَاةِ الْمُغَلَّلَةِ الْكَاسِفَةِ، فَتَعْدُو طَلْقَةً شَامِخَةً...
وَيَتَفَاعَلُ النُّظَامُ فِيهِ مَعَ التَّرَائِبِ الْمَحْمُومِ، فَيَعْدُو إِنْسَانِيًّا صَحِيحاً...
وَالْإِسْلَامُ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِكْرَةٌ وَإِعْدَادُ،
وَبَيْنَهُمَا تَتَوَلَّدُ، عَلَى الدَّوَامِ، الْأُمَّةُ وَالِدَوْلَةُ وَالْمَجْتَمَعُ...

* * *

يوم القِران

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ وَهَذَا اللَّيْلِ الَّذِي آسْتَقِظَ فِيهِ النَّبِيُّ عَلَى ذِكْرِ نَاعِمَةٍ كَرَجَعَ الْحَنِينَ، وَمُنْعَشَةٍ كَلَمَسَةِ الْحُبِّ، وَشَائِقَةٍ كَوَفِّعِ الْأَمَلِ، أَيَّامٌ إِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَسَابِيعَ^(١) فَذَاكَ، وَإِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَشْهُرٍ فَقَدْ تُصِيبُ.

إِنْجَرَدَ النَّبِيُّ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدُهُ تَمْسُحُ التَّوَمَ عَنْ جُفُونِهِ الَّتِي أَخَذَهَا رُقَاذُ هَنِيءٍ رَافَةٍ بِأَخْلَامِ الْعَدِ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَجِيشُ بِذِكْرِ مُحَبَّبَةٍ إِلَيْهِ، قَرِينَةٍ مِنْهُ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَمْسِ النَّهَارِ الَّذِي لَمْ يَفْصِلْ عَنْهُ يَوْمٌ وَعَدٌ.

وَهِيَ ذِكْرَى مَا كَانَتْ تَمُرُّ فِي خَاطِرِهِ إِلَّا وَتَجِيشُ بِهَا نَفْسُهُ، وَيَشْمَلُهَا أَطْمِئْنَانٌ وَرِضًا، عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَغْبِرُ مَجَازَهَا فِي خَيَالِهِ إِلَّا وَتَتْرُكُ عَلَى مُقْلَتَيْهِ دَمْعَةً مُتَبَخَّرَةً، وَأُخْرَى تَذُوبُ فِي خَفَقَةِ رَقِيقَةٍ، وَزَفْرَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ. ذِكْرَى يُحَرِّكُهَا عَنْده طَئِيفُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ، وَيُلْمُ بِهِ أَحْيَانًا، وَعَدَا، بَعْدَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ، كَثِيرًا مَا يُرَاوِحُهُ. وَكَانَ الطَّيْفُ يَبْدُو، بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، مُزْدَهِيًا تَلْقُهُ مِنْ نَوَاحِيهِ نَشَوَاتٌ، وَمُتَلَفَعًا بِإِشْرَاقَةٍ تَشِيغُ عَلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ زَهْرِ الْمَكَافِحِ الْمَيِّتِ بِمَجْدِ الْمَكَافِحِ الْحَيِّ.

كَانَتْ تَمُرُّ عَلَيْهِ، فِي طَئِيفِ أَبِي طَالِبٍ، صُورٌ مُتَحَرِّكَةٌ سَرِيعَةٌ، تَتَّصِلُ بِغَارِ

(١) سَكَنَتِ الرُّوَايَاتُ عَنْ تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ بَيْنَ وَقْفَةِ بَذْرِ وَأَقْبِرَانِ عَلِيٍّ بِغَاطِمَةِ.

حرَاءَ، وَمَكَّةَ، ودارِ الإِغْدَادِ والدَّعْوَةِ (بَيْتِ الأَرْقَمِ) فَيُحْسِنُ بِالْحَنِينِ العميقِ.
وَيُتَمَرِّزُ بِهِ صُورُ الأَوْثَانِ الْمُتَصَدِّقَةِ الَّتِي تَحْدَاها فِي سُحْرِيَّةٍ، وَهاجَمَها فِي تَحْطِيمِ،
فَيُحْرِقُ الأَرْقَمَ.

وَيُتَمَرِّزُ بِهِ صُورُ ما لاقى مِنْ عَنَتِ إجماعيٍّ، وَهو ماضٍ فِي كِفاجِهِ لا يَحْفِلُ
ولا يَنْتَنِي ولا يَتَرَدَّدُ، مُعْتَقِداً الظَّفَرَ رُغْمَ الجُمُوعِ، والنَّجَاحَ رُغْمَ تَأَسُّبِ الباطِلِ
وسُورَتِهِ. وَكَذلكِ المَصْلُحِ الحَقِّ يَنْقَطِعُ الفِكْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَقَبَاتِ، ليقولَ كَلِمَتَهُ
وَيَسْمَعَ صَدَاها، ودائماً يَكُونُ مُزَلْزَلاً مُوعِداً.

وَيَبْدُو أَبُو طالِبٍ، مِنْ ورائِهِ، يَدْفَعُ عَنْهُ، وَيَشُدُّ أَرْزَهُ، وَيَحْمِي حِمَاهُ، فَيَشْمَلُهُ
رِضاً بِأنَّهُ أَدَّى رِسالَتَهُ وشَهِدَ نَجَاحَها فِي الخَلْقِ والإنْشاءِ.

وَيُتَمَرِّزُ بِهِ خَدِيجَةُ فِي هالَةِ الحُبِّ الرُّوْجِيِّ الأَقْدَسِ، وَفِي صُورَةٍ مِنْ مَقامِ المَراةِ
وأَثَرِها فِي حَرَكَاتِ البَغْتِ والاثْقالِ، فَيَغْرُوهُ حُزْنٌ صامِتٌ، وَتَقْدِيرٌ خَفِيٌّ، وإِكْبَارٌ
يُظْهَرُ أَثَرُهما فِي مَوْكِرِ المَراةِ مِنَ التَّشْرِيعِ الخالِدِ... وَتُزَوِّي تِلْكَ الصُّورُ وَتَثْبُتُ هَذِهِ
الحَقِيقَةُ:

نَجَاحُ الحَرَكَاتِ الخَلَّاقَةِ بِدَعائِمِ ثَلَاثٍ: رَجُلِ المَبادِي الَّذِي يَعمَلُ بِقِوَاهُ
المَعنَوِيَّةِ والفِكْرِيَّةِ مُجتمعةً، والمَراةِ الَّتِي تَعمَلُ بِرُوحِيَّتِها المُشِعَّةِ وَعَواطِفِها الواعِيَةِ،
وَرَجُلِ الدِّفاعِ الَّذِي يَعمَلُ بِكُلِّ وَسائِلِهِ بِإِخلاصٍ...

وَتَثْقِلُ بِهِ الدُّكْرَى ولا تَنْقَطِعُ، إِلى الهِجْرَةِ، فَيُتَمَرِّزُ بِهِ عَلِيٌّ وَتَضَحِيَّتُهُ الرَّهْبِيَّةُ
فِي التَّزَمُّلِ عَنْهُ، فَيَزِنُو فِي دَهْشَةٍ مُكْبِرَةٍ.

وَيُتَمَرِّزُ بِهِ غارُ أَبِي ثَوْرٍ، وصاحِبُهُ الباسِلُ أَبُو بَكْرٍ، والطَّرِيقُ المُرَوِّعُ، وَهما يَنْهَبَانِ
الأَرْضَ نَهْباً، فَيَشْعُرُ بِأَسَى، وَيَنْكَمِشُ عَلَى خَاطِرٍ أَنْ يَغْدُو صَانِعُ الحِجْدِ، طَرِيدَ المَهْدِ.
وَيُتَمَرِّزُ بِهِ يَثْرِبُ وَجُهودُهُ فِي تَثْبِيتِ العَقِيدَةِ وَاسْتِثْمَارِها فِي بِناءِ قَواعِدِ الدَّوْلَةِ

الجديدة، فيشغُر في آتِسَامَةِ عَرِيصَةِ هَادِثَةٍ.

وَتَمُرُّ بِهِ سِلْسِلَةُ الْمَعَارِكِ الَّتِي كَانَ أَهْمُّهَا بَذَرٌ، وَيَرَى الْجَمْعَيْنِ وَقَدْ تَصَافَا
لِلْقِتَالِ، وَيَرَى أُبْطَالَه عَلَى دَرَجَاتِهِمْ، وَيَرَى عَلَيَّاءَ، صَاعِقَتَهُ الْمُدْخَرَةَ، تَنْقُضُ فِي كُلِّ
مَجَالٍ، وَيَشْهَدُ النَّهَائَةَ الظَّافِرَةَ، فَيَهْزُهُ فِي مَظْهَرِهِ الْوَقُورِ سُرُورٌ بَعِيدُ الْغُورِ... وَتَزُورِي
تِلْكَ الصُّورُ أَيْضاً، وَتَثْبُتُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ:

إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ أَسَدَ مُحَمَّدٍ، وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّاسِيْسِ، وَلَمْ يَنْقُضْ يَدَهُ
مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ، فِي فَتَاهُ عَلِيٍّ، أَسَدَ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّشْيِيدِ
وَالْإِعْلَاءِ...

قَامَ النَّبِيُّ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَمْرِ أَرْضِي بِهِ ضَمِيرُهُ وَحُبُّهُ مَعاً، وَخَرَجَ وَهُوَ يَشْغُرُ
أَنَّهُ أَدَّى حَقًّا. وَمَرَّتْ بِهِ فَاطِمَةُ، وَهِيَ تَحْطُرُ لِبَعْضِ شَأْنِهَا، فَقَبَّلَهَا قُبْلَةً اجْتَمَعَ فِيهَا
شُعُورٌ جَدِيدٌ أَحْسَتْ مَغْنَاهُ غَايِضاً مُبْهِمًا، وَلَكِنَّهُ اسْتَنْبَتْ فِيهَا شَيْئاً لَمْ تَدْرِ كُنْهَهُ إِلَّا
أَنَّهُ مُبْهِجٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ.

لَمْ يَفْصِلِ النَّبِيُّ عَنْ حُجْرَاتِهِ بَعِيداً حِينَ أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ أُخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ
عَلَى فَاطِمَةَ تَزُورُهَا، فَأَيْسَتْ إِلَيْهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ لِقَاءَهَا بِلَهْفَةٍ وَصَبْرٍ نَافِدٍ...
وَالْمَرْأَةُ تَتَكَشَّفُ إِلَى الْمَرْأَةِ بِحَقِيقَتِهَا الْعَارِيَّةِ، وَتُظْهِرُ الْمَرْأَةَ إِلَى الْمَرْأَةِ بِكُلِّ ذَاتِيَّتِهَا،
وَلَيْسَتْ تُعْطِي الرَّجُلَ إِلَّا نِصْفَ مَغْنَاهَا، وَيَبْقَى النُّصْفُ الْآخَرُ مَجْهُولاً غَايِضاً
وَيَذْهَبُ فِي غُمُوضِهِ أَبَدًا. فَحِثُّ نَفْهِمِ الْمَرْأَةِ نِصْفَ فَهْمٍ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَشَّفُ لَنَا إِلَّا
نِصْفَ أَنْكِشَافٍ، وَلَا يُخْرِجُهَا مِنْ صَدَفَتِهَا لِلْعَرَاءِ إِلَّا الْحُبُّ، وَالْمَرْأَةُ، إِذَا تَفَتَّحَتْ
أُنُوثَتُهَا وَنَضَبَتْ، حَثَّتْ حَنِيناً مُبْهِمًا، فَإِنَّهَا تَجِدُ نِصْفَ مَغْنَاهَا فِي الرَّجُلِ، وَالنُّصْفَ
الْآخَرَ فِي الْوَلَدِ، وَهِيَ تُرِيدُ أَنْ تَحُلَّ لُغْزَهَا فَيَأْخُذُهَا هَذَا الْحَنِينُ.

أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ إِقْبَالَ مَنْ فَهِمَتْ شَيْئاً وَتُرِيدُ الْمَزِيدَ، وَقَالَتْ لَهَا: مَرَزْتُ بِالنَّبِيِّ،

وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة، وإن كانت لا تفارقه، حتى لقد خيل إلي أنه عزم على أمر فشاع سروره على مُحبياته البهي. ولا يتعد بي ظني أنك وقفت عليه، فقد أعلم أنه يشترخ فيك روح النبوة، وما هو بغير، فإنك ولدت له بعد مبعثه، وقد استحالت النبوة في معناه، وغدت له ذاتية، فأنت ذكرى من ذكريات الوحي الأولى.

استوت فاطمة، وقد تألفت في عينيها إشراقاً من خلاوة هذه الملاحظة، فقد كانت تغزو ما يلقاها به النبي من آخفاء واختفاء إلى مخض الحنان الأبوي، وألفت في آيسامة مفترية: إذا فأنا شيء منه كالوحي أو كالنبوة، وطيف سماوي في خيال أبي عندك يا ميمونة.

قالت ميمونة: وأنا وإيم الله، ما جلست إليك إلا شعرت بروحانية هذا الطيف المتألق وجماله، وشملتني سكينته لا أحدها إلا بما تنزك في نفسي من أطمئنان لأذ رغب. ولا تحسبني، من هذا الشعور، كما قيل: «تخيل ثم خال» بل هو واقع نفسي كالرأي على الظلم، أو كالأمل الندي.

قالت فاطمة: يسرني أنك تحببني هذا الحب، ولكن ما وجه الأمر الذي عزم عليه أبي، على ما انتهى إليه حدسك؟ فقد طاف بنفسي شيء كالذي طاف بنفسك، وأنه عراني إحساس غامض حين قبلني أبي في هذا الصباح قبله جديدة المغنى، وبث في قلبي، إلى جانب الحنان الذي عودني، شعور من يخشى فراقي، وكان في بهجته المشرقة نفسها التي لم تزل حين مررت به.

وكانت حجرات النبي تُشرف على المسجد فرأنا سبحاً لم تتبيناه جيداً، يدخل مشرعاً ويخرج سريعاً، فأشربت ميمونة تنظر، وأطلت من قريب، وعلمت أنه أبو بكر عرض عليه شيئاً فلم يتبسط إليه. ولم يغادر بعيداً ويتوارى حتى جاء عمر فساره بشيء لم تتبينه ميمونة أيضاً، فلم يتبسط إليه، وظهرت عليه حركة

إِعْرَاضٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. وَمَا جَاوَزَ الْمَسْجِدَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ فَتَلَقَّاهُ بِتَهَجُّتِهِ الَّتِي لَحَظْتُهَا عَلَيْهِ سَاعَةً أَبْصَرْتُهُ أَوَّلَ التَّهَارِ، فَسَارَّهُ طَوِيلًا وَالتَّبَيُّ يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ وَيَحْتَفِلُ بِهِ، فَقَامَ وَعَلَى نَغْرِهِ آتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ لَمْ يَجْتَهِدْ فِي إِخْفَائِهَا، وَأَمَّا تَرْكُهَا تَنْطَلِقُ إِلَى مُنْتَهَاهَا.

فَانْقَلَبْتُ إِلَى فَاطِمَةَ تَقُصُّ عَلَيْهَا مَا رَأَتْ، وَمَرَّ بِخَاطِرِهَا، وَقَدْ ضَمَّتْ قَدَمَيْهَا لِلْجُلُوسِ، شَيْءٌ أَطْمَأْنَأْتُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ مَا شَهِدْتُ وَغَمَمَعْتُ: لَعَلَّ... لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ.

وَعَرَضَ لَهَا مَا ثَبَّتَ هَذَا الْخَاطِرَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا: لَذَلِكَ... لَذَلِكَ لَمْ يُكَاشِفْهَا بِالْأَمْرِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ.

وَرَأَتْ مَيِّمُونَةً أَنَّهَا أُخْرِجَتْ حِينَمَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ وَقَفْتَ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى جِلْيَتَيْهِ أَوْ عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ. فَأَدَارَتْ الْحَدِيثَ بِلَبَاقَةٍ إِلَى وَجْهِ آخَرَ أَلْبَسَتْهُ شَكْلَ الْمَفَاجَأَةِ، لِتَكْسِبَ أَهْتِمَامَهَا بِمَا تُرِيدُ أَنْ تَصْرِفَهَا إِلَيْهِ.

فَقَالَتْ: نَسِيتُ شَيْئًا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ الْآنَ. فَبَدَأَ الْاهْتِمَامَ عَلَى وَجْهِ فَاطِمَةَ، وَأَصْعَقَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّلَهُّفِ وَالشُّوقِ إِلَى هَذَا النَّبِيِّ الْجَدِيدِ... فَوَاصَلَتْ تَقُولُ:

سَمِعْتُ النَّاسَ فِي طَرِيقِي هَذَا الصَّبَاحَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ حَبْرُ الْيَهُودِ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ وَكَاشَفَ بِهِ. وَكَانَ نَبَأٌ شَدِيدَ الْوَقْعِ عَلَى الْيَهُودِ حَتَّى لَقَدْ بَاتُوا يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ، آمْتِحَانًا لِحَوَاسِهِمُ الَّتِي بَدَّوْا يَشْكُونَ فِي سَلَامَتِهَا، فَإِنَّ آبَنَ سَلَامٍ رَمَزَ دِينِي مِنْ رُمُوزِ الْيَهُودِ، وَعَجِيبٌ أَنْ يَمِيلَ إِلَى دِينِ أَيْلِكَ. وَتَوَقَّعَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الصَّدَى الَّذِي أَخَذَتْهُ أَثَرُ كَبِيرٍ فِي الْإِضْعَافِ مِنْ سَلْبِيَّةٍ مَوْفَقِيهِمْ إِزَاءَ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمَا تَدَارَكَ الْيَهُودَ خَوْفٌ عَمِيقٌ مِنْ أَنْ يُفْضَخَ لِأَيْلِكَ سِرُّ الزَّوْجِيَّةِ الَّتِي يَجْتَهِدُونَ فِي جَعْلِهَا لُغْزًا. وَلَكِنْ بَرُّعِمٍ مَا أَخَذَتْهُ آغْتِنَافُهُ

الإسلام من صدئ عكسي غنيف، ووقع مُزَلِّل، لن يُؤثّر في سُلْبِيَّة اليهود إلّا أثراً ضئيلاً، علَّله آبنُ سلام بما في طبيعتهم من «البُهت».

كما أنّ القومية اليهودية وحدها قامت على الدين الموروث، والكنيس الرمزِي في هذا الشكل حسَب، وبعبارة أصحّ أنّ القومية اليهودية كنيس فقط، ولا شيء وراء هذا التقليد الديني. فهم لا يتمسكون بدينهم، رُغم الكوارث، بحكم صحتيه، بل بحكم أنّه قاعدة قومية تكفل وُحدَتهم، فاليهودي لا يرفض مبدأً لأنّه فاسد أو ليس بصحيح، بل لأنّه لا يتفق ومثله القومي الذي يجب أن يقبله بدون مناقشة. وهو قد يعتقد عدم صلاحيته كطب للزوجية البشرية، ولكنه يقبله على أي حال، لأنّه الضمانة الأكيدة لسلامة الوحدة اليهودية. فاليهودي لا يعمل عقله في مثله، بل لا يجب أن يعمل عقله، ما دامت هذه المثل تحفظ عليه وُحدته العامة التي تتصل ببقائه، فلو فرض واتسع اليهود كمجموع بشري يعيش أشتاتاً على الأمم لاتباع أي المبادئ التي تروق لهم لذابوا وغمرتهم اللجة. فمعتقدهم الديني الموروث حفظ وُحدتهم وبقائهم كأمة أو كقبيل من البشر يمتاز بخصائصه، وحفظ اتصال تاريخهم، وبذلك كان لهم غنصراً أولياً كالأرض بالنسبة إلى غيرهم من ذوي القوميات الوطيدة في الزمن.

قالت ميمونة: بهذا يُعلّل آبنُ سلام سُلْبِيَّة اليهود الصليبية، وليس إزاء الإسلام خاصة، بل إزاء كلّ المبادئ وكلّ الأديان، خذراً من تفشخ وُحدتهم وتبعثرهم في الأمم... قد يرى يهودي يروج لمبدأ وآخر يروج لمبدأ ثان، ولكنهما لم يؤمنا ألبتة بما يروجان له، وإنما يفعلان ذلك بما في طبيعتهم من غنصر القومية ومحبة إشاعتها في كلّ مُجتمع، ليتسنى لهم العمل والتجاح.

وبينا هي في حديثها دخل النبي فهبت إليه فاطمة، وتبعثها ميمونة، ووجدت إذ ذاك فوضة مكنتها من أذنيها، فأنطلقت قدماً وراء خاطر سنح لها عند

الخروج، بأن أنسأ، خادم النبي الذي لا يكاد يفارقه، عنده من خبر المسجد هذا الصباح شيء كثير. فقصدت إليه، وكانت أمه إحدى صوئجاتها، وما ظهرت في الباب حتى استقبلتها أم أنس بالخبر كبشرى فذة، وكان فيما روت لها عن ابنها: «أن أبا بكر أقبل إلى النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وأني... وأني...»

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه... فرجع أبو بكر إلى عمر، وهو يقول: هلك.

قال عمر: وما ذاك؟

قال: خطبت فاطمة إلى النبي فأعرض عني.

قال: مكانك حتى آتية فأطلب مثل الذي طلبت.

فأتى عمر النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني... وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه...

فرجع إلى أبي بكر، فقال: إنه ينتظر أمر الله بها... فم بنا إلى علي نستحيه أن يطلب مثل الذي طلبنا.

فأتياه وهو يعلج فسيلاً له، فقالا: إنا جئناك من عند ابن عمك بخطبة... فقام يجر رداءه حتى أتى النبي فقعد بين يديه.

فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني...

وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ... فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ، وقال: فما عندك؟

قال: فَرَسِي وَبَرَّتِي.

قال: أَمَا فَرَسُكَ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا، وَأَمَا بَرَّتُكَ فَيَعْنِيهَا.

فغادرَ وَباعَهَا بِأَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ، وَجَاءَ بِهَا حَتَّى وَضَعَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ، فَقَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً.

فَقَالَ: أَيُّ يَلَالٍ، آتَيْنَا بِهَا طَيِّبًا^(٢).

شَاعَ الْخَبْرُ فِي الْمَدِينَةِ سَرِيعاً كَمَا يَشِيْعُ الْأَرِيحُ الْعَائِقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ النَّسَمِ
التَّيْدِيِّ، فَكَانَتْ مَيِّمُونَةٌ لَا تَمُوتُ بِمَحَلَّةٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَتَرَى الْمَرْأَةَ تَمِيلُ إِلَى الْمَرْأَةِ،
وَتَقُولُ لَهَا فِي بَشِيرٍ ظَاهِرٍ:

أَمَا بَلَّغَكِ النَّبَأُ؟ عَلَيَّ خَطَبُ فَاطِمَةَ، وَبَارَكَ النَّبِيُّ الْعَقْدَ، وَإِنَّهُ لَيَنْعَمُ الْحَدَثُ.
لَيْسَ لِهَذِهِ السَّيِّدَةِ الْمُصْطَفَاةِ إِلَّا هَذَا السَّيِّدُ الْمُصْطَفَى. وَهِيَ رَبِيبَةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ،
وَهُوَ رَبِيبُ الْوَحْيِ وَبَطْلُ الرِّسَالَةِ.

وَفِي آسْتِدَارَتِهَا صَوَّبَ مَنَزِلُهَا سَمِعَتْ رَجُلًا يَسْمُرُ إِلَى آخَرٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ
الْحَيِّ وَيَقُولُ:

إِنَّ النَّبِيَّ لَمْ يُزَوِّجْ عَلِيًّا، وَإِنَّمَا كَرَّمَ الْبُطُولَةَ الْخَالِدَةَ الْمُظَفَّرَةَ فِي شَخْصِ الْبَطْلِ
الْخَالِدِ الْمُظَفَّرِ، وَإِنَّ مِنْ حَقِّ الْبُطُولَةِ تَكْرِيمَهَا، وَمَا فَاتَ النَّبِيَّ أَنْ يُكْرِمَ الْبُطُولَةَ بِأَعَزِّ مَا
عِنْدَهُ وَأَقْرَبِ مَا هُوَ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِنَّ فَاطِمَةَ قَلْبُ النَّبِيِّ مُصَوَّرًا فِي إِنْسَانٍ مَلَائِكِيٍّ أَوْ
مَلَائِكِ إِنْسَانِيٍّ. وَلَيْسَ فِي هَذَا مَعْنَاهُ بَلْ مَعْنَى التَّكْرِيمِ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا، فِي حَقِيقَتِهِ،

(٢) راجع كتاب: الرياض التَّضَرُّة فِي مَنَاقِبِ الْعَشْرَةِ الْمُحِبِّ الطَّيِّرِي، ج ٢، ص ١٨٠ إِلَى ١٨٤.

رسالة ودعوة وهو المبتدأ، وإنّ عليّاً، في حقيقته، إيمان وإجابة وهو الخير، ولا شكّ في أنّ فاطمة رابطة الإسناد.

وما فات ميمونة أنّ تسمع ما ردّ به الآخر، وكان من المهاجرين الأولين، كما تقول: وأيضاً لقد كرّم النبي بهذا القرآن بطولة أخرى هائلة في أبديتها المشرفة الواعية، إنّ كرم أبا طالب التصير البرّ والمجاهد الأول.

قال الأنصاري: فهذا القرآن إذا تكرر مزدوج ضاعف مغناه، وأخذ بهذا اليوم يوم تكريم البطولات، إنّهُ ليشخّفني بمعناه الكبير... رنت ميمونة في الظلام وأحدث بصرها كمن رأى شبحاً، فإذا شخص يُقبل عليهما، وإذا تبناهُ هتفا جميعاً: أهلاً بك سلمان.

وكان سمع بعض الحديث، ووقف منذ حين على الخير، فقال:

إنّه جدير أن يستخفك يا هذا، إنّهُ تكريم لأشبه بما كنّا نصنع، نحن الفرس، في جاهليتنا، من إقامة تمثال جامد تخلد للبطل. فإنّ محمداً منح تمثالاً حياً أسمى، تخلداً للبطولة الحق، فكل ما في عمل الفرس وغيرهم أنّه تخلد بمقدار ما في الحجر من القوة على البقاء، ولكنّ الفناء في طبيعته. وهذا تخلد بمقدار ما في الروح من القوة على البقاء، ولكنّ الأبدية في طبيعتها... وأغرق ثلاثهم في تأمل صامت طال عليهم، وجعل ميمونة لا تنتظر وتلج المنزل.

أخذها الليل بنوم هاديء تخللته أحلام بهيجة استيقظت منه على لذتها، فحقت إلى حجرات النبي بقدّم شاعرة تحث قصيد غير شاعر، وكانت فاطمة تتخيّلها أيضاً وتنتظر منها شيئاً. فإنّ أباهما الليلة أخذ بها في أحاديث شتى كما تشاء الأبوّة، ولكنها لم تُفصح لها عن شيء يضحّ حدّاً لتساؤلها، بيد أنّها تريد أن تعلم، ومن لها غير ميمونة؟

بَدَرَتْهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ أَتَيْتَنِي الْيَوْمَ بِخَيْرِ إِسْلَامٍ كَفِبِ الْأَشْرَافِ وَفُلَانٍ
وَفُلَانٍ؟ فَأَبْتَسَمَتْ مَيْمُونَةُ، وَأَذْرَكَتْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمَ مَا كَانَ بِالْأَمْسِ.

فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ لَا يَهْمُكَ كَثِيرًا إِسْلَامُ هَؤُلَاءِ...

قَالَتْ: بَلَى، يَهْمُنِي وَلَكِنِّي لَحَظْتُ بِالْأَمْسِ أَنَّكَ جِذْتُ عَنْ حَدِيثٍ
بِحَدِيثٍ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِأَنْ عَمَّكَ عَلِيٌّ... وَأَفَاضَتْ فِي إِطْرَائِهِ مِثْلَ
مُعْجَبَةٍ أَتَّصَلَ بِهَا إِعْجَابٌ وَحُبٌّ.

قَالَتْ فَاطِمَةُ، وَقَدْ شَعَرَتْ أَنَّهَا تَحِيدُ أَيْضًا: وَمَا أَنَا مِنْ هَذَا الْآنَ؟

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: أَوَلَسْتَ تُحِبُّنَهُ وَتُعْجِبِينَ بِهِ؟ وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ، الْيَوْمَ، إِلَّا وَهُوَ
يُحِبُّهُ وَيُعْجِبُ بِهِ، ثُمَّ لَا يَمْلُكُ الْحَدِيثُ عَنْهُ؟

قَالَتْ فَاطِمَةُ: بَلَى، إِنِّي لِأُحِبُّهُ بِحُبِّ أَبِي لَهُ وَأُعْجِبُ... فَقَاطَعَتْهَا مَيْمُونَةُ:
وَأَنْتِ سَوْفَ تُحِبُّنَهُ بِحُبِّ قَلْبِكَ وَحُبِّ أَهْنَائِكَ أَيْضًا.

جَمَدَتْ فَاطِمَةُ سَاعَةً، وَصَبَّغَهَا لَوْنٌ قَدْ يَكُونُ أَزْهَرَ، وَقَدْ يَكُونُ نَاطِقًا، ثُمَّ
قَالَتْ بَعْدَ لَأَيٍّ: حَسْبُكَ، لَقَدْ فَهِمْتُ الْآنَ، فَهِمْتُ كُلَّ شَيْءٍ. إِنَّهُ يُحِبُّهُ، وَيُحِبُّهُ إِلَى
حَدِّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ... وَضَعَطَتْ عَلَى كَلَامِهَا وَأَخَذَتْهَا إِطْرَافَةُ مُفَكَّرَةٍ لَمْ تُحَاوِلْهَا مَيْمُونَةُ
صَرَفًا عَنْهَا، وَرَأَتْ حَسَنًا أَنْ تَنْصَرِفَ وَتَتْرُكَهَا إِلَى خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ جَوَارِيهَا أَذْنَاهَا التَّبَيُّ إِلَيْهِ، وَأَعْلَمَهَا فِي أَحَادِيثَ بَيْنَ الْحَنَانِ
وَالْإِشْفَاقِ، فَمَرَّتْ فَاطِمَةُ فِي سُبَابِ وَاجِمٍ، وَكَانَ طَوِيلًا غَالِبَتْ فِيهِ عَوَاطِفُهَا مُغَالِبَةً
شَاقَّةً، وَقَالَتْ فِي جُهِدٍ مِنْ مَشَاعِرِهَا:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! زَوَّجْتَنِي بَرَجُلٍ فَقِيرٍ لَا شَيْءَ لَهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ: أَمَّا تَرْضَيْنَ يَا فَاطِمَةُ أَنْ اللَّهُ اخْتَارَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَجُلَيْنِ، جَعَلَ أَحَدَهُمَا أَبَاكَ، وَالْآخَرَ بَعْلَكَ»^(٣).

وَكَانَ لِكَلِمَةِ النَّبِيِّ فِي أُذُنِ فَاطِمَةَ مَعْنَى كَمَا تَحْمِلُ الْأَلْفَاظُ، وَفِي قَلْبِهَا مَعْنَى آخَرُ هَذِهِ الْأَفَاظَةُ: إِنَّ الْغِنَى لَيْسَ شَيْئاً فِي الْمَالِ، وَهُوَ أَصْطِلَاحٌ زَائِفٌ اخْتَرَعَهُ مَكْرُ الشَّهَوَاتِ فِي عَقْلِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَذْخُولِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي الَّذِي هُوَ نَامُوسٌ خَالِدٌ يَدُورُ عَلَيْهِ التَّفَاضُلُ فِي ظِلِّ الْوُجُودِ. فَالزَّهْرَةُ تَكُونُ أَبْهَى وَأَحَبَّ وَأَغْنَى بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعْنَى الزَّهْرِيِّ، الَّذِي هُوَ الْجَمَالُ وَالْعَبِيرُ، وَلَيْسَ بِمَا يَتَلَقَّى عَلَيْهَا وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مَعْنَاهَا. وَالضُّوءُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الضُّوئِيِّ كَذَلِكَ، وَالْأَسَدُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْأَسَدِيِّ، وَهَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ غِنَاهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَاهُ... فَالْغِنَى ذَاتِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَالْمَالُ نِسْبِيَّةٌ مُضْمَحَلَّةٌ، وَلَا تَكُونُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَكُنِ الشَّهَوَاتُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا تَجِدُ قِيَمَتَهَا إِلَّا فِي مَدَى مَسَافِ الْغَرَائِزِ وَمَسَاقِطِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَسْتَكْمِلُ مَعْنَاهَا بِإِنْسَانِيَّةِ الرَّجُلِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهِ وَمَا يَزِينُ هَذِهِ الْبَهِيمِيَّةَ وَيُكْمِلُهَا، كَمَا يَسْتَكْمِلُ الرَّجُلُ مَعْنَاهُ بِإِنْسَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهَا وَمَا يُكْمِلُهَا. وَالْمَالُ مُكْمِلٌ لِلْبَهِيمِيَّةِ الطَّائِشَةِ، وَلَيْسَ شَيْئاً وَرَاءَهَا أَوْ بَعِيداً عَنْهَا. وَلَنْ تَشْعُرَ الْمَرْأَةُ بِذَاتِيَّتِهَا، وَتَعْتَدَّ بِكِبَرِيَاءِ مَعْنَاهَا، إِذَا كَانَ الْمَالُ شَارِياً وَالرُّجُولَةُ، مِنْ وَرَائِهِ، كَسَيْفَةٍ خَائِبَةٍ وَبَازِرَةٍ مُتَوَارِيَةٍ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهَا إِحْسَاسٌ غَمِيقٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَضُمَّ بِهِ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بَلْ حَيَوَانِيَّةٌ مَبْدُولَةٌ وَجَدَتْ ضَعْفَهَا إِلَى حَيَوَانِيَّةٍ بَادِلَةٍ وَجَدَتْ قُوَّتَهَا، فَتَذْهَبُ تِلْكَ ذَاوِيَّةٌ وَيَأْخُذُهَا تَلَاشٌ سَرِيعٌ، وَتَذْهَبُ هَذِهِ مُتَتَفِّحَةً وَيَأْخُذُهَا جَبَرُوتٌ سَرِيعٌ، وَيُنْتَهِي الْمَالُ وَقَدْ عَمِلَ بِأَنْ أَلْصَقَ عَبْدًا بِرَبِّ، وَلَمْ يَضُمَّ إِنْسَانِيَّةً إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ تَجِدَانِ وَخَدَتَهُمَا، بَلْ تَبَايَنٌ عَلَى مِثْلِ الطَّيْرِ فِي مِخْلَبِ الطَّيْرِ تَكُونُ الدَّعَابَةُ مِنْهُ نَهْسَةً يُشْعِرُهُ فِيهَا بَهْوَانِيَّةً، وَإِنَّهُ فِي مَكَانِ النَّهَايَةِ مِنْ قِمَمِهِ؛ وَتَكُونُ نِهَايَةُ زَوَاجِ الْمَالِ آسْتِرَاقاً أَوْ

(٣) راجع كتاب: الرياض النضرة في مناقب العشرة للمُجِيبِ الطُّبْرِي، ج ٢، ص ١٨٢.

أفتراساً في شعور القلب، وتكون في شعور المجتمع اختلالاً في توازن الأسرة يُصيبها بالفساد، ويتجاوز أثره إلى توازن الجماعة فتختل وتضطرب. وفي كلمتي: زواج وقران رايحة هذا المعنى، بيد أن الأولى قصيد فيها إلى الروح وأحاسيسها، والثانية قصيد فيها إلى الواقع الاجتماعي وأزساماته. فزواج المال ليس فيه مغناه، وإنما فيه معنى العقد الذي هو آخيتال بقانون.

والأثنى إذا لم تُنر فضاء الرجل النفسي فما تريد عن أنها جسد فقط. والرجل إذا لم يُنر فضاء المرأة النفسية فما تريد عن أنه جسد فقط، والزواج في جس الروح فضيلة تكميل فضيلة، ونور يمدّه نور.

وكان معنى اختيار علي إلى جنب النبي جمع كل الإنسانية فيه، وجاء معه علامة على أن الإنسانية بكل ما ثبت فيها، لن تنحرف عن النبوة الجديدة بكل ما ثبت فيها. فكانت فاطمة منهما بين مصدر إشراق الثور ومجلى انعكاسه، وموجات الشعاع تمر متألقة في جو نفسها المتسامية أبداً.

ومر في نجوى قلبها: إن أبي يقول في تعبير آخر، ظهرت حقيقة الخلق في عالم الإبداع الإلهي بمظهرين: مظهر النبي الكامل، ومظهر الإنسان الكامل، وحبيب إلى نفسي أن يكون حظي هذا الإنسان.

«وأمر النبي أن يُجهزوا فاطمة فحمل لها سريراً مشروطاً بالشروط، وقال لعلي: إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك... فجاءت مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلي في جانب، وجاء رسول الله، فقال:

- ههنا أخي؟

قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته أبنتك!

قال: نعم...

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْبَيْتَ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَقَالَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَدَعَا
فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ خَرِقَةً مِنَ الْحَيَاءِ تَغْتُرُ فِي مِرْطِهَا، فَتَضَخَّ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا:
- إِنِّي لَمْ آلْ أَنْ أَتُكَيِّحَكَ أَحَبَّ أَهْلِي إِلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ...

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ سَوَاداً وَرَاءَ الْبَابِ، فَقَالَ:

- مَنْ هَذَا؟

قَالَتْ: مَيْمُونَةُ.

قَالَ: مَيْمُونَةُ أُنَحْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَعَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ جِئْتِ كَرَامَةً؟

قَالَتْ: إِي وَائِمُ اللَّهِ... فَدَعَا لِي دُعَاءً أَنَّهُ لَا وَثِقُ عَمَلِي، ثُمَّ خَرَجَ فَمَا زَالَ
يَدْعُو لَهَا حَتَّى ضَمَّهُ مَنْرُلَهُ^(٤).

*

يَظَلُّ الزَّمَانُ حَقِيقَةً مَوْهُومَةً، لَوْلَا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تُورِّثُهَا...

وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ بَعْضُ هِبَاتِهَا...

فِيَوْمِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَخْلَدُ مِنَ التَّارِيخِ!...

أَثْبَتَتِ الثَّبُوءُ مَغْنَاهَا الْخَالِدَ فِي رُوحِيَّةِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

وَأَثْبَتَتِ الثَّبُوءُ ذَاتِيَّتَهَا الْخَالِدَةَ فِي دَمِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

(٤) راجع كتاب: الرياض التضرعة، في مناقب العشرة للمحب الطبري، ج ٢، ص ١٨١ و ١٨٢.

فيومُ عليّ وفاطمة، بداءةُ حياةِ النبوةِ الخالدةِ في الدماءِ!...

*

كانتِ النبوةُ ستظلُّ ذكرى فقط...

ولكن شاءَ الله أن تكونَ حياةً أيضاً...

فيومُ عليّ وفاطمة، إنقاءُ حياةِ النبوةِ على الدهور!...

*

تَضَعُ الحَقِيقَةُ الكُبْرَى خِصَائِصَ مَغْنَاهَا فِي النَّوَاةِ، لِأَنَّهَا تُرِيدُ البَقَاءَ...

وَالنَّوَاةُ لَا تَخْتَلِفُ فِي خِصَائِصِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ لِنَامُوسِ الْوِرَاثَةِ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَخْتَلِفَ...

فيومُ عليّ وفاطمة، يَوْمُ بُرُوزِ النَّوَاةِ عَنْ مِثْلِ خِصَائِصِهَا فِي شَكْلِ آخَرٍ!...

*

تَذْهَبُ النَّوَاةُ الَّتِي هِيَ مَخْزُونُ الْخِصَائِصِ، تُبْنِي دَوْرَتَهَا وَتُعْطِي أَشْيَاءَهَا...

وَالنَّبُوَّةُ فِكْرَةُ السَّمَاءِ الْمُصْلِحَةِ فِي مُحِيطِ الْبَشَرِ...

فيومُ عليّ وفاطمة، طَبْعُ لِعَقْلِيَّةِ النَّبُوَّةِ فِي عَقْلِ النَّاسِ!...

*

اجْتَمَعَتْ فِي عَلِيِّ قَابِلِيَّاتٌ لَا حَدَّ لَهَا...

وَاجْتَمَعَتْ فِي فَاطِمَةَ إِشْرَاقَاتٌ لَا حَدَّ لَهَا...

فيومُ عليّ وفاطمة، يَوْمُ نَظَرِ النَّبُوَّةِ إِلَى نَفْسِهَا فِي الْمِرْآةِ!...

* * *

يوم الإيمان الشامخ(*)

جَمَدَتْ في مآقي النَّاسِ دَمْعَةٌ حَزَى لَمْ يَكُنِ الحُزْنَ كُلَّ مَغْنَاهَا، كَمَا لَمْ
تَحُلْ مِنْ بَعْضِ مَغْنَاهُ، فَقَدْ آتَصَلَتْ بِكُلِّ قَلْبٍ أَسْبَابُ حُزْنٍ مَرِيرٍ، حِينَ آسْتَفَاقَ
النَّاسُ بَعْدَ أُحُدٍ^(١) عَلَى مَشْهَدِ البَطُولَةِ الكَلِيمَةِ الجَرِيحَةِ.

وَجَرَّاحِ البَطُولَةِ لَا تَقْدِفُ فِي الثُّغُوسِ ضَعْفَ الأَلَمِ بَلْ كِبَرِيَاءَهُ، وَلَا تَلْفُهَا
بِذَلَّةِ التَّجَرُّبَةِ وَلَكِنْ بَتَّجِدِيدِهَا فِي عَزِيمَةِ تَضَاعَفَتْ حَقِيقَتُهَا، وَتَمَدَّدَتْ فِي كُلِّ أَشْيَاءِ
الحَيَسِ. فَإِنَّ الأَلَمَ، مَعَ الإِيمَانِ، طُهورٌ لِذَاتِيَّةِ الوجودِ بِقُوَّتِهَا، كَمَا يَكُونُ الأَلَمُ، مَعَ
الجُحُودِ، طُهوراً لِذَاتِيَّةِ العَدَمِ بِتَلَاشِيهَا.

وإِنَّ الأَلَمَ فِي غَايَتِهِ تَحَدُّ، وَتَحَدِّي القُوَّةِ مُبَالَعَةُ القُوَّةِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهَا
وَمَغْنَاهَا، وَتَحَدِّي الضَّعْفِ مُبَالَعَةُ الضَّعْفِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ وَمَغْنَاهُ.
وَتَرَاوُ القُوَّةُ إِذَا أُصِيبَتْ زَيْتِيرُ القُنْبُلَةِ إِذَا أَنْفَجَرَتْ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّ فِي بَعْضِ

(٥) أُلْقِيَ هَذَا الْفَضْلُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةِ ١٩٤٢ فِي قَاعَةِ الوَسْتِ هَوْلٍ بِمُنَاسَبَةِ حَفْلِ المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ، وَكَانَ مُقْصُوراً
عَلَيَّ وَعَلَى الذَّكُورِ عُمَرُ الدَّسُوقِيِّ الَّذِي أُلْقَى قَصِيدَةً، وَكَانَ عَرِيفَ الحَفْلِ الذَّكُورِ جَمِيلَ عِرْدَانِي أُسْتَاذَ
الطَّبِّ فِي الجَامِعَةِ الأَمِيرِكِيَّةِ.

(١) جَبَلٌ فِي الحِجَازِ قُرْبَ المَدِينَةِ، كَانَتْ فِيهِ مَغْرَكَةٌ شَهِيرَةٌ بَيْنَ النُّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ وَشُرَّهَا
لِلْمُشْرِكِينَ كَمَغْرَكَةِ نَارِيَّةٍ يَمُتَّعُكَ بِذُرِّ الكُبْرَى، وَوَقَعَتْ الوَاقِعَةُ فِي صُغُوفِ أَتْبَاعِ النُّبِيِّ لِأَنَّهُمْ تَرَكَوا المَوَاقِعَ
الْمُسْتَرْتِجَةَ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمُ النُّبِيُّ قَبْلَ نِهَايَةِ المَغْرَكَةِ، حِينَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الطُّغْرَى أَوَّلًا فِي جَانِبِهِمْ، كَمَا هُوَ
مَنْزُورٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ.

الكسر ما هو انطلاق لأعمق القوَّات الكامنة. وتُوعَدُ لإزعاد الأسد إذا خائنه الموقِفُ، وهو يُعبَّرُ عن أنه الأسد بطبيعته المخزونة التي شاء الموقِفُ أن يُطْلِقَها به. وتلك القوَّات وهذه الطبيعة لا تنطلقان إلا بكسر أو جرح، وهما تُحسنان به إحساس المادة الملتهية بالتار، لا تميلُ بها إلى ضُморِ العدم بل إلى كِبَرِياءِ الوجود، ثم لا تدفعُها إلى استسلام كسيف، وضُمويت طامس، بل إلى اعتياد زهيب ورْدٍ مضم، ويكون الكسر، أو الجرح، قد أضاف إلى معناها معنىً جديداً، أو سمح لكل طبائيعها بالظهور.

وكذلك يكون شعور القوي بالألم إغراء لقوته على أن تنطلق وتنقُصَ ظامئة، كما يكون شعور الضعيف بالألم إغراء لضعفه على أن يترز ويبدو في انعس أشكال العبوديات الدليَّة^(٢) مهانة وخوراً.

والإيمان قوة تصنع البطولات المشتهية. ويوم أحد يوم أُصيبَت البطولة فيه، فكان آئنداء إحساسها بالألم آئنداء شموخها الذاهب في السماء والمتحدب مع الآفاق... والدِّماء الصبيبة لا تُلهم الأبطال روعة الدِّمِ الزاهية بل رجفة الدِّمِ النابضة، ولا تثر بهم إلا وقد استحالوا قوى مُزعدة مُنقضة في مسافات أشواطها، لا يحول دونها إلا ما قدير له أن لا يكون.

والألم للإيمان كالحركة للحياة، يُمريان الحرارة فيهما، وكما تذهب الحياة بدون الحركة في ضُموير، يحور الإيمان بدون الألم في تلاش، ويُأخذُه هُمودٌ سحيق. والإيمان قوة، ولكن سرعان ما تتقلل حرارته في أعماق النفس، إذا لم يُركِّزها الألم ويُقرِّبها من عمليَّة الحياة.

وإن حركات التاريخ، برُميته، تقع بين جواذب الألم ودوافعه، بل تُخطئ

(٢) العبوديات الدليَّة هي عبوديَّة الإنسان للإنسان على أشكالها. وأما العبوديَّة لله التي جاءت بها الأديان فإنها تحريرٌ لنفس الإنسان من سَتَى العبوديات، وإشعارها بكبرياء الذات.

الشَّوْءَ لِلْكُلِّ الاجْتِمَاعِيِّ تَنْتَظِمُ بَيْنَ هَذَا الدَّفْعِ وَهَذَا الْجَذْبِ، وَكَانَتْ أَكْبَرُ الْحَرَكَاتِ لَا تَزِيدُ، فِي جَوْهَرِهَا، عَنْ أَنَّهَا إِيمَانٌ بِفِكْرَةٍ وَأَلَمٌ فِي الْإِيمَانِ، وَأَبْدَأُ لَا يَشْتَدُّ الْإِيمَانُ وَيَخْطُو صُعْدًا إِلَّا إِذَا قَدَحَ الْأَلَمُ زِنَادَهُ، وَطَايَرَ بِالْشَّرِّ. وَفِي مُحِيطِ الْمَادَّةِ، فِي مُحِيطِ الرُّوحِ، نَفْسُ التَّامُوسِ، فَإِنَّ الْجِسْمَ الْمَادِّيَّ الضَّعِيفَ يَلِينُ عَلَى الْأَلَمِ، بَيْنَمَا الْجِسْمُ الْقَوِيُّ يَشْتَدُّ وَيَهْيِجُ حَتَّى يَمْلَأَ الْفَضَاءَ، مُشِيرًا إِلَى قُوَّتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَهْنُ.

فَإِذَا كَانَ فِي يَوْمٍ بَذَرِ بَعْضِ الظَّفَرِ، فِي يَوْمٍ أُحْدِ كُلُّ الظَّفَرِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ أَحْسَنَ بِقُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ، وَبَدَأُ يَخْطُو فِي ذَاتِيَّةٍ وَأَعْتِدَادٍ.

إِنْدَقَعَ النَّاسُ إِلَى النَّاسِ «يُهَيِّئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» بَأَنَّهُمْ، وَإِنْ خَسِرُوا الْمَعْرَكَةَ، فَقَدْ رَبَحُوا الْإِيمَانَ بِالْمُبَادَىءِ، وَرَبَحُوا الْعَقِيدَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ سَلَامَتُهَا، وَأَنَّهَا رِبَاطٌ تَسَى لَهُ أَنْ يَجْمَعَ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ وَيَزْجُ نَفْسًا بِنَفْسٍ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَفَلَّلَ عَلَى الضَّغْطِ، مَهْمَا كَانَ عُقُوبَتُهُ، وَمَهْمَا جَاءَ مِنْهُ.

ظَهَرَ أَنَّهُمْ لَا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الْأَرْضِ بِمَا أَكْتَظَّتْ بِهِ مِنْ أَهْوَاءٍ، وَآخَتَفَلَّتْ بِهِ مِنْ مَطَامِعٍ، وَأَمَّا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ رَغَبَاتِ السَّمَاءِ، وَرَغْبَةُ السَّمَاءِ فِي تَطْهِيرِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَرْجَاسٍ تَمُورُ مَوْرَانًا، وَتَسُوقُ الْجُمُوعَ الْإِنْسَانِيَّةَ بَغْنَفٍ وَقَشِرٍ إِلَى حَيْثُ لَا تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهَا، وَتُخَسِّرُ مَعْنَاهَا... وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ تَجْرِبَةً سَعِيدَةً لِأَخْتِيَارِ بِنَايَةِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدَةِ فِي أَعْمَاقِ النَّفُوسِ، فَقَدْ ثَبَّتَتْ عَلَى الْعَاصِفَةِ الَّتِي تَمَزَّقَتْ رِيَاخُهَا عَلَى صَخَرَاتِ الْإِيمَانِ الشَّامِخِ.

مَا الشَّهَوَاتُ النَّهْمَةُ؟

مَا اللَّذَائِدُ الدُّنْيَا؟

مَا الْبَلَهِيَّةُ وَالزَّرْفُ؟

إنَّهَا لَا شَيْءَ فِي مَذْهَبِ رَغَبَاتِهِمُ الْكَبِيرَةِ، إِنَّهَا لَا تَمُتُ بِأَفْعِدَّتِهِمُ الَّتِي بَلَّوْهَا السُّمُومُ بِمَغْنَاهُ الْقُدْسِيِّ، وَحَاطَهَا حَتَّى لَا تَهْوِي مُسِيقَةً، وَتَوْتِطِمَ بِالْأَوْحَالِ، إِنَّهَا أَوْحَالٌ مِنْ سَفْسَافِ الْأَرْضِ، فَهَمُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بِتَقَرُّزٍ وَاسْتِغْلَاءٍ.

هَمُ فِكْرَةٌ مِنَ التَّطْهِيرِ، وَفِكْرَةٌ مِنَ الْإِصْلَاحِ وَالْعُمُرَانِ، وَصَيَّرَهُمُ الْجِهَادُ فِكْرَةً مِنَ التَّنْظِيمِ، فَكَانُوا مُعَلِّمِينَ أَطْلَقَهُمُ الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ لِيَحْلُوا فِي عَقْلِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْمُومِ، كَمَا يَحُلُّ الْإِنْكْسِيرُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي مَعْنَى الدَّوَاءِ أَبَدِيَّةَ النَّشَاطِ، وَخُلُودَ الْحَرَارَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالْحَيَاةِ.

لَمْ يَكُنْ فَسَادُ الْمُجْتَمَعِ بِمَعْنَى ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ بِفِكْرَةِ أَهْوَائِهِ الَّتِي نَفَذَتْ إِلَى مَحَلِّ الضَّمَائِرِ وَتَمَدَّدَتْ، فَوَقَفَ الْفَرْدُ لِلْفَرْدِ، وَالْجَمَاعَةُ لِلْجَمَاعَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ تَمَلَّوْا بِضَرَاوَةِ وَخَشِيَّةٍ كَالْحَيَّةِ، وَذَهَبَ كُلُّ حَيٍّ يُكَافِئُ التِّيَّارَ، وَالْمُجْتَمَعُ يَطْفُو وَيَرْسُبُ فِي فَوْضَى اللَّجَّةِ الْعَاتِيَةِ النَّكْرَاءِ.

لَوْ تَأَتَّى لِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ الظَّفَرُ دَائِمًا لَتَحَوَّلَ الْإِيمَانُ، بِدُونِ شُعُورٍ، إِلَى فِكْرَةٍ مَادِّيَّةٍ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ، وَتَبَخَّرَ عَلَيْهِمْ مَغْنَاهُ، وَلَكِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ جِهَادُهُمْ جِهَادَ إِيمَانٍ فَقَطْ، فَكَانَ فِي ظَفَرِهِمْ وَإِخْفَاقِهِمْ ظَفَرٌ لِفِكْرَةِ الْإِصْلَاحِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا، ذَاكَ فِي التَّفَوُّقِ وَحَيِّزُهُ الْوَاقِعُ، وَهَذَا فِي التَّرْكِيزِ وَحَيِّزُهُ النَّفْسُ.

وَقَدْ أَظْهَرُوا أَنَّهِمْ مُؤْمِنُونَ فَقَطْ، اسْتَهْوَتْهُمْ الْفِكْرَةُ وَأَخَذَتْ عَلَيْهِمْ أَحَاسِيسُهُمْ، وَتَفَجَّرَتْ فِي خَلَايَا نُفُوسِهِمْ يَنَابِيعٌ، فَهَمُ لَا يَنْدَفِعُونَ بِدَافِعٍ مِنْ شَهْوَةِ النَّاسِ فِي لَذَّةِ الْحَيَاةِ، بَلْ بِدَافِعٍ مِنْ تَطَلُّعِ الْعَقْلِ وَشُعُورِ الْقَلْبِ فِي لَذَّةِ الْإِيمَانِ. وَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يُلْقِنَهُمْ دَرْسًا بِالْعَا فِي أَنَّ الْإِيمَانَ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُ إِلَّا فِي الْأَلَمِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ فِي مَظْهَرِ الْعَضَارَةِ الرَّخِيَّةِ إِيمَانٌ بَلِيدٌ مُنْحَلٌّ، أَوْ لَيْسَ شَيْئًا خَالِدًا فِي شُعُورِ النَّفْسِ.

«أَذَنْ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ، غَدَاةٌ مُنْصَرِفُهُ مِنْ أَحَدٍ، بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ،
وَأَنْ لَا يَخْرُجَ إِلَّا مِنْ حَضَرٍ مَعْرُكَةِ الْأَمْسِ، وَأَتْبَاعُهُ مُتَخَنُونَ بِالْجِرَاحِ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ لِأَخِيهِ: أَتَفَوْتُنَا عَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ؟...
وَوَاللَّهِ مَا لَنَا دَابَّةٌ نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ. فَخَرَجْنَا وَكُنْتُ أَيْسَرَ لَجُوحاً مِنْهُ،
فكَانَ إِذَا غُلِبَ حَمَلَتْهُ عُقْبَةٌ وَمَشَى عُقْبَةً، حَتَّى آتَيْنَاهَا إِلَى مَا آتَتْهُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.
وَكَانَ النَّبِيُّ قَدْ آتَنَاهَا إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ، وَأَقَامَ
بِهَا الْإِثْنَيْنِ، وَالثَّلَاثَاءَ وَالْأَرْبَعَاءَ»^(٣).

كَانَ رَجْعُ الْأَلَمِ فِي الْإِيمَانِ هَبَّةً لَا تَعْرِفُ الْوَنَى، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْفُتُورِ
وَالِاسْتِخْدَاءِ، إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ أَشَدَّ مَضَاءً وَأَكْثَرَ أَنْدِفَاعاً، فَقَدْ أَحْسَسَتْ الْقُوَّةُ
بِاعْتِدَادِيَّيْهَا، وَغَمَزَتْهَا مَوْجَةُ الْكِبَرِيَاءِ لِأَنَّهُمْ تَحَدَّوْهَا وَاسْتَنَارَوْهَا، وَالْقُوَّةُ، إِذَا
أَسْتَشِيرَتْ، تَنْتَشِرُ طَاقَاتٍ فِي أُخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا، حَتَّى تَشُدَّ الْأَفَاقَ وَتَمَلَأَ أَقْطَارَ
الْفَضَاءِ، كَمَا دَاةُ الْفَحْمِ فِيهَا مَخْرُورٌ مِنَ الْقُوَّةِ، تَعْلُقُ بِهَا شَرَارَةٌ وَتَتَّصِلُ حَتَّى تُؤَجِّجَ
بِالشَّرَرِ.

قَالَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْجَدِيدَةُ، بَعْدَ التَّحَدِّيِّ وَاتِّظَارِ الرَّجْعِ، (أَنَا) وَهِيَ شَامِخَةٌ
بِمَغْنَاهَا، وَوَلَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَتِيقَةُ الْمُتَهَرِّثَةُ مُتَسَاوِطَةً مُتَوَارِدَةً إِلَى أَوْكَارِهَا، وَهِيَ
شَامِخَةٌ بِخَيَالِ الْمَعْنَى الضَّائِعِ وَالْمُصَادَفَةِ الْعَارِضَةِ، كَالَّذِي تَغْفُرُ بِهِ قَدَمُهُ فَيَهْوِي إِلَى
خَفِيرٍ فِيهِ كَنْزٌ، فَإِنَّهُ يُحْسِنُ بِالْإِزْتِيحِ إِلَى مَا صَادَفَ مِنَ الثَّرْوَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُحْسِنُ أَبَدًا
بِفَخْرِ الثَّرْوَةِ، لِأَنَّهُ لَا تَتَّصِلُ بِذَاتِهِ اتِّصَالُ الْإِبْجَادِ، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِأَطْمَاعِهِ اتِّصَالُ
الرَّغْبَةِ بِمَا يُبِيرُهَا وَيُخَرِّكُهَا.

وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّاعِرِ بِمَغْنَاهُ، وَالْغَائِضِ فِيهِ مَغْنَاهُ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَشْقُطُ

(٣) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٠.

في خفير فينسى الألم، ويشتد في إحساس أنه لم يزل حياً وسيعيد التجربة، أو يطمئن في إحساس أنه حي بحياة المبدأ الذي قضى دونه... وبين من يشق في خفير فينسى الحياة والقوة، ويهون في إحساس جراحاته وكسوره، أو يئأس في إحساس أنه مضغعة بين فكّي العدم الصامت. فأولهما يطرّد ضعفاً بقوة، وثانيهما يضيف ضعفاً إلى ضعف... ومرّ على مسرح أحد صورة هذين الرجلين:

«أرسل النبي من يبحث عن سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو، أم في الأموات؟... فنظر فوجده جريحاً وبه رمق في القتل.

فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات. قال: أنا في الأموات. فأبلغ رسول الله عني السلام، وقُلْ له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام، وقُلْ لهم: إن سعداً يقول: ألا إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطوف»^(٤).

كلمات كلها يقين وأطمئنان ورضاً بهذا المصير، وهذه النهاية التي يحس أنها كبيرة خالدة.

«قاتل قزمان قتلاً شديداً فقتل، وحده، ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة. فأختم إلى دار بني ظفر، فجعل رجالاً من المسلمين يقولون له:

والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشرو.

قال: بماذا أبشرو، فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي... فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه»^(٥).

(٤) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٦.

(٥) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٢.

وسَدَلَ التاريخُ من دونِهما سِتارَهُ وأَعْلَنَ هذهَ الحَقِيقَةَ: قَضَى أَوَّلُهُما دونَ
فِكْرَةِ العَقِيدَةِ فَكانَ بَطْلاً وتَلَفَّعَ بالخُلُودِ؛ وقَضَى ثانيهما دونَ فِكْرَةِ الأَحْقادِ ونَزْغَاتِ
الأَغْصابِ فَانْحَلَّ بِانْجِلالِها، وتَلَفَّعَ بالْعَدَمِ.

وَقَفَ النَّبِيُّ وأَصْحابُهُ في حَمراءِ الأَسَدِ وَقَفَّةَ الأَسَدِ في وَثْبَتِهِ الحَمراءِ،
وتَحَدَّى طَوِيلاً، وَرَجَّعَ الفَضاءَ دَوِيَّةَ الرِّهيبِ، وَصَمَّتْ كُلُّ شَيْءٍ، وبَقِيَ الصُّدى
يُعْلِلُ غَلَبَةَ الإنسانِ الجَدِيدِ.

لَقَّتِ المَدِينَةُ أَيْتامَ لَمْ يَكُنْ فيها من سَوادِ الأَسَى أَثَرٌ كَبِيرٌ، وهي إلى أَنها أَيْتامُ
تَأْيِينَ أَقْرَبُ مِنْها إلى أَنها أَيْتامُ أَحْزَانٍ وَدُمُوعٍ، على أَنَّ مِنَ الحُزَنِ ما هُوَ بِهِيْجٌ وَلِيدُ
شُعُورٍ بالإعْجابِ، وَمِنَ الدَّمْعِ ما هُوَ ضاحِكٌ وَلِيدُ شُعُورٍ بالأَمَلِ.

حِينَ شاعَ الإِيمانُ، بِمَغْناهِ الهَيْمانيِّ في النَّاسِ، شاعَتِ البَطُولَةُ بِمَغْناها الرَّايعِ في
الرِّجالِ والنِّساءِ جَميعاً، وأَعْطَوْا صُوراً خالِدةً تُضَافُ إلى أَشْياءِ التاريخِ الكَبيرةِ.
فكانَ لَنا مِنْ يَومِ أُحُدٍ، أَبطالٌ في شَخْصِ الشُّهَداءِ كَحَمْزَةٍ، وَأبطالٌ في شَخْصِ
الأَحْياءِ كَعَلِيٍّ، وَأبطالٌ في شَخْصِ النِّساءِ كَنُسَيْبَةَ المَازِنِيَّةِ^(٦)، حَتَّى الطَّفُولَةُ^(٧) لَمْ
يَقْتُها نَصيبٌ مِنَ البَطُولَةِ...

في ظِلالِ التَّخيلِ الَّتِي بَدَتْ واجِمةً في إِطْرافِةِ الحالِمِ، كانَ الشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي
وَيَسْتَلْهِمُ، وَجَرَتْ على خَدَّيْ حَسانٍ بَيْنَ ثابِتِ عَبرَاتِ الإعْجابِ الَّذي أَتَّصَلَ

(٦) كانَ مِنْ قِصَّتِها أَنها خَرَجَتْ، في يَومِ أُحُدٍ، ومَعها بَقاءُ تَشَقِّي مَنهُ الجَرحى والرَّيبُخَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا
هَبَّتْ عَلَیْها أُنْحازَتْ إلى الشَّيْبِ، وباشَرَتِ القِتالَ عَنْهُ تَذُبُّ بِالشَّيْفِ وَتُرْمِي عَنِ القَوْسِ، حَتَّى خَصَلَتِ الجِراخَةُ
لِها، وفيها قالَ الشَّيْبُ: «ما أَلَفْتُ بِمِمْناً ولا بِشِمالاً يَومَ أُحُدٍ إلَّا وَرَأَيْتُها تُقاتِلُ دوني» راجع: السيرة الحلبية،
ج ٢، ص ٢٣٠.

(٧) قُبِلَ سَمَرَةُ بِنْتُ جُنْدُبٍ لَمَّا رَدَّه النَّبِيُّ يَومَ أُحُدٍ لِصِغَرِ سِنِّها، وأجازَ رافعُ بْنُ خَدِيجٍ، قالَ لِرَؤُوسِ أَهْلِهِ: أجازَ
الشَّيْبُ رافعاً وأنا أَصرَعُهُ، فقالَ الشَّيْبُ: تَصارَعَا فَصرَعَهُ، فَأجازَهُ وَضَمَّهُ إلى الجَيْشِ. راجع: السيرة الحلبية، ج ٢،
ص ٢٢٠.

بعاطفة مُلتاعة محزونة، وكانت نفسه مُكنَّظة بمشاعر شتى، آكتيظاظ اليوم الغابر
بالروائع الخالدة، ومَرَّتْ به نسمات أجاشت عليه شاعريته، فأطلقها على هيئتها في
كُلِّ مجالٍ.

لقد كان هذا اليومُ مادةَ الملحمة العربية المفقودة، لو تَأَتَّى لِشاعرٍ خالِدٍ أَنْ
يَسْتَلْهِمَهُ، وَيُبْرِزَ ما قَدْ طفا على سَطْحِهِ من رَوَائِعَ، يَتَقْلُها نَقْلاً أَمِيناً لا تَقِلُّ عن رَوْعَةٍ
واقِعِها. فَإِنَّ مَلْحَمَةً تَكُونُ مادَّةً هذا اليومُ تَظَلُّ، بِدُونِ رَيْبٍ، أداةً بَعَثَ في كُلِّ يَوْمٍ
من أَيَّامِ العَرَبِ والمُسْلِمِينَ، وتَتَجَدَّدُ كُلُّما جَدَّدَ العَرَبُ والمُسْلِمُونَ حَرَكَاتِ الانْتِباعِ
وعَزَمَةَ التُّهْوِضِ، وكانَ أُبْرَزَ ما تَرَكَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ هذه الحقائقُ:

إِنَّ نِجَاحَ الأَعْصابِ في الكِفَاحِ على مِقْدَارِ نِجَاحِ الإِيْمانِ مِنَ السَّيْطَرَةِ، وَإِنَّ
قِيَمَةَ الكِفَاحِ على مِقْدَارِ قِيَمَةِ الفِكرَةِ الَّتِي يَحْتَدِثُ مِنْ أَجْلِ تَوْكِيزِها، وَإِنَّ الكِفَاحَ
الظَّافِرَ لا يَكُونُ إِلَّا حَيْثُ تَكُونُ العَقِيدَةُ الصَّليْبَةُ، وإذا لم يَكُنِ الإِيْمانُ فلا يَزِيدُ
الكِفَاحُ عَنْ أَنَّهُ فَوْرَةٌ مُتَرَجِّعَةٌ، وَحَرَكَةٌ مُحْتَضِرَةٌ، ولا يَزِيدُ هذا البَعْثُ عَنْ أَنَّهُ بَعَثٌ
فِيهِ بُرُودَةُ المَوْتِ وَمَغْزَى الانْجِلالِ.

وطلَّعَ عليه، وهو في لَذَّةِ إنْشائِهِ وإنْشادِهِ، الحَجاجُ بْنُ عِلَاطِ السَّلَمِيِّ، وكانَ
شاعِراً مَفْتونَ الشَّاعِرِيَّةِ بِبطُولَةِ عَلِيِّ يَوْمِ أُحُدٍ، فراحَ يَفْتَنُ بِالْوَائِها وَيَتَعَتَّى بِأَيَّاتِها.
فأَوْسَعَ لَهُ حَسَنانٌ في مَجْلِسِهِ، وقالَ:

كُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ مُنْذُ اليَوْمِ، وَأَحْسَبُ ما يُقالُ، مِنْ أَنَّ في قُلُوبِ الأَخْلَاءِ
أَذاًنا تَتَّصِلُ بِكُلِّ ما في النُّفُسِ من رَغَباتٍ وَخَلْجاتٍ، وَتُحِيسُ بِها لِحِينِها، حَقِيقَتاً
جِداً.

فقالَ السَّلَمِيُّ في دُعابَةِ مُفْتَرَّةٍ: ولا سِيَّما إذا كانَ الأمرُ بَيْنَ شاعِرَيْنِ
شَيطانَناهما أَلَمَعِيانِ.

فلَمَ يَبْدُ على حَسانٍ ما كانَ يَنْتَظِرُ مِنْ أَثَرِ الدُّعابَةِ العارِضَةِ، وإِثْما أَخَذَهُ إِطْراقُ

خاشع، حتى لقد أحسَّ السَّلَمي أَنَّهُ لَا يُشَارِكُهُ الْمَجْلِسَ وَالْحَدِيثَ.

فَقَالَ لَهُ: مَا بَكَ؟ أَرَأَيْكَ كَالْمَأْخُوذِ عَنْ نَفْسِهِ!

قَالَ حَسَّانٌ: تَعَاظَمَنِي يَوْمُ أُحُدٍ بِتَهَاوِيلِهِ، حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ شَاعِرِيَّتِي بِتَغْضِ مَا جَمَعَ، وَأَحْسَبُ أَنَّ الْقَوْلَ فِيهِ إلهَامٌ مِنَ الْإلهَامِ، وَلَيْسَ شِعْراً مِنَ الشُّعْرِ. أَمَا بَلَغَكَ نَبَأُ مُحَرِّيقِ؟

قَالَ السَّلَمي: أَنْبَأُ إِسْلَامِيهِ الَّذِي فَاجَأَ بِهِ مُنْذُ حِينٍ غَيْرِ بَعِيدٍ؟
قَالَ حَسَّانٌ: كَلَّا، وَلَكِنْ نَبَأُ اسْتِشْهَادِهِ الرَّائِعِ الَّذِي جَعَلَ نَفْسِي، وَكُلَّ نَفْسٍ، تَذْهَبُ فِي الدَّهْشَةِ كُلِّ مَذْهَبٍ.
قَالَ السَّلَمي: مَاذَا تَقُولُ؟!

قَالَ حَسَّانٌ: نَعَمْ! إِنَّهُ اسْتَبَسَلَ دُونَ الْعَقِيدَةِ الَّتِي عَهَدَهَا جَدِيدَةً فِي قَلْبِهِ، اسْتِشْهَادَ مَنْ يُرِيدُ الْمَوْتَ أَوْ الْحَيَاةَ فِي دُنْيَا الْفِكْرِ الْجَدِيدِ.

قَالَ السَّلَمي: عَجِيبٌ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ. وَعَجِيبٌ إِيمَانُكَ الَّذِي يَقْتُلُجُ رَسِيسَ النَّفْسِ، بَلِ النَّفْسَ، مِنْ أَقْطَارِهَا وَنَوَاحِيهَا حَتَّى لَا يُحْسِنَ الْمَرْءُ بِشَيْءٍ وَرَاءَ مَعْنَاهُ. وَنَهَضَ الرَّجُلَانِ فِي اسْتِغْرَاقِ الشَّاعِرِ حَتَّى أَفْضَا إِلَى الْحَيِّ، وَمَا آتَتْهَا إِلَّا عَلَى حَدِيثِ النَّاسِ «إِنَّ النَّبِيَّ لَمَّا آتَاهُ إِلَى أَهْلِهِ نَاوَلَ سَيْفَهُ آتِنْتُهُ، فَقَالَ: آغْسِلِي عَنْ هَذَا دَمَهُ يَا بُنَيَّةُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ... وَنَاوَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهُ، فَقَالَ: وَهَذَا أَيْضاً فَآغْسِلِي عَنْهُ دَمَهُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَ الْيَوْمَ رَسُولُ اللَّهِ... فَقَالَ النَّبِيُّ: وَصَدَقَ الْيَوْمَ الْقِتَالُ سَهْلُ بْنُ حَنْظَلٍ وَأَبُو دُجَانَةَ».

كَانَتْ فَاطِمَةُ تَمُرُّ بِهَا هَذِهِ الْأَحْدَاثُ وَهِيَ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ، وَفِي أَحْشَائِهَا^(٨)

(٨) لَا يُطْرَقُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَدْخُلُ فِي حَدِّ الْخَيَالِ الشُّعْرِيِّ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَبَيَّنَتْ عَلَى الْبَحْثِ الْجَدِيدِ، فَقَدْ قَوَّى الْعُلَمَاءُ وَرَاءَهُ الْجَنِينَ لِكُلِّ مَا يَخْتَلِفُ وَيَتَرَاوَحُ عَلَى الْأُمِّ فِي ذَوْرِ الْحَفَلِ مِنْ تَأَثُّرَاتٍ وَمَشَاعِيرَ وَاحْسَاسَاتٍ.

رُوحٌ جَدِيدَةٌ تَتَأَلَّفُ أُمُشَاغُهَا، فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ عُنَاصِرِهَا، بَلْ أَكْبَرَ عُنَاصِرِهَا، عُنْصُرُ
التَّضَحُّيَةِ الدَّامِيَةِ لِلْفِكْرَةِ وَالْعَقِيدَةِ.

وَقَفْتُ فَاطِمَةُ تُزِيلُ أَثَرَ الدَّمَاءِ وَقَدْ ضَمَّتْ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، أَيْ^(٩) قُوَّةً إِلَى
قُوَّةٍ، فَإِنَّ السَّيْفَ رَمْزُ الْعَزْمِ عَلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ سَيْفَ الْعَقِيدَةِ مُصَلَّتٌ فِي
مَدَى سَيْفِ الْمَبَادِيءِ، وَأَتَهُمَا مَعًا يَنْجَحَانِ جَمِيعًا. فَأَخَذَهُمَا سَيْفُ الْمَبَادِيءِ، وَفَعَلَهُ
فِي الْفِكْرِ، وَثَانِيَهُمَا سَيْفُ الْعَقِيدَةِ، وَفَعَلَهُ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبِهِمَا تَتَكَوَّنُ الرُّوحِيَّةُ الْعَامَّةُ
الظَّافِرَةُ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَكُونُ فِي حَاجَةِ الْآخَرِ، وَهُمَا جَمِيعًا فِي حَاجَةِ الْأُمَّةِ إِذَا أُريدَ
خَلْقُهَا أَوْ بَعْثُهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَالْتَّبِئِي حِينَمَا خَلَقَ الْأُمَّةَ جَرَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، وَنَحْنُ،
حِينَمَا نُريدُ تَجْدِيدَ الْأُمَّةِ، نَجْرِي عَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ.

ضَمَّتْ فَاطِمَةُ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ حَرَكَاتِ الْخَلْقِ لَا تَنْجَحُ إِلَّا
بِقُوَّةِ الْفِكْرَةِ وَقُوَّةِ التَّضَحُّيَةِ لَهَا. وَكَانَ مَعْنَى إِضْلَالِ التَّبِئِي سَيْفَهُ أَنَّ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ
يُنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، وَالْمُكَافِحِينَ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَوْ عَلَى أَمْرٍ صُورَةٍ.

فَنَحْنُ نُجِلُّ مُحَمَّدًا لِرِسَالَتِهِ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، وَنُجِلُّ مُحَمَّدًا لِكِفَاحِهِ وَآسْتِنْسَالِهِ
وَأَلَامِهِ فِي سَبِيلِهَا، إِجْلَالًا غَيْرَ مَخْدُودٍ، فَإِنَّ الَّذِي يُعْطِي فِكْرَةً وَلَا يُوقِفُ كُلَّ أَشْيَاءِ
حِسِّهِ وَنَفْسِهِ عَلَيْهَا، جِهَادًا وَتَضَحُّيَّةً، يُبْلِلُ فِكْرَ الْجَمَاعَةِ ثُمَّ لَا يُقْقِذُ الْمُجْتَمَعَ، بَلْ
يَزِيدُ فِي مَعْنَى دَائِهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْإِصْلَاحِ لَا تَكُونُ شَيْئًا نَبِيلًا إِذَا لَمْ يَجْعَلْهَا الْكِفَاحُ
كُلَّ شَيْءٍ.

إِنَّ الْفِكْرَةَ قَدْ تُشِيرُ إِلَى آمْتِيَاظٍ مُلْهَمِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى خُلُودِهِ إِلَّا إِذَا
تَحَمَّلَ آلَامُهَا. وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ آلَامَ مُحَمَّدٍ الْخَالِدِ حِينَ أَدَّى رِسَالَتَهُ، وَحَمَلَ ثِقْلَ الْكِفَاحِ

(٩) إِنَّ السَّيْفَ فِي كَلَامِنَا زَمْرِي تَحْتِ، يُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ، فَسَيْفُ التَّبِئِي رَمْزُ لِقُوَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَسَيْفُ عَلِيٍّ رَمْزُ
لِقُوَّةِ الْعَقِيدَةِ. وَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ كَلَامَنَا يَدُورُ عَلَى السَّيْفِ، الْآلَةِ الْخَدَّةِ، بَلْ نَعْنِي الْقُوَّةَ الْأَدْبِيَّةَ. هَذَا الشَّبِيهُ لِكَيْ
لَا يَتَوَهَّمُ السُّطَاءُ أَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَتْ قَاعِدَتُهُ السَّيْفُ، وَإِنَّا نَهْبُ بِالنَّاسِ إِلَى نَهْضَةِ السَّيْفِ قَاعِدَتُهَا.

والجهاد «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَثْقَصَ ظَهْرَكَ»...
والوزرُ في الآية بمعنى الثقل، وهو ثقل آلام الكفاح بسبيل الرسالة الجديدة.
وكان وضع الثقل عنه إعلاناً بأن إنسانية محمد أخذت طريق نجاحها،
وقامت على قاعدتها، ونفت مرارة الدواء أَلَمْ الداء المصيب الجهد...
بعد حين، تراءى أحد للتي من بعيد، فاثار فيه ذكريات عذبة بأشائها
الكبيرة، وأطياها اللامعة الرائعة...

وكانت هذه الذكريات قد استحوالت إلى حنين فحُب، جعلاه رمزاً من
رموز الانبعاث والانقلاب والتجديد في ضمير المؤمنين الشعراء...
فقال النبي يُكرمه «إِنَّ أَحَدًا جَبَلٌ يُجْبُنُ وَنُجْبُهُ»، يُجْبُنُ لَأَنَّهُ رَضِيَ عَنِ
أَسْتِيسَالِنَا وَتَبَاتِنَا، وَنُجْبُهُ لَأَنَّهُ رَمَزُ هَذَا الْأَسْتِيسَالِ وَهَذَا الثَّبَاتِ...
وكان النبي «دَسَّنَ» بهذا المقال في أحد تمثال الإيمان الشامخ...

*

كان يوم أحد يوم الشهداء...
والشهيد، في سبيل أمة، ذكرى حية في ضميرها، ومادة هامة في كبرياء
مجدها...
فيوم أحد يوم الذكريات الحية الخالدة، ولذلك أحبه النبي، ونحن نجبه ولا
ننسى عطته الناطقة في الضمير!...
استحوال يوم أحد إلى ذكرى من الروائع...
واستحوالت الذكرى إلى حب وهيام بالأمجاد، ما دام على الأرض غرب أو
مُسلمون...

وَأُبْرِزَ الْغَيْبُ، بَعْدَ ذَلِكَ، رَوْحاً جَدِيدَةً، جَمَعَتْ طَائِفَةً هَذِهِ الْمَعَانِي وَسَمَّاهَا
النَّبِيُّ حُسَيْنًا...

وَدَارَ الزَّمَنُ دَوْرَةً قَصِيرَةً، وَثَارَ الْحُسَيْنُ وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي فِي صَوْتِهِ
الْمُرْسَل...

وَأَنْطَلَقَ النَّاسُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:
تَحَوَّلَ الْيَوْمَ أَحَدٌ مَرَّةً أُخْرَى، وَثَارَ بُرْكَانُ الْإِضْلَاحِ يُزَلْزَلُ بِالْحَيَمَمِ!...

* * *

يوم الميلاد

تَنَادَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَنَّ فَاطِمَةَ جَاءَهَا الْمَخَاضُ، وَكُنَّ يُلْمِئْنَ بِدَارِهَا كَوُكَبَاتِ
كَوُكَبَاتٍ، وَيَنْتَظِمْنَ هُنَا وَهُنَاكَ كَمَا شَاءَ الْمَجْلِسُ لَهُنَّ. وَمَرَّتْ لَحَظَاتٌ أَخَذَتْ
عَلَيْهِنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَدُو مِنْ حَرَكَاتِ شَاءِهَا الظُّوفُ وَالْبِشْرُ، وَسَمَلَهُنَّ صُمُوتٌ
خَاشِعٌ فِيهِ بَادِيَةُ الْحَذَرِ، حَتَّى لَيَحْتَلِلُ لِلتَّائِظِ أَنَّهِنَّ دُمِي مُجْتَنَحَةٌ تَطْمَحُ إِلَى شَيْءٍ فِي
غَيْرِ مَرَأَى الْعَيْنِ.

وَكَانَتْ مَيِّمُونَةُ أُخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ وَخَذَهَا تُرَى غَادِيَّةً رَائِحَةً، وَمَرَّ خَاطِرُ
أَنَّكَرَتْ مَعَهُ مَوْضِعَهَا. فَقَدْ تَرَأَى لَهَا أَنَّهَا فِي مَعْبِدٍ آكُتْظُ بِالْمُجْتَنَحَاتِ الَّتِي تُطِلُّ فِي
صُورِهَا مَلَائِكُ فِي فَرْحَةٍ خَاشِعَةٍ.

وَسَبَّحَتْ مَعَ خَاطِرِهَا وَرَاحَتْ فِي مَقْعَدِ الْأَحْلَامِ، حَتَّى لَقَدْ أَنْفَصَلَتْ فَوْقَ
حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَكَانَ لَهَا عَالَمُهَا الْجَدِيدُ الَّذِي يُغَادِيهَا بُرُؤَى يَقْظَى عَلَى
خُيُوطِ التَّوَرِ.

حَسِبَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَاقِعًا، وَحَسِبَتْ أَنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي عَالَمٍ مَا تَرَى. إِنَّهَا
أَحَسَّتْ بِلَذَازَاتِهِ طَافِحَةً حَتَّى لَقَدْ غَمَرَتْهَا.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلْمًا، إِنَّهُ لِأَكْبَرُ مِنَ الْحُلْمِ فِي مَذْهَبِ الْحَيِّ
الْبَادِي... هَكَذَا تَنَاجَتْ فِي حَدِيثِ نَفْسِهَا حِينَمَا أَنْبَهَتْهَا زَعْرَدَاتُ النِّسَاءِ الَّتِي

بَدَأَتْ هَمَسَاتٍ حُلُوةً نَاعِمَةً:

فَقَدْ أَسْلَمَتْ فَاطِمَةُ وَلَيْدَهَا...

ولكن أين ما كُنْتُ أرى؟ أين هو أو أين أنا؟! لَسْتُ، لَسْتُ أَدْرِي. أَحْسَبُنِي
في مَعْرِضِ العَجَائِبِ. أَحْسَبُنِي في غُزَسِ الْأَمْلاكِ. حَقًّا إِنَّ لِلْإِنْسَانِ عَوَالِمَ شَتَى،
وهو يَعِيشُ في أَقْلَهَا تَطَرُّيَّةً، أو يَجْعَلُهَا واقِعَ الزَّمَانِ والمَكَانِ أَقْلَ تَطَرُّيَّةً وَبَهْجَاتٍ.
هُنَاكَ في غَيْرِ واقِعِ الزَّمَانِ والمَكَانِ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِالأَشْيَاءِ مُكَبَّرَةً، وَيَتَّصِلُ بِكُلِّيَّاتٍ
مَعَانِيهَا لِأَنَّهُ يُحِسُّ بِكُلِّ نَفْسِهِ، وَأَمَّا هُنَا فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِبَعْضِ نَفْسِهِ عَلَى مِقْدَارٍ مَا يَسَعُ
الوَاقِعُ الْجَامِدُ، وَيَبْقَى كُلُّ النَّفْسِ ظَالِمًا.

لَمْ يَكُنْ مَا رَأَيْتُ حُلُمًا؟ إِنَّهُ خَالَطَنِي حَتَّى لَأَلْمُسُهُ. نَعَمْ. نَعَمْ. لَقَدْ أَدْرَكْتُ
الآنَ، وَالآنَ فَقَطْ، سِرَّ الثُّبُوتِ، وَسِرَّ الْقَدَاسَاتِ، وَسِرَّ الْإِلْهَامِ وَالْهَيْامِ فِي الْفِكْرِ
وَالْفَنِّ والأَشْيَاءِ... وَإِنْ يَكُنْ حُلُمًا فَلَيْتَنِي أَظَلُّ حَالِمَةً، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ فِي
كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ وَلِيدِ فَاطِمَةَ، أَرَى عَلَى وَجْهِهِ أَوْ أَحْلُمُ... هَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
نَفْسِهَا قَبْلَ أَنْ أَنْطَلَقَتْ وَغَابَتْ فِي الْجُمُوعِ الْمَائِجَةِ الْفَرِيخَةِ، وَضَاعَ وَقَعُ خَطَايَا فِي
الرَّزْنِ الصَّاحِكِ...

كَانَ جَمِيلًا كَحَقِيقَةِ الضُّوءِ، وَبَهِيًا كَقَطْرَةِ النَّدى وَقَدْ تَحَاضَّنَتْهَا أَكْثَامُ الزَّهْرِ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي جَوْءِ أَحْلَامٍ ذَابَتْ فِيهِ النَّشَوَاتُ، وَاسْتَحَالَتْ إِلَى أَرِيحٍ تُهْدِدهُ أَيْدِي
النَّسِيمِ، وَكَانَ لِأَلَاءِ كَرْزُبَقَةِ الْغُورِ وَقَدْ مَصَّتْ إِشْرَاقَةَ الْغُرُوبِ الَّتِي خَلَفَتْ فِيهَا
السُّسُسُ ذِكْرَهَا السَّعِيدَةَ إِلَى اللَّيْلِ، وَكَانَ مِلءَ الْعَيْنِ وَالْهَوَى، حَتَّى لَقَدْ قُلْنَ: إِنَّ
الْجَمَالَ أَخْصِرَ بِهِ، أَوْ إِنَّ سَنَا الْوُجُودِ الْمُفْرَقَ جُمِيعَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تَحُوطُهُ، إِلَى ذَلِكَ،
هَالَةً مُشِعَّةً، فِيهَا جَلَالُ الثُّبُوتِ وَجَمَالُ الطُّهْرِ الْبَرِيِّ، وَكَانَ عَابِقًا كَأَنَّ السَّمَاءَ
أَطْلَقَتْ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَرِيحِ.

خَرَجَ الحُضُورُ عَنْ صُموثِيهِمْ، وَغَمَزَتِ الأَثِيرُ مُوجَةً بِشَرِّ ظَاهِرَةٍ خَفَقَتْ لَهَا
خَفَقَاتٍ كَانَتْ مُؤَذِّنَةً بِالوَلِيدِ السَّعِيدِ...

بَرَزَ النَّبِيُّ (ص) وَسَطَ الجُمُوعِ كَمَا تَبْزُرُ المَنَارَةُ وَسَطَ الصُّبَابِ، هَادِيَةً
بِشُعَاعَتِهَا المُسْتَطِيلَةَ فِي آفَاقٍ وَتَدْفُقِي، وَأَخَذَ وَلِيدَهُ السَّنِّي يَدَيْهِ كَانَتْ حَرَكَاتُ
أَنَامِلِهِمَا تُعَبِّرُ عَنْ فَوْطِ الشُّرُورِ، وَحَنَا عَلَيْهِ حُنُوَ المُرُضِعِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ كَلِمَةً
الإِسْلَامِ الشَّامِخَةَ «اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!».

وَعَامَ عَلَى مَيْمُونَةٍ، فَقَدْ كَانَتِ اليَوْمَ فِي حَسَابِيَّةٍ جِدِّ نَافِذَةٍ. وَسَعَرَتْ جِيَالَ
هَذَا المُشْهَدِ أَنَّ الأَحْيَاءَ بَنَزَعَاتِهِمْ هُمْ صُبَابُ الحَيَاةِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُطْبِقًا دَاكِئًا،
حَتَّى لَتَبْدُو الحَيَاةَ نَفْسَهَا كُرَّةً مِنَ الصُّبَابِ، تَدُورُ فِي مِثْلِ حَرَكَةِ الإِعْصَارِ هَادِرَةً بِمَا
فِيهَا مِنَ الأَهْوَاءِ. وَلَكِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ وَرَائِهَا فَتُبْخِرُ مَا آسَتَوَى فِيهَا وَتَرَكَبَ
عَلَيْهَا وَغَلِقَ بِأَنْحَائِهَا، وَتَمُدُّهَا بِمَعْنَى الضِّيَاءِ فَتَعْدُو مُرْدَهِيَّةً مُتَأَلِّقَةً، وَيَحْشَعُ الإِنْسَانُ
عِنْدَهَا فِي مِخْرَابِ اللَّهِ الأَزَلِيِّ. إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ التِّيهِ، وَنَفَضَ غُبَارَ البِيدَاءِ، وَاسْتَعْلَى
عَلَى السَّرَابِ.

أَفْ... لِلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الحَيَاةَ صُبَابٌ مُتَشَتِّرٌ فِي آفَاقِ هَذَا الوجودِ، وَالإِنْسَانُ
يَطْفُو وَيُزْهَبُ مُغْمَضَ العَيْنَيْنِ... إِنَّ وُجُودَهُمْ لَمْ تُشْرِقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي
تَعْمُرُنَا بِشُعَاعِهَا، إِنَّ صُورَةَ الحَيَاةِ فِي خَيَالِ الأَعْمَى مَلَأَى بِالظُّلَامِ، وَفِي خَيَالِ
الأَعْمَى مَلِيقَةٌ بِالرَّمَادِ أَوْ الصُّبَابِ، وَلَكِنْ هَلِ الحَيَاةُ كَمَا تَنْعَكِسُ فِي مِرَائِيهِمْ
الْمُتَحَبِّبَةِ؟ إِنَّ شَمْسَ التَّبَوُّةِ، وَفِيهَا المَعْنَى الأَتَمَّ المُشْرِقَ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَالحَيَاةِ، لَمْ تَسْطِعْ
فِي سَمَاوَةِ فُضَائِهِمْ.

هَنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، أَجِدُ حَقِيقَةَ الحَيَاةِ العَارِيَّةِ تَحْتَ يَنْبُوعِ التَّبَوُّةِ وَشُعَاعَتِهَا
الْخَالِدَةِ... هُنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، حَيْثُ يُبَارِكُ النَّبِيُّ إِنْسَانِيَّةً جَدِيدَةً وَيَتَفَرَّغُ مِنْهُ رَافِدٌ
تَمَيِّزٌ وَتَمَدُّ قَوَارِ فِي صُلْبِ الإِنْسَانِيَّةِ الْحَيَّةِ، فِي دِمَائِهَا المُنْصَبَّةِ إِلَى بُحَيْرَةِ المُسْتَقْبَلِ

البعيد القرار، يجد الظماء ما يُبرِّد حرارة عُقولهم وقلوبهم، يجدون التنبوع الذي حجبهم عنه سراب الفكر المدخول...

قال قائل في الظلام - والناس يخرج أحدهم في إثر الآخر - إيه أبا رافع...
وربت على كفيفه: أرايت أعجب من اليوم، النبي يسير في أذن الوليد وكأنه يقول شيئاً...

قال أبو رافع: نعم. إنه «أذن في أذنيه كما يؤذن للصلاة».
قال الرجل: ولكن أترى أن له نفساً مدركة تعي ما يقال لها وما تُخاطب

به؟

قال أبو رافع: نعم. وماذا تظن أنت؟ لعلك أنصرفت بطنك إلى أن نفس الوليد خلأ من القوى، إن كان ذاك فبعد ما تظن. إنها واعية كاتم ما تكون نفس من الوعي، ولكنها غائمة بما في التركيب العضوي من الوهن وضعف الحساسية. والنبي توجه إلى هذا الوعي وهو في أكماله ليضع فيه شيئاً خالداً، ليضع فيه كلمة الله، فلا يحول عنها ولا يزول مهما اضطربت عليه بواعث الشباب، واضطربت فيه نزواته، لأنها سوف تأسره بحنين الرجوع البعيد.

إنه وضع، في آخر مرحلة التخلي وأول مرحلة التفتح والازدهار، عبث المثل الإلهية، عبث الحقيقة المطلقة، الذي ينفخ ولا ينقطع، الذي يفيض ولا يغيض... تمر به الأهوية الهادرة ألهاثة فلا تغير فيه وإنما يغير فيها، بما يحملها من أريج الفواح، فتعدو وقد فقدت ما تئذر به بما تبشر، إنها حملت روح الزهرة في الحقل...

إن النبي، لنا اليوم، زهرة الحقل، وهو يمد يده في أحشاء الزمن بزهرة حقل المستقبل، فعسى أن يتركها الإنسان تضمخ فضاء الغور في عين الشروق والغروب، ولا تلتفت عليها أفعى الشهوات فتقضئها، إني لحدّر، إني... تلغتم، ووضع يده

على قلبه مخافة السقوط، وأغمض عينيّه في خيال رهيب.

وكان أبو رافع مولىً للنبي، فلم يُطق ما مرّ بخياله، وتحمّل على صاحبه مدةً ظلّ فيها صامتاً صُموت الليل الذي تزيد في رهيّته أصوات متقطّعة للذئاب.

وسمّل الرجل تيار أبي رافع فاستغرق في وجوم، وسارا يقطعان الليل في خطوات تعبّ عن أنها ذاهلة لا تقصّد إلى شيء ولا تتصلّ بما تنتهي إليه. وما استفاقا إلّا على صوت الإنسان في العَلَس يُنادي بكلمة الله الأرواح الشاردة الهائمة. واختلط الصوت بشكون الليل فعبّر عن أنه قال كلمته، واستحال صدى فيه شروء الشكون.

خفّ الناس من كلّ مكان، وفي أعينهم بقايا الحلم السادر، متوافدين مع النداء إلى حيث يمتزجون بالجهول، إلى حيث يُصحّحون ضمائرهم في عمل الحياة، إلى حيث يُجدّدون عقودهم مع الله على الخير والحُب والمثل، بجعلها مبدأ عمل وواقع حياة... مدّ الرجل خطاه وهبّ يطلب ما يطلب سائر الناس.

قال أبو رافع: على رسلك يا هذا، إننا لم نزل في صلاة منذ خطونا!

قال الرجل: والآن نصِلُ صلاةً بصلاة^(١).

(١) لا ريب في أنّ الصلاة عقْد (كوتر)، بين الله والإنسان. وإذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروطاً عقْد متبادلي. وعلى ضوء هذه الملاحظة يتّكفّف لنا سرّ تكرار الصلاة اليومية، على الشكلي المعروف في الإسلام، وجعلها ليلية ونهارية. وهذا السرّ هو تجديد العقْد وتوكيده، حتى لا تضعف فعاليته، وحتى لا تمرّ بالمزّة ساعات فتور وآسروخاء يُجلّ فيها بأحكام العقْد، فيظلّ بذلك دائماً طرّفاً في عقْد جديد. وكما هو معروف على البحث أنّ الصّميّ والوجدان والعقائد تتولّد من التكرار والتلقين، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً. هذا فهمنا للصلاة في الإسلام من ناحية عملية. وأما هي من ناحية فلسفية فإنها أضغّ طريقة وأسلوب، وأضغ شكل وصيغة لما يُسمّيه ساندerson، أحد علماء النفس التطبيقي، مُعَبّد الرؤية، هذا المعبّد الذي يتأمل فيه المؤمن منفرداً، ويخضع مستغرقاً متفكراً، وهو يرى أنّه لا صلاح للفرد، والثالي للجماعة، إلّا بمُعَبّد الرؤية، أو ساعة التأمل اليومية، وقد ضيّعها الإسلام على شكل مذهبي من التكرار في صحب النهار وفي هدير الليل، وكان الإسلام بصلاة النهار ينشر الإنسان أنيزاعاً ليُفرّقه في التأمل والإشراق ولو بلخطاب.

قال أبو رافع: نعم. ولكن رويدك، فإن النبي رأى جماعة تراكض إلى الصلاة، فقال: «ليأت أحدكم الصلاة هوناً». وهو يُشير بهذا إلى أن الصلاة لا تكون واعية إلا إذا تلبست فكر فاعليها ونفسه، فهي ليست عملاً خالصاً بل فكراً في العمل، وبذلك يكون لها عمل في الفكر، والإغجال يُضيّع على الفكر أطرافه وأنسجامه. والنبي يُريدنا أن نبدأها صلاة بالفكر، صلاة بالروح، وإلا فهي صلاة شاردة غير واعية، لروح أكثر إمعاناً في الشرود.

قال الرجل: إن حديثك ملك علي نفسي منذ الليل، ولقد مازجتني حسرة حين قطع الوجوم عليك الحديث.

قال أبو رافع: لعل صلة الحديث، الذي أنقطع بيننا، تجر الشجون إلى استذراكها يوماً من الأيام.

قال الرجل: ولكنني أجد في نفسي أسر الحديث ومدّ الداعية إليه، ولعل نفسي لا تجتمع كما اجتمعت علي الليلة من أقطارها. وأجذني أشد ما أكون أنصراً إلى مغزى الأذان في أذن الوليد، ومغزى الأذان الذاهب كل يوم، مرات فوق ضجيج الحياة وصخبها، الأذان القارع في دنيا الأباطيل.

قال أبو رافع: إنني لم أزل أخشع تحت ذكرى الرنات الهامسة التي أرسلها النبي في أذن ولديه، لتكون كلمة الله أول شيء يتمدد في فضاء تلك الروح، وأول شيء تتموج به وتشتعل عليه. وبذلك يبقى فضاؤها خالياً من الصباب، فلا تمر به حلقة قاتمة، ولا تجثم فيه ظلامية أو دجئة، فيتكور فضاء الروح تكور الفلك على الشمس.

والأذان الذي يقصد به إلى الروح لا تكون فيه ألفاظ الأذان بل روحانيته، لأنها تسمو، بحلها ومشتواها، عن الألفاظ ومذاهبها في التعبير، هذه الألفاظ التي

تُولَفُ كائناً ألياً لا حِسَ فيه، وآسَتَانِي بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى إِكْمَالِ آيَةِ الْحَيَاةِ وَحَرَكَاتِهَا الرِّيْبِيَّةِ. وَلِذَا ظَلَّ كَائِنُنَا الدَّاخِلِيُّ الْمَجْهُولُ أَكْثَرَ أَنْفِعَالاً بِالْمَعَانِي الْمُطْلَقَةِ عَنِ الْأَدَاءِ، كَالْأَلْحَانِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا مَعَانٍ لَمْ تَسْتَحْجِزْ، فَتَنْتَجِجُهُ إِلَى إِحْسَاسِ الرُّوحِ قُدْماً فَتَسْمُوجُ بِهَا سَرِيعاً، بَيْنَمَا الْأَدَاءُ الْآلِي (الْأَلْفَاظُ) يَكْمُرُ فِي الْفِكْرِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ مَعَايِرَ، حَتَّى يَنْجَرِدَ^(٢) وَيَسْتَحْجِلَ مَعْنَى مُطْلَقاً فِي إِحْسَاسِ الرُّوحِ.

فَهَذِهِ الرُّوحُ الْجَدِيدَةُ، الَّتِي لَمْ تَحُلْهَا آيَةُ الْحَيَاةِ الْمُحْتَرَعَةُ بَعْدَ بَأْشَائِهَا، وَالَّتِي لَا تَرَالُ غَضَّةً، لَمْ تَتَحَجَّزْ أَطْرَافُهَا، تَمَوَّجَتْ أَوَّلَ مَا تَمَوَّجَتْ، وَأَتَسَّعَتْ أَوَّلَ مَا أَتَسَّعَتْ، لِكَلِمَةِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ. فَكُلُّهُمَا مَرَّ بِهَا مِنْ الْعَوَاصِفِ الْمُتَنَارِحَةِ لَنْ تَنْطَلِقَ مَعَ الْهَوَى. إِنَّهَا بِجَاذِبِيَّةِ الْكَلِمَةِ الْأُولَى، وَهِيَ، إِذَا زَمَتْ بِالزَّيْدِ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا حَبَابَ الْمُثُلِ الْمُتَرَكَبِ، فَإِنْسَانِيَّةُ هَذَا الْوَلِيدِ السَّعِيدِ جَاءَتْ كَمَا شَاءَتْ التَّبَوُّةُ.

إِنِّي لَا تَمُرُّ بِي ذِكْرِي الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ إِلَّا وَأَخْشَعُ مَعَهَا، إِنَّهَا تَفْعَلُ بِي فِعْلاً غَنِيّاً وَعَمِيقاً، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَطْوَعُ أَلْفَاظَ اللَّغَةِ لَتُعَبِّرَ عَنْهَا...

فَصَلْتُ مُنْذُ بَعِيدٍ وَأَنَا دَهْشُ بِالْأَذَانِ الَّذِي يَغْلُولِي مُذْكَراً الْحَيَاةِ بِقَاعِدَتِهَا، وَالْإِنْسَانِيَّةَ بِأَنْبِلِ مُثْلِهَا الْخَوَالِدِ، وَيُضْغِي الْوُجُودَ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهُ يَشْهَدُ.

وَعَلَا صَجِيجُ النَّاسِ بِالتَّكْبِيرِ، وَكَانَا قَدْ بَلَّغَا بَابَ الْمَسْجِدِ فَانْتَظَمَا فِي صُفُوفِ الْمُصَلِّينَ، وَعَادَ الْكَوْنُ إِلَى صُمُوتِهِ يُضْغِي إِلَى صَوْتِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ فِي أُذُنِ الْفَجْرِ يَقْرَأُ:

(٢) تَوَجَّدَ أَلْفَاظُ فِي اللَّغَةِ لَمْ تَسْتَحْجِزْ بِمَا أَعْدَقَ عَلَيْهَا الشُّغُورُ، حَتَّى تُنْشِئَ بِمَا وَرَاءَ الْغَوَى الْوَاعِيَّةِ، وَتَمُرُّ بِهَا رَأْساً بِدُونِ أَنْ تَمُرَّ فِي الْفِكْرِ، كَأَلْفَاظِ الْقَوَائِمِ وَالْحُبِّ. وَهُنَاكَ أَلْفَاظُ تُنْشِئُ بِمَوَظِنِ الْحَيَاةِ وَتَوُزُّ مُنْخَطِئَةَ الْفِكْرِ أَيْضاً، أَوْ تَمُرُّ بِهِ مَرّاً سَرِيعاً، وَهِيَ أَلْفَاظُ الْغَرَائِزِ وَمَا إِلَيْهَا، وَسَمِّيَتْ لَفَةً خَيْرِيَّةً. وَمَا بَقِيَ مِنْ أَلْفَاظِ اللَّغَةِ الْأُخْرَى فَهِيَ أَلْفَاظُ فِكْرٍ، لِأَنَّهَا تَوُزُّ عَنْ طَرِيقِهِ، وَتَسَمِّيَتْ لَفَةً آيَةٍ مُسْتَحْجِرَةٍ.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ. رَبِّ آجِعْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

*

فِي حَقْلِ الْبَشْرِیَّةِ الشَّائِئِکِ، غَرَسَ النَّبِيُّ نَوَاةً...
عَمِلَتْ فِيهَا التَّوَامِيسُ، فَبَرَزَتْ زَهْرَةٌ لَمْ تَتَفَتَّقْ عَنْهَا الْأَكْمَامُ...
وَمَسَحَهَا النَّبِيُّ بِيَدَيْهِ كِلْتَابَهُمَا، فَتَوَرَّتْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ...
وَمَاسَتْ فَوَاحَةً تَمْلَأُ الْحَقْلَ بِالْعَبِيرِ، حَتَّى لَيْخَيْلُ أَنَّ الْحَقْلَ زَهْرٌ كُلُّهُ!...

*

فَصَدَتْ إِلَيْهَا، مِنْ بَعِيدٍ، أَفْعَى فَاحِجَةً لِمَاءَهُ الْأَدِيمِ...
وَكَانَتْ تَفُحُّ فَحِيحاً لَاهِباً، وَيُؤُجُّ مِنْ فِيهَا الْحِمَمُ...
وَالْتَفَتَتْ عِنْدَ أَصْلِ الزَّهْرَةِ، وَتَكَوَّرَتْ كَعُقَدِ الْقَضَاءِ...
وَفِي هَذِهِ اللَّيْلِ، حِينَ كَانَ الْكَوْنُ فِي سُبَاتٍ قَضَمَتْهَا...
وَعَادَتْ وَقَدْ عَادَ الْحَقْلُ شَوْكاً مُلْهَباً، وَعَدَتْ زَهْرَةُ الْحَقْلِ ذِكْرَى رَمْرِ
سَعِيدٍ!...

زَهْرَةٌ كَانَتْ مِنْ صُنْعِ الثَّبُوءِ فِي آفْتِنَانِهَا وَسُمُوهَا...
وَالثَّبُوءُ شُعْلَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَشَفَقٌ فِي الْفِكْرِ لَا يَتَنَاهَى مَدَاهُ...
وَزَهْرَةُ الْحَقْلِ نَثْرَهَا بَاطِلُ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنَّهَا آجَتَمَعَتْ فِي الذِّكْرِ الْخَالِدَةِ...
فَقَدْ غَرَسَتْهَا ثُبُوءٌ صَنَاعٍ، وَالثَّبُوءُ لَا تَحُورُ!...

*

زَهْرَةٌ وَضَعَتْ فِيهَا اللَّانْهَاءُ أَشْرَارَهَا...
فَلَيْسَتْ رُغْمَ بَاطِلِ الْإِنْسَانِ وَلَنْ تُدْرِكَهَا نِهَايَةٌ...
وَحَارَ الْبَاطِلُ إِلَى رَمَادٍ فِي زَوْبَعَةِ الرِّيحِ!...

*

تَحَوَّلَ الْبَاطِلُ، فَكَانَ ظِلَالُ الْحَيَاةِ...
وَتَحَوَّلَ الْحَقُّ، فَكَانَ شَمْسُ الْحَيَاةِ...
وَأَخِيرًا، وَبَعْدَ حِينٍ، ضَاعَ الظُّلُّ فِي الشَّمْسِ!

* * *

مشاهد

مضى، بينَ يَوْمِ المِيلادِ وهذا اليَوْمِ الَّذي تَقاطَرَتْ فِيهِ زَرافاتُ النَّاسِ من كُلِّ
مَكَانٍ، أُسْبُوغٌ مُتَأَلِّقٌ وَضِيءٌ كَأَنَّمَا تَنفَّسَتْ فِي جَوْهِ السَّعَادَةِ، وَطَفَرَتْ مِنْ أَعْمَاقِ
الحُلُمِ لَتَمُوجٍ فِي واقِعِيَّةِ الجُمُوعِ ودُنْيَا الحَيَاةِ.

كَانَ البَصَرُ يَذْهَبُ مَذَاهِبُهُ ثُمَّ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى أَوْزَاعِ مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ،
فَقَدْ حَفَلَ النَّبِيُّ بِسَابِعِ أَيَّامٍ وَلَيْدِهِ وَعَقٌّ عَنْهُ.

إِفْتِدَاءُهُ بِكَبْشٍ ذَهَبَ خَيْرُهُ فِي أَشَابَةِ الْفُقَرَاءِ، وَكَانَ مَعْرَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمِثَالِيَّةَ
السَّامِيَّةَ، أَوَّلُ مَا تَقُومُ عَلَيْهِ هُوَ إِهْرَاقُ النَّزَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَنَزَعَاتِ ضَرَاوَتِهَا، مُجْتَمِعَةً
فِي حَيَوَانٍ يُهْرَاقُ. فَإِذَا كَانَ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِذَاءِ مَعْنَى الْجَسَدِ وَتَوْكِيدُ
أَنَّهُ حَيَوَانٌ قَرِيمٌ، فَإِنَّ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْفِدَاءِ مَعْنَى الرُّوحِ الْمُتَسَامِيَّةِ إِلَى
الْعَلَاءِ، وَكَانَ وَحْيٌ وَإِشَارَةٌ لَشَيْءٍ آخَرَ مُتَرْتَّبٍ تَرْتَّبُ النَّتَائِجُ عَلَى الْمُقَدَّمَاتِ: الْحَيَوَانُ
يُقْدَى بِهِ الْإِنْسَانُ الشَّاعِرُ بِمَعْنَاهُ، لِيَتَعَلَّمَ هَذَا الْإِنْسَانُ كَيْفَ يَقْدِي فِكْرَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَكَيْفَ يُصَحِّحُ بِسَبِيلِ مِثَالِيَّاتِهَا.. وَلِذَا لَمْ يَجِدِ^(١) الْمُكَافِحُونَ الْمُشْتَبِهِلُونَ، إِلَى

(١) كَانَ مِنْ عَادَةِ الْجُنُودِ فِي الْقَدِيمِ نَحْرُ حَيَوَانٍ تَحْتَ الْعَلَمِ، وَعَلَى مَرَأَى مِنَ الْجُلُودِ، وَيَبْتَثُّ هَذِهِ الْعَادَةُ حَتَّى
زَمَنِ مُحَمَّدٍ عَلَيَّ بَاشَا خِزْدِيوِي بِمِصْرَ.

زَمَن قَرِيبٍ، رَمَزاً لَصِدْقِ الْكِفَاحِ الدَّامِي وَلِلآرْتِكَاضِ إِلَى الْمَوْتِ سِوَى إِهْرَاقِ حَيَوَانٍ
بَيْنَ يَدَيِ الصُّرَاعِ، مُشِيرِينَ إِلَى الْمَصِيرِ وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ.

وَطَبِيعَتُهُ مَجْمُوعُ الْفُقَرَاءِ لِيَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ تَضَجُّعَ الْإِنْسَانِ جَانِبَ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ،
كَيْ تَمَلَأَ الْفَرَاغَ فِي هَذَا الْجَانِبِ بِجَمَاعَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْرُومَةِ، فَيَجِدَ فِي شُعُورِهِمْ
شُعُورَهُ، وَفِي آلَمِهِمْ أَلَمَهُ، وَفِي سَعَادَتِهِمْ سَعَادَتَهُ. فَقَدْ مَرَّجَهُمْ بِنَفْسِهِ وَخَلَطَهُمْ
بِهَوَاهُ، وَقَامَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ عَلَى ثُنَائِيَّةٍ مِنَ الْفَرْدِيَّةِ الْمُهَذَّبَةِ وَالْغَيْرِيَّةِ التَّبِيلَةِ،
يَجِدُ فِي طَبِيعَتِهِ سِرَّ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْجَمَاعَةِ سِرَّهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ التَّوَاصُلُ الْإِنْسَانِي
الصَّحِيحُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ خَيَالِيًّا، وَكَانَ فِي وَلِيدِ النَّبِيِّ وَاقِعًا.

طَبِيعَةُ سَمَتْ عَنِ الْأُنَانِيَّاتِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ آسَظَاعٌ، فِي مُجْتَمَعِهِ، أَنْ يُذَيَّبَ «أَنَا»
فِي «نَحْنٍ»، وَحَارَبَ طَوَالَ جِهَادِهِ الَّذِينَ أَذَابُوا بِأَحَابِيلِهِمْ «نَحْنُ» فِي «أَنَا»، فَكَانَ
لِكُلِّ أَمْرٍ فِي مُجْتَمَعٍ مُحَمَّدٍ أَنْ يَقُولَ «نَحْنُ» وَلَيْسَ فِيهَا كَثِيرَاءُ الْفَرْدِيَّةِ وَعُتُوُّهَا،
وَأَمَّا فِيهَا نُبُلُ الْغَيْرِيَّةِ وَوَحْدَتُهَا، وَأَشْتَرَاكِتُهَا وَتَعَاوُنُهَا.

وَقَدْ تَرَكْتُ ذِكْرَ هَذَا الْفِدَاءِ فِي طَبِيعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ آسَتَوَى رَجُلًا، رَمَزَهَا
الْإِنْسَانِيَّةَ وَمَعْنَاهَا التَّبِيلَ. فَلَمْ يُبَالِ تَحَتَّ ذِكْرَاهُ أَنْ يُحَقِّقَ فِي ذَاتِهِ مَعْرَاهُ، وَأَنْ يُقَدِّمَ،
فِي نَفْسِهِ، فِدَاءَ الْفِكْرَةِ الَّتِي إِذَا تَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا عَادَ مَخْلُوقًا بَغِيضًا، يَنْحَطُّ عَنْ أَنْ
يَكُونَ فِدَاءَ الْحَيَوَانِ ذِي الطَّبِيعَةِ السَّادِجَةِ، وَفِيهَا إِيثَارٌ دُونَ قَصْدٍ، وَفِيهَا قَنَاعَةٌ دُونَ
شُعُورٍ، وَفِيهَا رَغَبَاتٌ^(٢) قَاصِرَةٌ.

(٢) نَعْنِي بِالرَّغَبَاتِ الْقَاصِرَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَ يَتَفَعَّلُ بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ كَالْجُوعِ، فَإِذَا سَقَطَ عَلَى طَعَامٍ تَنَاوَلَ مِنْهُ
حَاجَتَهُ، وَعَفَّى عَنِ الْبَاقِي، بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يَتَنَاوَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ فِيهِ رَغْبَةُ النَّهْمِ حَرَكَتَهَا فَتُخِيلُهُ عَلَى
أَدْحَارِ مَا فَضَّلَ عَنْهُ دُونَ الْآخَرِينَ. فَلَدَى الْحَيَوَانِ إِيثَارٌ دُونَ شُعُورٍ، وَبِالْجُمْلَةِ تَكُونُ رَغَبَاتُهُ قَاصِرَةً، بَيْنَمَا
رَغَبَاتُ الْإِنْسَانِ سَرَّهُ مُسْتَحْوَذَةٌ، وَالتَّشَاخُزُ لَدَى الْحَيَوَانِ عَلَى الْمُقَوِّمَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا حِينَ الشُّعُورِ
بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ وَالْحَاجَةِ، وَلَكِنَّ التَّشَاخُزَ لَدَى الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا قَائِمٌ عَلَى أَدْحَارِهَا سَرَّهُمْ وَأَحْتِيَازًا، فَكَانَ الْحَيَوَانُ
بِالطَّبِيعَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ.

أَشْرَفَ النَّبِيُّ فِي هَئَاءِ الْجُمُوعِ وَبِهَاءِ الْحَقْلِ، قَالَ:

«أَرُونِي آتِنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟»

قَالَ عَلِيٌّ: سَمَّيْتُهُ حَرْبًا.

فَقَالَ: بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ!..

تَهَامَسَ النَّاسُ بَغَضُفَهُمْ إِلَى بَغْضٍ: سَمَّاهُ النَّبِيُّ حُسَيْنًا، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمَائِهِ وَنَفْسِهِ.

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُوَ كَذَلِكَ حُسَيْنٌ، وَلَكِنْ فِيهِ مَعْنَى التَّكْبِيرِ.

فَقَالَ قَائِلٌ لَهُ: لَكَأَنَّ النَّبِيَّ كَرِهَ أَسْمَ حَرْبٍ.

قَالَ عِمْرَانُ: نَعَمْ. إِنَّ الْحَرْبَ شُدُودٌ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ يُصِيبُهَا بِالْإِنْتِكَاسِ، وَالنَّبِيُّ نَصِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ، يَكْرَهُ مَا هُوَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَوْ بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمِ، لِأَنَّهُ جَاءَ لِيُقِيمَ الْإِنْسَانَ عَلَى قَاعِدَةِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَفِيمَ حَرْبُنَا إِذَا؟

قَالَ عِمْرَانُ: إِنَّ الْحَرْبَ هُوَ الْعُدَاوَانُ طَمَعًا وَعُتُوًّا وَأَضْطِهَادًا، وَهُوَ رُجُوعٌ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ الصَّارِيَةِ الَّتِي تَسْتَضِيْقُ، عَلَى رَحَابَةِ الْوُجُودِ، بِغَيْرِ ذَاتِهَا فَتَسْتَجِيبُ إِلَى الْعُدَاوَانِ وَتُنَازِعُ الْأَمْنَيْنِ عَلَى بَقَائِهِمْ. وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نُكَافِخُ هَذَا الْعُدَاوَانَ لِنُخَلِّصَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَذْرَانِ الصَّرَاوَةِ الْبَاغِيَّةِ، فَلَسْنَا نُحَارِبُ مُنَازَعَةً عَلَى الْبَقَاءِ بَلْ تَعْمِيمًا لِحُرِّيَّةِ الْبَقَاءِ، وَهَذَا لَيْسَ حَرْبًا بَلْ نِضَالٌ ضِدَّ الْحَرْبِ، وَإِنَّ النِّضَالَ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَدُونِهَا إِحْسَانًا.

فَالنَّبِيُّ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ مَبْدَأً عَلَى شَتَّى وُجُوهِهِ وَمِنْ أَقْطَارِهِ، لِيُطْفِئَ نَارَ الْحَرْبِ فِي السَّلْمِ الظَّالِمِ وَفِي الصَّرَاحِ الْعَاتِي، وَلِيَرُدَّ ذُنَابَ الْبَشَرِ إِلَى الذُّنَابِ يَتَمَزَّقُ

أَقْبَعَتْهُمْ فَيَسْلَمَ الْإِنْسَانُ.

وبهذا كَانَ النَّبِيُّ أَوَّلَ مَنْ حَارَبَ الْحَرْبَ، وَأُلْغِيَ مَشْرُوعِيَّتُهَا، وَأُعْلِنَ حُرْمَةُ الْإِنْسَانِ أَيَّامًا كَانَ، وَرَوَى التَّارِيخُ نُبْلَ الْجِيهَادِ. وَكَانَ فِي تَسْمِيَّتِهِ الْوَلِيدَ حُسَيْنًا، بَعْدَ تَسْمِيَّتِهِ حَرْبًا، إِعْلَانًا بِأَنَّ طَبِيعَةَ الْحَرْبِ لَنْ تَتَحَرَّكَ عَلَيْهِ إِلَّا إِحْسَانًا، وَفِي سَبِيلِهِ. وَفِي تَهَامِسِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَلِيدَ أَنََّّهُ أَلَمَ زَاهِقَةً، كَانَتْ إِذَا نَا بِخِتَانِهِ. وَكَانَ مَعْرَى الْخِتَانِ، فِي إِشْرَاقِ الرُّوحِ، أَنَّ فِي طَبِيعَةِ الْغَرَائِزِ زَائِدَةٌ تَذْهَبُ فِي شُدُودِهَا وَآلِيَوَائِهَا حَدًّا تَضَعُهَا فِي مَسَافٍ الْمَسَاقِطِ وَمَآتِيهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْذِيبِ الْغَرَائِزِ لَشُمُوعِ الرُّوحِ وَكَمَالِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْلِيمِ الْغَرَائِزِ لِدَرْكِ الْمِثَالِيَّةِ وَنَبَالَتِهَا الَّتِي، بِهَا جَمِيعًا، يَمْلِكُ الْبَشَرِيُّ إِنْسَانِيَّةً صَحِيحَةً تَضَعُهُ فَوْقَ الْوَاقِعِ وَدُونَ الْأَحْلَامِ...

*

بَعْدَ حِينَ، كَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى هَذَا الْوَلِيدُ السَّعِيدُ يَمُوجُ فِي حِجْرِ جَدِّهِ الْعَظِيمِ...

وَهُوَ يَزُمِي بَعِثَيْنِ سَادِرَتَيْنِ، أَوْحَتْ عَلَيْهِمَا الْجُفُونُ كِلَاهُمَا فَلَا تَزْحَرْحُ إِلَّا بِفُتُورٍ...

صَجْعَةٌ فِي جَوْ الْأَحْلَامِ، كَانَ يَرْتَضِعُ فِيهَا الْوَلِيدُ «إِبْهَامَ جَدِّهِ» الْبَطْلِ النَّبِيِّ...

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الرِّضَاعِ مَعْنَى التُّدْيِ بَلْ مَعْنَى الْقَلْبِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ كَانَ لَهُ مِنَ الثَّبُوتِ طِبَاعُهَا، وَمِنْ الْبُطُولَةِ تَضْجِيَاتُهَا...

*

صَجْعَةٌ كَأَنَّهَا صَجْعَةُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَالَةِ الثُّورِ، أَوْ صَجْعَةُ النَّجْمِ فِي الْأَفْقِ

المشحور!....

أَغْفَى فِيهَا إِغْفَاءَةَ الْحَيْشِفِ عَلَى تَذِي الْأُمُومَةِ الْحَانِيَةِ...

وَأَرْتَسَمَتْ ظِلَالُ هَذَا الْمَشْهَدِ عَلَى لَوْحٍ، كَانَ صُورَةً لِبُطُولَةٍ تُغَذِّيها نُبُوَّةٌ!....

إِبْهَامٌ كَانَ صِلَةً مَعْنَى بِمَعْنَى، وَشَرِيطاً تَشْرِي عَلَيْهِ رُوحٌ إِلَى رُوحٍ...

فَلَمَّا آسَتْوَتْ نَفْسُ الْوَلِيدِ تَأَلَّقَتْ، وَكَانَتْ بُطُولَةً مُضِيَّةً مِنْ وَرَائِهَا نُبُوَّةٌ
تَمُدُّهَا بِالضِّيَاءِ...

*

هُنَاكَ فِي وَادِي الْعَقِيقِ^(٣) كَانَتْ مُجْمُوعُ السَّمَارِ تَنْتَظِمُ خَلَقَاتٍ خَلَقَاتٍ كَمَا
شَاءَ الْهَوَى فِي عَفْوٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، وَكَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ السَّمَرِ مُحِبِّباً إِلَى أَهْلِ
الْمَدِينَةِ، بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ رُوحٍ مَرِحَةٍ، لَا خَرَجَ فِيهَا وَلَا تَغْفِيدَ. وَلَمْ يَكُنْ مَرَحُهُمْ
أَثَرُ رُوحٍ مَكْدُودَةٍ غَرَاها تَطْيِيرٌ وَتَشَاوُزٌ بِالْحَيَاةِ وَأَسْبَابِهَا، فَهِيَ تَقِرُّ إِلَى الْخَلَاءِ، إِلَى
الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَهِيَ تَضْطَنِعُ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْمَرْحِ لِتَنْسِيَ هُمُومَهَا الْمُشْتَغِلَةَ وَضَنَاهَا
اللُّغُوبَ، وَهِيَ تَنْضُو أَثْوَابَهَا الثَّقِيلَةَ وَأَغْلَالَهَا الْآبِيسَةَ الْعَانِيَةَ لِتَنْسِيَ ذَاتِيَّتَهَا، بِمَا فِيهَا
مِنْ غُنْصَرِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الْمُرْهِقَيْنِ، لِتَلْهُو هَارِبَةً مَذْعُورَةً... تِلْكَ طَبِيعَةُ
رُوحٍ مُعَقَّدَةٍ حَجَّرَهَا الْجِدُّ الْحَشِينُ، فَهِيَ لَا تَفْتَأُ شَاعِرَةً بِالْخُشُونَةِ فَيَشِيعُ فِيهَا التَّجَهُمُ
وَالْتَّقْطِيبُ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، مِنْ قُرْبٍ أَوْ
مِنْ بُعْدٍ، وَإِنَّمَا بُنِيَتْ طَبِيعَتُهُمْ، أَوَّلَ مَا بُنِيَتْ، عَلَى مَرْحٍ كَادَ يَكُونُ مُجُوناً دُونَ قَيْدٍ،

(٣) إِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِكُلِّ تَسِيلٍ يَشُقُّ الْأَرْضَ وَيُوسِطُهَا عَقِيقاً. وَفِي بِلَادِ الْعَرَبِ أَرْتَعَةُ أَعَقَّةٍ، وَمِنْهَا الْعَقِيقُ
الَّذِي هُوَ بِنَاجِيَةِ الْمَدِينَةِ فِيهِ غَيُوبٌ وَنَحِيلٌ وَقُصُورٌ وَدُرُزٌ وَمَنَازِلُ. رَاجِعْ: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، لِبَاقُوتَ، ج ٦،
ص ١٩٨.

وعلى يُشير كاذ يكون أنطلافاً من كل قيد، فشاعت فيهم سماحة مُشرقة،
وأنطبعَت على أفواههم بسمات مُشعة تُمدُّها نُعمَةٌ في الطُّبع تأتي إلا أن تَظْهَر في
دُعابة مُنْطَلِقة عارِضة، وهي إن جَدَّت تكون مُتْكَلِّفة في الجِدِّ، كما تكون تلك
الطَّبيعة مُتْكَلِّفة في المَرْح.

وأي شيء هذه الحياة إذا كانت لا تَمُنُّحنا قلباً سعيداً لم تَتَحَجَّرْ فيه السَّعادة،
والجِدُّ لا يَصِلُ المَرَّةَ بالسَّعادة، لأنها أنطلاق، وهو جُمُودٌ يُحَجِّرُها كما يُحَجِّرُ كُلَّ
شيءٍ ويتَّصِلُ به، فيُضَيِّعُ فيه حَيَوِيَّتَهُ وَيَعْرِضُهُ من رُوحِهِ... هكذا كان يَتَحَدَّثُ، في
مَجْمَعِ وادي العقيق، نُعَيْمان^(٤)، طُوفُهُ أَهْلَ المَدِينَةِ، الَّذِي لَوْلَا ما دَخَلَهُ من عُنْصَرِ
المادَّةِ الحَيَّةِ لكان رُوحَ النَّادِرَةِ المُبْدَعَةِ.

لَيْلَةٌ كانت من هَيَاتِ القَمَرِ، وهو يَذْنُو فيها كثيراً، وَيَشِيعُ كثيراً حَتَّى لَيَحْثِلُ
أَنَّهُ يَتَخَذِي الشَّمْسَ في بهاءٍ وطَرَاوَةٍ يُشْعِرَانِ بِالْجَمَالِ. ودعاها العَرَبُ «أُضْجِيَانَةً»،
كانما جُمِعَ فيها الضُّحَى أو جُمِعَتْ فيه، والضُّحَى إِغْرَاءٌ بِالْيَقْظَةِ، بيدَ أَنَّ ضُحَى
الشَّمْسِ إِغْرَاءٌ بِحَيَاةِ التَّكَالِيفِ والذِّكْرِى واليَقْظَةِ على الجَسَدِ والواقعِ القُطُوبِ،
وَضُحَى القَمَرِ إِغْرَاءٌ بِحَيَاةِ وَرَاءِ الحَيَاةِ، كُلُّها حُرِّيَّةٌ وَأَنْطِلَاقٌ، وكُلُّها نِشْيَانٌ وِلاَدَةٌ
من جَدِيدٍ في اللَّحْظَاتِ.

إِنَّ الذِّكْرِى، وفيها عُنْصَرُ الثَّباتِ والجُمُودِ، تَجْعَلُ الحَيَاةَ ضَرْبَةً لَارِبٍ في
مَرَارَتِهَا وَسَامَتِهَا وَمَلَالِهَا، والنَّشْيَانُ سَيْلٌ مِنَ التَّجَدُّدِ والصَّيرُورَةِ، يَجْعَلُ الحَيَّ في
كُلِّ الْآنَاتِ مَوْلُوداً جَدِيداً يَتَقَلَّبُ في أَسْبَابِ الطُّفُولَةِ النَّاعِمَةِ الهَانِئَةِ. فَمَدَارُ الشَّمْسِ
دُنْيَا مِنَ الْعَمَلِ وَالوَعْيِ الجَهِيدِ، وَمَدَارُ القَمَرِ دُنْيَا مِنَ النَّشْوَةِ وَاللَّوْعِي الحَالِمِ... كذا

(٤) هو نُعَيْمانُ بْنُ عَمْرِو بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ بَنِي التَّجَارِ. تُوفِّيَ في زَمَنِ مُعَاوِيَةَ. كَانَتْ تَقْلِبُ عَلَيْهِ رُوحَ الْفُكَاهَةِ
وَالنَّادِرَةِ، وَكَانَ يُدَاعِبُ النَّبِيَّ. ذَكَرَهُ الزُّبَيْرِيُّ بْنُ بَكَّارٍ فِي كِتَابِ: الْفُكَاهَةِ وَالزَّوْجِ، وَذَكَرَهُ أَبُو الْحُوَزِيِّ فِي
كِتَابِ: الطَّرَافِ وَالْمُتَمَاجِينِ، وَتَرْجَمَ لَهُ بَقُوشَعٌ أَبُو خُبَيْرٍ الْعَشَقَلَانِيُّ فِي كِتَابِ: الْإِصَابَةِ، ح ٦، ص ٢٥٠

قال نُعَيْمَانُ وهو يَتَدَفَّقُ في تَنَدُّرِهِ، وكانَ يُسَمِّي لِيَالِي القَمَرِ ضُحَى الأَخْلَامِ، لأنَّها صَحَوَاتٌ في أَعْمَقِ شُكْرِ، وَلَحَظَاتٌ شِعْرِيَّةٌ تَفِرُّ من عَتَبَاتِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي أَذْنَانَا القَمَرُ المُسْحُورُ من آفَاقِهَا المُطَلَّةِ القَرِيبَةِ.

قالَ رَجُلٌ من الحُضُورِ: لَوْ شاءَ نُعَيْمَانُ حَدَّثَنَا حَدِيثَ هَدَايَا^(٥) الَّتِي سَتَبَقِي رَمَزَ خُلُودِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَطْفِيلًا في الكَرَمِ يُشْبِهُ، في المَعْنَى، التَّطْفِيلَ في التَّهَمِ وَلَيْسَتْ تَفْضُلُهُ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَإِنَّهَا سَخَاءٌ مُضْجِكٌ، وهو مَعَهَا ضُحْكُهُ الأَشْجِيَاءِ. فَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُهورِ رَنَّةٌ مُقَهِّقَةٌ، أَنْطَلَقَتْ وَتَرَامَتْ أَبْعَدَ ما تَتْرَامِي الأَصْدَاءُ في مَطَارِحِ الخُلَطَاءِ.

قالَ نُعَيْمَانُ: أَمَّا أَنْتَ فَضُحْكَةُ البِخْلَاءِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّكَ أَكْثَرُ من بَخِيلٍ. وَأَنَا يَسُرُّنِي أَنْ أَكُونَ، كَمَا تَقُولُ، أَكْثَرُ من كَرِيمٍ، وَإِنِّي لَا أَرَاكَ في طَبِيعَتِكَ إِلَّا كَمِثْلِ زَهْرَةِ الحَنْظَلِ. فَآزَتْغَعَتِ الأَصْوَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: وما مِثْلُ الزَّهْرَةِ الَّذِي ذَكَرَتْ؟

قالَ نُعَيْمَانُ: زَعَمُوا أَنَّ فَرَّاشَةَ مُلَوَّنَةً تُخَالُ كَأَنَّهَا زَهْرَةٌ حَيَّةٌ طَائِرَةٌ، مَسَّهَا نَصَبُ التَّزْنِينِ وَلَعَبُ الطَّنِينِ الَّذِي هو نَشِيدُ أَمَانِي الفَرَّاشِ، وَهِيَ قاصِدَةٌ إلى الحُقُولِ. فَحَطَّتْ مُعْتَبِطَةً عَلَى زَهْرَةِ حَنْظَلٍ كَانَتْ تَمِيسُ بَيْنَ أَيْدِي الرِّيحِ في عَضَارَةٍ وَتَمْلُؤُ حَتَّى لَتَحَسِبَ أَنَّهَا تَفِيضُ عُصَارَةً وَمَائِيَّةً، فَدَارَتْ عَلَيْهَا الفَرَّاشَةُ دُورَاتٍ يَأِيسَةً كُظَامِيَّةٍ سَقَطَ عَلَى آلِ حَفِيٍّ، فَمَدَّتْ جَنَاحَيْهَا وَخَفَّتْ تَطِيرُ.

قَالَتِ الزَّهْرَةُ: إِذَا عُدْتُ بَعْدَ حِينٍ فَسَأَسْقِيكَ مِنْ مَاءِ يُمَارِي الوَفِيرِ.

قَالَتِ الفَرَّاشَةُ: إِذَا كُنْتُ وَأَنْتِ زَهْرَةٌ من بَنَاتِ السَّرَابِ، فَإِنَّ مَاءَكِ، وَأَنْتِ

(٥) ذَكَرَ خَتَرَهَا آثُرُ حُجْرٍ فِي: الإِصَابَةِ، قالَ: كَانَ لَا يَدْخُلُ المَدِينَةَ طَوْقَةً إِلَّا اشْتَرَى بِهَا ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِلَى الثَّيْبِيِّ، فيَقُولُ هَا أَهْدَيْتُهُ لَكَ. فَلَمَّا جَاءَ صَاحِبُهُ يَطْلُبُ نُعَيْمَانَ بِمَنْبِيِّ أَحْضَرَهُ إِلَى الثَّيْبِيِّ وَقَالَ: أَعْطِ هَذَا نَعْنَ مَتَاعِي، فيَقُولُ الثَّيْبِيُّ: أَوْلَمْ تُهْدِهِ لِي؟ فيَقُولُ: إِنَّهُ وَاللَّهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ثَمَنُهُ، وَلَقَدْ أَخْبَيْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ، فيَضْحَكُ وَيَأْتُرُ لَصَاحِبِهِ بِالثَّعْنِيِّ، وَذَكَرَهَا آثُرُ الحَوْزِيِّ فِي كِتَابِ: الظُّرُوفِ والمُتَمَاجِينِ، وَغَيْرِ وَاجِدٍ مِنَ المُولَفِينَ فِي التَّوَادِيرِ.

تَمَرَّةٌ، غُصَارَةٌ مُسْتَنْقَعٌ كَرِيهٌ، فَزَهْرُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الزَّهْرِ وَتَمَرُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الثَّمَرِ، فَإِنَّ الزُّورَ إِذَا اسْتَحَالَ فَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ إِلَى زُورٍ أَكْبَرَ.

وهذا يابى النبي كُنْتُ أَسْوَفُهَا إِلَى النَّبِيِّ إِنْ كَانَتْ تُعْبِرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا تُعْبِرُ عَنْ مَكَانِ التَّدْيِ وَالسَّمَاخَةِ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَبِيرِ، وَهُوَ لَا يَقْتَنَأُ يَأْخُذُنَا بِاللَّوَانِ مِنْهُ، وَيَمْلَأُ جَوْ حَيَاتِنَا بِطَرَاوِثِهِ، وَقُصَارَاهُ أَنَّهُ أَخْرَجَنَا مِنْ بَدَاوَةِ الطَّبْعِ، وَزَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَكَانَ أَخَذَ الْحُضُورَ: إِنَّ الْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي بَلَحْنِ حَدِيثِكَ وَاقِعَةً شَهِدْتُهَا. كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ «وَقَدْ أَخَذَ وَلِيدَهُ الْحُسَيْنَ يَدْلُغُ لَهُ لِسَانَهُ فَيَرَى الصَّبِيَّ حُمْرَتَهُ فَيَهْشُ إِلَيْهِ، وَغَيْبَتُهُ بُنْ بَدْرٍ حَاضِرٌ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، فَوَاللَّهِ إِنَّ لِي الْوَلَدَ وَمَا قَبْلَهُ قَطُّ.

قَالَ النَّبِيُّ: مَنْ لَا يَزُحِمُ لَا يُزَحِمُ».

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ حَكِيمًا: كَمْ كُنْتُ جِدًّا مُحْسِنًا يَا نُعَيْمَانُ بِقَوْلِكَ «وَقُصَارَى النَّبِيِّ أَنَّهُ زَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ»، فَقَدْ جَمَعْتَ غَايَةَ مَا يُقَالُ فِي أَخْصَرِ مَقَالٍ، وَإِنَّهُ لَيُوحِي بِشَيْءٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ أَطْرَقَ فِي تَأْمُلٍ لَمْ يَطْلُبْ بِهِ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ مَسَّ الْجَمْعَ، فَتَقَلَّبَهُمْ مِنْ جَوْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَرْجِهِ إِلَى جَوْ نَفْسِهِ فِي تَأْمُلِهِ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَطْرَدَ يَقُولُ: لَا أَذْرِي مَاذَا تَرَكَ فِي أَنْفُسِكُمْ خَبَرُ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنَّهُ أَتَقَطَّ نَفْسِي عَلَى السِّرِّ الْإِلَهِيِّ فِي مُحِيطِ الْكَوْنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ مَا فِيهِ مِنْ تَنَاسُتٍ وَنِظَامٍ، وَجَمَالٍ وَتَنَاعُجٍ. وَإِذَا كَانَتْ قِصَّةُ الْمَثَلِ^(٦) تُعْبِرُ عَنْ وَاقِعِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى قِمَمِهَا، وَذَلِكَ السِّرُّ هُوَ الرَّحْمَةُ، فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الْأَزَلِيَّةُ الَّذِي أَنْبَتَتْ مِنْهُ الْحَقَائِقُ، وَكَانَ الْوُجُودُ إِحْدَى ظَاهِرَاتِهَا، وَهِيَ فِيهِ مِقْيَاسُ الْقِيَمِ، وَنَحْنُ لَنْ نَتَّصِلَ بِالْحَقِيقَةِ

(٦) أَيِ قِصَّةِ الْمَثَلِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيَرَ رَأْسَ الْمَثَلِ.

الأخلاقيّة والطبيعيّة، وتنقذ إلى أغوار المطلقِ إلّا من طريقها، وعلى أضواؤها الملتيميّة، على أنّ الخير الذي اغتبرته قصّة المثلِ رأساً ليس في حقيقته إلّا أمتداد الرّحمّة، وظاهرة من تحوّلها، والجمال تجسّد للرّحمّة بأكثر بما هو تجسّد للخير، فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونيّة والأخلاقيّة فهما مطلقاً، ونضع اليد على مقياس القيمة الحقّ.

وميزة الإسلام أنّه جعل الرّحمّة دعامة وقام عليها، ولعلّه الدّين الوحيد الذي تهذّب بها إلى فهم الوجود، ومقياس الأخلاق، وتركّز القانون والاجتماع، وجعلها نظريّة فلسفيّة الأولى. فقد سعى الإسلام الله أحياناً رحيماً وأحياناً رَحْمَاناً، وحين تحدّث عن الكون قال في مقام «وسعت رَحمتي كلّ شيء». وفي مقام آخر قال: «كتب ربّكم على نفسه الرّحمّة». وحين تحدّث عن المجتمع العام قال: «وما أرسلناك إلّا رَحمةً للعالمين». وعن الأسرة قال: «وجعل بينكم مودةً ورَحمةً». وقال النّبيّ يصف نفسه: «أنا الرّحمّة المهداة». وحين تحدّث عن الأخلاق قال: «الراحمون يرحمهم الرّحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السّماء». وما حدّثكم به أبو هريرة الآن «من لا يرحم لا يُرحم» ففلسفة الإسلام قامت على قاعدة الرّحمّة التي عالَج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه، وبثّها في قانونه وأناطيمه، ودخل بها إلى الهيكل المُستغرق الخاشع، والمجتمع الصّاحب الدّاوي، وكسّر بها شجرة الأنانيّات الضّارّة، وحدّ بها من مدّ الرّغبات التّهمة.

وبالرّحمّة عالَج الإسلام طبيعة الإنسان المُعقّدة، ليتلّع بها مبلّغ المثل الأعلى الذي عبّر عنه بقوله: «رُحماء بينهم»، وليحقّق بها مبدأ التّآخي العامّ «إنّما المؤمنون أخوة».

وليس هناك كلمة كفيلة بأن تدلّ على روح الإسلام الشّائِعة في كلّ أوضاعه وتعاليمه سوى الرّحمّة، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه؛ كالمحبّة التي هي

الرَّمْزُ الجامع للمسيحية من أقطارها وخواشيها، وفوق ما بينهما أن في طبيعة الرحمة توازن القانون، وفي طبيعة الثانية خيالية التجريد.

وعلى أساس من الرحمة يُقيم النبي التَّوْبَةَ، ويضع مناهج الرِّبَاةِ^(٧) السَّمْحَةِ التي تَأْذُنُ لِكُلِّ الطَّبَائِعِ بالتَّوْبَةِ في تَقْدِيرِ مَوَزُونٍ، دُونَ مَا كَتَبَ يورثُ آتِيكَاساً وَالتَّوْبَةِ فِي الطَّبِيعَةِ الْمُتَفَتِّحَةِ. وَلِذَا ذَهَبَ وَلِيْدُهُ بِخَنَائِهِ، وَلَا يَفْتَأُ يُغَادِيهِ بِشَأْسٍ حُبِّهِ النَّمِيرِ.

قَالَ سَدَّادُ بَنِي الْهَادِي: لِلَّهِ ذُرُّكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَإِنَّ فِيهِمَا أَذْكُرُهُ الْآنَ شَاهِداً عَلَى مَا تَقُولُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ عَلَيْنَا فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَزَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَعَتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ آتَانِي آرْتَحِلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ».

فَقَالَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: «طَرَفْتُ النَّبِيَّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي بَعْضِ الْحَاجَةِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ وَهُوَ مُسْتَمِلٌ عَلَى سَيِّءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ حَاجَتِي، قُلْتُ: مَا الَّذِي أَنْتَ مُسْتَمِلٌ عَلَيْهِ؟ فَكَشَفَهُ فَإِذَا حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَى وَرِكَيهِ، فَقَالَ: هَذَانِ ابْنَايَ وَأَبْنَا ابْنَتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأُحِبُّهُمَا وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا».

وَأَسْتَأْنَفَ أَبُو الدَّرْدَاءِ حَدِيثَهُ فَقَالَ: إِنَّ الرِّحْمَةَ فِي الْعُصْرِيَّاتِ - وَمَظْهَرُهَا الرُّوْقَةُ وَالْحَدَبُ - هِيَ سِرُّ كِيَانِ الْمَوْجُودِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَقَائِيهِ، وَإِنَّ الطُّفُولَةَ إِذَا لَمْ تُؤْخَذْ بِرَحْمَةِ الْكَبِيرِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ هَوَّةٌ بَيْنَ الطُّورَيْنِ، تَذْهَبُ مُتَسِعَةً كُلَّمَا ذَهَبَتْ الْأَيَّامُ مُتَمَدِّدَةً، وَتَقْتُلِي وَتَطْفَحُ بِالْأَحْقَادِ، فَتَحْبُو النَّسَوَاتِ الْمُعْرِئَةَ بِالْحَيَاةِ، لِأَنَّ الطُّفْلَ لَمْ يَغْدُ

(٧) مِنْ وَضَعِنَا الْحَدِيدَ بِمَعْنَى تَوْبَةِ الطُّفْلِ، مِنْ ثَلَاثِي: رَسَتْ.

يَجِدُ حَاضِرُهُ اللَّادِ فِي الْكَبِيرِ، وَلَآنَ الْكَبِيرَ لَمْ يَغْدُ يَجِدُ فِي الطُّفْلِ مُسْتَقْبَلَ وُجُودِهِ
كَحُلْمِ الْحُمْرَةِ فِي الْعَنْقُودِ.

فَمِثْلُ نَظَرَةِ عُيَيْنَةِ بَنٍ بِدْرِ إِلَى الطُّفْلِ تُورِثُ الْبُغْضَ الْخَفِيِّ، وَتُذَكِّي الصَّرَاعَ
بَيْنَهُمَا عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَشْعُورٍ بِهِ، فَلَا تَتَجَادَبُ أَجْزَاءُ الْكَائِنِ، بَلْ تَتَدَافَعُ، وَلَا
تَتَجَانَسُ بَلْ تَتَنَافَرُ، وَبِذَلِكَ يَتَذَيَّرُ حُبُّ الذَّاتِ فِي مَظْهَرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَبْهَتْ
أَحْلَامُهُ فَتَبْدُو خَائِيَةً.

إِنَّ النَّبِيَّ يُمِثُّ، فِي الشَّبَابِ الْمُسْتَوِيِّ، الرَّحْمَةَ عَلَى سَتَى أَطْوَارِهَا:
بِالشَّيْخُوخَةِ لِأَنَّهَا الْمَاضِي، فَهُوَ يَشْتَمِلُنَا بِالْحَنَنِ، وَبِالطُّفُولَةِ لِأَنَّهَا الْمُسْتَقْبَلُ، فَهُوَ
يَسْتَهْوِينَا بِالْأَمَلِ، فَتَتَوَاصَلُ أَطْرَافُ الْكَائِنِ وَتَتَّحِدُ فِي بَقَاءٍ طَوِيلٍ، وَمَحَالٌ أَنْ يَقُومَ
مُجْتَمَعٌ عَلَى الْقَسْوَةِ. فَتَحْنُ وَأَبَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا أَطْوَارُ كَائِنٍ كُرْوِيِّ وَاجِدٍ، يَدُورُ وَثَرِينَا
فِي كُلِّ وَضْعٍ وَحِينٍ وَجْهًا، وَكُرَّةُ هَذَا الْكَائِنِ إِنَّمَا تَدُورُ بِالرَّحْمَةِ، فَإِذَا نَفَذَتْ
جَمَدَتِ الْكُرَّةُ وَذَوَتْ فِيهَا الرُّوحُ. وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَفَسَّخَ وَتُجْتَوَى إِذَا لَمْ تَكُنْ دُنْيَا
مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا مَا حَقَّقَهُ النَّبِيُّ فِي فِرْدَوْسِيهِ الَّذِي تَزْهَوُ بِهِ أَرْضُ الْعَرَبِ، وَيَلْتَمِعُ
إِلَى بَعِيدٍ فِي إِغْرَاءٍ.

إِنَّ الطُّفْلَ حَيَوَانٌ يَعِيشُ بِالْغَرِيزَةِ، وَبِالرَّحْمَةِ يُسْتَطَاعُ جَعْلُهُ إِنْسَانًا يَعِيشُ
بِالْقَلْبِ.

قَالَ نَعِيمَانُ، وَلَمْ تُفَارِقْهُ دُعَابَتُهُ: لَا عَزْوُ أَنْ كَانَتْ كُلُّ أَضْرَاسِكَ - أَبَا
الدَّزْدَاءِ - ضِرْسَ عَقْلٍ، أَوْ لَعْلَ لَكَ، وَحَدَّكَ مِنْ بَيْنِنَا، ذَلِكَ الصُّرْسُ... فَضَحِكُوا
وَهُمْ يَتَنَادَوْنَ مُتَوَاتِبِينَ إِلَى الرُّوَاكِ... «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِيحُ»...

*

فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمَتَبَدِّيةِ وَضَعَ النَّبِيُّ تَصْمِيمَ مَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ...

وما إنْ أَسْتَوَتْ عَلَى قَوَاعِهَا، حَتَّى وَجَدَ فِيهَا الظَّمَاءُ التَّائِهُونَ هَيْكَلَ
السَّعَادَةِ الشَّارِدِ...

وَدُحِيتْ لِبَنَاتِهَا مِنْ كُلِّ مِثَالِيَّةٍ آتَقَى فِيهَا الْفِكْرُ وَالْعَمَلُ، فَلَمْ تَعْلُ بِالمِثَالِيَّةِ
فَتَطِيرَ بِهَا اللَّبَنَاتُ وَتَذْهَبَ فِي سُرُودِ...
وَكَانَتْ الرَّحْمَةُ نَامُوسَ تَمَاسِكِهَا وَتَجَادُيْهَا...

*

فِي هَيَاكِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ السَّعِيدَةِ كَانَ حُسَيْنٌ يَحْبُو...
وَهُوَ يَتَسَامَى فِي مُنْبَتِّ إِشْرَاقَاتِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَمَا تَتَسَامَى اللَّالِيُّ فِي
رَقَارِقِ النَّمِيرِ الْعَذْبِ...

فَكَانَ كَائِنًا كَالْأَلَمَاسِ، صَقَلَتْهُ الْأَضْوَاءُ وَأَنْطَبَعَتْ فِيهِ...
وَعَدَا، بَعْدَ حِينٍ، مِشْكَاءَ مُتَأَلِّقَةٍ، تَمِيسُ فِي فُضَاءِ الْهَيْكَلِ السَّعِيدِ...
وَتَهَبُ الْحَائِرِينَ طُمَأْنِينَةَ النُّفُوسِ، وَأَحْلَامَ السُّعْدَاءِ!...

* * *

يوم الدولة

أَصْبَحَ النَّبِيُّ وَقَدْ جَمَعَ إِلَيْهِ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَلِيلَ كَانَ ذَاهِباً أَيْضاً فِي طَرِيقِ سَائِرِهَا، كَمَا تَذْهَبُ الرِّيحُ رَاسِمَةً خَطَّ دَائِرَتِهَا فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وَكَانَ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الرِّيحِ، وَفِيهَا أَنْطِلَاقٌ وَفِيهَا حَيَاةٌ، أَنْ تَرُوسَ دَوَائِرَها وَاحِدَةً فِي أُخْرَى أَوْسَعَ مِنْهَا، حَتَّى تَتَّصِلَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ الْأَفْقُ الْمُطْبِقُ، الَّذِي هُوَ، فِي نَفْسِهِ، أَقْصَى الدَّوَائِرِ فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ.

وَالنَّبِيُّ، إِلَى هَذِهِ الْآوَنَةِ مِنَ الزَّمَنِ، كَانَ قَدْ قَذَفَ الدِّينَ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ رُوحاً، وَسَوَّى الدَّوْلَةَ قُطْبَ الرِّيحِ فِي حَرَكَةِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ، فَانْطَلَقَتْ وَلَمْ تَقِفْ، وَتَفَرَّجَتْ وَلَمْ تَنْكَمِشْ. وَأَبْدَأَ يَقَعُ مِقْيَاسُ الْحَيَاةِ الشَّامِكَةِ فِي الْحَرَكَةِ، بِمِقْدَارِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْطُ خُطُوطاً جَدِيدَةً دَائِماً، وَتَتَشَرَّعَ فِي مَدَى خُطُوطِهَا خَيْرَاتٍ لَا تَغِيضُ دَفَقَاتِهَا، وَلَا تَخْبُو إِشْعَاعَاتِهَا، وَلَا تَبْهَتُ أَلْوَانُ أَحْلَامِهَا...

كَانَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ، وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ بِهَا عَهْداً جَدِيداً، فَقَدْ هَيَأَ النَّبِيُّ الْأَسْبَابَ لِلإِعْلَانِ عَنْ وِلَادَةِ دَوْلَةٍ فِي الْمُنَايَ الْبَعِيدِ الْمَجْهُولِ الْقُوَى، وَالْمَمْدُودِ الرِّغَابِ. فَتَنَظَّمَ طَائِفَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، تَحْمِلُ رِسَالَةَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ جَمِيعاً، فَقَدْ أَضْحَى نَبِيٌّ فِكْرَةَ وَرَعِيمِ دَوْلَةٍ.

وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ الَّتِي أَنْبَجَسَتْ مِنْ يَنْبُوعِ الثُّبُوءِ، قَدْ أَمْتَدَّتْ وَهِيَ تَمْتَدُّ، فَكَانَ

لا بُدَّ للدَّولةِ، وَقَدْ تَرَكَّزَتْ، أَنْ تَتَحَرَّكَ لِتَمْتَنِدَ أَيْضاً. وَدَائِماً تَظَلُّ الْفِكْرَةُ فِي إِحْسَاسِ التَّارِيخِ هَزِيلَةً، إِذَا لَمْ تُرَافِقْهَا الدَّوْلَةُ الَّتِي تَجْعَلُهَا خَلَاقَةً وَمُعَيَّرَةً، وَالْفِكْرَةُ لَا تَكُونُ قَابِلَةً لِتَقْوَمَ عَلَى أُسَاسِهَا الدَّوْلَةُ دَائِماً، وَإِنَّمَا هِيَ فَقَطُ الْفِكْرَةُ الَّتِي آجَتَمَعَتْ^(١) فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ وَقَابِلِيَّاتِهِ الرَّائِدَةِ، وَأَنْبَعَتْ فِيهَا عَلَى سَكْلِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ فِي آغْتِيَارِ الزَّمَنِ أَنَّهَا مِنْهُ، وَمَصِيرُ الْأَفْكَارِ الْأُخْرَى أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ إِلَى نَأْمَاتٍ خَافَتِ فِي أَذُنِ الدَّهْرِ، وَسَمِعِ التَّارِيخِ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْفِكْرَةِ، الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا قُوَى تَارِيخِيَّةٍ كُبْرَى وَتَنْجَحُ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ وَخَلْقِ تَارِيخٍ جَدِيدٍ، أَنْ تَكُونَ فِيهَا عُنَاصِرُ الثَّوْرَةِ كَامِلَةً، الثَّوْرَةُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ مِنْ يَقْظَةِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِدَةِ.

وَلَأَنَّ تَعَالِيمَ النَّبِيِّ مِنْ هَذَا النَّوعِ الَّذِي آجَتَمَعَتْ فِيهِ قُوَى التَّارِيخِ كَانَتْ لَا تَنْصِلُ بِمُجْتَمَعٍ إِلَّا وَتَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا، فَتُلْهِمُهُ وَتُحَرِّقُ عَلَيْهِ زُبُوفَهُ وَتُعَيِّرُهُ تَغْيِيراً تَاماً، حَتَّى كَأَنَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا لَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ. بِذَلِكَ نَجَحَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ وَنَجَحَتْ دَوْلَتُهُ، وَفِيهَا الْقُوَى لِتَنْجَحَ كُلُّمَا حُرَّكَتْ وَأَنْبَعَتْ.

وَكَانَتْ كُتُبُ النَّبِيِّ إِلَى الْمُلُوكِ أَوَّلَ دَعْوَةٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي التَّارِيخِ، دَعْوَةٌ دَوْلِيَّةٍ عَامَةٍ لِلدَّخُولِ فِي النِّظَامِ الْجَدِيدِ، وَجُهِتْ عَلَى سَكْلِ كِتَابٍ رَسْمِيٍّ. كَمَا كَانَتْ إِعْلَاناً بِوِلَادَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ، الَّتِي فِي ضَمِيرِ الزَّمَنِ عَنْهَا: أَنَّهَا كُلُّمَا وُلِدَتْ حَقّاً يَتَغَيَّرُ وَجْهُ التَّارِيخِ.

(١) وَمَعْنَى آجَتَمَاعِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِدَةِ فِي الْفِكْرَةِ، أَنْ تَشْتَمِلَ الْفِكْرَةُ الْجَدِيدَةُ عَلَى كُلِّ الصَّرُورَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، سِوَاةِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْحَيَاةِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَمِثَالُهُ: أَنَّ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي دَوْلَةِ فَارِسَ ثُمَّ تَخَلَّقَتْ، وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الرُّومَانِ، وَذَوِلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وَجَدَتْ سَبِيلَ ظُهُورِهَا وَقَابِلِيَّةَ أَنْبِعَاتِهَا فِي الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَانْتَبَعَتْ فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ رَكَدَتْ فِي الْأُمَمِ حَبِيئاً، وَكَذَلِكَ كُلُّ فِكْرَةٍ فِي كُلِّ دَوْرٍ لَا تَمْلِكُ قُوَّةَ الْإِنْتِدَادِ وَالْحَيَاةِ وَالشَّيْطَانَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهَا قَابِلِيَّةٌ لِأَنْبِعَاتِ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةِ فِيهَا الَّتِي تَخَلَّقَتْ فِي أَوْضَاعِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى.

في هذه الفترة كنتُ نحسُّ في كُلِّ نَحْوٍ من أُنحاءِ المَدِينَةِ بِحَرَكَةِ نَشَاطٍ غَرِيْبَةٍ، وَتَسْمَعُ هَمَسَاتٍ مُسْتَطِيلَةً مُتَّصِلَةً الِهَمَمَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حَدِيثٌ إِلَّا حَدِيثُ الْكُتُبِ، وَمَاذَا سَيَكُونُ رَجْعُهَا وَرَدُّ الْمُلُوكِ عَلَيْهَا؟ وَكَانَ، فِي الطَّرِيقِ الْآخِذِ إِلَى الْعَوَالِي، جَمَاعَةٌ أَنْتَحَتْ بِنَفْسِهَا نَاجِيَةً ظَلِيلَةً تَكَاثَفَتْهَا أَوْرَاقُ الْأَغْصَانِ الْوَارِفَةِ. فَقَالَ قَائِلٌ: أَمَا تَرَوْنَ أَنَّهَا مُحَاوَلَةٌ خَطِرَةٌ، قَدْ تَوَلَّبَ عَلَيْنَا جَمَاعَاتُ الْأُمَمِ، وَهِيَ تُحِيطُ بِجَزِيرَتِنَا إِحَاطَةً السُّورِ بِالْمِغْصَمِ، فَإِنَّ نَفْسِي تَنْتَاشُهَا الْخَوَافُ، وَتَتَقَسَّمُهَا شِعَاعاً.

قَالَ الْمُقَدِّدُ بْنُ الْأَسْوَدِ: لَا يَنْتَفِخُ سَحْرُكُ^(٢) بِالْأَوْهَامِ، وَلَا تُرْعِ، وَسِرٌّ عَنْ نَفْسِكَ الْخَوَافُ. إِنَّ لَنَا مِنْ قُوَانَا الْجَمِيعَةِ مَا يَجْعَلُنَا كُتْلَةً مِنَ الصُّلْبِ، مِنْ وَرَائِهَا الْإِيمَانُ يَشُدُّنَا، وَمِنْ وَرَاءِ الْإِيمَانِ اللَّهُ وَاهِبُ الْقُوَى وَالْقَدَرِ، فَلَسْنَا نَزْهَبُ عَاتِيًا مِنَ الْبَشَرِ. وَإِنَّ النَّفْسَ الَّتِي رَأَتْ وُجُودَهَا فِي اللَّهِ، تَنْتَاطُلُ بِهَا الْقُوَى، وَتَتَقَاصَرُ فِي مَدَى آغْتِيَارِهَا أَيُّهُ قُوَى أُخْرَى، فَتَنْقَذِفُ، وَهِيَ قَلَّةٌ رَاعِدَةٌ، مِنْ مَصْدَرِ الْقُوَّةِ الْكُبْرَى. وَحَظَّ الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَيَاةِ، كَمَا هُوَ فِي مِرَآةِ نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ يَنْبُوعُ الْمُطْلَقِ، وَلَيْسَ كَمَا هُوَ فِي مِرَآةِ الْوُجُودِ الَّتِي لَا تَعْكُسُ إِلَّا نِسْبِيَّةً وَظِلَالاً خَادِعَةً مُخْتَلِطَةً. وَإِنَّ الْوُجُودَ كَائِناً بَسِيطاً، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا حَقَائِقَ بَسِيطَةً، وَأَمَّا حَقَائِقُ الْوُجُودِ الْعَظْمَى فَهِيَ مِنْ هِبَاتِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْوُجُودِ. وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ كَائِناً مُتَفَصِّلاً مِنَ الْوُجُودِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ أَدَاةُ خَلْقٍ وَتَكْمِيلٍ فِيهِ... فَالْحَيَاةُ وَأَشْيَاؤُهَا، وَالْوُجُودُ الْمُغْتَوِيُّ وَفِكْرَتُهُ، بِدَعَةِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْعَجِيبِ الَّذِي لَوْلَاهُ لَظَلَّ الْوُجُودُ بَسِيطاً سَاجِداً خُلُوعاً مِنَ الْإِغْرَاءِ.

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَفْتَأُ يَطْلُبُ كِبْرِيَاءَ الْوُجُودِ، وَيُحِسُّ بِنَشْوََةِ وُجُودِهِ فِي حُدُودِ هَذِهِ الْكِبْرِيَاءِ، بَلْ لَا يُحِسُّ بِالْوُجُودِ بَعِيداً، لَيْسَ كَائِناً طَبِيعِيّاً، وَإِلَّا فَهُوَ،

(٢) تَفْسِيرٌ كِبَائِيٌّ أَشْتَقَعْلُهُ الْغَرَفُ فِي الْحَاثِلِيَّةِ وَفِي الْإِسْلَامِ تَعْنَى: لَا يَمْلِكُ الرُّغْثُ وَالْهَلَقُ أَخْشَاعَكَ وَرَبَّنِيكَ.

كَكَائِنٍ طَبِيعِيٍّ، شَيْءٌ نَافَهُ مِثْلُ أَيِّ كَائِنٍ آخَرَ يَنْمُو وَيَذْوِي بَيْنَ فُتْرَاتٍ مِنَ الزَّمَنِ.
وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمَانٌ بِالْإِنْسَانِ، وَهَذِهِ
لِلْإِيمَانِ بِالْوُجُودِ الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ وَثِيَّةٌ تَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِيمَانِ بِنَفْسِهِ
وَمَعْرِفَتِهَا، وَإِلَى هَذَا يَوْمُ قَوْلِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ».

فَالْإِنْسَانُ كَائِنٌ إِلَهِيٌّ إِذَا فَهِمَ نَفْسَهُ، وَكُلَّمَا رَسَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَأَمَنَ بِقُوَاهَا،
فَقَدْ رَسَبَ وَتَلَاشَى فِي غِمَارِ الْوُجُودِ الصَّامِتِ، وَعَادَ كَحَفَنَةِ هَامِدَةٍ مِنَ الرَّمَالِ.
وَالنَّبِيُّ بَشَرٌ بِالْإِنْسَانِ «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» وَحَارَبَ الْوَثِيَّةَ لِأَنَّهَا كُفِّرَ بِهِ، وَارْتَدَّ
إِلَى تَأْلِيهِ مَظَاهِرِ الْوُجُودِ الْخَادِعَةِ، وَجَاءَ بِتَوْحِيدِ الْآلِهَةِ لِأَنَّهَا كُلَّمَا تَعَدَّدَتْ تَلَاشَى
الْإِنْسَانُ فِي سَاحَتِهَا.

وَمَا أَنْكَسَفَ قَمَرُ الْإِنْسَانِ فِي أُمَّةٍ، وَارْتَدَّتْ بِعِبَادَتِهَا إِلَى تَقْدِيسِ الطَّبِيعَةِ
دُونَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا هَوَتْ مُضْمَجَلَّةً، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عِلَاقِمِ آخِضَارِهَا، فَإِنَّ
الْإِنْسَانَ، وَخَدَّهُ، هُوَ الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ حِينَ خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَى
صَوْرَتِهِ.

وَالْقُوَّةُ - يَا هَذَا - كَيْفِيَّةٌ لَا كَمِّيَّةٌ، وَلَيْسَتْ كَمَا هِيَ فِي مِرَاةِ الْوُجُودِ، بَلْ
كَمَا هِيَ فِي وَجْدَانِ الْإِنْسَانِ، وَالظَّفَرُ دَائِمًا يَكُونُ بِخَيَالِ الْقُوَّةِ وَمُبَالَغَاتِهَا فِي النَّفْسِ
«كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ». فَوَاللَّهِ لَوْ قَدَفَ بِنَا النَّبِيُّ إِلَى بَرَكِ
الْإِعْمَادِ وَإِلَى كُلِّ مَدَائِنِ كِشْرَى وَقَيْصَرَ مَا وَثِقْنَا وَلَا نَكَلْنَا؛ وَنَحْنُ لَا بُدَّ ظَافِرُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: عَهْدُنَا بِكَ أَنْتَ بَطَلٌ، فَهِيَ أَنْتَ حَكِيمٌ أَيْضًا...

قَالَ الْمُقَدِّدُ: إِنَّ الْبُطُولَةَ مَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، فَإِذَا بَرَزَتْ فِي الْعَمَلِ قِيلَ عَنْهَا
بُطُولَةٌ، وَإِذَا بَرَزَتْ فِي الْفِكْرِ قِيلَ عَنْهَا حِكْمَةٌ. فَالْبُطُولَةُ حِكْمَةٌ صَامِتَةٌ، وَلَنْ يَكُونَ
الْمَرْءُ بَطَلًا إِلَّا إِذَا سَبَقَ وَعَرَفَ نَفْسَهُ، أَيْ كَانَ حَكِيمًا، وَالنَّبِيُّ سَبَقَ وَعَرَفَنَا بَأَنْفُسِنَا،

فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ كُلُّ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أُبْطَالًا.

وَتَبَيَّنَ هُمْ عَلَى تَبْطِطِهِمْ فِي الْحَدِيثِ، عَرَضَ رَاكِبٌ مُجِدِّ يُغْذِي الْخَطِيئَةَ غَدًا،
وَحِينَ حَاذَاهُمْ قَامَ إِلَيْهِ الْجَمْعُ وَخَفُّوا بِهِ مُلْقِينَ إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ.

وَقَالُوا بِلَهْجَةِ الْمُتَنَبِّئِ: مَا وَرَاءَكَ؟ وَكَانَ هُوَ الرَّسُولَ الَّذِي بَعَثَهُ النَّبِيُّ بِالْكِتَابِ
إِلَى كِشْرَى.

قَالَ الرَّايِبُ، وَقَدْ أَلَوَى رَأْسَهُ حَتَّى حَاذَى رُؤُوسَهُمْ: إِنْ كِشْرَى بَلَغَتْ بِهِ
حِمَايَتُهُ أَنَّهُ مَرْقَ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ مُسْتَحْفًا حَانِقًا، فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَتُهُ سَالِمًا عَدَا
عَلَيْهِ أَتَبُّهُ فَقَتَلَهُ، وَقَامَ مَقَامُهُ، وَشَمَلَ النَّاسَ كَأَفْتَهُمْ نَوْعٌ، بَلْ أَنْوَأَتْ، مِنَ الذَّهْوِلِ
وَالدَّهْشَةِ وَالاضْطِرَابِ، وَتَرَكْتَهُمْ وَهُمْ يَمْجُجُونَ كَالْأَذْيِ ذِي الْأَمْوَاجِ الْعَارِمَاتِ...
فَتَعَلَّقُوا بِمُسَاءَلَتِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَكِنَّهُ حَثَّ مَطِئَتَهُ وَأَنْطَلَقَ يَسِيرُ، فَأَنْقَلَبُوا إِلَى
بَغْضِهِمْ يَتَعَجَّبُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَقَدْ صَدَقَ الْمَقْدَادُ وَاللَّهُ حِينَ قَالَ: إِنْ الْإِيمَانَ إِذَا خَبَا،
حَلَّ مَحَلُّهُ جَهْلُ الْإِنْسَانِ قِيَمَتَهُ. وَالْمُثُلُ الْعُلْيَا وَالْمَعْنَوِيَّاتُ الْخَالِدَةُ، وَهِيَ تَنْبُغُ مِنْ
مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ، لَا يَعُودُ لَهَا وُجُودٌ فِي جَوْهٍ وَفَضَائِهِ، فَيَسِيْطِرُ عَلَيْهِ نَوْعٌ حَادٌّ
مِنَ التَّفَاهَةِ يَقْعُدُ بِهِ عَنِ الْمَجْدِ، وَنَوْعٌ حَادٌّ آخَرُ مِنَ الْمَلَالِ يَهْبِطُ بِهِ إِلَى الرُّغَامِ. وَفِي مَا
نَقَلَ إِلَيْنَا الرَّسُولُ الْآنَ مِنْ حَالِ الْفُرْسِ شَاهِدٌ جَدُّ خَطِيرٍ، فَهُمْ أُمَّةٌ جَهْلُ الْإِنْسَانِ
فِيهَا قِيَمَتُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ وَلَا قِيَمَةَ لَهَا، زُوَيْدٌ أَنْ تُشْرِقَ عَلَيْهِمْ شَمْسُ إِنْسَانِيَّتِنَا
الْجَدِيدَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى خَفُّوا، بَغْضُهُمْ فِي إِثْرِ بَغْضٍ، وَوَأَفَوْا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ
النَّاسُ يَمْجُجُونَ مَوْجًا، فَقَدْ هَبَطَ أَيْضًا الرَّسُولُ إِلَى قَيْصَرَ وَهُوَ يُنْقَلُ بِمِقْدَارِ آخِرِيَامٍ
قَيْصَرَ لِلْكِتَابِ، وَهَبَطَ سَائِرُ الرُّسُلِ الْآخَرُونَ يُنْقَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَبَارَكَهُمُ النَّبِيُّ وَنَادَى

المُؤَذَّن «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ» فَاسْتَوَى النَّبِيُّ فِي مُضَلَّاهُ، وَخَفَّ النَّاسُ يَنْتَظِمُونَ صُفُوفاً.

قَالَ قَائِلٌ لآخَرٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ النَّاسُ يُكَبِّرُونَ بِالصَّلَاةِ: إِنِّي لَيْسَتْخِفُنِي شُعُورٌ غَنِيْفٌ أَنَا مَعَهُ جِدٌّ مُغْتَبِطٌ، فَقَدْ طَفَرْنَا إِلَى قِيَمَةِ التَّارِيخِ، وَغَدَوْنَا أُولَى فِكْرَةٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْفِكْرُ، وَأُولَى مُجْتَمَعٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْمُجْتَمَعُ، وَإِنَّهُ سَيَظِلُّ لَنَا تَذْكَارَانِ خَالِدَانِ: يَوْمُ الْهَجْرَةِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ النَّبُوَّةِ، وَيَوْمُ الرُّسُلِ أَوْ الشُّفَرَاءِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ الدُّوَلَةِ. «وَجَاءَ حُسَيْنٌ يَشْتَدُّ بَيْنَ الصُّفُوفِ، وَقَدْ سَجَدَ النَّبِيُّ يُصَلِّي فَالْتَزَمَ غُنْفَهُ، فَقَامَ وَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُمَسِّكُهُ حَتَّى رَكَعَ».

مَضَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَأَهْلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ قَدْ شَارَفَ الرَّابِعَةَ أَوْ غَيْرَهَا، حِينَ أَتَجَّهَ النَّبِيُّ لِذَلِكَ آخِرِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ الْأَوْهَامِ، (مَكَّةَ)، الَّتِي هَوَتْ بِالْإِنْسَانِ إِلَى دَرْكِ التَّارِيخِ، وَمَلَأَتْ أَجْوَاءَهُ بِالْأَسَاطِيرِ، حَتَّى أَنْقَلَبَ مَعَهَا وَهُوَ أُسْطُورَةٌ حَيَّةٌ، وَأَنْقَلَبَتْ دُنْيَاهُ الَّتِي يَحْيَاهَا وَهِيَ حَيَاةٌ فِي أُسْطُورَةٍ.

هَبَطَتْ جُمُوعُ النَّبِيِّ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَدَلَفُوا إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ حَذَبٍ، وَبَرَزَ النَّبِيُّ كَالنَّشْرِ الطَّائِرِ، وَهُوَ رَمَزُ فِكْرَةٍ وَتَفَوُّقٍ، وَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَمِنْ آيَةٍ جِهَاتِيهِ أَوْهَامٌ مُتَجَسِّدَةٌ (أَصْنَامٌ)، عَبَدَهَا الْإِنْسَانُ، فَكَانَ يُشِيرُ إِلَيْهَا بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا، وَيَهْتِفُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْقَارِعَةِ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً». فَهَوَتْ مُكِبَّةً، وَغَابَ رَجُوعُ صَدَاهَا فِي الْغُورِ السَّحِيقِ، وَتَمَجَّدَ الْحَقُّ يَوْماً فِي دُنْيَا الْإِنْسَانِ، وَغَرَا النَّاسُ بِلَالِ الْمَوْقِفِ، وَرَاحُوا فِي يَقْظَةٍ اسْتِغْرَاقٍ كَانَتْ وَاعِيَةً، وَجَرَى عَلَى لِسَانِ فُضَالَةِ اللَّيْثِيِّ:

لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرَ الْأَصْنَامُ
لَرَأَيْتَ نَوْرَ اللَّهِ أَصْبَحَ بَيْتَنَا وَالشُّرُكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

وَحُشِدَتْ فُرَيْشُ أَشَابَاتِ أَشَابَاتٍ، وَرَاحَ النَّبِيُّ يَخْطُرُ بَيْنَهُمْ، وَرُؤُوسُهُمْ قَدْ
سَاوَتْ الصُّدُورَ.

قال: ما تَزُونِي فَأَعْلَأُ بِكُمْ؟

قالوا: أَخُ كَرِيمٌ وَأَبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ!

فَقَالَ، وَقَدْ جَمَعَ ثُبُلَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَطْرَافِهِ: إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

وَرَدَّدَ الصَّدَى فِي كُلِّ مَكَانٍ «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»، الَّذِي كَانَ إِعْلَانًا
لِلْبَشَرِيَّةِ بِأَنَّ هَذَا يَوْمُ خُرُوجِهَا. فَلَمْ تَكُنْ حَرْبُ النَّبِيِّ عُنْتًا وَأَضْطِّهَادًا وَقَدْ وَجَدَ سَبِيلَهُ
إِلَيْهِمَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَلَاصًا وَتَحْرِيرًا لَكِي يَتَنَفَّسَ الْإِنْسَانُ بِمِلْءِ رِئْتَيْهِ فِي الْعَرَاءِ...
وَتَرَدَّدَ فِي الدَّهْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا أَطْلَقَ الْفَقِيرَ، وَكَسَرَ قَيْودَهُ...

وَرَاحَ الْفَرَّاشُ يَطِيرُ فِي الْحُقُولِ تَتَحَاضَّنُهُ أَيْدِي الزَّهْرَاتِ.

فَقَلَ النَّبِيُّ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ آزَدَهَتْ بِنَهَجَاتِهَا، وَأَضْبَحَتْ وَفِي كُلِّ
نَيْتٍ صَدَى فَوْحَةٍ أَنْطَلَقَتْ مُتَمَاجِجَةً وَكَبِيرَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ يُلَبِّي دَعْوَاتِهِمْ وَيُشَارِكُهُمْ
مِرَاحَ الظَّفَرِ وَفَخَارِهِ.

قَالَ يَغْلَى بُنُ مُرَّةً: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى طَعَامٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ فِي
السُّكَّةِ مَعَ غِلْمَانٍ يَلْعَبُ. فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُ
هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُضَاحِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ، فَوَضَعَ إِيَّاهُ فِي يَدَيْهِ تَحْتَ
قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وَقَبْلَهُ، وَقَالَ:

حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، وَحُسَيْنٌ سَبِطٌ مِنَ
الْأَسْبَاطِ».

*

نُجِبُ الْبُيُوتَ لِأَنَّهَا خُلُودٌ لِلذَّاتِ...
وفي الحُسَيْنِ كَانَ النَّبِيُّ يَرَى خُلُودَ ذَاتِهِ...
فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ يَغْمُرُهُ بِهَذَا الْحُبِّ لِأَنَّهُ آسْتِمْرَارُ ذِكْرِ النَّبُوَّةِ...

*

ضَمُّهُ إِلَيْهِ مَلَيًّا بَيْنَ الْحُبِّ وَالْمَجْدِ...
وَحَنَا طَوِيلًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ...
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَفِكْرِهِ جَمِيعًا...
وظَلَّ أَبَدًا رَمَزَ مَجْدٍ شَامِخٍ، وَقُبْلَةَ حُبِّ كَتَنَفُسِ أَزْهَارِ السَّحْرِ وَعَبَقِي
الْخُلْدِ!...

*

الْحُبُّ سُعُورٌ إِلَى سُعُورٍ، وَخَفَقَةُ قَلْبٍ إِلَى خَفَقَةِ قَلْبٍ...
وَالسُّعُورُ جَوْهَرٌ فَرْدٌ لَيْسَ يَنْقَسِمُ...
فَكَانَ حُسَيْنٌ مِنْهُ وَكَانَ مِنْ حُسَيْنٍ!...

*

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ!...
خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ مُشِيرًا إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ...
لِيَقِفَ شَاعِرًا بِوُجُودِهِ عَلَى حُطَامِ الْأَغْلَالِ وَرُفَاتِ أَرْبَابِ الْقُبُورِ...
فَهَذَا صَوْتُ مَنْ السَّمَاءِ يَنَادِي بِالْحُرِّيَّةِ وَيُنَادِي بِالْخَلَاصِ...

إذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

كَلِمَةً صَدَرَتْ مِنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَبَيْتِ مُحَمَّدٍ...

فَكَانَتْ إِذْنًا بِأَنَّ مُؤَكِّبَ الْحُرِّيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ يَسِيرُ، وَفِي الطَّلِيعَةِ أَبَدًا
يَكُونُ...

وَطَبِيعَةُ الطَّلِيقِ، لَا تَجْعَلُهُ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ خَلِيقًا...

فَأَبْنَاءُ الْإِسَارِ يَنْطَلِعُونَ عَلَى شَهْوَةِ الْأَسْرِ...

فَقَدْ عَشَّشَتِ الْقُبُودُ فِي رُوحِيَّتِهِمْ وَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا عَقْلِيَّتُهُمْ!...

*

وَلَكِنْ حَاوَلَ الطَّلِيقُ الْإِنْتِهَارَ وَكَانَ...

فَعَادَتْ قُبُودُ السَّجْنِ وَالسَّجَّانِ...

فَحَمَلَ حُسَيْنٌ - وَهُوَ رَامُوزُ بَيْتِ الْحُرِّيَّةِ وَحَارِسُهَا - الشُّغْلَةَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى كُلِّ
مَكَانٍ...

فَقَدْ سَمِعَ زُمْرَةُ مُحْرِقِ الْأُرَمِ مِنْ وَرَاءِ الْقُبُورِ، فَأَعْلَنَ التُّكْرَانَ...

وَهَبَّ تَحْتَ صَوْتِ الْوَاجِبِ يُغَالِبُ الْبُخْرَانَ... وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكْبَحْ جِمَاحَ
الطُّغْيَانِ...

فَقَدْ تَرَكَ فِي جَنْبِهِ نَوْرَةَ الْبُرُكَانِ...

* * *

دموع

كثيراً ما كان النبي يرى، في أخريات أيامه، بين ذويه وأبنائه يؤانسهم، ويطمئن في نشوة خفية إلى أشياء لهوهم البريء ومرجهم الحلو، ويعاطيهم أشباب هذا اللهو وهذا المرح، ويمد لهم فيهما، فقد حقق حلم المجد وأدى غاية الرسالة القسوى، فهو يشغر بالاطمينان والرضا، ويحس بتراحم سرور عميق.

وكان يأنس كثيراً إلى هذا الجو الذي تشيع فيه حركات الطفولة ناعمة ببراءتها، هائلة بسذاجتها، منتشبة بطراوتها... وهي، رغم قسوتها أحياناً، تجد وقعها اللذيذ، فإن البراءة جمال على شتى صورها وألوانها.

والطفولة، وخذها، أثبت حقائق الحياة، وما وراءها سُخرات وأشباه سُخرات تبدو خشيئة، وكلما أوغلنا في مدى الحياة تزيد خشونة وتوعراً. وحين تُدركنا لذاتها عرساً فإنما تكون في شكل من أشكال الرجعة إلى الطفولة، وفي إنضاء زيواف ثقيلة من أثواب التكلف المزهقة... والتكلف رياء وأناية على كل وجوهه، ولذلك أنصرف جهد النبي إلى أن يصنع في كل الحياة براءة الطفولة.

ونحن لا نستطيع الرجعة إلى الطفولة وبغتها من جديد على أية صورها، كما نغجز دائماً عن خلق جوها المترف، فنطلبها في الطفل بتشويق ملخ، وفي نوع من الحنين الآسِر، ليغمُرنا بروجيتها التي تظل فينا أملاً منشوداً، ورغبة حادة.

والتَّبِيُّ كَانَ يَجِدُ طُفُولَةَ حَيَاتِهِ اللَّادَّةَ فِي أَثْنَائِهِ كَمَا كَانَتْ وَعَلَى مَا كَانَتْ،
فَيَأْخُذُهُمْ بَصُونِ اللَّعَابِ فِي خَنَانٍ وَافْتِرَارٍ. وَكَثِيراً مَا كَانَ يُرَى الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
يَضْطَرِعَانِ وَهُوَ يُحَمِّسُهُمَا، أَوْ يَلْعَبَانِ بِالْمَدَاحِي^(١) وَهُوَ يُعْبُ الثَّهَاءَةَ عَبَّاءً، وَيَتَمَلَّأُ
مِنْهَا، وَيَتَذَوَّقُ «خُلُوءَ الْبَنِينَ» الَّتِي هِيَ النَّشْوََةُ الْكُبْرَى فِي ظِلَالِ الْعُمُرِ. فَإِنَّ لَدَاةَ
الْحَيَاةِ تَقُومُ فِي نَشْوَتَيْنِ: نَشْوََةُ بِالطُّفُولَةِ، وَنَشْوََةُ بِذِكْرَاهَا فِي الطُّفْلِ، وَمَا بَقِيَ مِنْ
فُصُولِ الْحَيَاةِ هَجِيرٌ كَهَجِيرِ الظَّهِيرَةِ، وَلَذِئِكَ كَلَذَعَ اللَّهَبُ، وَخُرْقَةُ تَنْتَهِي بِمَرَارِزِهَا.
وَالطُّفْلُ طَائِرٌ يَرِفُ بَيْنَ أَيْدِينَا لِتَلَحُّقِ بِهِ إِلَى جَوْ حَقَائِقِهِ وَأَحْلَامِنَا، وَكَأَنَّ
الْحَيَاةَ تَضَعُ الْحَقِيقَةَ الْعَارِيَّةَ السَّعِيدَةَ، بِكُلِّ فُتُونِهَا، بَيْنَ يَدَيِ الطُّفْلِ، فَيَغْرُقُ فِي
خُمَارِهَا زَمَنًا، وَلَكِنَّهَا تَنَائِي وَهُوَ فِي قِمَّةِ شُعُورِهِ بِاللَّذَّةِ الْمُطْلَقَةِ، فَيَخْبُو وَرَاءَهَا فِي
لَهْفَاتٍ، ثُمَّ يَغْدُو فِي لَهْفَاتٍ، وَهِيَ تَنَائِي وَتَنَائِي حَتَّى تَحُورَ فِي كَوْنٍ مِنَ الضَّبَابِ
يَحُولُ الْأُفُقَ دُونَهَا، وَيَقْطَعُ بِالْحَيِّ الْمَسِيرِ فَيَسْتَعْرِقُ حَالِمًا، هَائِمًا، فَقَدْ سَقَطَ فِي
الشَّرَابِ، تَطَوَّفَ بِهِ وَتَنَازَعَهُ أَحْلَامُ الْمَاءِ.

وإِذْ يَضْطَرِعَانِ، كَانَ التَّبِيُّ يُهَيِّجُ حَرَكَاتِ طُفُولَتَيْهِمَا الْمُتَشَابِكَةِ الَّتِي هِيَ رَمْزُ
عَبَثٍ فِي جِدٍّ، وَجِدٍّ فِي عَبَثٍ، تَنْتَظِمُهَا بَرَاءَةٌ مَارِحَةٌ.
فَيَقُولُ: «إِيهَا حَسَنُ».

قَالَتْ فَاطِمَةُ: أَسْتَنْهَضُ الْكَبِيرَ عَلَى الصَّغِيرِ؟!

قَالَ: هَذَا جَبْرِيلُ يَقُولُ: «إِيهَا حُسَيْنُ!».

وَجَبْرِيلُ رَمْزٌ مِنَ الْمُطْلَقِ، وَأَسْمٌ مِنَ الْمَثَالِ، وَفِي لَحْظَةِ اسْتِعْرَاقٍ وَاسْتِغْلَايٍ
طَافَتْ بِنَفْسِ التَّبِيِّ صُورَةٌ مِنَ التَّجْرِيدِ بَرَزَتْ مُجَسِّمَةً وَمُكَبَّرَةً، وَهِيَ تُشَارِكُهُ نَشْوَتَهُ

(١) الْمَدَاحِي: أَخْجَازٌ، كَانُوا يَخْفِرُونَ خَفِيرَةً وَيَذْهَبُونَ فِيهَا بِتِلْكَ الْأَخْجَارِ، فَإِنْ وَقَعَ الْحَجَرُ فِيهَا فَقَدْ غَلَبَ
صَاحِبُهَا، وَإِنْ لَمْ يَتَغَنَّ غَلَبَ، وَالذُّخْرُ زُمِّي اللَّاعِبِ بِالْحَجَرِ وَالْجُوزِ وَغَيْرِهِ. أَيْ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بِالْغُولِ الْيَوْمَ.

وَبَهْجَةٍ مَا يَجِدُ جِيَالَ مَرَحٍ سِبْطِيهِ. وَلَمْ يَكُنْ جَبْرِيلُ غَرِيباً عَنْ جَوْهٍ، فَهُوَ زَمْزُ
رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حُسَيْنٌ بَعِيداً عَنْ قَلْبِهِ، فَهُوَ زَمْزُ حُبِّهِ. وَفِي هَذَا الِاسْتِنْهَاضِ
التَّمثِيلِيِّ زَمْزِيَّةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحُسَيْنَ سَيَكُونُ رَائِدَ الرِّسَالَةِ وَعَلَمَ الْهُدَى، فِي أَعْمَاقِ
ضَمِيرِهِ صَوْتُ مِنَ الْغَيْبِ يَتَرَدَّدُ أَبَداً: إِيهَا حُسَيْنُ!...

مَعَ الْأَصِيلِ كَانَ فِي أَقْصَى الصَّخْرَاءِ رَاكِبٌ يَسِيرُ بَيْنَ الْجِدِّ وَالْهُوَيْنَا آخِذاً
نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَدَوَّى مِنْ بَعِيدِ كُرَّةٍ يُدْخِرُهَا الْأُنْقُ عَلَى الرِّمَالِ، وَالصَّخْرَاءُ هَيْكُلُ
أَبَدِيَّةٍ مَكْشُوفَةٍ، تَتَمَدَّدُ فِي النَّفْسِ عَلَى رُحْبِهَا، فَتَتَمَدَّدُ بِهَا النَّفْسُ لَا مُتَنَاهِيَةً تَطَالُعُ
الْمَجْهُولِ.

وَكَانَ الرَّايِبُ أَبَا دُوَيْبٍ الشَّاعِرَ الْحَزِينُ الَّذِي صَفَّرَ الْحُزْنَ عَلَى هَامَتِهِ إِكْثِلًا
تَنَائَرَتْ أَوْرَاقُهُ، وَتَقَيَّتْ أَشْوَكَهُ الْقَاسِيَةُ تَأْبِرُهُ فِي خَطَرَاتِ الذِّكْرِ، وَخَلَجَاتِ
الْحَيْنِ، وَرَجَفَةِ الْهَوَى، وَتَأَوَّدَاتِ الطَّيْفِ^(٢).

وَالصَّخْرَاءُ يَثْبُوحُ ذِكْرِيَاتٍ سَيِّمًا لِنَفْسِ إِنْسَانٍ مَحْزُونٍ تَكْسَرَتْ أَصْدَاءُ
الْأَسَى فِي أُنْدَتِيهِ، فَهُوَ يُحْسِنُ بَوَقْرَهَا فِي الْخَلَاءِ ضَاجِجاً غَنِيماً، وَالنَّفْسُ الْبَائِسَةُ يَزْدَادُ
فِيهَا صِدْقُ الْحَيِّسِ وَالْحَدَسِ، وَتَتَأَثَّرُ بِالْفَوَاجِعِ مِنْ بَعِيدٍ، وَبِرَعَشَاتِ الْغَيْبِ وَالْمَجْهُولِ.
عَرْنَتْهُ، وَالْمَطِيَّةُ تَنْتَهَادِي بِهِ، هِزَّةً شَجِيًّا، وَتَأَوَّدَتْ فِي أُعْطَافِ الصَّخْرَاءِ أَمَامَ
نَاطِرَتِهِ طُيُوفَ رَايِمَةٍ. «وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ التَّبِيَّ عَلِيلٌ، وَكَانَ قَدْ اسْتَشْعَرَ حُزْناً مُذِيئاً،
وَكَانَ قَدْ بَاتَ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ لَا يَنْجَابُ دَيْجُورَهَا، وَلَا يَطْلُعُ نَوْرُهَا قَبْلَ أَنْ آبَتَدَأَ الْمَسِيرَ،
فَهَوَّمَ مَعَ السَّحْرِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الشَّاعِرِ يَهْتِفُ بِهِ فِي الْأَحْلَامِ:

خَطْبُ أَجَلٍ أُنَاخَ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ التُّخَيْلِ وَمَغْقِدِ الْأَطَامِ

(٢) غَيْبَتُهُ أَجْمَلُ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ وَالْتَفَجُّعِ وَمِنْهَا الْبَيْتُ الذَّاهِبُ نَقْلًا:

وَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَبِتَتْ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فُبِضَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَعْيُونَا تَذْرِي الدَّمْعَ عَلَيْهِ بِالشَّجَامِ
قال: فَأَصْحَيْتُ مِنْ مَنَامِي فِرْعَا، فَتَنَظَّرْتُ فَلَمْ أَرَ إِلَّا سَعْدَ الدَّابِحِ، فَأَوَّلَتْهُ ذَبْحاً
يَقَعُ فِي الْعَرَبِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ قُبِضَ.

فَحَنَنْتُ رَاحِلَتِي وَسِزْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَبْتُ شَيْئاً أَرْجُو بِهِ، فَعَرَضَ لِي
شَيْئَهُمْ، قَدْ قُبِضَ عَلَى صِلٍّ، فَهِيَ تَلْتَوِي عَلَيْهِ وَالشَّيْئُهُمْ يَقْضُمُهَا حَتَّى أَكَلَهَا،
فَرَجَزْتُ ذَلِكَ وَقُلْتُ: شَيْئُهُمْ، شَيْءٌ هَمٌّ. وَالتَّوَاءُ الصَّلُّ: تَلْوِي النَّاسِ عَلَى الْقَائِمِ بَعْدَ
رَسُولِ اللَّهِ.

فَأَذَرَكَنِي حَيْرَةً مُتَلَطِّئَةً عَرَضَ لِي فِيهَا شَيْخٌ إِنْسَانٍ مُجِدِّ نَفَقَتْ تَحْتَهُ رَاحِلَتُهُ
مِنْ طَوِيلٍ مَا حَمَلَهَا وَرَاحَ يُحْمَلُهَا، وَلَمْ يَقْعُدْ بِهِ إِلَّا قِطَاعُ بَلٍّ هَبَّ فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ،
يَخْطُو خُطُوبَاتٍ وَاسِعَاتٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ!!

«فَمَدَدْتُ الْخُطَى مَدّاً عَنِيفاً حَتَّى هَبَطْتُ الْمَدِينَةَ، وَلَهَا ضَجِيجٌ بِالْبُكَاءِ
كَضَجِيجِ الْحَجِيجِ إِذَا أَهْلَوْا بِالْإِحْرَامِ، وَهُمْ فِي ذُهُولٍ مُسْتَطِيلٍ وَوُجُومٍ.

فَقُلْتُ: مَا الْحَبَرُ؟

قالوا: قُبِضَ النَّبِيُّ!

فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ خَالِياً، فَأَتَيْتُ بَيْتَ النَّبِيِّ فَوَجَدْتُ بَابَهُ مُرْتَجِماً،
وَقِيلَ: هُوَ مُسَجَّى وَقَدْ خَلَا بِهِ أَهْلُهُ.

فَقُلْتُ: أَيْنَ النَّاسُ؟

قيل: فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ^(٣).

وفيما أنا فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ أَمْشِي مِشْيَةَ الْحَزِينِ الْحَائِرِ، رَأَيْتُ عَارِضَ

(٣) راجع: حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج ٢، ص: ٦٧٠.

الصَّخْرَاءَ فَتَبَيَّنَتْهُ، فإذا هو مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَزَّتْهُ سَحَابَةُ حُزْنٍ صَامِتٍ مَكْظُومٍ، فَتَلَقَّيْتُهُ
بَيْنَ يَدَيَّ، وَقُلْتُ: أَأَنْتَ؟!

فَانْفَجَرَتْ وَانْفَجَرَتْ مَعَهُ بِدُمُوعٍ جَرَارٍ تَزِيدُ الْجَوَى لَوَعَةً، وَالْأَسَى لَذْعًا، وَكَانَ
تَشْبِيحُهُ مَرِيرًا كَمَنْ ثَكَلَ كُلُّ ذَوِيهِ فِي مَيْتَابٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُتَلَاخِجَةٍ، لَا تَفْصِلُ بَيْنَهَا إِلَّا
هُنَيْهَاتٌ وَقَيْنَاتٌ. وَكَانَ الْحُزْنُ يَشْتَدُّ بِهِ دَرَاكًا حَتَّى لَمْ يَغْدُ يَتَمَسَّكَ، فَأَخَذَتْهُ إِلَى
وَهُوَ يَضُمُّ يَتَشَنُّجٌ، وَيَلْقُو يَتَنَزَّى.

وَبَعْدَ لَايٍ أَفَاقٍ، وَكَانَتْ إِفَاقَتُهُ جِدًّا مَرِيرَةً، فَقَدْ هَبَّ كَالْمَرُورِ يَطْلُبُ شَيْئًا
وَأَنَا وَرَاءَهُ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى كُلِّ بَابٍ يَفْرَعُهُ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَرْتَدُّ عَنْهُ. فَقَدْ كَانَ
يَرْغَبُ فِي أَنْ يَرَى النَّاسَ لِيُخْرِجَ مِنْ وَحْدَتِهِ الْمُضْطَّةِ الْقَاتِلَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكَادُ يَرَى
أَحَدًا حَتَّى تَزِيدَ أَرْمَةُ نَفْسِهِ، وَتَتَجَدَّدَ لَهُ ذِكْرَى تَبْعَتْ نَفْسَهُ أَشَدَّ أَلْتِيَاعًا.

وَلَمْ يَزَلْ يَذْنُو وَيَنَاقِ، فِي رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، حَتَّى قَادَهُ الْمَطَافُ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ،
وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ الْأَسَى بِالْأَسَى، وَيُلَاشِي الْأَلَمَ بِالْأَلَمِ. وَأَحْسَ بِالْإِزْتِياعِ
الْعَمِيقِ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْأَلَمَ كُلَّهُ يَذُوبُ فِي مُضَاعَفَاتِ الْأَلَمِ، وَيَتَلَبَّسُ النَّفْسُ سُعُورًا
سَلْبِيًّا مُبْهَمًا لَا يَتَجَاوَبُ مَعَهُ، فِي النَّفْسِ، غُلُوءُ الْإِزْتِياعِ وَبُرْحَاءُ الْأَحْزَانِ، فَإِنَّ
الْمُشَاعِرَ، عَلَى اخْتِلَافِهَا، نِشْبِيَّةٌ وَلَا فَوَاصِلَ بَيْنَ أَطْرَافِهَا، فَهِيَ إِذَا بَلَغَتْ غَايَتَهَا
هُبُوطًا، أَوْ أَرْتِفَاعًا، تَتَحَوَّلُ أَوْ تَهْمُدُ.

رَغِبَ كَثِيرًا، وَأَطْمَأَنَّ إِلَى أَنْ يُجَابِيَ الْأَسَى فِي هَيْكَلِهِ، لِيَسْتَعْرِقَ فِي لَحَظَاتِ
الْمَرَاةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَتَجَرَّدُ فِي الْإِطْلَاقِ، عَنْ مَعْنَاهَا وَوَقْعِهَا الْأَلِيمِ، فَقَدْ غَدَتْ
لَاغُضُوبِيَّةٌ دُونَ أَغْصَابٍ تَتَقَلَّصُ أَوْ تَتَمَدَّدُ، إِنَّهَا أَصْبَحَتْ حَقَقَةً رُوحٍ فِي غَيْرِ لَوْنٍ.

فَمَضَى مُعَاذٌ بِإِحْسَاسٍ وَجْدَانِيٍّ عَفْوِيٍّ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ، لِإِوَاجَةِ أَشَدِّ أَنْوَاعِ
الْأَسَى فِي شَخْصِ النَّسْرِ الْحَزِينِ وَفِرَاحِهِ الْحَيَارَى، فَهُوَ يَشْتَهِي، وَيُفَضِّلُ كَثِيرًا، خَيْرَةً

الأسى اللاشاعرة، والغفوة في الألم على أن يظل في يقظة الآلام.
 وَقَفَ دُونَ الْبَيْتِ طَوِيلًا ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ، وَمَا أَشَدَّهَا وَأَمَرَهَا مُصَادَفَةً، فَقَدْ
 «بَرَزَتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ» تَجُولُ فِي مَاقِيهَا غُصَارَةً حُبِّ خَالِدٍ، وَتَعَلَّقَتْ فِي أَهْدَابِهَا
 الْوَاسِعَةِ دَمْعَةً كَبِيرَةً، لَيْتَهَا سَقَطَتْ!...

وفي نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ رَأَى الْحُسَيْنَ، وَلَيْدَ النَّبِيِّ الْحُبِّبِ، مُنْكَمِشًا عَلَى نَفْسِهِ،
 يُدِيرُ لِحَاطَهُ فَلَا يَرَى إِلَّا دُمُوعًا، فَغَرِقَ فِي الدُّمُوعِ، وَكَانَ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ يُنَاجِي
 نَفْسَهُ، وَيُطَارِحُهَا فِي حَدِيثٍ خَفِيفٍ مَسْمُوعٍ.

أَبَتَاهُ!.. أَيْنَ هُوَ؟ لَمْ أَغْدُ أَرَاهُ! أَلَيْسَ لِي أَنْ أَرَاهُ بَعْدَ الْيَوْمِ؟ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ
 كَانَ يَلَاعِبُنِي، كَيْفَ نَأَى؟ لَمْ يَغْدُ لِي، بَعْدَ الْآنَ، حَنَانٌ ذَلِكَ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ!!
 فَتَزِيدُ الْفَجِيعَةَ وَيُحَرِّكُ النَّشِيجَ، وَمُعَاذَ حَالِمٍ أَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ مُسْتَعْرِقٌ، إِنَّهُ
 لَمْ يَغْدُ يُحِسُّ بِشَيْءٍ، إِنَّهُ غَدَا خَلَاءٌ مِنْ كُلِّ شُعُورٍ...

*

مَاتَ مُحَمَّدٌ الْبَشَرِيُّ لِيُخْلَدَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ...
 فَاسْتَقْبَرَ الْحُسَيْنُ لِأَوَّلِهِمَا بِالْعَاطِفَةِ وَالْحَنِينِ...
 وَافْتَدَى ثَانِيَهُمَا بِالْذِّمِّ الْقَانِي الصَّبِيبِ...
 حِينَمَا حَاوَلَ مَسَّ جَلَالِ الْخُلُودِ، غَوَاةً مُحَقَّقُونَ...

*

بَعْدَ أَشْهُرٍ مَعْدُودَاتٍ رُزِيَءُ أُمِّهِ الزُّهْرَاءِ وَمَلَكَهُ الْآخِرُ...
 الَّذِي كَانَ يَشِيعُ عَلَيْهِ بِالْأَمَلِ الْهَانِي وَالسَّعَادَةِ الْحَالِمَةِ...
 فَجَمَدَتْ فِي عَيْنِهِ دُمُوعٌ وَفِي قَلْبِهِ دُمُوعٌ...
 جَعَلَتْهُ، فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا، يَنْظُرُ إِلَى الْأُفُقِ الْبَعِيدِ...

يَوَدُّ لو يَذُوبُ في الشَّفَقِ المُلْتَمِعِ من كُوى الأَبْدِيَّاتِ بِإِغْرَاءٍ...

*

مِرَاةٌ قَاتِلَةٌ على قَلْبِ غَضٍّ، هَبِطَتْ فَجْأَةً فَانْتَقَلَتْ به من حالٍ إلى حالٍ...
وَأَسْتَوَى دُفْعَةً، فَتَنَظَرَ إلى الحَيَاةِ من فَوْقِ كُورَةِ الرِّعَابِ فَرَأَى حَمَاتُهَا...
فَوَجَّهَ تَيَّارَهُ الطُّهُورَ، فَتَمَدَّدَتْ وَأَنْتَفَحَتْ مُتَجَهِّمَةً تُرِيدُ الصَّرَاعَ...
فَتَقَرَّزَهَا وَأَسْتَغْلَى، فَقَدْ تَرَكَ فيها دَفَقَاتٍ مِنَ اليَنبُوعِ الأَقْدَسِ وهو لا بُدَّ
مُطَهِّرُهَا...

ولم يَزَلْ يَسْتَغْلَى حَتَّى لَمْ يَغْدُ يُرَى، إِلَّا نَجْمًا يَتَوَارَى في التَّخْلِيقِ بِإِشْعَاعَاتٍ
وَأَغْتِمَاضَاتٍ...

مِنْ أَيَّامِ الْعَهْدِ الرَّاشِدِي

مع خليفة

في قِمَّةِ الْمَسْجِدِ الْعَزِيمِيِّ، حِينَما كَانَتِ الرَّايَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُنَسَّجُ وتُنْظَمُ خُيوطُهَا مِنْ تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، وَتَتَهَادَى مُتَطَوِّلَةً فِي الْفَضَاءِ، كَأَنَّهَا تُوسِّعُ الْآفَاقَ، وَتُطِلُّ عَلَى عَالَمِ يَمُورِ الْخُلُودِ، وَتَحْتَضِرُ جَدَاوِلَ الْأَبْدِيَّاتِ بِمَا فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، وَقَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُبَارِكُ هَذَا الْمَجْدَ وَيَقُولُ كَلِمَتَهُ بِلِسَانِ التَّارِيخِ، وَيُودِّعُ عَالَمًا يَذْفَعُهُ بِمَنْكِبَيْهِ، وَيَسْتَقْبِلُ عَالَمًا بِكِلْتَا يَدَيْهِ.

عَالَمٌ مِنْ طَوْبَى مُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّهَا طَوْبَى مُتَخَيِّرَةِ تَحَيَّرِ الْوَاقِعِ، وَمُتَأَلِّقَةِ تَأَلَّقِ الشُّعَاعِ، وَهِيَ، إِلَى هَذَا، بِلَاءُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ، وَمَرَاثُ الْأُمَانِيِّ... عَالَمٌ أَنْطَبَعَ عَلَى آفَاقِهِ وَجْهَ مُحَمَّدٍ فِي هَالَةِ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ هُوَ اللَّوْحَةُ الَّتِي شَاءَتِ الْحَقِيقَةُ الْخَالِدَةُ أَنْ تَبْزُرَ فِيهَا كَامِلَةً، فَذَ نَضَتْ عَنْهَا شَتَّى الْأَثْوَابِ.

جَلَسَ عَلَى أُرَيْكَةِ هَذَا الْعَالَمِ الْجَدِيدِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَمَلِ نَبِيِّ الْخُلُودِ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأُرَيْكَةُ، أَوْ الْعَرْشُ، إِلَّا مِنْبَرُ الْمَسْجِدِ الَّذِي كَانَ مُحَمَّدٌ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَيَهْتِفُ بِلِسَانِ السَّمَاءِ، يَهْدِي التَّائِبِينَ، وَالْأَثِيرَ، مِنْ وَرَائِهِ، يُرَدِّدُ النَّدَاءَ أَبْعَدَ مَا يَتَنَاهَى، فَمَحَا كَوْنًا وَأُثْبِتَ كَوْنًا، وَظَلَّ يَمْتَنَالُ الْحَقِيقَةَ الْبَاقِيَةَ بَيْنَ الْكَوْنَيْنِ، وَصَوَّتَ اللَّهُ فِي وَغْيِ الْعَالَمِينَ مُتَجَاوِبًا بِصَدَى الْأَبَدِ.

لَمْ يَكُنْ فِي عَالَمِ مُحَمَّدٍ عَرْشٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عُبودِيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بِلَاطٌ

لأنه لم يكن فيه إزهاب وآشيصناع عظام مزيفات، وإنما كان المنبر فيه هو العرش، والمنبر رمز يشير إلى الكوة التي شُع منها الهدى، وأنبتت منها الضياء. وكان المسجد فيه هو البلاط، والمسجد رمز يشير إلى التلاشي في الروح، والفناء في الإشراق، والنشوة الواعية في التأمل والاستغراق.

وَقَفَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، وَكَأَنَّمَا زُويَ الْعَالَمُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَتَأَزَّخَ فِي حُدُودِ مَوْضِعِهِ، وَالتَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ يُصْغَوْنَ، وَالْكُونُ مِنْ وَرَائِهِ يَسْمَعُ وَيَحْشَعُ... وَمِنْ أَقْصَى الْمَسْجِدِ جَاءَ يَخْطُرُ بَيْنَ الصُّفُوفِ الْحُسَيْنُ، وَلَيْدُ النَّبِيِّ، حَتَّى بَلَغَ مِرْقَاةَ الْمِنْبَرِ فَمَا تَهَيَّبَهَا، بَلْ صَعِدَ رَابِطَ الْجَأَشِ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ عُمَرُ، فَشَارَكَهُ مَوْضِعَهُ.

وَكَانَ مَنْظَرًا بَدَأَ غَرِيبًا، أُعْطِيَ النَّاسَ لَحْظَةً أَنْيَابِهِ شَرَعُوا مَعَهَا يُتْلَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَتَهَامَسُونَ، لَحَظَاتُ ذِكْرِي أَنْتَقَلْتُ بِهِمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْ زَمَنٍ يَعِيشُونَ فِيهِ إِلَى زَمَنٍ يَحْتَوُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ ظَلَّ شَائِعًا حَيًّا فِي الْخَطَرَاتِ الْحُلُورَةِ، يَوْمَ كَانَ الْحُسَيْنُ يَخُذُ مَوْضِعَهُ إِلَى جَنْبِ جَدِّهِ الْعَظِيمِ، فِي هَذَا الشَّكْلِ وَهَذِهِ الصُّورَةِ.

ذِكْرِي سَعِيدَةٌ جَزَتْ وَرَاءَهَا نَوْعًا مِنَ اللَّاشُعُورِ، وَتَمَدَّدَتْ فِي تَأْمُلٍ طَوِيلٍ، وَكَانَ اسْتِغْرَاقًا كُلُّهُ السَّكِينَةُ وَالْاطْمِئْنَانُ، وَإِنْ بَدَأَ كَالْوُجُومِ الرَّانِي.

شَخَّصَ النَّاسُ إِلَى الْغُلَامِ يَنْتَظِرُونَ مَا سَيَجِيءُ بِهِ وَيَضُدُّ عَنْهُ، وَكَانَ الْغُلَامُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ اسْتِغْرَاقًا، وَأَكْثَرَ نَفُودًا فِي الذِّكْرِي، فَرَاخَ يُمَلِّئُ نَاطِرِيهِ وَيُمِيتُهُمَا مِمَّنْ اسْتَيْقَظَتْ نَفْسُهُ عَلَى أَنَّهُ جَدُّهُ.

هُوَ شَدِيدُ الْحَيْنِ، وَشَدِيدُ الْهَوَى إِلَى أَنْ يَرَى جَدُّهُ وَقَدْ فَصَلَ عَنْهُ زَمَنٌ كَانَ طَوِيلًا فِي حِسِّ الْقَلْبِ، وَكَانَ خَيَالًا شَدِيدَ الْأَسْرِ لَهُ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيهِ جَدُّهُ وَجَمَ مُلْتَاعًا، فَقَدْ أَنَهَارَ مَا آجَمَعَ فِي خِيَالِهِ مِنْ لَذَائِثِ دُفْعَةٍ، كَمَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا

يُسْتَهَي، وهو في أدقِّ فِتْرَةٍ مِنْ لَذَّةِ التَّدْوِيقِ، فَرَسَبَ فِيهِ خَيَالٌ يُهَيِّثُ بِهِ لَذَّةً، وَطَفَا فِيهِ خَيَالٌ آسَتَوَى مَعَهُ أَلَمٌ.

فَقَالَ لَهُ - أَيُّ لَعْمَرٍ - فِي شَيْءٍ مِنَ التَّحَدِّي الصَّارِمِ: «إِنزِلْ عَنِ مِثْبَرِ أَبِي وَأَذْهَبْ إِلَى مِثْبَرِ أَبِيكَ»... فَاسْتَمَلَهُ عُمَرُ وَحَنَّا عَلَيْهِ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي أَشْيَاءٍ مِنْ دِيمُقْرَاطِيَّةِ الْحَقِّ وَالْاعْتِرَافِ الْفَكْهِ الْجَمِيلِ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مِثْبَرٌ... وَمَالَ عُمَرُ عَلَيْهِ ثَانِيَةً، فَقَالَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّرَقُّبِ وَالْامْتِحَانِ النَّفْسِيِّ: «مَنْ عَلَّمَكَ؟».

فَقَالَ الْحُسَيْنُ فِي أَشْيَاءٍ مِنَ الذَّاتِيَّةِ الْمُتَفَتِّحَةِ: «وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ»... وَكَأَنَّمَا رَدَّ عَلَيْهِ: بِأَنَّهُ شُعُورُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَتَحَسُّسُ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى مَحَلِّهَا وَمَوْضِعِهَا.

وَخَفَّ النَّاسُ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يُطِلُّ مِنْ نَافِذَةٍ مُقَلَّتِيهِ الْبَطْلُ...

وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أَعْجَبَ بِهِ فِي غَيْرِ حَدٍّ، وَكَانَ قَدْ أُخِذَ بِشَخْصِيَّتِهِ الْقَوِيَّةِ فِي غَيْرِ مِقْدَارٍ، فَزَأَى لِزِمَامِهِ عَلَيْهِ أَنْ يُبْرِزَهُ فِي حَيَاةِ الْجِدِّ الْحَاكِمَةِ، وَأَنْ يَأْخُذَهُ بِأَسْبَابِ التَّوْجِيهِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى تَضْرِيفِ الْمَقْدَرَاتِ الْعُلْيَا، فَقَالَ لَهُ:

«بَأَبِي! لَوْ جَعَلْتَ تَغْشَانَا»... وَأَنْقَضَى وَقْتُ قَبْلَمَا آجَتَمَعَ إِلَيْهِ ثَانِيَةً، وَتَخَلَّلَتْ أَحْدَاثٌ، فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ شَكْوَى مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَهْتَمَّ لَهَا عُمَرُ، وَكَانَ رَجُلًا صَلِيحًا، فَاسْتَقْدَمَهُ مَعَ الْبَرِيدِ مُسْرِعًا وَخَلَا بِهِ، وَكَانَتْ الطَّرِيقُ قَدْ جَمَعَتِ الْحُسَيْنَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَصَّصَا إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ يَزُورَانِيهِ، فَطَلَبَ ثَانِيَهُمَا الدُّخُولَ، فَقِيلَ لَهُ:

«إِنَّهُ خَالٍ بِمُعَاوِيَةَ»... فَانْقَلَبَ ابْنُ عُمَرَ، وَانْقَلَبَ الْحُسَيْنُ مَعَهُ، وَفَصَلَ زَمَنٌ

لم يَكُنْ بَعِيداً حِينَ صَادَفَ عُمَرَ، فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ، الْحُسَيْنَ، فَقَالَ لَهُ:
«لَمْ أَرَكَ»... فَزَوَى لَهُ كَيْفَ حِيلَ يَبْنِي عَبْدَ اللَّهِ آتِنَهُ وَالْدُّخُولَ، وَكَيْفَ رَجَعَ
مَعَهُ، فَتَصَوَّرَ عُمَرَ، بِشَكْلِ الْجِدِّ، إِشْعَاراً بِالْفَرْقِ الْكَبِيرِ، وَقَالَ، وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي
فِي مَقَالِهِ:

«أَنْتَ أَحَقُّ مِنْ آتِنِ عُمَرَ. إِنَّمَا أَثْبَتَ مَا تَرَى فِي رُؤُوسِنَا، اللَّهُ ثُمَّ أَنْتُمْ»...
وَصَمَتَا يَمُشِيَانِ، وَوَقَفَ التَّارِيخُ مِنْ وَرَائِهِمَا يُرَدِّدُهَا كَلِمَةً خَالِدَةً فِي سَمْعِ الدَّهْرِ،
وَأُذُنِ الْأَبَدِ...

جهاد الشباب

حِينَ كَانَ الْفَتْحُ الْإِسْلَامِيُّ يَضَعُ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ فِي أَقْصَى الشَّرْقِ، وَالْأُخْرَى
عِنْدَ بَابِ الْغَرْبِ - يَفْرُغُ عَلَيْهِ هُجُوعُهُ وَيَنْفُضُ عَنْ جَفْنَيْ الْغَرْبِ الْبَاقِيَاتِ مِنْ رُقْدَةِ
الْأَيَّامِ، وَالْهَبَاءَةِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ إِلَى ظَلَامٍ كَثِيفٍ حَالِكٍ حَوْلَ مُقْلَتَيْهِ، وَبَيْنَ يَدَيْ
حَيَاتِهِ، كَأَنَّمَا لَمْ تُنْعِشْهُ بَعْدُ أَوَّلُ إِشْرَاقَةِ مَنْ صَحْوَةِ الشَّمْسِ - ذَهَبَ حُسَيْنٌ شَرْقًا،
وَذَهَبَ غَرْبًا، كَأَنَّهُ يَضَعُ بِكُلْتَا يَدَيْهِ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي قَاعِدَتَيْ قَوْسِ النَّصْرِ مُبَارَكًا.
كَانَ حُسَيْنٌ يُنَاهِزُ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِنِيهِ، حِينَمَا ذَهَبَ مُجُنْدِيًّا يُلَوِّحُ بِشُعْلَةِ
الْبَغْيِ وَالْإِضْلَاحِ فِي الْحَمَلَةِ إِلَى الْغَرْبِ.

وَكَانَ جَوًّا حَمَاسِيًّا ذَلِكَ الْجَوُّ الَّذِي صَبَغَ الْمَدِينَةَ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ مِنْ بَلَدٍ نَائٍ
مَجْهُولٍ، تُحِيطُ بِهِ الصَّخْرَاءُ، وَتَغْمُرُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ - وَالصَّخْرَاءُ مُحِيطٌ زَانِحٌ
تَقُومُ فِيهِ الرِّمَالُ مَقَامَ الْمَاءِ - إِلَى عَاصِمَةِ مَزَكِرِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ فِيهَا الْحَرَارَةُ وَتُوزَعُهَا، إِلَى
قَلْبِ عَالَمٍ تَخْفُقُ فِيهِ الْحَيَاةُ، وَيَنْبِضُ بِالْخَلَجَاتِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ.

فِي هَذَا الْجَوِّ الْحَمَاسِيِّ كَانَ التَّسَابُقُ عَلَى الْجِهَادِ قَدْ آتَخَذَ شَكْلَ مُبَارَاةٍ بَيْنَ
الشَّبَابِ وَالْكُهُولِ، وَمِنْ دُونِ الشَّبَابِ وَمِنْ فَوْقِ الْكُهُولِ.

هِيَ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ بَعَثَتْهَا رُوحٌ جَدِيدَةٌ، فَانْطَلَقَتْ، وَفِي غُرُوقِهَا عُصَارَاتٌ مِنْ
حَيَوَاتٍ فَائِضَةٍ، تُجْرِيهَا فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْمُمَدِّدِ الْمُحْتَضِرِ، وَتَصِلُ غُرُوقَهُ بِغُرُوقِهَا،

فَتَمَشِي، طَائِفَةً عَلَيْهِ، دَائِرَةً فِيهِ، مَشَى الرُّوحَ الَّتِي تَمَشُهُ بِنَيَّارِهَا.

كَانَ السَّائِرُ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَمُنْعَطَفَاتِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا الْأَصْدَاءَ قَوِيَّةَ مَرْهُوَّةٍ، هِيَ بَقَايَا هُتَافَاتِ تُثِيرُ الْأَعْصَابَ. وَكَانَ الْعَلَمَةُ يَتَقَاذَفُونَ بِالْأَزْهَارِ، وَالْعِلْيَةُ يَتَحَايُونَ بِالْعَمَارِ^(١) وَالْمَسْرَةَ^(٢). فَقَدْ تَرَكَوا لِأَعْصَابِهِمِ الْمَائِجَةَ بِصُنُوفِ الْفَخَارِ وَالْمَجْدِ، سَبِيلَ هَوَاهَا وَمَجَالَاتِ التَّغْيِيرِ عَنِ آرْزِهَائِهَا. فَقَدْ وَرَدَتِ الْأَنْبَاءُ بِالْإِنْتِصَارِ الْمُؤَزَّرِ فِي بَرْقَةٍ، وَأَنْكِفَاءِ الْبَرْقِ هُنَاكَ.

وَكُنْتُ لَا تَجِدُ، كَيْفَمَا سِرْتُ وَأَنْتَى ذَهَبْتُ، إِلَّا جُمُوعاً تَمُوجُ فِي الْجُمُوعِ، مِنْ ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ إِلَى دَاخِلِهَا، وَعَلَى فَجْأَةٍ أَخَذَ بَصَرُهُمْ فَارِساً يَطْوِي الْهَضَابَ، وَهُوَ يَمُرُّ بَيْنَهَا مَرّاً سَرِيعاً، فَشَمَلَتْهُمْ هَذَاةٌ عَطَّتْ عَلَى الضَّجِيجِ، وَضَمَّتْهُمْ لِحَظَةً آتِيَاهُ وَسُكُونٍ أَلْفَتْهُمْ فِي ضُمُوتٍ مُتَسَائِلٍ نَاطِقٍ، وَمَا حَلَّ بَيْنَهُمْ حَتَّى آتَفَوْا عَلَيْهِ، وَأَحَاطُوا بِهِ إِحَاطَةً السُّورِ بِالْمَعْصَمِ، وَأَخَذُوهُ بِسَيْلٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَاسْتَوَى عَلَى الرِّكَابِ مُنْتَصِباً، وَخَاطَبَهُمْ بِصَوْتِهِ الْجَهْوَرِيِّ الْحَادِّ النَّبْرَاتِ، وَالْمُسْتَعِيلِ الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ:

أَيُّهَا الْأَنْصَارُ! أَيُّهَا الْأَبْطَالُ! الْيَوْمَ يَوْمُكُمْ، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ الْكِفَاحِ. أَفْسِحُوا لِي الطَّرِيقَ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ وَاتَّبِعُونِي! فَتَدَافَعَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِهِ صَاحِبِينَ هَاتِفِينَ: الْيَوْمَ يَوْمُنَا. إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ... وَقَفَ الرَّجُلُ عَلَى مَقَرِّيَّةٍ مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَوَجَّهَ مَقَالَهُ، تَارَةً لِلْجُمُوعِ وَتَارَةً إِلَيْهِ: «إِنَّ جُرْجِيرَ الْمُمَلَّكِ، مَا بَيْنَ طَرَابُلُسَ إِلَى طَنْجَةَ، أَشَبَّ الْجُمُوعِ، وَحَشَدَ الْجُنُودِ مِنْ أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ، لِلْإِخْدَاقِ وَالْإِيقَاعِ بِجَيْشِ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَرَبَّصُّ بِنَا الدَّوَائِرِ،

(١) الْأَزْهَارُ وَالْوُثُحَانُ تُجْعَلُ بَاقَاتٍ وَيُخَيَّا بِهَا. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَقْنَا الْعَمَارَا.

(٢) الْمَسْرَةُ: أَطْرَافُ الرِّجَالِ يُخَيَّا بِهَا، وَيُقَالُ سَرُوهُ أَيَّ حَيَّاهُ بِالْمَسْرَةِ.

وَبَاتَ الْخَطْبُ عَلَى قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. وَإِنْ عُقِبَتْ بِنُ نَافِعٍ، فَأَيْدُنَا الْمُظْفَرُ، قَدْ بَاتَ فِي ضَائِقَةٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ مُسْتَبِيلٌ أَشَدَّ آسِيبًا. يُكَافِحُ كِفَاحَ الْمُشْتَمِتِ فِي الدِّفَاعِ وَالْهُجُومِ وَمُدَاوَرَةَ الْخُصُومِ، وَهَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ.

فإلى الجهادِ أيها المؤمنون! إلى القيامِ بالتزاماتِ العقدِ بينكم وبينَ الله، على تجديدِ العالمِ، وأخذهِ بالمبادئِ الإنسانيةِ الفُضلى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبِشِرُوا بِنَيْبِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». إِنَّ إِخْوَانَكُمْ، مِنْ قَبْلُ، رَوَّوا الرِّمَالَ الرَّابِيَةَ إِلَى أَفْرَيقَةَ بِدِمَائِهِمِ الصَّبِيَّةِ، وَهُمْ أَسْخِيَاءُ، وَبَنَوْا مِنْ جَمَاجِمِهِمْ مَعَايِلَ الصَّخْرَاءِ. وَهِيَ دِمَاؤُهُمُ الْيَوْمَ تُنَادِيكُمْ وَتَسْتَضِرُّكُمْ بِصَوْتِهَا الرَّجَافِ الرَّعُودِ، مِنْ وَرَاءِ الرُّجْمِ وَتَسْتَنْدُبُكُمْ إِلَى التَّضَحِّيَةِ.

فإلى الكِفَاحِ! إِلَى النَّصْرِ!

وما هو حَتَّى آخَتَلَطَ صَوْتُهُ بِأَصْوَاتِ الْجُمُوعِ، وَذَابَ فِي دَوْبِهَا الْعَمِيقِ: بَلْ إِلَى الشَّهَادَةِ! إِلَى الْمَوْتِ!... وَبَقِيَتِ الْأَصْدَاءُ يُرَدِّدُهَا الْقَضَاءُ، وَيَطُوفُ بِهَا الْأَثِيرُ فِي كِبْرِيَاءٍ وَخَيْلَاءِ.

وَتَدَفَّقَ النَّاسُ عَلَى التَّطَوُّعِ، وَكَانَ فِي «مُقَدِّمَتِهِمِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلِيَّةُ لَا تُحْصَى» وَخَفَوْا رَاجِلِينَ:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَضْهَالٍ خَيْلٍ، خِلَالَ ذَلِكَ رُغَاءُ

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى هَبَطُوا مَصَافَّ الْقِتَالِ، فَأَخَذُوا مَوَاضِعَهُمْ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ ضَاقَ الْخِنَاقُ فِيهِ عَلَى الْبَرْوَرِ، فَأَنكَفَرُوا مُتَعَزِّقِينَ

يَتِيهُونَ بَيْنَ الْحُزُونِ وَالشُّهُولِ، وَبَيْنَ الْأُودِيَةِ وَالْهَضَابِ.

وَيَعْدُ بِضَعِ سِنِينَ «أَنْتَظِمَ الْحُسَيْنُ فِي الْجَيْشِ الذَّاهِبِ شَرْقاً إِلَى طَبْرِسْتَانَ»
بِإِذْلٍ أَنْفُسَهُ، مُضْحِياً حُوبَاءَهُ بِسَبِيلِ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي عَاشَ لَهَا، وَقَضَى كَرِيماً تَحْتَ
ظِلَالِهَا الدَّائِمِيَّةِ وَيُنَوِّدُهَا الْحَمْرَاءُ.

كَانَتْ الْأُنْبَاءُ عَنْ تَضَحُّيَةِ الشَّبَابِ وَأَسْتَيْسَالِهِمْ تَرْدُ إِلَى الْمَدِينَةِ طَافِحَةً إِعْجَاباً
وَبُشْرًا. وَكَانَتْ حَدِيثَ الْيَوْمِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي الْأُنْدِيَةِ وَالْمَنَازِلِ، وَفِي مُنْقَطَعَاتِ
الطَّرِيقِ، حَيْثُ يَخْلُو الْوُقُوفُ عِنْدَ الْأَصِيلِ لِفَقَةِ تَجِدُ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ اللَّهْوِ تَشْلِيَةً
رَائِقَةً، وَتُحِشُّ بَظْماً إِلَى الصَّحْبِ، يُدْهِمُ الْفُضُولُ أحياناً قَتْمَلاً جَوْ نَفْسِهَا الْمُقْفِرِ بِهَذَا
اللَّوْنِ مِنَ الْأَنْعِمَاسِ فِي الصَّحِيجِ.

وَفِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ أَنْفَرَدَ جَمْعٌ، يَبْتَهِمُ الْبَرَاءَ بِنُ عَازِبٍ،
يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَنْ أُبْطَالِ الْجِهَادِ الشَّبَابِ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّبَابَ مَعْنَاهُ تَقْشُحُ
بِرَاعِمِ الصَّبَا عَنْ حَيَاةِ الْجِدِّ وَالْوَاجِبِ، وَعَنْ تَبْعَاتِ الْحَيَاةِ؛ وَفَقَةُ الشَّبَابِ هُمْ أَشْعُهُ
حَاضِرِنَا فِي وَقْدَةٍ تَأْلُقُهَا، فَإِذَا بَدَتْ كَسِيفَةً كَلِيلَةً فَقَدْ خَسِرْنَا الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ
جَمِيعاً، وَكَانُوا إِعْلَاناً عَنْ أَنَّ غَيْرُ جَدِيرِينَ بِالْحَيَاةِ.

فَإِنَّ الْحَيَاةَ قُوَى سَائِبَةً كَمِثْلِ الرُّقَارِقِ عَلَى وَجْهِ الرُّمَالِ، وَلَكِنَّهَا تَتَجَمَّعُ فِي
فَتْرَةِ الشَّبَابِ بِمِثْلِ خَزَانِ الْمَاءِ، فَتَتَكَسَّرُ عِنْدَ خَنَايَاهُ الْقُوَى، وَتَتَوَلَّدُ فِيهَا التِّيَارَاتُ،
فَتَتَدَفَّقُ بِجَيَاشَةٍ هَادِرَةٍ.

فَالشَّبَابُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ تَيَّارَاتِ قُوَى الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَ الْخَزَانُ مَلْمُوءاً بِالثُّقُوبِ
وَالشُّقُوقِ، أَنْسَابَتِ الْمِيَاهُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَتَبَعَثَرَتْ قُورَاهَا، وَغَاصَّتْ بَيْنَ الْوَهَادِ
وَالْحُزُونِ مُتَرَسِّبَةً فِي مُسْتَنْقَعَاتِ آجِنَةٍ. وَحِينَ لَا يَكُونُ لِلشَّبَابِ حَصَانَاتٌ وَمَنَاعَاتُ
يُمَدُّهَا سُعُورٌ بِالْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ وَجِسَّ مُرْهَفٌ بِالتَّبِعَاتِ، فَقَدْ عَادَ شَبَاباً رِخْوًا،

أَفْضَلُ مِنْهُ شَيْخُوخَةٌ فَانِيَةٌ.

وَسَبَابُنَا الَّذِينَ آبَعَتْهُمْ الْمَبَادِيءُ آتِبَعَانَا، لَا مَحِيدَ عَنْ أَنْ تَنْطَلِقَ بِهِمْ تَيَارَاتُ الْقُوَى، أَنْطِلَاقًا يَنْتَهِي بِالسَّبِيلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُطَهَّرِ الْجَارِفِ إِلَى غَايَتِهِ، فَيَعْمُرُ حَتَّى الرُّبَى، لِيُنْكَشِفَ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

وَنَحْنُ الَّذِينَ قُمْنَا بِوَاجِبِنَا مَعَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ أَذْنَى مَا بَدَّلْنَاهُ أَنْفُسَنَا - وَمَا بَقَاؤُنَا فِي عَيْنِ الْيَوْمِ إِلَّا ذِكْرَى جِهَادٍ وَتَمَثُّلُ كِفَاحٍ - لَا يَسَعُنَا إِلَّا أَنْ نُبَارِكَ سَبَابَهُمُ الْعَصْرَ وَجِهَادَهُمُ الْمُظْلَمَ. وَإِذَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَأْخُذَ بِأَنْتِبَاهِنَا طَوِيلًا فَإِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الْإِقْبَالُ عَلَى التَّضَحِّيَةِ بِسَبِيلِ الْمَبَادِيءِ لِلْمَبَادِيءِ دُونَ مَا أَنَانِيَّةٍ رَغْنَاءَ وَزَنَانِيَّةٍ^(٣) حَقُودٍ، فَقَدْ ذَابَتْ عِظَامِيَّةٌ (أَرِسْتَقْرَاطِيَّةٌ) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عِظَامِيًّا فِي بَوْتَقَةِ الْإِيمَانِ. وَالرِّسَالَةُ التَّاجِحَةُ هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُكْفَلَ تَحْوِيلَ الْعِظَامِيَّةِ مِنْ قَاعِدَةِ الدَّمَاءِ وَالرَّاءِ، إِلَى قَاعِدَةِ الْمَبَادِيءِ وَالتَّضَحِّيَاتِ.

فَهَذَا الْحُسَيْنُ، سِبْطُ النَّبِيِّ، لَهُ مِنْ عِظَامِيَّةِ الدَّمِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ الْيَوْمَ، أَوْ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْضِي تَحْتَ رَايَةِ الْوَاجِبِ كَأَيِّ جُنْدِيٍّ تَحْدُوهُ مِثْلُ غَايَتِهِ. وَلَا أَرَاهُ إِلَّا مُعْتَقِدًا أَنَّ الْقَدِيمَ، إِنَّمَا يَجِدُ رُوحَهُ فِي الْجَدِيدِ لِيَعْدُوَ كَانِنًا حَيًّا رَائِعًا، وَإِلَّا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ مُوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ تَظَلُّ زَمْرًا مِنْ زُمُودِ التَّارِيخِ...

فَاطَرَقَ الْجَمْعُ وَشَمَلَهُمْ صَمْتُ وَاعٍ ثُمَّ خَفَّوْا إِلَى رَوَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُرَدُّدُونَ قَوْلَهُ:

«وَلَا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ مُوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ...».

* * *

(٣) الزَّنَانِيَّةُ تُرَادَفُ الْأَنَانِيَّةُ تَمَامًا عِنْدَ الْعَرَبِ الْقَدَامِي، وَالزَّنَانِي: الْأَنَانِي كَذَلِكَ.

في الثورة

مِنَ المَدِينَةِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، كِمِصْرَ والعِرَاقِ واليَمَنِ والشَّامِ، خَيِّمَ جَوٍّ مُكْفَهَرٍ
يُنْذِرُ بشيءٍ. وَكَانَتْ أَلْوَانُهُ مُخْتَلِطَةً إِلَّا أَنَّهَا بَدَأَتْ تَسْتَحِيلُ، خَيْطاً بَعْدَ خَيْطٍ،
وَتَتَكَشَّفُ عَنْ لَوْنٍ أَحْمَرَ قَانٍ، كَأَنَّهُ لَوْنُ الدَّمِ الحَاقِقِ، أَوْ لَوْنُ الشَّفَقِ الَّذِي أَطْبَقَ بِهِ
لَيْلٌ بِهِيم.

وَكَانَ الهمسُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَطُولُ وَلَا يَقْصُرُ، وَيَتَنَاوَحُ فِي زَفَرَاتٍ تَبْعَثُ
أَسَى، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَوْعِ الأَسَى الغَاضِبِ الَّذِي يَزْدَادُ أَشْتِعَالاً بِالدُّكْرِ والتَّزْدَادِ. فَقَدِ
أَسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَى وَضْعٍ غَيْرِ مُحَبَّبٍ بَلْ كَرِهِيهِ بَغِيضٍ، أَسْتَفَاقُوا عَلَى مُجْتَمَعٍ بَدَأَ
يَتَعَقَّدُ وَتَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ طَبَقَاتٌ تَجُرُّ وَرَاءَهَا يَضَالاً هَادِراً وَتَنَاحِراً زَهِيّاً، بَعْدَ أَنْ
كَانُوا شَعْباً يَقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ المَسَاوَاةِ، فَهُوَ مُجْتَمَعٌ مُنْسَجِمٌ.

كَثْرَةُ مُعْدِمَةٍ، وَهِيَ مُعْتَدَّةٌ بِذَاتِهَا شَاعِرَةٌ بِشَخْصِيَّتِهَا، فَخَوْرٌ بِمَا أَبْدَتْ مِنْ
قُوَّةٍ وَقَدَمَتْ مِنْ تَضْجِيَاتٍ، وَقِلَّةٌ زَادَ بِهَا الثَّرَاءُ زِيَادَةً جَعَلَهَا تُحْرِزُ كُلُّ قُوَى النُّشَاطِ
وَتَدْخِرُ مَقْوَمَاتِ الحَيَاةِ كَافَّةً. وَلَمْ يَكُنْ وَسْطاً دَرَجَ عَلَى الشُّخْرِيَّةِ والعَمَلِ فِي
الأَرْضِ، فَيَظُلُّ النُّضَالُ فِيهِ خَفِيّاً وَبَطْنِيّاً فِي إعْطَاءِ نَتَائِجِهِ، بَلْ كَانَ وَسْطاً فُروسيّاً،
وَالْفُروسيَّةُ أَغْنَادِيَّةٌ وشُعُورٌ بِوُجُودِ الذَّاتِ، وَزَادَتْهَا الفُتُوحُ إِحْسَاساً بِقِيَمَتِهَا، فَكَانَ
أَنْ تَفَاعَلَتْ تَفَاعُلاً تَنَافُريّاً مَعَ الوَضْعِ الجَدِيدِ، وَكَانَ أَنْ أَنْفَذَتْ وَقَدَفَتْ بِالشَّرِّ

إلى مكان قصي.

والشعور بالذات قاعدة الأمة الناهضة، فهي لا تقبل سيادة ولا تتولد فيها السادة من أي نوع كان، وتظل أبداً توافقة إلى الإصلاح آخذة بأسبابه متقلبة في مدى أطواره.

ركدت الفتح فنصبته أهم موارد الدولة، وكان العمل السياسي قد اتجه، فيما سبق هذه الحقبة، إلى جعل العرب مادة حرب فقط، فلم ينالوا نصيباً في الأرض. ولكن الجندي لن يبقى جندياً أبداً خصوصاً والدولة العربية قد أخذت الأمم بحرب إصلاحيّة عالميّة، فكانت حاجتها إلى الجنود كبيرة غير مقتصدة، فشملت العرب عامة، وسرعان ما وُفق العرب إلى غايتهم، وسرعان ما أدوا رسالتهم، فركدت حرارة الفتح إلى درجّة الهمود، وعجزت الدولة بعد ذلك عن كفايتهم، فإذا هم طبقة فقيرة غاية في الفقر والخصاصة والعدم، وإذا بجانيهم طبقة أخرى ثرية غاية في الثراء، وهي لم تجهد أيّ مجهود ولم تبذل أيّ بلاء، وإنما امتنعت وتملأت.

كبر على هؤلاء أن يستسيغوا وضعيّة نايبة بغضة على هذا الشكل، لا سيما والإسلام في تشريع جعّل للمحارب نصيباً في المغام كافة، وبذلك مكّنه من أن يتحوّل رجلاً مدنيّاً، دون أن يكون كلاً على الدولة والخزينة العامة. ولم يُقرّر الإسلام الجنديّة نظاماً دائماً، لأنّه لا يرمي إلى أن يجعل من حكومته دولة حرب، بل سنّ الجنديّة، عند الضرورة، من المدنيين أنفسهم، وبهذا ضمن شيعتين خطيرتين:

١ - جعل مسؤوليّة الدفاع عامّة، لكي يشعر بها الشعب شعوراً شاملاً بدون تفاوت.

٢ - الحد من طغيان الجنود وروحيتهم، حتى لا يدفعوا الدولة كلّ حين إلى

مضايقي لحروبٍ جديدةٍ، فالإسلامُ وَضَعَ في نظامِهِ ما يحولُ بينَ الدُّوَلَةِ المُشْتَقَّةِ مِنْ طَبِيعَتِهِ، وبينَ حَزْبِ الأَطْمَاعِ.

وكانتِ الهُوَّةُ تَتَسِعُ بينَ الطَّبَقَاتِ اتِّساعاً عَظِيماً، وعلى شَكْلِ مُخَفِيفٍ، كما أَخَذَ الوَضْعُ يَتَطَوَّرُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَشْوَأَ حَتَّى اسْتَفْجَلَ شَرَّهُ، وباتَ يُنْذِرُ بِخَطْبِ خَطِيرٍ وَأَنْكِفَاءِ أَنْقِلَابِيٍّ كَبِيرٍ الأَثَرِ. وزادَ في يَقْظَةِ الحُطْبِ تَنَاحُرُ الأَحْزَابِ الكَثِيرَةِ^(١)، فهُنَاكَ أَحْزَابٌ رَئِيسِيَّةٌ أَهْمُهَا:

حِزْبُ الأُمَوِيِّينَ: وأكْبَرُ رِجَالِهِ المُتَنَبِّسِينَ إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ، وآبَتُهُ مُعَاوِيَةُ وَمَرْوَانُ ابْنُ الحَكَمِ، والمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

والحِزْبُ الشُّعْبِيُّ: وأكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، وَجُفَيْتَةُ التُّجْرَانِي، وَكَعْبُ الأَخْبَارِ، وهذا الحِزْبُ كَانَ صَنِيعَةً لِلحِزْبِ الأُمَوِيِّ، وَمُنْقِداً لِأَغْرَاضِهِ الدَّمَوِيَّةِ وَمَآرِبِهِ الإِزْهَابِيَّةِ.

وحِزْبُ المُحَافِظِينَ: وأكْبَرُ رِجَالِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو أُيُوبِ الأَنْصَارِيِّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، والمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ.

وحِزْبُ الشُّعْبِ: وأكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، والأَشْثَرُ التَّخَمِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَافَةَ، وَكَانَ هَذَا الحِزْبُ يَسْتَنِيهِ إِلَى سِيَاسَةِ حِزْبِ المُحَافِظِينَ، وَطَابَعَهُ أَنَّهُ تَوَرَّيَّ عَنيفٌ.

وحِزْبُ أَهْلِ المَدِينَةِ: وأكْبَرُ رِجَالِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وآبَتُهُ قَيْسُ، والحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانٍ، وَكَانَ أَهَمُّ أَهْدَافِ هَذَا الحِزْبِ مُنَاصَظَةُ الحِزْبِ الأُمَوِيِّ وَتَحْطِيمُ مُحَاوَلَاتِهِ.

وإلى جَانِبِ هَذِهِ الأَحْزَابِ كَانَتْ تَقُومُ أَحْزَابٌ أُخْرَى ثَانَوِيَّةٌ أَهْمُهَا:

(١) راجِعْ تَفْصِيلَ الكلامِ عَلَيْهِ فِي كِتَاب: تاريخِ الحَسَنِ: نقدٌ وتحليلٌ، طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ العِرْفَانِ، ١٩٤١.

حِزْبُ طَلْحَةَ وَالزَّيْفَرِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ عَائِشَةُ.

وَحِزْبُ أَنْبَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ.

وَالْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ الْمُتَشَقُّ: وَكَبِيرُ أَقْطَابِهِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ.

وما إن استحوذ الحِزْبُ الْأُمَوِيُّ عَلَى شُؤُونِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ، حَتَّى أَلْفَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ جَبِيهَةً مُعَارِضَةً قَوِيَّةً. فَقَدْ شَاءَ الْبَيْتُ الْأُمَوِيُّ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ طَبَقَةً حَاكِمَةً، وَشَاءَ، إِلَى ذَلِكَ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْ قُرَيْشٍ طَبَقَةً عِظَامِيَّةً (أَرَسْتَقْرَاطِيَّةً). وَهَؤُلَاءِ الْأُمَوِيُّونَ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَنْ يَفْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَوُجُودَهُمْ الْخَالِي مِنْ الْحَيَاةِ وَالْجُهْدِ، بَلْ تَجَاوَزُوا هَذَا إِلَى تَغْيِيَةِ الْمُجْتَمَعِ فِي طَبَقَاتٍ لَهَا أَمْتِيَاظَاتُهَا وَقِيَمُهَا، الَّتِي تَهْبِئُهَا لِحَقُوقًا دُونَ مَا وَاجِبَاتٍ، وَبَسْبِئَهَا تَفَاتٍ لِنَفْسِهَا مِنْ الْإِغْتِيَارَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مَا يُحَوِّلُهَا آتِيَهَابَ كُلِّ غَنَمٍ، يُغْرَمُ بِسَبِيلِ حَيَازَتِهِ سَوَادُ الْجُمْهُورِ.

وَكُلَّمَا وَجَدَتْ لِمَجَاعَةٍ مَا لِحَقُوقَ دُونَ وَاجِبَاتٍ، فَقَدْ وَجِدَ لَدَيْهَا شَرَّ أَنْوَاعِ التَّطَفُّلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَحِينَمَا تَنْتَقِلُ هَذِهِ الْإِغْتِيَارَاتُ إِلَى الْقَانُونِ يَتَقَبَّضُ الْإِنْسِجَامُ وَالتَّوَارُثُ الْاجْتِمَاعِيَّانِ، وَيَتَسَاقُ الْمُجْتَمَعُ، كُوهًا، فِي مَارِقِ التَّنَاحُرِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْ أَجْلِ الدَّائِيَّةِ، وَيَنْتَهِي مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ، وَهُنَا يَأْخُذُ شَكْلُهُ الدَّامِي، وَمُظْهَرُهُ الْكَالِجُ الرَّهِيْبُ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ «إِنَّمَا أَهْلُكَ مَنْ قَبْلُكُمْ أَتَهُ إِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ». فَإِذَا أَبُو سُفْيَانٍ يَقُولُ، عِنْدَمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ عُثْمَانُ: «يَا بَنِي أُمَيَّةَ تَدَاوَلُوهَا بَيْنَكُمْ تَدَاوَلُ الْكُرَّةَ، قَوْلَ الَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانٍ مَا زِلْتُ أَنْتَظَرُهَا لَكُمْ، وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى أَنْبَائِكُمْ وَرَاءَهُ»، وَإِذَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ يَجْعَلُ سَوَادَ الْعِرَاقِ بُسْتَانًا لِقُرَيْشٍ، وَإِذَا الثَّرَوَاتُ الْفَاجِشَةُ تَصِيرُ وَجَمْعُ فِي أَيْدِي الْأُمَوِيِّينَ وَأَنْصَارِهِمْ، وَإِذَا مَرْوَانُ يَسْتَبِدُّ بِالْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا عَلَى هَوَاهُ، وَإِذَا أَكْثَرُ الْأَقَالِيمِ تَذْهَبُ إِقْطَاعَاتٍ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَإِذَا الْقَانُونُ يُعْبَثُ بِهِ فَلَا يُطَبَّقُ أَحْيَانًا وَكَثِيرًا، بَلْ ذَهَبُوا بِهِ مَعَ الْهَوَى إِلَى حَدِّ أَشْعَرَ النَّاسِ أَنْهُمْ لَمْ يَعُودُوا سِوَاءَ فِي نَظَرِيَّةِ الْحَقِّ وَنَظَرِيَّةِ الْجَزَاءِ فَسَبَقَ إِلَى الْأَذْهَانِ أَنَّ هُنَاكَ فَوْضَى دُونَ مَا شَكَّ، وَأَنَّ هُنَاكَ فَسَادًا

في أداة الحكم سبب هذه القوضى دون ما رتب، والفساد يُبيح الثَّورَة، فتدافعت
الجموع في تياراتها.

كان الرائد الطواف بين مصر والحجاز والعراق، والذي يجوب مُتَرَدِّداً بين
هذه الأقاليم يلمس، ويرى من قواجع الوضع القائم ما يملأه حنقا وثورة، كان يرى
بؤساً في غير حدٍ وشفاءً مخيفاً، وفقرًا مُتَعَوِّلاً، وكان هذا الفقر والشفاء والبؤس
يَتَوَزَّعُ هنا وهناك، ليَجْتَمِعَ ويأتلفُ خصوصاً في بيئات الذين كانوا، إلى زمنٍ
قريب، رمزَ الفخار العربي والإسلامي، رمزَ الكفاح والجهاد في كل مكان.

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكرى أمجادها الكبيرة، ولكنها تتحرق
أيضاً، وهي ترى مقدار ما تبذخ به أقلية فرضت نفسها، واستحوذت على الثروة،
دون أي جهد وسابقة كفاح. فيعلى بُنْ أُمِّيَّة يَمْلِكُ ما قيمته مائة ألف دينار عدا
عقاراته الكثيرة، وعبد الرحمن بُنْ عَوْفٍ يَمْلِكُ ما قيمته خمسمائة ألف دينار،
وزيد بُنْ ثابت يَمْلِكُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ما كان يُكسَّرُ بالفؤوس... إلخ. وأيضاً
رأوا أن هذا البذخ المُتَرَفِ جَرَّ وراءه أنواعاً مِنَ المُجَاوِزَاتِ في السُّلُوكِ الَّذِي سَرَّ
نَهَجُهُ النَّبِيُّ، وعهدُهم به لم يكن بعيداً. كما كوَّنت هذه العُضَاةُ واللَّدَانَةُ، في
بيئات الأقلية المذكورة، طائفةً مِنَ الآراءِ المُتَطَرِّفَةِ وَجَدَتْ سَبِيلَ سُيُوعِهَا فِي المُجْتَمَعِ،
فقاتلها بكثيرٍ مِنَ الاستنكار، ولكن لم تَقدَم، مَعَ ذَلِكَ، جماعةً مِنَ الأنصارِ،
فتولدت في الوسيط دَعْوَةٌ إِلَى هذا الجديد المائع المثير، ودُعاةٌ إِلَى التَّجْدِيدِ الرَّخْوِ.

بيد أن الكثرة مُحَافِظَةٌ مُتَمَسِّكَةٌ بِذَلِكَ الْقَدِيمِ الَّذِي وَجَدَتْ فِيهِ سَبِيلَ قُوَّتِهَا،
وَانْتَشَرَتْ مُؤْمَنَةٌ بِأفكارِهِ، وَصَلَاحِيَّتِهِ كَطَبِّ لِلْبَشَرِيَّةِ اللَّاهِيَةِ الْمُحْتَضَرَّةِ، فَهَمُّ
جُنُودِ رِسَالَةٍ جَاءَتْهُمْ بِهَذَا الْقَدِيمِ الَّذِي لَمَسُوا فِيهِ خَيْرَهُمْ. فلا يَدْعُ إِنْ آسَأْتَكَرِتِ
الْكَثَرَةُ حُطَّةً هَذَا الْجَدِيدِ، وَلَا يَدْعُ إِنْ تَحَدَّوْا أَنْصَارُهُ وَأَتَّهَمُوهُمْ بِالرُّوقِ، وَلَا يَدْعُ
إِنْ دَخَلُوا مَعَهُمْ فِي صِرَاعٍ بَدَأَ خَفِيّاً، ثُمَّ آمَتَدَّ حَمِيّاً.

وصادَفَ، في هذه الفترة اللاهية، تطواف رجل نَعْرِفُ أَنَّ اسْمَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأَ، وكانَ على ما يَظْهَرُ، إِنَّ صَحَّ أَنَّهُ وَجَدَ، صاحبَ نفسٍ حسَّاسَةٍ شاعِرةٍ، وصاحبَ فِكْرَةٍ مُنْتَظِمَةٍ إِصْلاحِيَّةٍ، مِنْ وَرائِهِما رُوحٌ ثائِرَةٌ. فَاتَّصَلَ بِكُلِّ وَسْطٍ إِسلاميٍّ إِذْ ذاكَ، وَاسْتَلْهَمَ الحِياةَ العامَّةَ الَّتِي آنَعَكَسَتْ صُورَتُها وَأَلْوانُها في نَفْسِهِ، فَاسْتَعَرَّ ضَمِيرُهُ، وَاتَّقَدَّتْ جَوانِحُهُ، فَلَمْ يَكُنْ بُدَّ مِنْ أَنْ يَلْتَهَبَ، وَلَمْ يَكُنْ مَنَاصُ مِنْ أَنْ يَهْتِفَ بِالإِصْلاحِ وَضُرُورَةِ تَغْيِيرِ الوَضْعِ البائِسِ البائِسِ، وكانَ غَنيفاً في طَبِيعَتِهِ، وَزادَتْهُ الحالَةُ العامَّةُ غَنَفاً، فَقَدْ تفاعَلَتِ الصِّفَةُ الحَيَويَّةُ الشَّائِعَةُ في المُجْتَمَعِ طَبِيعَتَهُ تفاعُلاً جَعَلَهُ يثورُ، وَجَعَلَهُ يُبَشِّرُ بِمَبادِيءِ الإِصْلاحِ الثَّورِيَّةِ. وَلَمْ يَكُنِ المُجْتَمَعُ حينَذاكَ في حاجَةٍ إلى أَكْثَرِ مِنَ التَّنَادِي بِهِ وَاسْتِصْراحِهِ، فَقَدْ كانَ بحالَةٍ مِنَ الثَّوْتِ والتَّفاعُلِ إلى دَرَجَةِ القَدَحِ بالأَوارِ.

وهو، إلى هذا، قد اجْتَمَعَ بِأَقْطابِ الحَرَكَةِ الثَّورِيَّةِ في مِصرَ والشَّامِ والعِراقِ، وتأثَّرَ بِهِمْ، ولا سِوَمَا أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ الَّذِي رَكَزَ^(٢) أَفْكارَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبْيَأَ، وهذا وَجَدَ فِيهِ يَنْبوعاً دِينياً وَمَعنَوياً خَصباً، يُمكنُهُ أَنْ يَسْتَمِدَّ مِنْ أَخبارِهِ عَنِ النَّبِيِّ، ما يَجْعَلُهُ سَنَداً لأَفْكارِهِ، فَإِنَّ أبا ذَرٍّ كانَ يُحَدِّثُ، مِنْ قَبْلِ وَرُودِ آئِنِ سَبْيَأَ إلى الشَّامِ،

(٢) يَظُنُّ البَسطاءُ مِنَ المُؤرِّخينَ، تَبَعاً لَتَقْدِيراتِ آسْتِشْرائِيَّةٍ مُرسَلَةٍ إِسلاماً، أَنَّ عَبدَ اللَّهِ بْنَ سَبْيَأَ - يَلْكَ الشَّخْصِيَّةَ الَّتِي هِيَ شِئْءٌ تارِيخِيَّةٌ، أَيْ حُرَافِيَّةٌ، مِنْ شِئْءٍ غَمُوضِها إلى حَدٍّ يُبْخِجُ لانا إِنْكارُها مَرَّةً - قَتَنَ مُجْتَمَعاً بِأَشْرِهِ، وَهذا مُتَقَوِّضٌ على ضَوْءِ البِسيكُولُوجِيَّةِ الإِجْتِماعِيَّةِ؛ وَقَتَنَ أبا ذَرٍّ الَّذِي سائِرُ الشُّعْوَ الدِّينِيِّ الجَدِيدِ في كُلِّ أَطْوارِهِ. وَتَبَيَّنَ لانا دَرَجَةُ ما فِيها مِنْ سَخَفٍ حينَما نَعْرِفُ أَنَّهُمْ بِشَخْصِيَّةِ شِيبَةَ تارِيخِيَّةٍ يُريدُونَ تَغْيِيرَ مَخْرى حادِثَةٍ تارِيخِيَّةٍ هَامَّةٍ، وَلا سَلَكُ فِي أَنْها طَرِيقَةُ مِيتافِزِيْقِيَّةٍ يُرادُ بِها تَغْلِيلُ المَعلومِ بِالْمَجهُولِ، وما يَدْرِينا فَلَقَلَّ عَبدَ اللَّهِ بْنَ سَبْيَأَ عَنَتَرُ أَجْتِماعِيٍّ بِمِثْلِ عَنَتَرِ الفُروسِيِّ؟ وَأنا إِذا كُنْتُ أَشْتَطِيعُ أَنْ أَقُوَّ بِهذا الشَّيْءِ المَدْعُوعُ عَبدَ اللَّهِ بْنَ سَبْيَأَ، فَأَنا أَسْتَطِيعُ الإِفْرازَ هُنا على أَنَّهُ يَلْمِيزُ المَدْرَسَةَ الغِفاريَّةَ، وَيُوكِّدُ هذا أَنَّهُ مِنْ أَنْصارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ في الحائِبِ السِّيَاسِيِّ والدِّينِيِّ مِنْ أَفْكارِهِ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ أبا ذَرٍّ مِنْ أَنْصارِ عَلِيٍّ، فَلو قَرَضْنَا أَنَّهُ جاءَ بِأَفْكارٍ مَرْدُودَةٍ فَلِمَ لَمْ يَحْتَرِ إِلا مُناصِرَةَ عَلِيٍّ، وَكانَ أَوْجَحُ لَدَعْوَتِهِ لو ناصَرَ ذِكْرِي أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرَ. وَالشُّبُّبُ في نَظَرِنا الَّذِي أَدى إلى نُشُوءِ مَدْرَسَةِ أَبِي ذَرٍّ وَدَعْوَتِهِ إِنْما هُوَ ذلكَ التَّوَرُّطُ بِالشَّاهِكِ على مِثْلِكَ الرِّاءِ المُتَطَوِّفِ الَّذِي أَحْدَثَ بِأَشْبابِهِ الأَقْلِيَّةَ الأُمِّيَّةَ وَأَغْرائِها، وَبُرُوزُها ذلكَ البُرُوزَ الأَرِشْطَراطِيَّ واسْتِغْباذُها الإِطْعامِيَّ، فَكانَ في ذلكَ ما أَغْرى أبا ذَرٍّ على فَهْمِ الشَّرِيعَةِ ذلكَ فَهْمِهِ.

بأحاديثه المُسنَّدة إلى النبي، وكلُّها تحمِلُ عناصر الأفكار التي انطلقَ أبْنُ سَبَأٍ يَروِجُ لها. والذي لَدَيْنَا مِنْ وَثَائِقِ التَّارِيخِ يَشْهَدُ أَنَّ إِعْلَانَ أَبِي ذَرٍّ عَنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَقَعَ قَبْلَ أَوَّلِ آلِيقَاءِهِ بَيْنَهُمَا، كَمَا يَشْهَدُ أَيْضاً أَنَّ تَكُونِ شَخْصِيَّةِ أَبِي سَبَأٍ كَانَ بَعْدَ أَوَّلِ لِقَاءِهِ. فَالتَّارِيخُ وَكُتُبُ الْحَدِيثِ تَعْرِفُ جَيِّداً أَنَّ أَبَا ذَرٍّ كَانَ يُحَدِّثُ، فِي الشَّامِ، بِمَثَلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ وَقَائِعِهِ عَهْدَ النَّبِيِّ.

قال: «سَأَيْتُ رَجُلًا - وَهُوَ بِلَالٌ - فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، وَكَانَتْ رَقِيقَةً، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ أَمَرُوْهُ فَيَكُ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعْيَنُوهُمْ».

يَروِي أَبُو ذَرٍّ مِثْلَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، فِي حَقِّ الْمَوَالِي الْأَرْقَاءِ بِالْقَانُونِ، قَصْدَ مُحَازَاةِ الْوَضْعِ الَّذِي شَاءَتْ بِهِ الْأَقْلِيَّةُ جَعَلَ سَوَادِ الْمُجْتَمَعِ أَرْقَاءً أَجْتِمَاعِيَيْنَ.

فَالَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ إِذَا، أَنَّ أَبْنَ سَبَأٍ كَانَ يَحْمِلُ أَفْكَاراً اسْتَلْهَمَهَا مِنْ حَالَةِ الْمُجْتَمَعِ الْقَائِمَةِ، وَلَكِنَّهُ سَقَطَ عِنْدَ أَبِي ذَرٍّ عَلَى مَا يَزْكُرُهَا وَيُوضِّحُهَا، وَيُعْطِيهَا الْغُنْصَرَ الدِّينِيَّ الْمَفْقُودَ لَدَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ سَبَبَ تَخَوُّفِهِ مِنْ نَشْرِ أَفْكَارِهِ الْحُرَّةِ، وَبِالْحَرِيِّ أَفْكَارِ الشَّرِيعَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ أَبِي ذَرٍّ، فَمَضَى يُبَشِّرُ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَغَوَضَهَا بِمَا إِنَّهُ الدِّينُ أَيْضاً.

رَأَيْنَا كَمْ كَانَتْ أَقَالِيمُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرَةِ مُتَوَثِّرَةً، وَرَأَيْنَا إِلَى أَيِّ حَدٍّ قَدْ أَحْسَسَ الشَّعْبُ أَنَّ الْأَقْلِيَّةَ الْحَاكِمَةَ تَحِيكُ حَوْلَهُ مُؤَامَرَةً وَاسِعَةً النُّطَاقِ، تُبَالِغُ حَتَّى تَنْصِلَ بِحَيَاتِهِ، فَانْكَفَأَ الشَّعْبُ كُلُّهُ فِي الْأَقَالِيمِ يَتَأَمَّرُ بِهَا، وَيُنْشِجُ مِنْ حَوْلِهَا شِبَاكَةً، وَلَقَدْ بَاتَتْ الْحَالَةُ الْعَامَّةُ نَجِيءٌ فِي كَلِمَتَيْنِ: حُكُومَةٌ تَتَأَمَّرُ بِالشَّعْبِ، وَشَعْبٌ يَتَأَمَّرُ بِالْحُكُومَةِ، وَلَكِنْ لِلشَّعْبِ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ وَالْعُلْيَا دَائِماً.

وَعَبَدَ اللَّهُ بُنْ سَبِيًّا أَيَّانَ مَرَّةٍ، وَأَيُّنَ أَنْطَلَقَ، يُصَادِفُ جُمُوعاً تَعْتَلِجُ عَلَى الْجُمُوعِ، وَكُلُّ الْمَوَازِمَةِ تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَتَوَزَّعُ لَتَحْتَشِدَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عَنْ أَمَانِي الْجَمَاعَاتِ وَتَصْوِيرِ أَخْلَاقِهِمْ وَأَمَالِهِمْ، فَأَفْتَنُوا بِهِ وَأَفْتَنَ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَزُبُّ بَيْنَ هَذِهِ الْجُمُوعِ إِلَّا رَابِطَةُ الشُّعُورِ بِضُرُورَةِ الْإِصْلَاحِ السَّرِيعِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الْفَسَادِ أَنْ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَحُمُّساً لِلثَّوْرَةِ هُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ شَتَّى الْمَحَاوَلَاتِ لِلتَّرْقِيعِ وَالتَّوْجِيهِ، فَكَانَ شُعُورُهُمْ بِضُرُورَةِ الثَّوْرَةِ مَغْنَاهُ أَنَّ الْحَزَقَ قَدْ آتَسَعَ عَلَى الرَّاقِعِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْفَوْضَى لَا يَنْجُجُ مَعَهَا إِلَّا الْقَمْعُ الْعَنِيفُ، فَتَخَلَّوْا عَنْ طَرِيقِ الْجُمْهُورِ، أَوْ قُلْ كَانُوا فِي الطَّلِيعَةِ.

ولكن، مع ذلك، فقد ظلَّ حِزْبُ عَلِيٍّ، أَوْ حِزْبُ الْمُحَافِظِينَ، يَبْذُلُ جُحُوداً جَبَّارَةً بِسَبِيلِ تَقْرِيبِ وَجْهَةِ النَّظَرِ بَيْنَ كُتْلَةِ الشَّعْبِ وَكُتْلَةِ الْحُكُومَةِ، وَيَحُولُ، مُجْهِدٌ الْمُسْتَطَاعَ، بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَبَيْنَ مَا رِيهِ الدَّائِمِيَّةِ، وَكَثِيراً مَا جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ ضَمَانَةً لِهَيْئَةِ الْحُكْمِ. وَالشَّيْءُ الْجَدِيدُ بِالتَّشْجِيلِ وَنَصَاعَةِ الذِّكْرِ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ بَقِيَ مُوَالِياً، بِعَطْفٍ صَادِقٍ، لِلْحُكُومَةِ إِلَى السَّاعَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَمْ يُمْدُ مُمَكِّناً فِيهَا ضَبْطُ أَغْصَابِ الْجُمْهُورِ الثَّائِرَةِ، فَطَغَى عَلَى الْحَوَاجِزِ وَبَدَأَ التَّهْدِيمَ.

وَمِنَ الْإِنْصَافِ بَلْ مِنْ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ الْجُمْهُورَ، مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَرْغَبَ فِي ثَوْرَتِهِ، فَقَدْ آتَصَلَ بِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَالشُّلْطَةِ وَطَالَبَ مُسْتَشْفِعاً بِمُثَلِّيهِ مِرَاراً وَتَكَرَّراً، وَلَكِنْ مَطَالِبَتُهُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَتْ تَبَوُّءُ بِالْفَسْلِ، وَكَانَ فَشْلاً ذَرِيعاً مُتَوَاصِلاً مِنَ النَّوْعِ الْمُثِيرِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ هَبَّ الشَّعْبُ هَبَّتَهُ الْعَاتِيَّةُ، وَتَرَكَّزَتِ الثَّوْرَةُ الْإِنْتِقَامِيَّةُ فِي رَأْسِهِ تَرَكَّزَ الْفِكْرَةُ الثَّابِتَةُ، لَا يَحُولُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

هَبَّتْ وَفُودُ الْأَمْصَارِ الْمَدِينَةَ مَرَّةً وَأُخْرَى إِلَى مَرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانَتْ، فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ، تَحْمِلُ طَائِفَةً مِنْ أَمَانِيهَا، وَهِيَ مَلَأَى بِالرَّجَاءِ تَوَدُّ لَوْ صَدَقَتْ أَحْلَامُ أَمَالِهَا، وَكَانَتْ تَرْجِعُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، بِوَعْدٍ مَغْسُولَةٍ، وَلَكِنْ لَا تَلْبُثُ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى صَدَى

يَأْسٍ فِيهِ غُرُورُ الشَّرَابِ.

ساءها، في كُلِّ تَجَرِبَةٍ وَكُلِّ مُحَاوَلَةٍ، إِخْفَاقُ الْمُتَقَلِّبِ، فَأَغْيَظَتْ كَذِي النَّفْسِ
الْجَرِيخَةِ عَلَى مَنْ لَا يَفْتَأُ يَنْكَأُ جِرَاحَهُ وَيُجْرِي دِمَاءَهُ، وَلَمْ يَسْعَهَا كَظْمُ عَوَاطِفِهَا
الْمُلْتَهِيَةِ، فَهَدَرَتْ صَاحِبَتَهُ مُخْتَجَّةً، تُرِيدُ وَضْعَ حَدٍّ لآلِمِهَا وَبِأَسَائِهَا الْمُسْتَعْرِيةِ،
فَكَانَتْ تَصْطَلِدُ تَكَرَّاراً وَبِمَرَّارٍ بِمَا يَوْقُظُ فِيهَا شُعُورَ الْحَيَاةِ الْمُتَنَقِّمَةِ. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ
الْجَمَاعَاتُ تُرَى فِي أَيِّ مَكَانٍ إِلَّا مُلْتَمِعَةً بَعْضاً عَلَى بَعْضٍ تَتَهَامَسُ فِي أَمْرِ خَطِيرٍ.

وفي هذه الْفَتْرَةِ الْمُلْتَهِيَةِ كَانَ يَطُوفُ، كَمَا قُلْنَا، فِي أَقْطَارِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ،
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِيمَا زَعَمُوا، فَمَا حَلَّ بُقْعَةً إِلَّا وَسَمِعَ فِيهَا تَجَاوُبَ نَائِمَةٍ وَاحِدَةٍ
مُسْتَنْكِرَةٍ، فَاسْتَمَلَ عَلَى حَفِيظَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ تَأْتِكِلُ فِي خَنَائَاهُ غَيْظاً وَتُحْرِقُ الْأَرْمَ. وَمَا
هُوَ إِلَّا أَنْ هَبَطَ الشَّامُ فَاتَّصَلَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِ أَبِي ذَرٍّ فَقَدْ سَمِعَهُ يَنْتَقِدُ وَلَا يُيَالِي
عَلَى أَيِّ وَجْهِ فُسِّرَ آتِنَقَادُهُ، وَيَتَحَدَّى الْمُجْتَمَعُ^(٣) وَالْدَوْلَةَ، وَكُلَّ أَسْرَةِ الْحُكْمِ تَحْدِيّاً
جَارِحاً بِمَنْطِقِ الدُّسْتُورِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنَاهِجُ السُّلُوكِ
التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيَأْخُذُ عَلَى الْإِنْطِلَاقِيِّينَ الْمُتَجَاوِزِينَ مَذَاهِبَ سُلُوكِهِمْ.

رَأَى وَلَمْ يَسْ مِقْدَارَ تَهَاوِي النَّاسِ فِي التَّرَفِّ بِالْعُدْوَى، وَتَهَاوَيْتِهِمْ عَلَى الرِّفَاهِ مِنْ
أَيِّ طَرِيقٍ، وَتَسْتَشْبِغُ خُطَّةَ هَذَا السُّلُوكِ إِبَاحِيَّةً وَلَا مُبَالَاةً، فَجَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَتْبَاعِهِ
حَاجِزاً يُقَاوِمُ التِّيَارَ، فَوَقَّفَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُشِيرُ بِمَبَادِيئِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ يَقْرَعُ سَمْعَ
النَّاسِ بِمَا قَدْ عَهِدَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، وَبِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ وَوَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَكِنْ بَعْضاً مِنَ
النَّاسِ كَانُوا قَدْ اسْتَنَامُوا إِلَى هَذَا الْجَدِيدِ، وَتَذَوَّقُوا وَلَذَّتْهُمْ أَشْيَاؤُهُ، فَأَبْزَوْا عَلَيْهِ وَأَبَى
عَلَيْهِمْ، فَأَنْطَلَقَ لَا يُيَالِي غَضَباً وَلَا رِضاً.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَرَى أَنَّ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الْفَضِيلَةُ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ

(٣) تَفْصِيلُ رَأْيِنَا فِي مَدْرَسَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَتَفْصِيلُ آرَائِهِ فِي الْحَيَاةِ وَغَايَتِهَا، وَفِي الْمُجْتَمَعِ وَنِظَامِهِ، وَفِي الْحُرِّيَّةِ
الْأَدْبِيَّةِ، وَعِلَاقَةِ الْحَيِّ بِاللَّهِ، نَجِدُهُ فِي كِتَابِنَا: مَدْرَسَةُ أَبِي ذَرٍّ وَالثَّرْوَةُ الْكُبْرَى فِي الْإِسْلَامِ.

الفاضل فقط. فعلى الناس إذا أن يحلوا أشياء الفضيلة بينهم، وأن يوفروا كل جهودهم على تحقيقها وانتهاج سُننها وأساليبها. وأما أولئك الذين يجمعون أكبر جهودهم وهمهم على التزويد من مخاريف الحياة الناعمة وأسباب العيش الرفيع، فإنهم لا يفضلون، في اختياره، عن سائمات وجدت سبيل لحفظها. والإنسان عنده، إذا جمع همه هذا الجمع، فإنه يثقل حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحليل بما فيه من الفكر، وأما الإنسانية فإنها غنصر غريب عنه. ولكي يكون إنساناً، ويظل كذلك، لا بد له من حياة أخرى مادتها الفضيلة، والفضيلة، في نظره، هي التجرد والعمل.

هو يريدنا أن نعمل ونكافح بما استطعنا إلى ذلك، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا نغمس في مدى الفتور، يريد منا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات، واستغلاء بما فينا من روح لا تفتأ تنشئ السموم.

وليس أضر على الكائن الإنساني من أن يسير بالحياة فقط، إذ بهذا يثبته سير الرُحى تتحرك وهي قابضة بمحلها. وفوق ما بين الإنسان والحيوان أن الثاني تسير به الحياة، والأول يسير بالحياة، ويستغلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها. وإذا كانت الحركة ضرورة للحياة، والفضيلة، التي هي التجرد، ضرورة للإنسانية، فلكني تكون أحياء إنسانيين يجب أن نعمل، ويجب أن نتجرد، وأما إذا عملنا فقط فقد نحزننا غنصر الإنسانية فينا وأشفقنا، كما نتعقد الحياة حين نضعها في معتزك أطماعنا وشباك شهواتنا. فكان يوصي ويلح أن نعمل، وأن نتجرد، أي نعمل ولا ندخر، فحضر بأقصى أسلوب وأعتفه على عدم الكثر، ولوح ما شاءت له فكرته وشاء ضميره بقوله تعالى:

«والذين يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هذا مَا كَتَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهو يرى أيضاً أن الدولة كالفرد سواء بسواء، فإذا كُنْزَتْ ولم تتَجَرَّدْ
 انحصت، وتولدت لديها الأطماع. فتتخذى الدولة كما تتخذى الأفراد، وحارب
 الكنْز الاجتماعي، كما حارب الكنْز الفردي. وسنَّها شعواء على دُنْيَا القصور وحياة
 الشرف، فقد نَظَر إليها نظره إلى مآثم للمِثَالِيَّة العُلْيَا والأحلام النشائية، فمَوَكَّب
 الإنسانية لا بُدَّ أن يتوقَّف ويتَوَحَّل، ويتَقَلَّب مَوَكَّب رُجْم إذا شُئِنَا الوُلُوج به في دُنْيَا
 الشهوات.

ومن ناجية أخرى أحسَّ بالأم البؤس في الناس، وأحسَّ أن الدولة تتوسَّل
 بالتَّشْمِيَات القانونية إلى آتِهَابِ المُسَمِّيَاتِ الحَقُوقِيَّة من أربابها، والاستِخْوَاضِ على
 الثَّوَرَةِ الاجتماعيَّة وتبديدها دون مُسْتَحَقِّهَا، فَقَدَّرَ وَاسْتَنْتَجَ أن الحكومة المُتَّخِذَةَ هي
 ذات الحقِّ الأوَّل في التَّصَرُّفِ بالأموال الشَّائِعَةِ. فَتَسْمِيَّتُهَا مَالُ الخَزِينَةِ بِمَالِ اللَّهِ
 التي يُرادُّ منها الشُّيُوعُ، وسيلة إذا للتَّلاُعِ والاستِخْوَاضِ، فَحَمَلَ حَمْلَةَ نَكَرَاءٍ على
 هذه التَّسْمِيَّةِ المغلوطة، ونادى أنها مالُ المُسْلِمِينَ، هذه التَّسْمِيَّةُ التي تُؤَدِّي، في
 تَسْلُسُلِهَا المُنْطَقِي الحَقُوقِي، إلى مَنعِ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ، وإلى وُجُوبِ تَوَازِيْعِهَا عليهم
 وتَعَلُّقِ حَقُوقِهِمْ بها.

وبَلَغَ من شِدَّةِ وطْأَةِ هذه الدَّعْوَةِ، أن جَعَلَ الأَنَانِيُونَ الطَّامِعُونَ يَفِرُّونَ مِنْ
 طَرِيقِهِ كُلِّمَا رَأَوْهُ، وزَادَ في تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ وَآتِشَارِهَا أَنَّهُ كَانَ يَشْفَعُ أَقْوَالَهُ هذه
 بِأَحَادِيثَ مَأْثُورَةٍ سَمِعَهَا مِنَ النَّبِيِّ. فَوَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بُرْ سَبَأً في هذه الأفكارِ، التي
 يَسْمَعُهَا مِنْ أَبِي ذَرٍّ، ما هو العِلاجُ النَّاجِعُ لِرُوحِ المُجْتَمَعِ البَائِسَةِ، وَوَجَدَ فِيهَا أيضاً
 خَالِصَ أَفْكَارِهِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ وَجَدَ فِيهَا ما تُشَوِّقُ إِلَيْهِ رَغْبَةُ المُطَالِبِينَ بالإِصْلَاحِ
 الحَائِرِينَ، فَانْطَلَقَ على سُنَّةِ أَبِي ذَرٍّ يُشِيرُ وَلَا يَحْفِلُ.

تَوَقَّفَ في الكُوفَةِ وهو يَذْرُغُ الأَفْطَارَ، فَرَأَى فِيهَا حَرَكَةً أَقْوَى من سَائِرِ
 الحَرَكَاتِ الأُخْرَى في المَدِينِ والعَوَاصِمِ، فَانْخَرَطَ فِيهَا وَنَظَّمَهَا، وَهَنَّاكَ وُضِعَتْ

«عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تُقابل من الهيئة الحاكمة بالحسن بل بالإغراض، فتألبوا، وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية بالقبض عليهم في جنص، وبعد لأي أُفْرِج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرة أخرى، يئد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها، ومهما آخبتك ألوانها الكالحة. وكانت عريضة الحق تستعمل على:

- أ - إبعاد البطانة المشرفة على تسيير الأمور حالياً ولا سيما مزوان بن الحكم.
- ب - الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها النبي، دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال.
- ج - ضرب اليد على طماعية قريش.
- د - الحد من صلاحية الولاة والأمراء، فيقيّد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.

هـ - الحيلولة دون الأمراء واستبدال الأهلين.

وقدبت الوفود تحت ستار الحج، وهي تخفي أغراضها الدائمة الثورية، وشاع الهمس في المدينة، وأنطلقت عبارات الانتقاد تخرج كالتار في الهشيم، وقد اتصّلت بعلي أخبارهم فتحوّف مغبة الأمر وبادر إلى الاجتماع بغثمان، فقال له: «التاس ورائي وقد كلموني فيك، وآللّه ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتعلم ما تعلم، ما سبقناك إلى شيء فتخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فبلغك، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ونلت صهره، وما أبى أي فحافة بأولي بعمل الحق منك، ولا أبى الخطاب بأولي بشيء

مِنَ الْخَيْرِ مِنْكَ...»

ثم يقول:

«فَاللَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ. فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِّي، وَتُعَلِّمُ مِنْ جَهْلِي، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحٌ بَيْنِي...»

فإذا آغْتَذَرَ عُثْمَانُ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَقْتَنِي أَثَرُ عُمَرَ أَجَابَهُ عَلِيٌّ:

«سَأُخْبِرُكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فَإِنَّمَا يَطَأُ عَلَى صِمَاحِهِ، إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ جَلَبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْعَايَةِ. وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، ضَعُفْتَ وَرَفَقْتَ عَلَى أَقْرَبَائِكَ...»

فإذا ذَكَرَ لَهُ عُثْمَانُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَمُنُّ وَلَاهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ يَقْتَدِي كَذَلِكَ بِعُمَرَ فِي تَوَلِّيَّتِهِ، أَبَانَ لَهُ عَلِيٌّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ فَقَالَ:

«أَنْشُدْكَ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ أَخْوَفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَوْفَا^(٤) غُلَامِ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَلِيٌّ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَقْتَطِعُ الْأُمُورَ دُونَكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُهَا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ هَذَا أَثَرُ عُثْمَانَ فَيَبْتَلِغُكَ وَلَا تُعَيِّرُ عَلَى مُعَاوِيَةَ».

ولكنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَزَلْ بِعُثْمَانَ يُوَعِّزُ صَدْرَهُ عَلَى عَلِيٍّ، وَيَضْرِبُ لَهُ الْمَثَلَ بِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ فيقول:

«هَكَذَا يَسْتَقْبِلُكَ وَأَنْتَ إِمَامُهُ وَسَلَفُهُ وَأَبْنُ عَمِّهِ وَأَبْنُ عَمَّتِيهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا غَابَ عَنْكَ مِنْهُ؟»، وَكَذَلِكَ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَسَائِرُ بِطَانَتِهِ (حَتَّى أَجْمَعَ أَلَا يَقُومُ دُونَهُ). وَعَلِيٌّ جِيالَ تَرَدُّدِ عُثْمَانَ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ:

«مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ أَنْ يَنْصَحَهُ أَحَدٌ، آتَخَذَ بِطَانَتَهُ أَهْلَ غِشٍّ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا

(٤) يَوْفَا: اسْمُ غُلَامِ عُمَرَ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ يُوَعِّدُ مِنْهُ رُغْبًا، فَضْرِبَ الْمَثَلَ بِهِ فِي الرُّغْبِ.

وَقَدْ تَسَبَّبَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَأْكُلُ خَرَايجَهَا وَيَسْتَدِلُّ أَهْلَهَا».

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ يُخَرِّضُ النَّاسَ عَلَى عُثْمَانَ، وَيَجْبِيهِ سِيَاسَتَهُ عَلَانِيَةً وَيَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ، وَيَقْضِخُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي تَجْرِي دَاخِلَ دَارِهِ، وَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَدْخَلَ فِي رُوعِهِ كَرَاهِيَّتَهُ، وَيَسْتَغِلُّ الْمُنَاسِبَاتِ وَالظُّرُوفَ حَتَّى قَالَ يَصِفُ نَفْسَهُ:

«أَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا حَكَكَتْ قُوَّةٌ نَكَأْتُهَا، إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّاعِي فَأُخَرِّضُهُ عَلَى عُثْمَانَ...» وَهَذَا عُثْمَانُ يَسْتَشِيرُهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ صَحْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ عَمْرُو:

«أَرَى أَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ النَّاسَ بِمَا يَكْرَهُونَ، فَأَعْتَزِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَزِمُ أَنْ تَعْتَزِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَزِمُ عَزْمًا وَآمُضٍ فِيهِ قُدْمًا...» وَيُقَابِلُهُ حِينَمَا خَطَبَ عُثْمَانُ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الصَّاحِبِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ بِقَوْلِهِ:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهَايِرَ وَرَكَبْنَاهَا مَعَكَ، فَثُبْ نَثْبٌ...» وَهَذِهِ عَائِشَةُ تَجْتَرِيءُ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَتَقُولُ وَقَدْ نَشَرْتُ قَمِيصَ النَّبِيِّ:

«هَذَا قَمِيصُ النَّبِيِّ لَمْ يَبَلِّ، وَقَدْ أَبْلَيْتَ سُنَّتَهُ...». وَهَذَانِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ يُعِينَانِ النَّائِرِينَ بِالْمَالِ.

وَالْجُمُوعُ الْمُتَالِبَةُ الْوَافِدَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، حِيَالٌ مَا تَرَى وَحِيَالٌ مَا تُحِسُّ بِهِ مِنْ آلامٍ فِي قَرَارَتِهَا، تَفْتَحُ ثَائِرَتُهَا، وَمَضَتْ فِي أَنْدِفَاعِهَا مُتَمَرَّةٌ غَاضِبَةٌ. فَبَدَلَ عَلِيٌّ كُلَّ جُهْدٍ لِتَخْفِيفِ ثَائِرَتِهِمْ وَتَبْرِيدِ غُلُوبِهِمْ، وَحَمَلَ عُثْمَانُ عَلَى إِعْطَائِهِمْ مُهَلَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. فَلَمَّا آتَتْهَتْ أَجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ، مِثْلَ الْجِيَالِ، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْمُؤَرِّخِينَ. قَالَ عُثْمَانُ لِمُرَّانٍ: «أُخْرِجْ وَكَلِّمُهُمْ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أَكَلِّمَهُمْ»، فَخَرَجَ مَزْوَانُ إِلَى الْبَابِ، وَالنَّاسُ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ:

«مَا سَأَلَكُمْ قَدِ اجْتَمَعْتُمْ كَأَتَمَا جِئْتُمْ لِنَهَبٍ؟ شَاهَتِ الْوُجُوهُ، كُلُّ إِنْسَانٍ

أَحِذْ بِأُذُنٍ صَاحِبِهِ؟ جِئْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا مُلْكَنَا مِنْ أَيْدِينَا؟ أَخْرِجُوا عَنَّا. أما والله لئن رُمْتُمونا لَيَمُرَنَّ عَلَيْكُمْ أَمْرٌ لَا يَشُرُّكُمْ، وَلَا تَحْمَدُوا غِبَّ رَأْيِكُمْ. أَرْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ، وَاللَّهِ مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا.

كَانَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الْمَقْلُوءَةُ حُمُقًا وَرُعُونَةً، شَرَارَةً شَدِيدَةً الْأَثَرِ فِي إِذْكَاءِ الثُّورَةِ وَتَقْرِيبِ خُطُوبَاتِهَا، وَمَزْوَانٌ لَمْ يُفْلِحْ فِيهَا بِإِثَارَةِ النَّاسِ فَقَطْ، بَلْ أَفْلَحَ أَيْضًا بِإِثَارَةِ عَلِيِّ نَفْسِهِ، الَّذِي ضَمِنَ لِلْجُمْهُورِ تَشْوِيَةَ الْأُمُورِ عَلَى مَا يَوْعَبُ، وَقَدْ أَشْفِطَ فِي يَدِهِ حَقًّا، وَمَا وَسِعَهُ، نَحْتٌ عَاصِفَةٍ نَفْسِهِ وَعَاصِفَةِ الْجُمْهُورِ الْمَائِجِ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ مَقَالَتُهُ الْمَشْهُورَةَ:

«مَا رَضِيتَ مِنْ مَزْوَانَ وَلَا رَضِي عَنكَ، إِلَّا بِتَحْرِيفِكَ عَنْ دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمَلِ الطَّعِينَةِ يُقَادُ حَيْثُ يُسَارُ بِهِ. وَاللَّهِ مَا مَزْوَانٌ بِذِي رَأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ. وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنِّي لِأَرَاهُ سَيُورِدُكَ ثُمَّ لَا يُصْدِرُكَ، وَمَا أَنَا بِعَائِدٍ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا لِمَعَاتِبَتِكَ، أَذْهَبَتْ شَرَفَكَ وَغُلِبَتْ عَلَى أَمْرِكَ.»
وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أَمْرَاتُهُ نَائِلَةٌ آتِيَّةُ الْفَرَاغِصَةِ^(٥)، فَقَالَتْ:

«أَتَكَلِّمُ أَوْ أَسْكُتُ»، فَقَالَ: «تَكَلِّمِي» فَقَالَتْ:
«قَدْ سَمِعْتَ قَوْلَ عَلِيٍّ لَكَ وَإِنَّهُ لَيْسَ يُعَاوِدُكَ، وَقَدْ أَطَعْتَ مَزْوَانَ يَقُودُكَ
حَيْثُ شَاءَ» قَالَ: «فَمَا أَصْنَعُ؟...» قَالَتْ:

«تَتَّقِي اللَّهَ وَتَتَّبِعُ سُنَّةَ صَاحِبَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ، فَإِنَّكَ مَتَى أَطَعْتَ مَزْوَانَ قَتَلَكَ. وَمَزْوَانٌ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرٌ وَلَا هَيْبَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ. وَإِنَّمَا تَرَكَكَ النَّاسُ لِمَكَانِ مَزْوَانَ مِنْكَ، فَأَرْسِلْ إِلَى عَلِيٍّ فَاسْتَصْلِحْهُ فَإِنَّ لَهُ مِنْكَ قَرَابَةً وَهُوَ لَا يُعْصِي». فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ وَقَالَ: «قَدْ أَعْلَمْتُهُ أَنَّنِي لَسْتُ بِعَائِدٍ».

كَبَّرَ عَلَى عَلِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ الْمُنْطِقِ، الَّذِي فَاجَأَ بِهِ الْجُمُوعُ مَزْوَانٌ بِلِسَانِ

(٥) لَيْسَ فِي الْعَرَبِ مَنْ هُوَ يَفْتَحُ الْغَاءَ لَا بِضَمِّهَا يَبْوَى أَيْ نَائِلَةٌ هَذَا وَالْأَخْرُوصُ الْكَلْبِيُّ

الخليقة، وهو يعلم أنه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصبية وبين التلطي وآلهام الوضع القائم، إلا كلمة رغاء كالتي فاة بها مزوان، على أنها هدمت قيمة وساطته، وألقت في روع الناس آرتاباً حقيقياً حاداً في جدوى مداخلته، لهذا - وهو في مقياس كل عصر مبرر - تنحى وأعتزل وأعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال. ولكن علياً، مع كل ما هو عاتب وواجد، لم يزل يُقدّر ويذهب في مدى تقديره بعيداً، فينتهي إلى الكارثة ويتراءى له سببها، فيزهق هولها ويخشى وقوعها. يجب إذاً أن لا يظل بعيداً، وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور، هذا الموقف التايي المثير، فبادر إلى تقديم ولديه - لاعتباريهما التقديرية - ومواليه، كي يُتفهنوا عوادي الأحداث وطايشات الخطوب. وحين بلغه «أن الناس حصروا داره ومنعوه الماء بعث إليه بثلاث قرب، وقال للحسين والحسين: آذهباً بتيقيكما حتى تقوما على بابي ولا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه، وكان أن خضب الحسن بالدماء وشج قنبر مؤلدة».

وبات علياً مطمئناً، فقد رتب الأمور جيداً، وهو واثق من أن مجرى الحادث سيسير على هذا الشكل: يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور، إلى إجابة مطالب الإصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مزوان، ولوجود آبنيه ومواليه أطمأن من عدم دنو الخطب منه. فإن وجودهم يُعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه، فلا يتصل به مكروه دام يصع حداً لحياته، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العائية. وما كان يذري أن المغرضين، ذوي المآرب، كانوا قد آندسوا في الجمهور الذي غدا جد حساس وجد متأثر، فتدقق السيل جارفاً و«جرى الوادي فطم على القرى».

هذا ما عرّف التاريخ عن علي وبنيه إزاء المصراع، بينما عرّف من ناحية ثانية أن عثمان، وهو محاصر، كتب إلى معاوية وهو بالشام: «إن أهل المدينة قد كفروا، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فأبعث إلي من

قَبْلَكَ مِنْ مُقَاتِلَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى كُلِّ صَغْبٍ وَذَلُولٍ»، فَإِذَا مُعَاوِيَةُ حِينَمَا جَاءَهُ كِتَابُهُ «يَتَرَبَّصُ بِهِ فَقَدْ كَرِهَ - عَلَى حَدِّ دَعْوَاهُ - مُخَالَفَةَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ، وَقَدْ عَلِمَ أَجْتِمَاعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وَمِنْ تَهَكُّمَاتِ الْقَدَرِ أَنْ يُخَرِّضَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ، وَتَجَبُّهُ عَائِشَةُ عَلَانِيَةً، وَتَحَلَّى مُعَاوِيَةُ عَنْ تَجَدُّيهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ كِلَاهُمَا، ثُمَّ يَتَفَرُّ هَؤُلَاءِ أَنْفُسَهُمْ هُنَا وَهُنَاكَ، يُطَالِبُونَ بِدَمِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي أَخْلَصَ لَهُ النَّصِيحَةَ، وَحَذَّرَهُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ، وَكَانَ مِجْنَهُ دُونَ رَوَاكِضِ الْخُطُوبِ.

*

بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَمُسْتَضْرِحٍ وَنَاكِيلٍ، تَرَاقَصَ الْحَيْطُ مُضْطَرِباً مُتَرَنِّحاً كَبَحْرِ آسْتَقْبَلَ بَيْنَ خَنَايَاهُ الْعَاصِفَةَ...

فَمَادَ بِهَا وَمَادَتْ بِهِ زَمَنًا، وَأَنْطَلَقَ يَقْدِفُ بِالزَّبَدِ يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ حَانِقٌ، وَيَزُمِي بِالْمَوْجِ مُنْطَاوِلاً كَأَنَّهُ يَتَهَدَّدُ...

فَقَدْ عَبَثَتِ الْعَاصِفَةُ بِأَبْدِيَةِ الشُّكُونِ الْجَائِمَةِ عَلَيْهِ. وَهُدُوءِ اللَّانِهَائِيَةِ الْغَايِصَةِ الْحَائِمَةِ فِيهِ...

*

شَعَرَ الْبَحْرُ^(٦) أَنَّ الصُّخُورَ^(٧) الشَّامِيَّةَ فِي أَرْجَائِهِ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِ... فَاسْتَدَارَ عَلَيْهَا يَزْمَجِرُ نَائِراً هَادِراً، فَقَدْ أَيقَنَ أَنَّهَا مَكْمَنُ الْعَاصِفَةِ، فَهُوَ يَنْوُو بِأَقْتِلَاعِهَا...

(٦) كِنَايَةً عَنِ الشَّعْبِ الَّذِي هُوَ فِي الْوَاقِعِ بَحْرٌ خَيَوِيٌّ يَفِيضُ بِالْقُوَى، وَتَارِيخُهُ سَيَّلَ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْعَوَاصِفِ وَالْثَّيَّارَاتِ وَالتَّنَاحُرَاتِ بَيْنَ أَحْيَائِهِ.

(٧) كِنَايَةً عَنِ الْأَرَسْتَرَاطِيَّةِ، وَمَا حَلَّ مَحَلَّهَا فِي الْمُسْتَجْتَمَعِ الْحَدِيثِ، وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَرَسْتَرَاطِيَّةَ طَبِيعَةً الصُّخْرِ مِنْ كِبَرِيَاءِ قَاسِيَةٍ وَجَسَّ بَلِيدٍ.

وحين طارَئَتْهُ طَمَا عَلَيَّهَا وَتَجَاهَلُ وُجُودَهَا...
وهو، وإن لم يَفْتَلِعْهَا، رَدَّهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَكُونُ لَهَا حِسَابٌ فِي كِبَرِيَاءِ
الْوُجُود...
*

إِنَّ كِبَرِيَاءَ الْوَاحِدِ تَجَاهُلٌ لُجُودِ الْآخَرِينَ...
وَلَكِنْ وُجُودُهُمْ فِي حِسِّ الْوَاقِعِ، أَكْبَرُ مِنْ وُجُودِهِ فِي حِسِّ الْخَيَالِ...
فَإِنَّ وُجُودَهُ قَبْضَةٌ مِنَ الظَّلَامِ، وَوُجُودُهُمْ قَبْضَةٌ مِنَ الشُّعَاعِ...
وَمَا تَقَابَلَا إِلَّا ذَابَ الْأَوَّلُ فِي الثَّانِي دُونَ مَا أَثَرٍ يَقْفُو...
إِنَّ الْكِبَرِيَاءَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلْكَثَرَةِ، وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى الْعَدَدِ...
وَإِذَا نَجَحَ الْفَرْدُ فِي أَتْبِلَاعِ الْكُلِّ أَخِيَانًا، فَإِنَّهُ مُتَعَرِّضٌ لِحَظَرِ التَّمَرُّعِ دَائِمًا...
فَالْكُلُّ قُبْلَةٌ قَدْ تَبَوَّرَ حِينًا، وَلَكِنْ فِيهَا إِمْكَانِيَّةُ التَّفَجُّرِ أَبَدًا...
*

فِي طَبِيعَةِ الْبَحْرِ رَشَاقَةُ الْحَرَكَةِ، وَفِي طَبِيعَةِ الصُّخْرِ سُكُونٌ بَلِيدٌ، وَأَيْضًا قَاسٍ
مُتَعَجِّهِمُ...
وَبَيْنَهُمَا وَقَفَ إِنْسَانٌ^(٨) فِيهِ وَعْيُ السُّكُونِ وَقَضْدُ الْحَرَكَةِ، يَصِلُ أَسْبَابَ
أَحَدِهِمَا بِأَسْبَابِ الْآخَرِ...

وَكَانَتْ كِبَرِيَاءُ الصُّخْرِ عَمِيَاءَ فَلَمْ تَقْنَعْ بِغَيْرِ وُجُودِهَا، فَانْطَلَقَتْ أَعَاصِيرُ
الْبَحْرِ تَرَاوُ فِي مِثْلِ الْفَحِيحِ...

(٨) كِنَايَةٌ عَنْ كُلِّ مُضِلِّحٍ إِنْسَانِيٍّ يَفْعَلُ فِي هَذِي الْمَبَادِيءِ كَعَلِيٍّ.

وَوَقَفَ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشَّاطِئِ يَنْظُرُ مُتَفَجِّعاً، فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَخْدُوعُ -
الَّذِي أَصْحَى غَوْرًا - تَرَفُّصُ فَوْقَهُ مَوْجَةٌ مَارِحَةٌ... فِي نَعْمَةٍ تُخَيِّرُ: أَنَّهُ كَانَ هُنَا شَيْءٌ
فِيمَا زَعَمُوا...

*

مَضَى ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَقَدْ أَبْصَرَ وَسَمِعَ، مُطْرِقًا مُرَدِّدًا: بِهَذَا نَطَقَ الْحَقُّ فِي
صَدَى الْمَوْجِ...

وَرَوَى هَذَا الْإِنْسَانُ لَوَلَدِهِ^(٩) أُمُثُولَهُ، يُبْخِرُ، فَلَيْتَ مُتَأَمِّلًا يُعْبِرُ عَنْ أَنَّهُ وَعَى...
وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا، حَتَّى كَانَ يَنْفُسِهِ رَجْفَةً رَعَشَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَرَجْعَةً أَصْدَاءِ
الْمَوْجِ...

وَشَرَعَ النَّاسُ يَزُوُونَ، بَعْدَ ذَلِكَ، أُمُثُولَةَ آبِئِ الْإِنْسَانِ...

* * *

(٩) كِتَابَةٌ عَنْ أَشْعى أَبْهَاءِ الْوَعْيِ الْحَدِيدِ كَالْحُسَيْنِ.

في الزوبعة

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الأشلاء بالدماء، آنكشف الفصل الأخير
من فصول الثورة التي كانت تمثل على أرض المدينة وفي بطحائها الفسيحة
المدى، البعيدة الآفاق، والتي كانت تتجاوب بأصدائها الهادئة هنا وهناك، قريئة
بعيدة، فتتفاعل مع الأحياء تفاعلاً ملوّن الرعشات، فمن يتضاء ناصعة كالزبد، ومن
سوداء فاحمة كالقار، ومن حمراء قانية كالعشم، وأعصاب الجماعات تتمدد
وتتقلص وتعلو وتهبط... فجذلاً هناك وغضباناً هنا، وبين هذا وذاك تنبعث
نأμάτων مخترفة، أو زفارات مُحْتَنِقة، أو بقايا هتافات مُعْتَبِط طروب.

وهم، وإن لم يجمعهم الأسى، فقد تنفّس سائرهم الصعداء، ولكن لم
تلبث أن دارت الثورة على نفسها بالغة عنيفة، فقد أفتلت قيادها وهبت طائشة
على قطيبتها، شاردة في لولبها.

كان الجمهور قد ألتهب بروحية الدماء وشربتها، فغدا دمويّاً وشرساً، يضرب
على أشنائه في شكل كريبه، كأنه يتأكلها، أو كأنما يتأكل الأشباح والطيوف التي
استوت في مكان الحيس من نقمته، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن
يتبحث في مكامن الفضاء عن أثار عليه خفيظته، والحفاظ قاسية نهمته إذا
انطلقت في مدى الشعور المتضري، وأعصاب الحي حينما تضري، وتهيجها

النُّقْمَةُ لَا تَذْهَبُ فِي آتِنَايِمِهَا إِلَى الْإِيقَاعِ السَّاحِقِ بَمَنْ أَسْعَرَهَا فَقَطُّ، بَلْ تَرَوُحُ
مَاضِيَةً وَرَاءَ ذَلِكَ بَعِيداً. فَهِيَ لَمْ تَزُوْ حُرُوقَةَ الظُّلْمِ الْفَائِرِ، فَتَطْلُبَ سَحَقَ أَخْيَلِيَّتِهَا،
وَتُصَارِعَ الْخَيَالَ الْبَغِيضَ الَّذِي تَمَدَّدَ عَلَيْهَا فِي ثَوْرَةِ الدَّمَاءِ... وَمِثْلُ هَذَا الْجُمْهُورِ لَا
يَزْعَى لِلْمَوْتِ قَدَاسَةً وَحُرْمَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ فَقَدْ حَالَ بَيْنَ جَسَدِ الْخَلِيفَةِ الْمَفْؤُودِ وَبَيْنَ
الدَّفْنِ، أَنَّهُ حَانِقٌ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى شَيْعاً يُجَدِّدُ لَهُ الذِّكْرَى أَشَدَّ هَوَلاً.

إِنْطَلَقَ النَّاسُ فِي مَذْهَبِ أَغْصَابِهِمِ الْمُنَازِمَةِ الْمُتَعَقِّدَةِ دُونَ هَوَادَةِ أَوْ لِينٍ،
يَدُكُونُ مَعَالِمَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ كَيْفَ حَلَا لَهُمْ، وَيَضْحَكُونَ كَيْفَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ،
وَفِي هَذَا التَّجْمُهِرِ الْكَبِيرِ قَامَ الْأَشْتَرُ مُتَّصِباً فَوْقَ الْجُمُوعِ مُلَوَّحاً بِسَيْفِهِ، هَادِراً
بِمَنْطِقِهِ النَّارِيِّ الْمُتَّقِدِ الَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مُمْتَدّاً كَأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ قَائِلاً:

أَلَا سَحَقاً لِيَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْأَشْرَارِ،

وَوَيْلٌ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَتُونِ الشَّعْبِ الْفَوَّارِ،

فَيَدُ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ تَغْتَصِرُ الْمُسْتَبْدِينَ الْفُجَّارِ،

وَلَا بُدَّ لِلظُّلَمِ مِنْ أَنْ يَلْتَهُمَهُ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ أَفْعَاؤُ جَبَّارِ،

وَرَحِمَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ الرَّفِيقَ الَّذِي أَنْقَلَبَ لِيُنْهَ مَعَهُمْ إِلَى أَنْقِيَادٍ وَصْعَارِ،

وَحَيَّا اللَّهُ غَضَبَةَ الْأَحْرَارِ،

وَكِبْرِيَاءَ بَطْشَةِ الشَّعْبِ إِذَا ثَارَ،

الَّتِي أَنْتَصَفَتْ لِلْمَظْلُومِينَ الْأَبْرَارِ،

فَهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأُولَئِكَ، أَعْدَاءُ الشَّعْبِ، إِلَى النَّارِ،

وَحَذَارِ أَنْ تَتْرُكُوا لِلْعَادِينَ فُرْصَةَ الْفِرَارِ وَالنَّفَارِ،

فَهَلُمُّوا كَالسَّيْلِ أَنْدِفاعاً إِلَى بَطْلِ الْأَحْدَاثِ الْكِبَارِ،

فَقَدْ أُعْطِيَتْ الْقَوْسُ بَارِيهَا وَتَمَّ الْإِنْصَافُ وَالْإِنْصَارُ،

وَأَطْمَأَنَّ مُشَرَّدُو الطُّغْيَانِ فِي الْقِفَارِ،

وَأَنْتَحَرَ الْعُدُوَانُ وَأَنْصَارُهُ أَيَّ أَنْتِحَارِ،

وَأَعْتَلَى الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَذَابَتْ لُحْلُكَةُ اللَّيْلِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.

فَانْطَلَقَ النَّاسُ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَتَدَافَعُوا فِي كُلِّ طَرِيقٍ كَالْقُلَلِ
السَّاقِطَةِ الْمُنْدَحِرَةِ، إِلَى دَارِ عَلِيٍّ يُنَادُونَ بِهِ خَلِيفَةً وَزَعِيمًا.

كَانَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ جَمَاعَةٌ يَتَجَاذِبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فِي شَيْءٍ مِنْ
التَّنَافُرِ فِي الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْحَدِيثِ الدَّامِي الَّذِي تَمَّ عَلَى أَيْدِي الثَّائِرِينَ.

قَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ: لَقَدْ عَدَا الثَّائِرُونَ أَقْدَارَهُمْ وَائِسُوا مِنَ اللَّهِ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى
مَقَامِ الْخِلَافَةِ، وَلَمْ يَزَعُوا حَصَانَةَ الْعَهْدَةِ الَّتِي تَمَّتْ بِالْإِثْبَابِ، وَلَكِنْ:

مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرْفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عَفَانَا

لَتَسْمَعَنَّ وَشِكَاً فِي دِيَارِهِمْ أَلَلُّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ

قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: مَاذَا تَقُولُ؟ عَدَدُوا أَقْدَارَهُمْ فَقَطُّ! بَلْ هُمْ أَثَمَةٌ
سَفَاكُونَ، وَنَحْنُ لَمْ نَقْتُلْ مِنْهُمْ، بَلْ نَصِيبُ كَبِيرٍ مِمَّا اقْتَرَفُوا. كَانَتْ جِنَايَةٌ مَا
أَهْوَلُهَا! إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَيْدِينَا نَحْنُ، نَعَمْ، نَحْنُ، فَلَا أَرَاهَا إِلَّا مُلْطَخَةً بِالدَّمِ الزَّكِيِّ
الْبَرِيِّ. لَقَدْ شَارَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، بَلْ كُنَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كُنَّا مَطَايَا
الْجَرِيمَةِ.

لَعَلَّكُمْ لَا تَذَرُونَ أَنَّ فِي الْحَادِثَةِ يَدًا مَجْهُولَةً حَاكَتْ هَذِهِ الْمُوَازَةَ الطَّاعِيَةَ مِنْ
أَطْرَافِهَا، وَأَحْكَمَتْ أَسْبَابَهَا. نَعَمْ اسْتَطِيعَ أَنْ أَتَّهِمَ وَأُعْلِنَ بِمِلِّ فَمِي أَنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ
مَا وَرَاءَهَا... وَابْتَسَمَ آتِيسَامَةً صَفْرَاءَ كَالْفَحِيحِ فِي شِفَاوِ مُلْتَوِيَةٍ مَقْلُوبَةٍ صَجَبَهَا

تَكَثَّرَ فِي الْجُفُونِ كَأَنَّهُ يُشِيرُ... وَلَكِنَّهَا أَكَمَّةٌ شَفَافَةٌ تُرَى مِنْ خِلَالِهَا الْأَشْبَاحَ.

تَنَمَّرَ جَهْجَاهُ الْغِفَارِيُّ وَرَدَّ عَلَيْهِ: بَلْ بَاءَ أَصْحَابُكَ بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَيَنْتَظِرُ يَوْمَ أَكْثَرَ سُوءًا، وَلَوْ كَانَتْ الْأُمُورُ إِلَيَّ لَمَا تَرَدَّدْتُ فِي أَنْ أُبْطِشَ بِكَ أَوَّلَ مَا أُبْطِشُ، فَأَنْتَ هُوَ رَأْسُ الْأَعْمَى، وَبِنَفْسِي أَنْ أُرْوِيَ بِكَ أَعْصَابِي الظَّامِئَةَ.

فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا»، أَلَمْ يَقُلْهَا لِعُمَرَوِ بْنِ الْعَاصِ وَأَيُّهُ يَوْمَ سَامَا الْمِصْرِيُّ الْبَرِيءَ وَأَضْطَهْدَاهُ اسْتِغْلَاءً فِي الْأَرْضِ وَعَثْوًا. قَالَ هَذَا فِيكُمْ وَلَمْ تَتَرَبَّعُوا عَلَى دَسْتِ الْحُكْمِ، وَلَمَّا تَصِرْ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ وَأَسْبَابُ السُّلْطَانِ إِلَى أَيْدِيكُمْ، فَكَيْفَ وَقَدْ تَسْوَدَّتُمْ؟ أَرَدْتُمُوهَا فِرْعَوْنِيَّةً وَرُبُوبِيَّةً، وَرَكِبْتُمُ النَّاسَ بِالْبَغْيِ مَطَايَا شَهَوَاتٍ... وَثَارَتْ بِهِ حَفِيزَتُهُ، فَانْقَلَبَتْ سَخَنَتُهُ وَتَجَهَّمَتْ عَلَى شَكْلِ مُنْكَرٍ، وَبَدَرَتْ مِنْهُ حَرَكَةٌ تُنْذِرُ بِشَرٍّ، لَوْلَا أَنْ خَفَّ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ فَحَالَ دُونَهُ، وَتَنَاوَلَ الْحَدِيثَ:

كَمَا تَقُولُ - يَا مُغِيرَةُ - إِنَّ وَرَاءَ الْأَكَمَّةِ مَا وَرَاءَهَا، وَلَكِنْ كَمْ يُسْقَطُ فِي يَدِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَاءَ الْأَكَمَّةِ إِلَّا بَطَانَةُ الْخَلِيفَةِ الرَّاجِلِ نَفْسُهَا، ثُمَّ لَمْ تَنْكَشِفْ عَنْ أَحَدٍ سِوَاهُمْ، فَأَنَا أَرَى كَمَا تَرَى وَأَقْدَرُ مِثْلَمَا تُقَدِّرُ، بَيِّدْ أُنِّي كُلَّمَا حَدَّقْتُ بَيْنَ الْخِلَالِ، وَأَطَلْتُ التَّحْدِيقَ وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ، فَلَسْتُ أَرَى وَرَاءَ الْأَكَمَّةِ إِلَّا مَنْ ذَكَوَتْ لَكَ، ثُمَّ لَا أَرَى إِلَّا إِيَّاكَ وَأَصْحَابَكَ.

نَعَمْ فِي مَضَرَعِ الْخَلِيفَةِ الْفَطِيحِ مُؤَامَرَةٌ أَنْتُمْ نَظَّمْتُمُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ، وَقَدْ يَقَعُ غَرِيبًا عَلَيْكَ أَنْ يَتَأَمَّرَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ تَسَحَّرَ فِي سِرِّكَ مِنْ قَوْلِي، وَلَكِنَّ الْمَتَهَوِّزَ الطَّائِشَ طَالَمَا نَالَ نَفْسَهُ بِخُسَامِيهِ، كَذَلِكَ الصَّائِدُ الَّذِي حَمَلَ فِخَاخَهُ وَأَنْطَلَقَ يُرِيدُ الطَّبَاءَ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَوْ حَمَلْتُهَا مَفْتُوحَةً مُهَيَّأَةً لَكُنْتُ أَسْرَعَ إِلَى نَيْلِ الْغَايَةِ وَأَرْجَى فِي الْفَائِذَةِ، فَقَعَلَ وَسَارَ... وَلَمْ يَمُضْ بَعِيدًا حَتَّى أَطَبَّقَ بِهِ فَعَجَّ مَعَ حَرَكَاتِ الْمَسِيرِ،

فَسَقَطَ يَفْخَصُ فِي الْأَرْضِ^(١)، وَقَدْ قَنَصَ نَفْسَهُ فِي شَهْوَةِ الطُّبَاءِ.

إِنَّكَ أَدْرَى مِنْ غَيْرِكَ بِمَا كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعُسْفِ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى الْجَمَاجِمِ وَتَنْعَمُ عَلَى أَشْلَاءِ الْأَحْيَاءِ. لَقَدْ ضَتَّوْا عَلَيْهِمْ حَتَّى
بِمَا يَسُدُّ رَمَقَهُمْ وَيَبُلُّ حُلُوقَهُمْ، وَيَخْلُوا عَلَيْهِمْ بِأَقْلٍ مِنَ الْقَلِيلِ، وَسَامَوْهُمْ إِذْلالاً،
وَأَوْرَدَوْهُمْ مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ.

فَيَعْتَ ثَلَاثُ الْبَطَانَةِ بِسُكْنَى الْقُصُورِ الْمُبْتَوِّثَةِ بِالرِّيَاشِ، وَأَصَمُّوْا آذَانَهُمْ عَنِ
الْأَنْبِيَاءِ الصَّارِخِ الْمُتَبَيِّنِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَأَوْهَمُوا الْخَلِيفَةَ الرَّقِيقَ الْحَاسَةَ أَنَّ الشَّعْبَ فِي
أَسْعَدِ مَا يَكُونُ حَيَاةً، وَضَرَبُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ بِأَسْوَارٍ وَحُجُبٍ، وَمَتَّعُوهُ عَنِ الشَّعْبِ
وَمَتَّعُوا الشَّعْبَ عَنْهُ، وَسَمَّوْا رَأْيَهُ فِي النَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
أَوْصِيَاءَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الَّذِي شَاوُوا الْحَجَرَ عَلَيْهِ، وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْقُصُورَ الَّتِي آغْتَصَمُوا
بِهَا قَامَتْ عَلَى أَجْسَادِ حَيَّةٍ تَتَحَسَّسُ بِالْآلَامِ، وَكَانَ فِي آتِنِيفَاضَةٍ مِنْ آتِنِيفَاضَاتِهَا مَا
أَحَالَ دُنْيَا ثَلَاثُ الْقُصُورِ أَطْلَالاً وَخَرَائِبَ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّائِرِينَ لَمْ تَحْدُثْهُمْ فِكْرَةُ الْجَرِيْمَةِ وَلَا شَهْوَتُهَا، وَإِنَّمَا حَدَاهُمْ تَنَفُّسُ
الْحُرِّيَّةِ الْمَضْغُوطَةِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ، كَمَا رَامُوا، بِإِخْلَاصٍ، إِنْقَادَ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَطَانَتِهِ،
وَرَفَعَ وَصَايَتِهَا الْقَسْرِيَّةَ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ خَلِيقاً بِهَذِهِ الْوَصَايَةِ حَقّاً، وَبِمِثْلِ هَؤُلَاءِ
الْأَوْصِيَاءِ، فَمَا هُوَ وَالْخِلَافَةُ إِذَا ؟

وَلَكِنْ طَاشَ بِالثَّائِرِينَ السَّهْمُ فَأَصَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هَدَفًا، يَبْدَأُ أَنَّهُ يُعْزَى أَنَّ
الْبَطَانَةَ أُصِيبَتْ فِي مَقْتَلِهَا بِمَصَابِيهِ، فَمَصَابِيهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فِي حِسَابِ الشُّعُورِ،
فَإِنَّ سُقُوطَ تِيكَ الْبَطَانَةِ كُلِّ الْعَدْلِ فِي حِسَابِ الْفِكْرِ، وَالْجُمْهُورُ الشَّاعِرُ لَا يُحَدِّدُ
النِّعَةَ بِمَنْطِقِ الْقَانُونِ بَلْ بِمَنْطِقِ الْأَلَمِ، فَلَيْسَ بِدَعَا إِذَا تَجَاوَزَ وَاسْتَفْحَلَ. وَلَوْ تَنَاوَلْنَا

(١) تَغْيِيرٌ كِنَايِيٌّ يَغْنَوْنَ بِهِ يَضْرِبُ أَدِيمَ الثَّرَابِ بِيَاطِنِ الْقَدَمِ.

المَوْقِفَ، حتَّى بِمَنْطِقِ القانون، فَإِنَّ دَعْوَى التَّغْيِيرِ بِهِ لَا تُنْقِذُهُ مِنَ الجَزَاءِ، وَلَقَدْ أَلَفَ الشَّعْبُ مَحْكَمَتَهُ، فَلَهُ الْكَلِمَةُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ، وَلَقَدْ قَالَهَا بِكُلِّ وُضُوح.

وإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ مِنْ أَنَّ التَّائِيذِينَ غَضَبُهُ مُجْرِمَةٌ، فَإِنَّ تِيكَ الْبِطَانَةَ أَهْوَلُ جَرِيمَةٍ حِينَ دَخَلُوا بِهَا إِلَى كُلِّ بَيْتٍ. وَلَسْتُ بِهَذَا أُرِيدُ تَبْرِيرَ الْخَطْبِ، وَلَكِنِّي أَقْصِدُ إِلَى هَدْمِ فِكْرَةِ الْجَرِيمَةِ عَلَيْكَ الَّتِي تُغْلِيئُهَا، وَلَعَلَّكَ تَعِي.

فَقَالَ جَهَّجَاهُ الْغِفَارِيُّ: تَقُولُ لَعَلَّهُ يَعْنِي؟ أَأَنْتَ غَرِيبٌ عَنْ شِبَاكِهِ وَأَحَابِيلِهِ. إِنَّهُ يُرِيدُ بِقَصْدٍ تَسْمِيمَ رَأْيِ النَّاسِ وَبَلْبَلِيَّتِهِمْ، وَلَا يَلْبَثُ هُوَ وَمَنْ فَاتَنَا مِنْ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ، حَتَّى يُلْزَحُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعُثْمَانِيَّةِ، وَيَجْعَلُوا مِنْ عُثْمَانَ مَوْضِعًا ثَائِرًا قَصْدَ إِلْقَاءِ الشَّعْبِ فِي الْفَوْضَى، وَأَنْكِفَائِهِ كُتْلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا أَسْرَعَ تَرَدُّدَ الْجُمُوعِ، فَهِيَ لَا تُحَاكِمُ وَلَكِنَّا تَشْعُرُ بِبَالَغَاتِ.

فهذا - وأشار إلى المغيرة - يَغْتَمِدُ عَلَى رُوحِيَّةِ الْجُمْهُورِ، قَصْدَ الْحَارَظَةِ بِالْعُنْصُرِ النَّفْسِيِّ الْقَلْبِيِّ لِإِبْجَادِ حَالَةٍ فَوْضَى شَامِلَةٍ، وَهُوَ لَا يَأْبَهُ، بِسَبِيلٍ مَا يُرِيدُ، أَنْ تَنْذَكَ مَعَالِمُ مُجْتَمَعِنَا الْعَظِيمِ. لِنَقْرِضَ أَنَّ عُثْمَانَ صُرِعَ بِقَصْدٍ أَنْ يُصْرَعَ فَقَدْ صُرِعَ عُمرُ مِنْ قَبْلِهِ، وَمَا تَهْمُنَا فُرُوقُ الْمَلَابَسَاتِ الَّتِي تَجِدُ قِيَمَتَهَا فِي الْإِغْتِبَارِ الْفَرْدِيِّ دُونَ الْإِغْتِبَارِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَهُمَا، كَحَادِثَيْنِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ. فَلِمَاذَا يُحَرِّضُ بِالْإِتِّهَامِ، وَيَسْتَشِيرُ بِالتَّفَجُّعِ وَالتَّوَجُّعِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ شَرًّا؟

قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: نَعَمْ، أَجْدَى عَلَيْنَا، وَأُولَى بِنَا، أَنْ نَعْتَبِرَ بِالْحَادِثِ وَلَوْ لَمْ يَحُلْ مِنْ خَطَا، فَتُدَاوِي الْوَضْعَ وَنَجْتَهِدَ جَيِّدًا بِحُسْنِ التَّائِي، كَيْ نَحُولَ بَيْنَ الشَّعْبِ، بِمَنْعِ الْأَسْبَابِ، وَبَيْنَ الْعَوْدَةِ إِلَى آوْتِكَابِ خَطَا جَدِيدٍ مِنْ شَاكِلَتِهِ. قَدْ مَاتَ الْمَيِّتُ وَبَقِيَ الْحَيُّ مُضْطَرِبًا، فَلْنَعْرِفْ كَيْفَ نُنْخِلُ الْاطْمِئْنَانَ إِلَى نَفْسِهِ، وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَصْلَحْنَا الْخَطَا وَرَبَحْنَا الْمُصِيبَةَ. وَأَمَّا تَزْوِيعُ الْجُمْهُورِ، بِثَهْمَةِ الْإِجْرَامِ وَالْذِّمِّ، فَإِنَّهُ تَكْبِيرٌ لِدَائِرَةِ الْخَطَا وَتَوْسِيعٌ لِحَوَاشِي الدِّمَاءِ، وَمَا أَرَى هَذَا إِلَّا دَعْوَةً جَاهِلِيَّةً تَقُومُ

على الانتقام في غرضها القريب، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد...
وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى إلى هذه النقطة، فقد مضى
يردد قول الشاعر:

قومي هُمُو قتلوا أُميتم أخي فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
أَصْبَحَ عَلَيَّ الْخَلِيفَةُ، وَاجْتَمَعَتْ فِي يَدَيْهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ، فَثَابَ إِلَى الْجَمْعِ
هُدُوؤُهُ مَشْفُوعاً بِالْأَمَلِ وَارْتِقَابِ فَجْرِ جَدِيدٍ.

وبدأ علي، أول ما بدأ، بإعطاء الحق إلى الشعب، فقد وجد أن مشاكلهم
المعلقة أضحت مُزمنة لم يَبْتَ فيها بشيء، فعطف على آلام هذا الجمهور، وواساه
بنفسه وقلبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وذهب مع تقديره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على بزنامج غير
مكتوب، يظل غرضة للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تضيقه، إذا لم
يقصِد أولاً، وقبل كل شيء، إلى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم، إلى
الكفاءة، الإخلاص والضمير. بل من رأي علي أن الإصلاح، حتى في المجتمعات
التي يشتمل النظام فيها على برامج مكتوبة، لا يَتِمُّ على وجه مضمون إلا
بالشخصية المنتقاة، ولمس، إلى ذلك، أن أكبر عناصر الشكوى وأهم أجزاءها هو
الجزء الخاص بالأمراء والولاة، فبادر قداماً إلى تغيير التعيينات.

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الأمصار الكبرى،
فلما أظهر على أن التعيينات الجديدة لم يُصْبِهُمَا مِنْهَا نصيب، امتعضا نوع
امتعض، ولمسا في الظرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً، ما يُمكنُهُمَا مِنَ القيام بحملة
ضغط على الخليفة الجديد، لا سيما وقد وجدوا في الناس من يطالب بإقامة الحد
الشريعي على الذين باسروا الأغنياء بالنفس.

وعليّ لم يُؤخّزهما من حيث إنّهما ليسا بالجدّيين، فهما من ذوي السابقة، ومن أقدر العناصر، بل لأنّ الظرف لم يزل يُعجّ بالحزبيّة ولم يزل مُتَشَبِّعاً بروحها. فإذا بعثَ بهما إلى الأقاليم التي تُناصرهما، كالكوّفة بالنظر إلى الزبير، والبصرة بالنظر إلى طلحة، فقد سهّل لهما حُرّيّة التصرف والانفراد بالرأي لمكان الثقة الحزبيّة. وحُرّيّة التصرف هي التي بات يشكو الناس منها، كما كان الحال بمعاوية في الشام على عهد عثمان، على أنّ الأمير يُصبح، بهذه الحزبيّة المناصرة، قليل الاهتمام بأوامر السُلطة العليا، بحيثُ تتخذُ به الأقاليم، في كلِّ مكان، شكلَ إقطاعيات لا تتصلُّ بالمرجع الأعلى الإيجابي المسؤول إلّا اتصالاً إسميّاً. وإذا تأرّمت العلاقة بين الرئاسة العليا والأمير، استطاع الانفراد بإقليمه، وقطّع العلاقة التي لم تكن تُعبّر عن اتصال إيجابي. وهذا خطرٌ يهدّد الدولة، وداءٌ وييل في جسم الحكم، خصوصاً إذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العصيان باتّفاق المصالح الموجبة، فإنّه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي، كما تطلّ هذه الصلّة الإسميّة للإقليم الإقطاعي ينبوع ضررٍ للرئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفل الأمير بالأوامر التي تصدر له، ولا يزهّب مَرَجَعَهُ فيُعَبِّثُ كيف شاء، ويكون المسؤول عن تصرّفه هو الرئيس الأعلى في نظر الشعب، فينتهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه، رغم أنّه، في الواقع، لا يستطيع أن يحيك معه حيكاً، مثلما كان الحال في زمن عثمان، فقد أصبح اتّصال الأقاليم بمركز الخلافة إسميّاً، والأمير الإقطاعي يتصرف كيف حلا له، لا ينتظر أمراً ولا يخضع لأمر. وإتّما يستخدِم ذلك الطابع (الإكليشه): «هذا أمرُ الخليفة» سِتاراً فقط، كما كان يفعل معاوية في الشام، فاتّهم الخليفة واستُحِقِّق ونسبت الفوضى.

وإذا بعثَ بهما عليّ إلى الأقاليم الأخرى، وليس لهما فيها أنصارٌ وأشياخ، بل على العكس أعداءٌ حزبيّون، فقد أعاد الوضع إلى القلبي، ودفع الجمهور إلى التمرد بالشكوى المصطنعة، فعمد إلى مداواة الحالة العامة، وحنق الحزبيّة وغنّعاتها،

وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً. فَيَبْنِي يَدِيهِ مُجْتَمَعٌ مَرِيضٌ، وهو يَتَطَلَّبُ
شخصيات جديدة لم تَنَحَرُطْ في الحَقْلِ العام، والحياة السياسية الصَّاحِبَةُ
المتناجزة، حتى إذا تَمَّ له ما يُريدُ عادَ فَفَكَرَ فِيهِمَا وفي سيَواتِهِمَا. ولكنَّهُمَا فَسَّرَا
إِغْفَالَهُمَا بِالْعَدَاءِ، فَانَصَرَفَا إِلَى إِيجَادِ الْوَسَائِلِ الْقَمِينَةِ بِالضُّغْطِ، فَوَجَّهَا وَجْهَهُمَا
شَطْرَ مَكَّةَ. وَبَيْنَا هُمَا فِي بَغْضِ الطَّرِيقِ لِقِيَا عَائِشَةَ وَهِيَ قَائِلَةٌ مِنْ مَكَّةَ، فَزَوَّيَا لَهَا مَا
كَانَ مِنْ أَمْرِ الثَّائِرِينَ وَعُثْمَانَ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَعَلِيٍّ، وَكَاشَفَاها بِمَا عَزَمَا عَلَيْهِ.
وَصَادَفَ هَذَا رَغْبَةً خَفِيَّةً فِي ضَمِيرِهَا وَهَوًى كَامِناً، بِمَا اسْتَطَاعَ الزُّبَيْرُ، بِمَا لَهُ مِنْ
دَالَةٍ عَلَيْهَا، وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهَا أَشْمَاءَ، وَوَالِدُ مَنْ اسْتَخْلَصَتْهُ لِنَفْسِهَا مِنْ أَثْنَائِهِ، حَتَّى
أَخْتَارَتْ لِكُنْيَتِهَا اسْمَهُ وَذَلِكَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُهُ. فَحَمَلَهَا عَلَى الرَّجْعِ، وَسَهَّلَا لَهَا
الْخَوْضَ فِي مَقْعَةٍ سِيَاسِيَّةٍ طَاحِنَةٍ، اتَّصَلَتْ حَتَّى أَنْقَلَبَتْ دَمَوِيَّةً حَادَّةً.

وَلَمَّا هَبَطُوا مَكَّةَ وَجَدُوا فِيهَا قُلُوبَ الْأُمُوتِينَ، فَفَكَرُوا جَمِيعاً بِاسْتِغْلَالِ الْمَوْقِفِ
وَتَرْتِيبِهِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ:

يَغْصِي بِالشَّامِ مُعَاوِيَةُ، وَهُمْ يَغْضُونَ بِالْعِرَاقِ، حَتَّى إِذَا اسْتَقَامَ لَهُمُ الْأَمْرُ
وَأَسْتَقَرُّوا، حَاصَرُوا الْحِجَازَ وَأَنْتَزَعُوا مُقَدَّرَاتِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا، وَأَزْعَمُوا الْخَلِيفَةَ عَلَى
التَّسْلِيمِ بِمَطَالِبِهِمْ.

إِتَّصَلَ بِعَلِيٍّ كُلُّ مَا دَارَ بِخَلْدِهِمْ وَمَا عَزَمُوا عَلَيْهِ، وَاتَّصَلَ بِهِ، فَوْقَ ذَلِكَ،
أَنَّ الْخَطْبَ سَيَعْدُو دَائِرَتَهُ الضَّيِّقَةَ، لِيُزُولَ عَائِشَةُ إِلَى الْمَيْدَانِ بِمَا تَبَعَتْهُ مِنْ خَامِدَاتِ
النُّفُوسِ، وَفِي الْحَيْطِ الْعَرَبِيِّ خُصُوصاً. أَلَيْسَتْ أَمْرَاءُ وَأَمْرَأَةٌ لَهَا قِيَمَتُهَا وَمَنْزِلَتُهَا
الرَّوْحِيَّةُ الْفَرِيدَةُ؟ فَهِيَ زَوْجُ النَّبِيِّ وَأَبْنَةُ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ، وَمَزْجَعُ عِلْمِيٍّ فَقْهِيٍّ. وَمِنْ
نَاحِيَةِ ثَانِيَةٍ، أَلَيْسَ الْمَوْضُوعُ نَفْسُهُ حَسَاساً مُثِيراً؟ أَلَيْسَ كُلُّ الثَّائِرِينَ الَّذِينَ تَمَّ الْحَادِثُ
عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي صُفُوفِ عَلِيٍّ؟ أَلَيْسَتْ نَفْسِيَّةُ الْجُمُوعِ شَدِيدَةُ الْحَسَاسِيَّةِ يَهْوِلُ الدِّمَ
الْمَطْلُولِ، وَضَعِيفَةُ الْحَاكِمَةِ وَالْمُؤَاوَنَةِ؟ أَلَيْسَ الظَّرْفُ مُتَبَلِّلاً يَمِيدُ وَيَمُورُ بِالْفَوْضَى؟

ففي الأمر إذا غُدَّةٌ خطيرة، ولا بُدَّ أن يَشْتَغَلَهَا هؤلاء الواجدون.

فَكَرَّ وَقَدَّرَ وَقَلَّبَ وَجُوهَ الرَّأْيِ، حَتَّى آتَتْهُى إِلَى أَنَّ الْحَالَةَ النَّاشِئَةَ الْبَادِيَةَ، سَتَسْتَحِيلُ إِلَى فَوْضَى خَطِيرَةٍ، قَدْ تَنَذَّرْتُ مَعَهَا صُرُوحَ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْتَهَى أَيْضاً إِلَى أَنَّ صِفَةَ التَّبَلُّلِ، وَهِيَ تُسَاعِدُ عَلَى الدَّسِّ وَالْإِتِّهَازِ، لَا يَحْسِمُهَا إِلَّا عَمَلٌ سَرِيعٌ غَنِيْفٌ. وَفَكَرَّ كَثِيراً قَبْلَ أَنْ آتِبْتَدَأَ بِطَلْحَةِ الرَّبِّيْرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا عَائِشَةُ، فَقَدْ لَمَسَ خَطَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مِنْ أَسْبَابِ السَّيْطَرَةِ وَالتَّأْثِيرِ الرُّوحِيِّ قَدْرًا كَبِيراً، وَقَدْ أَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ:

«بُلِيتُ بِأَنْصُ النَّاسِ، وَأَنْطَقِي النَّاسِ، وَأَطْوَعِ النَّاسِ فِي النَّاسِ. يُرِيدُ بِأَنْصُ النَّاسِ يَغْلَى بِنِ أُمِّيَّةٍ، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ مَالاً وَنَاضاً، وَأَنْطَقِي النَّاسِ طَلْحَةَ بِنِ عُيَيْدِ اللَّهِ، وَأَطْوَعِ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةَ».

وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَقَدْ اسْتَجَلَى طَبِيعَةُ الْبَصَرَةِ، عَلَى صَوْرِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَارِزَةً فِي الْعِرَاقِ إِذْ ذَاكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَكَانِ التَّفَكُّكِ وَالتَّفَشُّخِ، وَعَدَمِ الْإِنْجَامِ وَالتَّمَاثُلِ، بَيْنَمَا الشَّامُ كَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مُتَمَاثِلَةً بِوَحْدَةِ الدَّمِ وَالتَّغْرِيرِ. فَالْبَصَرَةُ إِذَا أَقْلُ عَنَاءٌ وَأَكْثَرُ خَطَرًا وَأَبْعَدُ نُفُودًا، بِمَا يَمْلِكُ اللَّاجِئُونَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَى بَعِيدٍ، عَمِيقِ التَّجَاوُبِ فِي النَّفْسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَامَّةِ. فَكَانَ لِزَاماً أَنْ يَنْبَغَتْ فُورُهُ إِلَيْهِمْ، وَيَتَّخِذَ الْبَصَرَةُ هَدَفَ ضَرْبَتِهِ الْأُولَى الْخَاطِفَةِ السَّاحِقَةِ، فَيُزْهِبَ بِهَا الْمُتَمَرِّدِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَجَالٍ.

وَأَقَامَ خُطَّتَهُ عَلَى حَرْبِ السَّرْعَةِ لِيَكُونَ نَجَاحُهَا مَضْمُوناً، فَيُعِيدَ الثَّقَّةَ الْمَفْقُودَةَ، بَعْدَ الثَّوَرَةِ، إِلَى الْهَيْئَةِ الْحَاكِمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَيَضْبِطَ الْعَاصِفَةَ. كَمَا اسْتَعَانَ بِالنَّقْدِ وَالِدَعَايَةِ أَدَاةَ حَرْبِيَّةٍ هَائِلَةٍ التَّأْثِيرِ، وَأَذْرَكَ ضَرُورَةَ هَذَا الْغُصْرِ فِي الْحَرْبِ. فَدَفَعَ أُمَّ سَلَمَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ، وَهِيَ مِنْ أَعْوَانِهِ، إِلَى آتِيقَادِ عَائِشَةَ عَلَى شَكْلِ حَادٍ، فِيمَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُعَاوَرَةٍ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهَا، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أُذِيعَ الْكِتَابُ وَهُوَ:

«مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ هَتَكَتِ سُدَّةَ بَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَأُمَّتِهِ. جَمَعَ الْقُرْآنُ ذُبُولَكَ فَلَا تَسْحَبِيهَا، وَسَكَرَ خَفَازَتُكَ فَلَا تَبْتَذِلِيهَا، فَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ... لَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَحْتَمِلْنَ الْجِهَادَ عَهْدَ إِلَيْكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ قَدْ نَهَاكَ عَنِ الْفَرَاطَةِ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ عَمُودَ الدِّينِ لَا يَثْبُتُ بِالنِّسَاءِ إِنْ مَالَ، وَلَا يُرَأْبُ بِهِنَ إِنْ أَنْصَدَعَ. جِهَادُ النِّسَاءِ غَضُّ الْأَطْرَافِ وَضَمُّ الدُّيُولِ وَقَصْرُ الْمَوَادَّةِ. مَا كُنْتُ قَائِلَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَوْ عَارَضَكَ بِبَعْضِ هَذِهِ الْقَلَوَاتِ، نَاضَةً قَعُوداً مِنْ مَنْهَلٍ إِلَى مَنْهَلٍ، وَعَدَا تَرْدِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ لَوْ قِيلَ لِي يَا أُمُّ سَلَمَةَ ادْخُلِي الْجَنَّةَ لَا سَتَحْيِيْتُ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ هَاتِكَةً حِجَاباً ضَرَبَهُ عَلَيَّ... فَاجْعَلِيهِ سِتْرَكَ، وَقَاعَةَ الْبَيْتِ حِصْنَكَ، فَإِنَّكَ أَنْصَحُ مَا تَكُونِينَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا قَعَدْتَ عَنْ نَصْرَتِهِمْ. وَلَوْ أَتَى حَدَّثْتُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَتَهَشَّيْتُ نَهَشَ الرَّقْشَاءِ الْمَطْرِقَةِ، وَالسَّلَامِ».

وَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعَايَةِ الْحَزِينَةِ أَثَرُهَا الْكَبِيرُ، فَأُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضاً، وَهِيَ تَشْجُبُ عَلَى عَائِشَةَ حَرَكَتِهَا، وَتَتَنَقَّذُهَا أَنْتِقَاداً لَا ذِعَاً. وَقَدْ تَرَكَتْ أَثَرَهَا الْمَوْغُوبَ فِيهِ وَالْمُتَوَخَّى نِفْلُهُ، وَكَانَ أُبْرَزَ مَا تَرَكَتْ أَثَرَانِ:

١ - إعطاء صورة نائية عن مُحَاوَلَةِ النِّسَاءِ مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، فَقَدْ رَوَوْا «أَنَّ آبْنَ أَبِي عَتِيقٍ - وَعَائِشَةُ عَمَّتُهُ - لَقِيَهَا فِي بَعْضِ مَآتِي الطُّرُقِ رَاكِبَةً عَلَى بَغْلَةٍ، فَقَالَ:

إِلَى أَيْنَ يَا أُمَاهُ؟

قَالَتْ: أَصْلِحُ بَيْنَ حَيِّينِ مِنْ أَحْيَاءِ الْمُسْلِمِينَ تَقَاتِلَا.

قال: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا رَجَعْتَ، فَمَا غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا مِنْ يَوْمِ الْجَمَلِ حَتَّى نَعُودَ إِلَى يَوْمِ الْبَغْلَةِ».

٢ - شَجَعُ الرُّعَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهَا، فَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ صَوْحَانَ رَدًّا عَلَى كِتَابِهَا إِلَيْهِ:

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ أَمَرْتَ بِأَمْرِ وَأَمَرْنَا بِغَيْرِهِ، أَمَرْتَ أَنْ تَقْرَى فِي بَيْعَتِكَ وَأَمَرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً. فَتَرَكْتَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَكَتَبْتَ تَنْهَيْنَا عَمَّا أَمَرْنَا بِهِ، وَالسَّلَامُ... وَمَضَى الْخُطْبَاءُ يُخْصِمُونَ عَلَيْهَا تَبْلُغَهَا وَتَنَاقُضَهَا. فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ تُشِيرُ بَعْلِي فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ طَلَحَهُ وَالزُّبَيْرُ يَنْصَحَانِ بِأَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ الْخَلِيفَةُ، إِذَا هُمْ يُخْرِجُونَ جَمِيعًا لِحَرْبِهِ وَمُقَارَعَتِهِ فِي أَحْرَجِ السَّاعَاتِ الْعَصِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُسَهِّلُونَ سَبِيلَ الْعَمَلِ لِلْإِنْتِهَازِيِّينَ النَّفْعِيِّينَ.

فَحَزَبُ الدَّعَايَةِ الَّتِي أَصْطَلَعَهَا عَلِيٌّ وَقَذَفَ بِهَا خُصُومَهُ، أَثَرَتْ أَثَرَهَا الْكَبِيرَ، وَفَكَكَتْ الْوَحْدَةَ فِي الْمُعْشَكَرِ الْآخِرِ. «فَاعْتَزَلَ بِالْجُلَحَاءِ - مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى فَوْسَحَيْنِ - الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَاعْتَزَلَ مَعَهُ زُهَاءُ سِتَّةِ آلَافٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ».

وعلى هذا الوُضْعِ فَاجْتَأَهُمُ عَلِيٌّ بِجُنْدِهِ «وفيه ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة يَمْنُ شَهِدَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ، وَكَانَتْ رَأْيُهُ عَلِيٌّ مَعَ آبْنِهِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَقَفِيَّةِ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ الْحَسَنُ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْحُسَيْنُ، وَعَلَى الْخَيْلِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَعَلَى الرَّجَالِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ. وَرَحَفَ عَلِيٌّ نَحْوَ الْجَمَلِ بِنَفْسِهِ فِي كَتَبَتِيهِ الْخُصَرَاءِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَحَوْلَهُ بَنُوهُ حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ: أَقْدِمْ بِهَا حَتَّى تَوَكُّرَها فِي عَيْنِ الْجَمَلِ. يَا بُنَيَّ تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ، عَصُ عَلَى نَاجِدِكَ، أَعِزَّ اللَّهُ جُجُمَتَكَ، يَدُ فِي الْأَرْضِ قَدَمٌ، إِذْ يَبْصُرُكَ أَقْصَى الْقَوْمِ وَغَضُّ بَصْرِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ فَرَسَقَتُهُ السَّهَامُ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: رُوَيْدًا حَتَّى تَنْفَذَ سِهَامُهُمْ... فَأَنْفَذَ عَلِيٌّ يَسْتَحِثُّهُ، فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ جَاءَ بِنَفْسِهِ. وَقَالَ لَهُ: أَقْدِمْ لَا أُمُّ لَكَ. ثُمَّ أَدْرَكَهُ رِقَّةٌ عَلَيْهِ، فَتَنَازَلَ الرَّايَةَ مِنْهُ بِيَدِهِ الْيُسْرَى وَذُو الْفِقَارِ مَشْهُورٌ فِي يَمْنَى يَدَيْهِ، وَنَادَى بِعَقْرِ الْجَمَلِ

فَوَقَّعَتِ الْهَزِيمَةُ».

كانتْ مَعْرَكَةُ الْجَمَلِ، بِدُونِ رُبِّ، أَوْ كَادَتْ تَكُونُ هِيَ الْمَعْرَكَةُ الْفَاصِلَةُ، وَأَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ ثَانَوِيَّةً، وَأَنْ تُعْتَبَرَ حَرَكَةً فَرْعِيَّةً لِتَطْهِيرِ بَعْضِ عَنَاصِرِ الشَّعْبِ الْبَاقِيَةِ، خُصُوصاً وَالْمُقَاوَمَةَ الْكِفَاحِيَّةَ أَخِذَةً بِهَذَا الشَّكْلِ مِنَ الشُّرْعَةِ وَالِدَّعَايَةِ الْمُؤَقَّةِ، الَّتِي أَشْعَرَتِ النَّاسَ كَافَّةً بِالْأَسْمُتِزَارِ مِنْ شَعْبِ الْمُشَاغِبِينَ. تَبَدَّلَ أَنَّ الْحَالَ تَبَدَّلَتْ وَجَعَلَتْ لِصِفَتَيْنِ الصِّفَّةَ الْحَاسِمَةَ الرَّئِيسِيَّةَ لاعتبارات:

١ - إِسْتِحَالَةُ فِكْرَةِ الْعَقِيدَةِ وَرُوحِيَّتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ عِنْدَ عَلِيِّ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، وَالْفِكْرَةُ مِنَ الثَّوَابِتِ تَصْرِفُ كُلَّ قُوَى الْمَرْءِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ إِلَيْهَا، وَتَقِفُ جُهُودُهُ الْعَمَلِيَّةَ فِي سَبِيلِهَا وَمَدَى غَايَتِهَا، فَقَدْ تَرَكَّزَتْ تَرَكُّزُ الْأَعْصَابِ، فَصَاحِبُهَا لَا يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى وَلَا يُحِسُّ أَوْ لَا يُحِبُّ أَنْ يُفَكِّرَ، وَأَنْ يَرَى، وَأَنْ يُحِسَّ، إِلَّا فِي مَوَاقِعِ مُبُولِهَا، كَمَا لَا يُدَبِّرُ وَيُقَدِّرُ إِلَّا عَلَى ضَوْئِهَا. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ سِيَاسَةُ عَلِيٍّ مُشْتَقَّةً مِنْ صَمِيمِ الْحَيَاةِ كَمَا هِيَ بِمَسَاوِئِهَا، بَلْ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِقَضَائِلِهَا. فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي عَرَفْنَاهُ دَمَوِيًّا فِي قَضِيَّةِ الْإِنْتِصَارِ لِلْعَقِيدَةِ، نَرَاهُ شَدِيدَ الْكَرَاهِيَّةِ لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ وَأَسَالِيْبِهَا فِي قَضِيَّةِ قَمْعِ حَرَكَاتِ الْمُتَمَرِّدِينَ، فَهُوَ يُفَرِّقُ بَيِّنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ. وَلَكِنْ وَسَطُهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ هَذَا الْفَرْقَ فَهَمًّا حَسَنًا، أَوْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا أَلْبَتَّةَ، فَقَدْ رَأَيْنَا عُثْمَانَ الْخَلِيفَةَ يُسَمِّي تَمَرُّدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُفْرًا فِي كِتَابِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ، وَنَرَى عَمَّارًا وَمُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا سَائِرُ النَّاسِ، يُنْظَرُونَ إِلَى خُصُومِهِمْ نَظْرَةَ الْمَارِقِينَ مِنَ الدِّينِ، وَبِالتَّالِي يَجِبُ أَنْ يُطَبَّقُوا عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْكُفَّارِ وَقَانُونُ الْإِرْتِدَادِ.

كَانَ الْجُمْهُورُ مُتَشَبِّعًا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا وَيَلَابِسُهَا، فَإِذَا عَلِيٌّ وَهُوَ الْمُتَشَرُّعُ الْعَبْقَرِيُّ وَالْمُسْلِمُ الْوَاعِي لِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ يَحْمِلُ عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، لَعَلَّا يَتَوَرَّطَ النَّاسُ فِي أَسْتِباحَةِ مُقْتَضَيَاتِهَا الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي تُحَوِّلُهَا حَالَةَ الْحَرْبِ

في الأسرة والمال والمِلْك والقيمة الشخصية، التي يَتَّبِع فَقْدَهَا الأُسْر والاسْتِزْقاق. وَيَبِينُ لِلنَّاسِ، بِمَنْطِقِهِ العميق، أَنَّ هُنَاكَ صِفَةً ثَالِثَةً هِيَ الفِشْقُ، وهو لا يَتَّعِدُ بِالْمَوَدَّةِ الْبَتَّةِ عَنْ دَائِرَةِ الإِيمَانِ، كما لَا تَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الاسْتِباحَةُ بَلِ التَّأْدِيبُ فَقَطْ.

وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَتَأَتَّى إِلَى إِقْنَاعِهِمْ بِخَطَأِ فِكْرَتِهِمْ حِينَ قَالُوا «أَحَلَّ لَنَا دِمَاءَهُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ عَلِيٌّ:

هِيَ السُّنَّةُ فِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

قالوا: ما نَدْرِي ما هَذَا؟

قال: فَهَذِهِ عَائِشَةُ رَأْسُ الْقَوْمِ أَتَسَاهَمُونَ عَلَيْهَا؟

قالوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! أُمْنًا.

قال: فَهِيَ حَرَامٌ

قالوا: نَعَمْ.

قال: فَإِنَّهُ يُحَرِّمُ مِنْ أَنْبَائِهَا مَا حُرِّمَ مِنْهَا... فَنَادَى فِي النَّاسِ: لَا يُشَلَبَنَّ قَتِيلٌ وَلَا يُنْبَغُ مُدَبِّرٌ، وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُحَلَّ مَتَاعٌ. وَلَكِنَّ الْجَمَهْرَةَ الْكُبْرَى سَادَجَةٌ بَسِيطَةٌ فِي فِكْرَةِ الدِّينِ، فَوَقَعَ عَلَيْهِمْ هَذَا الدُّدَاءُ وَقَعَ الْيَأْسُ فِي مَحَلِّ الْأَمَلِ، وَجَعَلَهُمْ يُلْعَطُونَ كَثِيرًا، وَيَتَأَفَّفُونَ كَثِيرًا، وَحَمَلَهُمْ عَلَى تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ فِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَفِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْإِيمَانِ.

فَأَمَّا أُولَئِكَ الْبِدَاءُ الْأَعْرَابُ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا الدِّينَ إِلَّا عَلَى شَكْلِ سَطْحِيٍّ، اسْتَعَصَى عَلَى تَفْكِيرِهِمْ فَهَمُّ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَهُمَا، فَمَضَوْا عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ، وَافْتَنَعُوا بِمَا أَنْهَوْا إِلَيْهِ، وَاسْتَمَلُوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ التَّسْخِطِ الْخَفِيِّ كَانَ غَيْرَ مَشْعُورٍ بِهِ إِلَّا قَلِيلًا، لِأَنَّهُمْ، بِمُقْتَضَى نَظَرِيَّتِهِمْ، حَالُ الْخَلِيفَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَقِّهِمْ فِي الْعُنْمِ

وَمَنْعَهُمْ إِيَّاهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نَوَاطِئُ الْخَوَارِجِ، وَقَدْ صَاغُوا فِكْرَتَهُمْ هَذِهِ، فِيمَا بَعْدُ،
بِأَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَحِبُوا النَّبِيَّ طَوِيلًا، وَعَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ مَنَاطِقِ الدِّينِ، أَشْتَمَلُوا
عَلَى أَطْمَعْنَانٍ كَبِيرٍ، حِينَمَا أَوْضَحَ لَهُمَ عَلَيَّ الْفَرْقَ كَمَا لَوْ لَمَسُوهُ. وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ
مَنْ فَهِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ، عَلَى نَوْعٍ فِيهِ مُبَالِغَةٌ وَتَكْبِيرٌ، فَقَالَ بِالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ
الْمَنْزِلَتَيْنِ^(٢). وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْتِثْنَايَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ كُلُّهَا، حَوْلَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي أَثَارَتْهُ
مُشْكِلَةُ الْغَنَائِمِ بَعْدَ يَوْمِ الْجَمَلِ، أَفْكَارًا غَيْرَ وَاضِحَةٍ كَثِيرًا، وَاتَّخَذَتْ سَبِيلَ وَضُوحِهَا
فِيمَا بَعْدُ، وَقَامَتْ عَلَى أُسَاسِهَا الْفَرْقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَسْمَائِهَا أُخِيرًا.

٢ - نَظَرِيَّتُهُ فِي حُصُومِهِ أَتَاهُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُمْ فِي غَيْرِ حُدُودِ
الْإِسْلَامِ وَقَانُونِهِ، وَهُوَ يُسْتَقْتَضَى بِهِمْ «أُمُشْرِكُونَ هُمْ؟

قَالَ: مِنَ الشُّرْكِ فَزُوا... قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟

قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. قِيلَ: فَمَا هُمْ؟

قَالَ: إِخْوَانُنَا بَعَوْا عَلَيْنَا... وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يَقُولُ: لَا تَقُولُوا كَفَرُ أَهْلِ الشَّامِ،
وَلَكِنْ قُولُوا: فَسَقُوا وَظَلَمُوا». فَلَا بُدَّ إِذَا أَنْ يُفَاوِضَهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ
عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُلَايِنَهُمْ مَا وَسِعَتْ ذَلِكَ وَوَجَدَ فِيهِمْ أَمَلًا، دُونَ لُجُوءٍ إِلَى
الْعُنْفِ الَّذِي لَا يَسْتَحِلُّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُغَيِّتُوهُ.

فَقَرَأَهُ يُفَاوِضُ مُعَاوِيَةَ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِ الرَّسُولَ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَالْكِتَابَ تَلَوَّ
الْكِتَابَ، حَتَّى اسْتَعْمَلَ مَعَهُ أُسْلُوبًا يَقْرُبُ مِنَ الرَّجَاءِ. فَإِذَا بِهِ يُذَكِّرُهُ بِمَوْقِفِ أَبِيهِ مِنْهُ،

(٢) أَخْطَأَ مَوْزُوخُ الْفَرْقِ حِينَ تَوَهَّمُوا أَنَّ فِكْرَةَ الْأَعْتِرَالِ فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَمْ تُعْرَفْ إِلَّا فِي خَلْقَةِ الْحَسَنِ
التَّضَرُّيِّ، عَلَى لِسَانِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَعَمْرُو بْنِ عَبِيدٍ، وَإِنَّمَا أَنْشَأَهَا بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ خَيَالُ مُشْكِلَةِ الْغَنَائِمِ،
وَتَوْضِيحِ عَلَيِّ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعُصْيَانِ.

وإذا به يتهمة بالعقوق في رفق. قال في بعض كتبه إليه:

«وقد كان أبوك، أبو سفيان، أتاني حين قبض رسول الله، فقال أبسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فكنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفُرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر. فأبوك كان أعلم بحقي منك، وإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه نصبت رُشدك وإلا فتتعبن الله عليك».

ولكن معاوية كان قد ساوره الطمع، ولعبت أحلامه الكبرى أمام ناظره، وقد فهم مثالبه علي وتقاوه فعمد لاستغلالها. فإذا هو يُصانعه، ويُظهر له خيوطاً واضحة من الأمل بعد أن يضع عُقدة يتعايا بها، فيعذره علي ويمضي في مفاوضته. ومعاوية لم يكن يريد من ذلك إلا آكساب الوقت لتهيبه نفسه، وتبغ روح الملل في جيش علي، فهو يتمنى طول الوقت وطول الصراع مع ظهوره بمظهر المستسلم إذا انحلت العقدة أو أفتته بحلها، وبهذا المظهر يضمن أن لا يأخذه علي بحرب خاطفة ساجقة، بل يوفق به، فتتحول المعركة الجديدة إلى حرب إنهاك وإزعاج، وهي لا محالة ستشيع صفة التملل والياس في جيش علي. أضف إلى هذا أن هذا الجيش، منذ حين، قد خرج من معركة كبرى، ومن قبل كان نهيكاً بالفتوح في كل مكان، ولا يلبث أن يدور هذا التملل دورته ويعمل عمله، ولا بد أن يترك صدوعاً واختلافاً في الرأي، فينقسم الجيش شيعاً، ويُفلى من يد علي الزمام.

أما يراه يُجيئه حينما طلب تأجيل الحرب شهراً، أليس يسمع لجيش الشام، حين استولى جيشه على الشريعة، بالشقيا «حتى أزدحم عليها السقاة من العسكرين وما يؤذي إنسان إنساناً»^(٣) فطال أمد المعركة مائة وعشرين يوماً، وهذا وقت طويل

(٣) روى التاريخ أن جيش الشام سبق إلى الشريعة، فطلب علي السماح لجيشه فأبى معاوية عليه، فلما غلبه عليها وطلبوا إليه ذلك سمح لهم. فبرهن بهذا علي على أنه يحارب للحق وليس يحارب للعلىة وشهرة=

في عُمرِ حَرْبٍ مِنْ هَذَا التَّوَعُّعِ، وَسَمَحَ طَوْلُ الْوَقْتِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي نَبَتْ فِي رُؤُوسِ الْجُمُوعِ أَنْ تَنْمُوَ وَتَسْتَفْجِلَ، وَتُشَكِّلَ نَظَرِيَّةً لَهَا أَسْرُهَا وَتَأْثِيرُهَا فِي قَرَارَاتِهِمْ، وَكَانَ هَذَا التَّمَاءُ مَشْفُوعاً بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْمَلَلِ وَالْيَأْسِ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا خَافِياً عَلَى عَلِيٍّ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ وَيَبْتَئِسُ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ الْمَشْكِلةَ الْقَائِمَةَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ، وَبِمَنْطِقِ الْقَانُونِ الَّتِي يُقَدِّسُهَا. وَعَلِيٍّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَنَّ الظُّرْفَ يَتَأَزَّمُ عَلَيْهِ، وَالْوَقْتُ يَتَعَقَّدُ، وَالْفُرْصَةُ تَكَادُ تُفْلِتُ مِنْهُ إِلَى خَصْمِهِ، يُرِيدُ أَنْ يُحَارِبَ حَرْبَ الْحَقِّ، وَيَنْتَصِرَ لِلْعَدَالَةِ بِالْعَدْلِ، وَإِلَّا فَهُوَ، فِي نَظَرِهِ، يَخْدَعُ ضَمِيرَهُ وَيَخْدَعُ النَّاسَ، إِذَا سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِأَنْتِهَاجِ قَدَاسَةِ الْحَقِّ بِسَبِيلِ تَأْيِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ.

عَلَى أَنَّهُ كَانَ رَاضِياً، فَلَمْ يَبْتَئِسْ لِأَنَّهُ وَائِثٌ مِنْ أَنَّ النِّهَايَةَ الظَّافِرَةَ فِي مُتَنَاوَلِ يَدِهِ، يَضُمُّهَا إِلَيْهِ سَاعَةً يُرِيدُ، وَكَذَلِكَ كَانَ حِينَ يَعِيسُ مِنْهُمْ، وَضَرَبَهُمُ الصَّرِيَّةَ الْقَاصِمَةَ الَّتِي أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى حِيلَةٍ رَفَعَ الْمَصَاحِفَ الْمُغْتَادَةَ كَثِيراً، فَقَدْ رُفِعَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ يَوْمَ الْجَمَلِ، فَهِيَ إِذَا لَا تَمْلِكُ تَأْثِيرَ الْمُفَاجِئَةِ بَلْ مُعْتَادَةٌ بَارِدَةٌ الْأَثَرِ ضَعِيفَةُ الْمَقْعُولِ، لَوْلَا مَا كَانَ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَى الْجُمُوعِ مِنْ اسْتِيفَحَالِ الْأَفْكَارِ الْخَطِرَةِ الَّتِي سَبَقَ وَأَشْرْنَا إِلَيْهَا، فَتَصَدَّعَتْ وَخَدَّةُ الصُّفُوفِ بِهَذَا السَّبَبِ.

لَقَدْ عَادَتْ الزُّوْبَعَةُ إِلَى الْهُبُوبِ مَرَّةً أُخْرَى أَشَدَّ عُنفاً، فَتَمَزَّقَ شِرَافُ السَّفِينَةِ، وَمِثْلَتْهَا الْأَمْوَاجُ الْمُتَعَاطِمَةُ الْمُتَكَسِّرَةُ عَلَى جَوَانِبِهَا فِي جَبَرُوتِ. وَعَلِيٍّ فِي هَذِهِ الْعَمْرَةِ الطَّائِشَةِ كَانَ يَنْشَطُ إِلَى كَشْفِ الْمَهْزَلَةِ وَسَحْقِ طَوَاغِيَّتِهَا، وَلَكِنْ بِجَيْشٍ مَرِيضٍ فَتَعَايَا عَلَيْهِ وَتَرَكَهُ حَيْثُ يَشَاءُ فِي الْمَيْدَانِ. لَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ مُسَايَرَةِ الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ، وَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنَ الْخَوْضِ فِي تَيَّارِ الْمَهْزَلَةِ الَّتِي اسْتَوْلَتْ بِرُوحِهَا عَلَى الْجُمْهُورِ إِلَى

= الشَّلْطَانِ. وَأَعْطَى مَثَلاً قَدْماً فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، إِذَا أَطْطَوُا إِنْسَاناً إِلَى الْحَرْبِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَاناً شَرِيفاً قَبْلَ أَيِّ آغْتِيَارٍ.

النهائية. فلَيْسَ مِنْ سَبِيلِ لِمُدَاوَاةِ الرَّوْحِيَّةِ الْعَامَّةِ عَلَى ضَوْءِ النَّفْسِيَّةِ الاجتماعيةِ، إِلَّا
الْأَخْذُ بِالثَّالِثِ حَتَّى نِهَائِيَّةِ الطَّرِيقِ فِي مَدَى مَا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْأَمْرَاضَ
الاجتماعيةَ، مِنْ نَوْعِ الهِشْتِيرِيا الحَادَّةِ، يُدَاوَى مَعَهَا الْوَهْمُ بِالْوَهْمِ، وَعَلَى ذَلِكَ نَزَلَ
عِنْدَ رَأْيِهِمْ لِيُهِيبِيَ الظُّرْفَ الْمُنَاسِبَ مِنْ جَدِيدٍ.

فَعَلَيَّْ إِذَا لَمْ يَشَأْ قَصْدًا أَنْ يَشْتَغِلَ سُرْعَتُهُ، وَهِيَ تَقْتَضِي الْبَطْشَ، اسْتِغْلَالًا
حَازِمًا وَسَرِيعًا، وَكَانَ هُوَ الْوَاجِبُ إِذْ ذَاكَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ عَشْكَرِيَّةٍ. نَحْنُ نَعْرِفُ عَلَيَّا
بَطْلَ الْحَرْبِ، فَلِمَاذَا أَغْرَضَ هَذَا الْإِعْرَاضَ، وَأَخْتَارَ الْبُطْءَ فِي الْإِيقَاعِ بِالْخِصْمِ بَعْدَ
تِلْكَ السَّرْعَةِ الْمُؤَقَّتَةِ فِي الْإِثْقَالِ وَالْإِعْدَادِ؟ لَأَنَّ عَلَيًّا لَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ السُّلْطَانَ مِنْ
أَجْلِ السُّلْطَانِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِخْلَالِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى الْاجْتِمَاعِيِّ فِي دُنْيَا
الثَّالِثِ، وَإِلَّا فَالسُّلْطَانُ فِي كِبَرِيَاءِ نَفْسِهِ وَفِي كِبَرِيَاءِ مَعْنَوِيَّتِهِ «لَا يُسَاوِي عَقْطَةً عَنِّي»
كَمَا كَانَ يَقُولُ.

هُوَ يُرِيدُ السُّلْطَانَ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ، فَإِذَا آتَاهُ الْحَقُّ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ فَقَدْ
خَنَقَ ضَمِيرَهُ، وَاعْتَصَرَ يَدَيْهِ قَلْبَهُ فِي قَسْوَةٍ وَوَحْشِيَّةٍ.

فَمَاذَا يُرِيدُ مِنْ كِفَاحِهِ إِذَا؟ إِنَّهُ يُرِيدُ تَطْبِيقَ قَضَايَا الْعَدْلِ حَتَّى فِي السَّاعَةِ الَّتِي
يَجُوزُ فِيهَا الْجُورُ، إِنَّهُ يُرِيدُ الْحَقَّ حَتَّى فِي سَاعَةِ حَيَاشَانِ الْبَاطِلِ وَطُغْيَانِ الْمُتَكَبِّرِ. وَلَكِنْ
هُمْ قِلَّةٌ الَّذِينَ تَسَامَوْا إِلَى فَهْمِهِ، وَهَيْهَاتَ حَيَاةِ الْأَطْمَاعِ، الْمَحْدُودَةِ بِالشَّرَايِينِ
وَالْأَعْصَابِ، أَنْ تَنْبُضَ بِمِثْلِ خَلَجَاتِ قَلْبِهِ، وَتُحْسَ بِحِسِّهِ، وَتُنْدَى بِمِثْلِ شُعُورِهِ. كَانَ
أَكْبَرَ مِنْ مُحِيطِهِ وَلَا يَدْعُ، وَأَسْمَى مِنْ مُجْتَمَعِهِ وَلَا رَيْبَ، فَهُوَ رَيْبُ مُحَمَّدٍ الْمُتَبَلُّورِ
مِنْ سَنَاءِ الْوَحْيِ وَضِيَاءِ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ اللَّالِيَةِ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ عَنْهَا دُنْيَا الْقُرْآنِ.
فَهَلْ يَغْبِثُ بِوُجُودِهِ وَضَمِيرِهِ فِي مَلْهُى يَدَيْهِ طَائِعًا مُخْتَارًا، وَمِنْ أَجْلِ مَا لَا يَرَاهُ
شَيْعًا؟

إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ بِمَا يُقَالُ «إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَأَرِدْ مَا يَكُونُ»، فَهَذِهِ خُطْأُهُ

صَغَارٍ وَخِيَانَةٍ وَجُبْنٍ وَخَوَرٍ، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بِغَايَةِ أَسْمَى وَيُبَشِّرُ بِمَبْدَأٍ:

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةَ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا كَذَلِكَ. فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً
فَلَا تَحْزَنْ صَمِيرَكَ، وَعِشْ وَحَدِّكْ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ. وَلَا تَأَلُ جُهْداً فِي الدَّعْوَةِ
إِلَى التَّغْيِيرِ، كَيْ يَبْقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَاطِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُهُ...

إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَهِكُونَ كُلَّ قَدَاسَةٍ، بِسَبِيلِ الْفَوْزِ، سَاقِطُونَ فِي مِيزَانِ الْأَخْلَاقِ
وَقِسْطَاسِ الرُّوحِ، وَعَلَيَّ لَيْسَ مِنْ طَبِئَتِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ الْأُسْلُوبُ، فِي حِسِّ عَلَيٍّ، أَهْرَزُ
أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْحَيَاةِ وَأَنْكَرُهَا. وَالْعَلَبَةُ تَكُونُ مِقْيَاسَ النَّجَاحِ فِي حِسِّ
الْجَامِدِينَ جُمُودَ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ الصَّمَاءِ، بَيْنَمَا مِقْيَاسُ نَجَاحِكَ، فِي حِسِّ الشَّاعِرِينَ،
بِمَقْدَارِ مَا تَكُونُ أَبْيَضَ نَاصِعاً فِي ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ وَسَنَى الْفَجْرِ.

وَالْوُجُودُ نَوْعَانِ: وَجُودٌ بِالْحَيَاةِ، وَوُجُودٌ فِي أَبَدِيَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَالثَّانِي مِنْهُمَا
أَكْثَرُ الْوُجُودَيْنِ، فَإِنَّ عُمُرَ أَوْلَاهِمَا فِي حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَعُمُرَ ثَانِيهِمَا فِي حُدُودِ
الْخُلُودِ، وَأَيْنَ مَدَاهُ؟...

وَإِذَا بَقِيَ ذُو الْوُجُودِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّمَا يَبْقَى فِي ذِكْرِ التَّارِيخِ شَوْهَةٌ مَوْمِيَاءَ،
بَيْنَمَا يَظَلُّ ذُو الْوُجُودِ الثَّانِي، فِي ذِكْرِ الْأَبَدِ، مَشْكَاةَ حَيَاةٍ تَفِيضُ بِالتَّوَرِّ بِالضِّيَاءِ.
وَلَمْ يَشَأْ عَلَيٌّ، وَقَدْ أَخَذَ بِمَقْوَدِ السَّفِينَةِ، أَنْ يَثْرُكَهَا هَائِمَةً، وَيَثْرُكَ لِلخَاطِفِينَ
(الْقُرْصَانِ) آتِيَهَا بِهَا. فَعَالَمُهَا بِمَقْدَارٍ وَمَقْدَارٍ كَبِيرٍ، وَالْعَوَاصِفُ تَتَنَاقَشُ مِنْ حَوْلِهَا
وَبَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَلَيٌّ كَالرُّبَّانِ الْمَاهِرِ يُرْخِي الشَّرَاعَ أحياناً، فَيَمْضِي فِي مَدَى مِثْلِ
الْجُمْهُورِ، وَيَوْضِي بِالتَّحْكِيمِ، وَيَشُدُّ الشَّرَاعَ أحياناً فَيَضْرِبُ ضَرْبَتَهُ بِالنُّهْرَانِ.

وُخْرُجِ الْخَوَارِجِ إِنَّمَا تَمَّ بِاسْتِفْحَالِ فِكْرَةٍ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَإِنَّ
قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فِي تَفْكِيرِهِمْ، كَقَضِيَّةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ
بَيْنَهُمَا وَاسِطَةٌ يَلْتَقِيَانِ، فِيهَا. فَالتَّحْكِيمُ إِذَا خَطَأَ، وَالْخَطَأُ مَعْصِيَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ كُفْرٌ،
فَانتَهَوْا، فِي سِبْطِ السَّائِحِ، إِلَى ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ مِنْ جَدِيدٍ. وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ، فِي

جَوْهَرِهَا، لَا تَزِيدُ عَنْ عُقْدَةِ مَسْرُجِيَّةٍ، إِلَّا أَنَّهَا، مَعَ ضَعْفِ الْحَاكِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْدِ
الْفِكْرِيِّ، تَبْدُو عُقْدَةً عَسِيرَةَ الْحَلِّ. فَلَدَى الْبِدَاةِ تَسْلِيمٌ عَفْوِيٌّ بِكُلِّ خَاطِرَةٍ وَإِنْ تَكُنْ
سَخِيفَةً، وَفِي نَفْسِيَّتِهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِلِاسْتِحْجَارِ وَالتَّصَلُّبِ عَلَى شَكْلِ عَفْوِيٍّ أَيْضاً،
بَحِيثٌ تَسْتَحِيلُ إِمَاعَتُهُ إِلَّا بِتَحْطِيمِ الرُّؤُوسِ الَّتِي تَحْمِلُهُ، وَكَذَلِكَ حَدَثَ.

وَلَقَدْ تَمَلَّأَ الْحُسَيْنُ بَعْظَاتِ مَوْقِفِ أَبِيهِ فِي كُلِّ مَرَاكِجِهِ، وَحَلَّلَهَا فِي نَفْسِهِ،
وَأَحْلَاهَا مِنْ قَلْبِهِ مَحَلًّا ثَابِتًا. وَخَاضَ مَعَ وَالِدِهِ الْعَظِيمِ الصَّرَاعَ عَلَى سَتَى الْوَاوِيَةِ،
وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ أَيْ أَثَرٌ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ الشَّاطِئِ مُتَرْقِباً بَلْ عَائِثٌ خَائِضٌ يَقُومُ بِهِ لُجَّةٌ
وَتَقَعْدُ بِهِ أُخْرَى، وَتَدْفَعُهُ مَوْجَةً لَتَسْتَقْبِلَهُ الْمَوْجَةُ الثَّانِيَّةُ، وَالتَّقَى (٤) سَيُفَعُّ بِسَيْفِ أَخِيهِ
مُحَمَّدٍ، فَشَكْلًا قَوْسًا قَاعِدَتُهَا الْمَبَادِيءُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَاضَ أَبُوهُمَا الْكَبِيرُ الْكِفَاحَ
دُونَ هُدْنَةٍ أَوْ هَوَادَةٍ.

وَبَقِيَ فِي سَمْعِ التَّارِيخِ وَبَصَرِهِ مَائِلاً حَيًّا:
أَنْ عَلِيًّا بَطَلُ الْحَقِّ فِي السَّلَامِ وَفِي الْحَرْبِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي آمَنَتْ حَالٌ إِلَى
طَاقَةٍ فِي وُجُودِ الْحَقِّ وَكِيَانِهِ...

*

شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يُحَقِّقَ مَغْزَى أُمُثُولَةِ عَلِيٍّ إِلَّا آبَتُهُ الْحُسَيْنُ، آبَتُهُ الْحَبِيبُ...
فَزِدَّدَ عَلَى شَكْلِ آخَرَ: إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا
كَذَلِكَ...

فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً، فَلَا تَخُنْ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَخَدِّكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ
الْفَاضِلَةِ...

(٤) إِمَارَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَنَّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ بَصُرَ بِعَلِيٍّ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ
فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ سَقَطَ بَيْنَهُمَا كَيْسَانُ، فَجَذَبَ عَلِيٌّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَتَسَتْ مَثْبِئَةً
وَعُضْدَتَيْهِ، وَشَدَّ عَلَيْهِ أَيْدِيَهُمَا وَخَسَفَتْهُمَا بِأَشْيَاءٍ مِمَّا فَتَنَ لَهُ.

ولا تَأُلْ جُهْدًا يَبْذُلِ النَّفْسَ، كَيْ يَتَّقِيَ لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَابِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُهُ...

*

على أَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا أُمَثُلَتُهُ الْأُخْرَى...

إِذَا لَمْ تُكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ كَمَا تُرِيدُ...

وإِلَّا فَهَيْهَاتَ أَنْ تَشْعُرَ بِخِلَافَةِ الْمِثَالِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ، وَتَكُونَ مِنَ الْأَحْرَارِ...

*

بَقِيَ طَابَعُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ عَلَيَّ، الَّذِي لَا يُحَرِّكُهُ الْحَقْدُ، وَلَا تَمِيلُ بِهِ
النَّرَاغَاتُ وَالنَّرَوَاتُ...

طَابَعًا لِأَنْبَاءِهِ، فَقَدْ قِيلَ لِأَبْنِهِ مُحَمَّدٍ، دَسَاءً، تَوَلِيدًا لِلْمَوْجِدَةِ:

لِمَ يَدْفَعُ بَكَ أَبُوكَ فِي الْحَرْبِ وَلَا يَدْفَعُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ؟...

فَقَالَ بَوْحِي الْقَلْبِ الْمِثَالِي: هُمَا عَيْنَاهُ وَأَنَا يُمْنَاهُ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ عَيْنَيْهِ

يَمِينِهِ...

هَذَا طَابَعُ عَلَيٍّ فِي الْأُخُوَّةِ وَالْإِحَاءِ، فَأَيُّ دُنْيَا، بَلْ أَيُّ حُلْدٍ سَعِيدٍ، لَوْ تَسَنَّى

لِلْحَيَاةِ أَنْ تَبْرَزَ بِطَوَابِعِهِ الْأُخْرَى...

* * *

إلتیاع

في دارة قريية من الكوفة انعقد أول مؤتمر سياسي إرهابي، وأنفض عن مؤتمر دموية واسعة النطاق، تولى أمرها ثلاثة نفر فداييون كلهم خارجي. فقد كان لمركبة النهرين، التي أنكشفت عن مأساة مريزة، وقع حاد في نفوس الخوارج كافة، فتشطوا، تحت إلحاح سورة الانتقام، يجتمعون هنا وهناك، ويوالون الاجتماع في كل مكان. فما من بيت إلا ودخلته طائفة من الأرزاء، وأنطلقت العيون كأفواه القرب تتحدّر عن مثل خيوط القطرات المفضّة آرفض عقد نظم، وبالأحرى المتحدّرة مؤلفة آتلاف نوط شتيت.

وكان عبد الرحمن بن ملجم من أبناء الهوى والشباب، فهو عاشق مدنف الفؤاد متيم الصبوة، لقي قطام آتنة الشجنة من تيم الرباب، في أصيل ليلة من ليلاي الصخراء التي يختلط فيها سكون الجمال وجمال السكون، برجفات القوافل، وهي تهوّم راجعة أو منطلقة، كأنها سارحة في طفل الأبد، أو سائحة مع راد الأمل الخابي.

وقطام هذه فتاة آفتنت بها طبيعة الجمال أي آفتنان، ومشت في تقاطيعها زوائج الحسّن وآيات الفن، فبرزت كالزهرة أول ما تتشقق عنها الأكماء، أو كالفتنة الحية المايجة التي أضافت إليها الصخراء أنيهاها، فجاءت بساطة في

تَرْكِب، وَوُضُوحاً فِي غُمُوضٍ... تَخْطُرُ كَيْفَمَا آتَفَقَ لَهَا، فَتَثِيرُ، فِي مَدَى خُطَاهَا،
تَهَاوِيلَ السَّحْرِ وَعَبَقاً مِنَ الْهَوَى الْمَشْفُوحِ، وَضَبْجَةَ الْجَوَى الشَّرُودِ.

وَالْجَمَالَ، فِي الْغَوَانِي وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، أَرَادَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَتُعَبِّرَ عَنْ تَذَوُّقِهَا الْفَنِّيِّ،
وَعَنْ أَنَّ غَايَةَ التَّفَاعُلِ الْكَوْنِيَّ يَنْتَهِي بِالْكَوْنِ إِلَى الْفَنِّ وَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَقَاءَ
الْوُجُودِ قَائِمٌ عَلَى الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ فَقَطْ.

فَالطَّبِيعَةُ الصَّامِتَةُ تُحَاوِلُ مُحَاوَلَاتِهَا تَحْتَ الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ، لِتَنْتَهِيَ إِلَى الْفَنِّ
الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْجَمُودِ، وَتَبْتَدِئُ الْحَيَاةَ أَوْ الطَّبِيعَةَ مِنَ الْفَنِّ
الصَّامِتِ، لِتَنْتَهِيَ كَذَلِكَ إِلَى الْفَنِّ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْحَيَاةِ أَيْضاً، وَتَبْتَدِئُ
الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْفَنِّ الْحَيِّ، لِتَنْتَهِيَ فِي غَايَتِهَا إِلَى الْفَنِّ الْوَاعِي الَّذِي هُوَ الْمُثَلَّ
الْعُلْيَا.

وَالِى هَذَا الْفَنِّ الْوَاعِي تَنْتَمِي فِكْرَةُ الرُّوحِ وَالْخُلْدِ، حَتَّى اللَّهُ فِي الْأَذْيَانِ فِكْرَةُ
الْفَنِّ الْمُطْلَقِ، وَالْوُجُودُ إِذَا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ الْفَنِّ، لِيَسْمُوَ تَحْتَ هَذِهِ الرُّغْبَةِ الْجَاذِبَةِ
بِالشُّوقِ. وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صَوْرَتِهِ»، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي
الْإِنْسَانِ أَكْبَرَ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ فَنِّ الْوَعْيِ، أَوْ فَنِّ الْقَصْدِ، إِذْ فِيهِ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ
الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ، مِنْ حَرَكَةٍ لَا قَاصِدَةَ إِلَى قَصْدٍ فِي الْحَرَكَةِ... هَذَا حَدِيثٌ فَاهٌ بِهِ آبَنُ
أَبِي عَتِيْقٍ فِي أُمْسِيَّةٍ مِنْ أَمَاسِي الطَّائِفِ، عِنْدَ مَعْنَى نَضِيرٍ، جَمَعَهُ وَعَمَرَ بَنُ أَبِي
رَبِيعَةَ وَالثَّرَيَّا، وَزُمرَةً كَبِيرَةً يَمُنُّ بِطَلْبُونِ الْحَيَاةِ اللَّاهِيَةِ الْحَالِمَةِ، كَانَ بَيْنَهُمْ آبَنُ
مُلْجَمٍ.

فَقَالَ عُمَرُ يُحَاوِرُهُ: لَكَأَنِّي بِكَ - يَا آبَنُ أَبِي عَتِيْقٍ - وَأَنْتَ حُشِيَّةُ فُتُونٍ وَدُنْيَا
عَرَامٍ، وَلَمْ أُخْطِطْكَ الصَّفَةَ حِينَمَا قُلْتُ:

أَأَهْجُرْنَهَا؟ وَأَنْتَ زَيْنَتْهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

وَقَهَقَ مُشِيراً إِلَى الثَّرَيَّا.

قال آبن أبي عتيق: لا تُثريبَ عليك، فـ «اللَّهُ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ». نحنُ
بإرادةِ الفنِّ يستخفُّنا سحرُهُ، فتتوافَقُ على الرِّمالِ مُنتَشِينَ بموجةِ الرِّيدِ، ولعلَّ ثُرَيَّاكُ
أكبرُ موجاتِ الرِّيدِ الحائِمِ في شاطئِ الفنِّ المسحورِ.

قالتِ الثُّرَيَّا: فأنا في خيالكِ إذا - يا آبن أبي عتيق - بَعْضُ منَ غايَةِ الكَوْنِ
في تفاعِلِهِ الأبديِّ، لأنني بَعْضُ منَ فِتْنَةِ الفنِّ فيه... وراحتْ تَرمُقُ آبنَ أبي ربيعةَ.

قالَ عُمَرُ: ماذا تقولين؟ لأنِّي، واللَّهِ، كُلُّ فِتْنَةِ الفنِّ إنْ كانَ هذا يَفي
بمَوقِعِكَ في قَلْبِي، ولأنِّي كُلُّ غايَةِ الكَوْنِ إنْ كانتْ لِلْكَوْنِ غايَةً... فراحتْ
تَضَحِكُ في خَفَرٍ، وكانتْ ضِحْكَةً تُعَبِّرُ عَن نَشَوْتِها فـ «العواني يَغُرُّهُنَّ الشَّاءُ»، ولم
تَلْبَثْ هُنيئَةً حتَّى قالتْ:

«لو أنا نادَيْتُكَ وأَعَمَّرَهُ فماذا تقول؟... وكأنَّها اسْتَحَفَّتُهُ فَهَبَ يَفْعَلُ
كالمُتَوَبِّ: أقولُ، أقولُ: لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ» ومدَّ صَوْتَهُ.

لأوَّلِ لِقَاءَةٍ بَينَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَقُطَّامٍ، مَرَّتْ في مُحَلِّيلَتِهِ قِصَّةُ أُمِّسَيَّةِ الطَّائِفِ،
وَشَعَرَ بِخِلَافَةِ الحُلُمِ، لو كانَ لَهُ مِن قُطَّامٍ ما كانَ لُعَمَرُ مِنَ الثُّرَيَّا.

وكانَ أنْ رَأَتْ قُطَّامٍ مِنْهُ ما رَأى مِنْها، وأَحَسَّتْ بِمَثَلٍ ما أَجْتَمَعَ في أَحاسيسِهِ
منَ أَحْلامٍ، فَقَدْ تَوَاصَلَ بَينَهُما هَوًى، وَمَشَى بَينَ قُودَئِهِما غَرامٌ، وَلَقَّهَما وَجَدٌ،
وَاسْتَدَارَ على قَلْبَيْهِما جَوًى وهَيَّامٌ. كانَ في نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ قَلْبُها، وفي إِطارِ الدَّائِرَةِ
قَلْبُهُ يَدُورُ، ولا يَدْرِي مِن أَيِّنَ أَبْتَدَأَ أو إلى أَيِّنَ يَنْتَهِي، ودائِماً يَكُونُ قَلْبُ المَراةِ مِن
الثَّوابِ، فَهِيَ غَنيَّةٌ بالإِغراءِ، وَقَلْما تَكُونُ غَنيَّةٌ بالحِيسِ الصافي، وهي قَلْما تَتَحَرَّكُ
بالحُبِّ مِنَ التَّرجِيسِ، وَلَكِنَّها دائِماً تَتَحَرَّكُ بالكِراهِيةِ والبُغْضِ.

كانَ بَينَهُما لِقاءٌ إثرَ لِقاءٍ، وَكَمْ تَمَنَّى لو أَفْنِيا العُمَرَ في لِقاءَةٍ سَكْرى تَضِلُّ
عَن صَحْوِها، أو تَدْفَعُ بِهِما في لَينِهايةِ الفَناءِ قَبْلَ فَنائِها.

عِنْدَ مَهْوَى أَحَدِ الْكُتُبَانِ الَّذِي حَفِظَ لَهُمَا أَوَّلَ أَنْتِشَاءَةٍ مِنْ غَرَامِهِمَا وَآخِرَ
 أَنْتِشَاءَةٍ، كَانَا يَحْلُمَانِ، وَمَا أَصْحِيَا، إِلَّا عَلَى صَوْتِ النَّعْيِ أَنَّ وَقْعَةَ النَّهْرَوَانِ ذَهَبَتْ
 بِكُلِّ الشُّيُوخِ وَأَكْثَرِ الْفُتَيَانِ، وَأَنَّ تَيَّارَ الْأَزْزَاءِ جَرَى عَلَى كُلِّ بَيْتٍ، وَغَمَرَ أَعْلَى
 الْعَرَصَاتِ حَتَّى أَدْنَى الْأَوْدِيَةِ. فَتَمَايَلَتْ مَعَ النَّعْيِ مُرْتَعِدَةً كَمَا تَمَايَلَتْ فَصَبَاتُ الْغَوْرِ
 فِي حُرُوفِ الْأَوْدِيَةِ وَالْمَنْعَرَجَاتِ، وَأَنهَمَرَتْ عَيْنَاهَا بِالْذُمُوعِ الْمُتَنَائِرَةِ تَنَائِرُ الْبَرَدِ،
 وَثَارَتْ ثَائِرُهُ آتِينَ مُلْجِمٍ عَلَى لَحْنِ دُمُوعِهَا الْقَانِيَةِ... وَتَحْتَ عَوَامِلِ الثَّأْرِ الْفَائِرِ وَسُورَةِ
 الْإِنْتِقَامِ الْعَاصِفِ، آلَى أَلَيْتُهُ الرَّهِيئَةِ لَيَنْتَقِمَنَّ لَهَا وَلَهُ، وَلَيُشْفِنَنَّ نَفْسَهَا وَنَفْسَهُ
 وَلَيَقَرَّ عَيْنَهَا وَعَيْنَهُ!

وَطَبِيعَةُ الْجَبَرُوتِ فِي الرَّجُلِ تَأْبَى أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرَ الْمَرْأَةُ،
 كَمَا تَأْبَى طَبِيعَةُ الْإِغْرَاءِ فِي الْمَرْأَةِ أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرَ الرَّجُلُ،
 كَأَنَّهُمَا، بَعْدَ تَنَاحُرٍ طَوِيلٍ، أَصْطَلَحَا عَلَى أَنْ تَسْتَنِيْمَ الْمَرْأَةُ إِلَى جَبَرُوتِهِ، فَهِيَ تُطَالِبُهُ
 بِهِ فِي الْخُطُوبِ، وَعَلَى أَنْ يَسْتَنِيْمَ الرَّجُلُ إِلَى إِغْرَائِهَا، فَهُوَ يُطَالِبُهَا بِهِ فِي الشُّبُوبِ،
 وَهَيْئَتَاتِ الْأَحْلَامِ، وَدَعْدَغَاتِ الشُّكُونِ الَّذِي يَتَمَدَّدُ فِي فُضَاءِ النَّفْسِ بِأَسْتِزْخَاءٍ.

فِي دَارَةٍ لَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْكُوفَةِ، تَسَارَعَ إِلَيْهَا مَفْجُوعُونَ وَمَفْجُوعَاتٌ،
 وَلَبِثُوا يُزْعِدُونَ وَيُزِيرِقُونَ، تَحْتَ إِحْيَاءِ الْمَأْسَاةِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِأَعْصَابِهِمْ
 فَتَحَرَّكُهَا، مُتَصَلِّبَةً مُتَعَقِّدَةً تَشْتَهِي لَوْ تَمَدَّدَتْ خَائِفَةً سَاحِقَةً...

قَامَ الْخَرِيْتُ بْنُ رَاشِدٍ النَّاجِيَّ يَخْطُبُهُمْ:

لَقَدْ كَبَّرَ عَلَيْنَا وَاللَّهِ مَضْرُوعُ إِخْوَانِنَا الْأَبْرَارِ، وَمَا بَقَاؤُنَا بَعْدَهُمْ؟ أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ
 يَنْخَطِفَكُمْ جَيْشُ عَلِيٍّ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وَطَائِفَةً بَعْدَ طَائِفَةٍ؟ إِنَّهُ لَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْهُ إِلَّا
 الْمَوْتُ، الْمَوْتُ الدَّلِيلُ الْوَضِيعُ! الْمَوْتُ الْغَائِلُ الزُّوَامُ! أَلَا فَانْفِرُوا وَمُوتُوا فِي عَقْرِ
 الْحِرَابِ، وَلَا تُمَوِّتَنَّ فِي عَقْرِ الدِّيَارِ!

فَهَبَ الْقَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ يُثْسِدُهُمْ:

أَقُولُ لَهَا، وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً، مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي
فِيئُكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعٍ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ يَنْوِبُ عِزُّ فَيُطْوَى عَنْ أَخِي الْخَنَعِ الْيَرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ قَدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَوْتُ إِلَى أَنْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرُءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُذُّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
وَوَقَفَ قُرُوءُهُ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِي فَقَالَ:

أَلَا فَاسْمَعُوا: إِنَّ عَلِيًّا أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَقْعَةِ النَّهْرَوَانِ أَمْثُلَةً زَهَبِيَّةً، يُلَوِّحُ بِهَا
فِي وَجْهِ خَصْمِيهِ، فَيَقْلُ عَرَبُهُ، وَيُدْخِلُ الرُّوْعَ إِلَى قَلْبِهِ، وَيُحْدِلُ عَلَيْهِ أَغْصَابَهُ، فَيَطْشُ
بِنَا تِلْكَ الْبَطْشَةَ السَّاحِقَةَ.

إِنَّ عَلِيًّا هُوَ أَخْوَجُ مَا يَكُونُ - وَقَدْ تَهَيَّأَ لِحَرْبِ خَصْمِيهِ - إِلَى مَثَلِ جَبَّارٍ
مُرْعِدٍ يُعِيدُ بِهِ إِلَى الْأَذْهَانِ مَثَلَ زَهَبِيَّةٍ مَعْرَكَةِ الْحَمَلِ، وَيُدْخِلُ فِي رُؤُوسِ خُصُومِهِ مِثْلَ
آثَارِهَا فَيَمْتَلِئُونَ دُغْرًا وَخَوْفًا، كَمَا أَرَادَ أَيْضًا أَنْ يُعِيدَ الثَّقَّةَ إِلَى نَفُوسِ جَيْشِيهِ، فَقَدْ
عَرَاهَا وَهَنٌ وَخَوْزٌ، وَأَنْ يُعِيدَ الثَّقَّةَ بِالْجَيْشِ وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى مُغَامَرَةِ كُبْرَى فَاصِلَةٍ.
وَعَلَيَّ لَمْ يَضْرِبْنَا ضَرْبَتَهُ تِلْكَ فِي النَّهْرَوَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَدَلَ أَقْصَى الْجُهْدِ
لِلْعُودَةِ إِلَيْهِ، أَوِ الْفَيْئَةِ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي نِزَالِ خَصْمِيهِ، وَلَقَدْ أَرْخَى لَنَا مِنْ عِنَانِهِ حَتَّى
أَخَذْنَا سَهْلَ بَنٍ حُنَيْفٍ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ سَابِقَتَهُ وَلَا تَجْهَلُونَ مَكَانَهُ، فَوَجَدَ إِذْ ذَاكَ
السَّبِيلَ لَتَجْرِبَتِيهِ، وَهُوَ وَائِمٌ اللَّهُ قَدْ أَعْدِرَ.

وَلَسْتُ أَقُولُ تَنْبِيْطاً عَنْهُ، بَلِ اخْتِيَاطاً لِدِمَائِنَا، وَعَلَيَّ «لَمْ يَزَلْ عِنْدَنَا فِي الشُّبْهَةِ وَالشُّكِّ»... وَهَا إِنِّي مُعْتَرِلٌ.

فَوَثَبَ الْحَرِيْثُ يَخْفُقُ بِرَأْسِهِ وَيُثْرِقُ بِعَيْنَيْهِ، وَيُزَعِدُ بِصَوْتِهِ، وَيُلَوِّحُ بِكُلْتَا يَدَيْهِ: أَدْعُوْةً إِلَى النِّفَاقِ وَالْكُفْرِ؟ إِنَّتَفَحَ سَحْرُكَ وَجَبْنَتْ وَهَذَرَتْ دِمَاءُ الْأَطْهَارِ. أَلَا فَمَيْتَةُ السَّوْءِ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَنْفِرُونَ! وَهَا إِنِّي نَافِرٌ نَائِرٌ!

فَاشْتَعَلَتْ حِمَاسَةُ الشَّبَابِ حُصُوصاً، وَأَنْدَفَعُوا فِي تَيَّارِ أَصْوَاتِهِمْ كَالْجُنُودِ يُرَدُّدُونَ: أَلَا فَمَيْتَةُ السَّوْءِ لَنَا إِنْ كُنَّا لَا نَنْفِرُ وَنَنْتَقِمُ!... وَأَنْكَشَفَ الْجَمْعُ عَنِ اعْتِزَالِ فَرَوَةَ الْأَشْجَعِيِّ بِشَهْرَزُورٍ، وَنِفَارِ الْحَرِيْثِ النَّاجِيِ بِالْأَهْوَازِ ثُمَّ بِالْأَشْيَافِ.

وَلَكِنَّ الشَّبَابَ تَنَادَوْا إِلَى بَعْضِهِمْ وَالْوَلَا الْاجْتِمَاعَ، وَتَوَتَيْبَ الْخُطَطِ وَبِرَامِجِ السَّيْرِ بِالمُؤَامَرَةِ الْإِنْقِامِيَّةِ، فَهَمَّ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَمَلَ جَهْراً، فَلْيَعْمَلُوا سِراً، وَلْيَعْمِدُوا إِلَى الْغِيْلَةِ.

وَكَانَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ تَحُمُّساً عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ، الَّذِي أَنْدَفَعَ بِحَفِظَةِ الْحُبِّ، وَعَمِلَ كَنَّى يُوضِي قَلْباً بَاتَ مَعْمُوداً... إِنَّهُ سَيُجَازِفُ كَيْفَمَا شَاءَتْ الْمَجَازَفَةُ، وَكَيْفَمَا كَانَتْ خُطُورُهَا.

أَلَيْسَ فِيهَا مَا يُرْضِي مَحْبُوبَتَهُ الْمَفْجُوعَةَ بِأَيِّهَا وَأَخِيهَا؟ أَلَيْسَتْ سَتُشِيعُهُ بِرَعِشَاتِ قَلْبِهَا وَخُفُوقِهِ؟

أَمَا سَتَحْتَفِظُ بِذِكْرِي نَابِضَةً تَشِيعُ بَيْنَ أَهْتَازَاتِهَا آيْتِسَامَةً حُبِّ بَاكِئَةٍ، وَمَعْنَى هَوَى كَسِيفٍ؟

فِي إِحْسَاسِ آتِنِ مُلْجَمٍ أَنَّ هَذَا كَافٍ بَلْ كَثِيرٌ، لَا سِيَّماً وَقَدْ جَعَلَتْ قَتْلَ عَلِيٍّ مَهْرَ قَلْبِهَا وَحُبِّهَا وَجَسَدِهَا، فَلْيَعْتَزْضُهُ إِذَا كُلُّ خَطَرٍ، وَلْتَقُمْ فِي طَرِيقِهِ أَيُّهُ الْعَقَبَاتِ، فَهُوَ لَا بُدَّ مُقْتَحِمُهَا. إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى سِوَى عُرُوسِ أَخْلَامِهِ

تُبَارِكُهُ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِشَجَاجٍ وَتَخُوفٍ.

أَلَيْسَتْ الْآنَ تَوَدُّعُهُ وَهِيَ بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ، تَهْتَرُ تَحْتَ غَنِيْفٍ صِرَاعِيهِمَا، هَا هِيَ تَتْرُكُهُ يَنْطَلِقُ، مَشْرُورَةٌ تَحْتَ فَوْرَةِ الشَّارِ وَالْمُوجِدَةِ، ثُمَّ لَا يَكَادُ يَخْطُو، حَتَّى يَطْغَى حُبُّهُ فِي حَنَائِيَا رُوحِهَا فَتَنْبُعْثُ وَلَهَى وَرَاءَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا، وَتَعْتَنِقُهُ آغْتِنَاقًا غَنِيْفًا.

إِنَّهَا بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ قَاسِيَتَيْنِ بِمُوقِعِيهِمَا عَلَى قَلْبِهَا، فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، وَتَخَافُ مِنْهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ. إِنَّهَا فِي حَيَازَةٍ يَقْضَى لَيْسَ تَغْفَى، وَنَفْسُهَا سَكْرَى تُعْرِبِدُ. ظَلَّتْ جِينًا بَيْنَ سَخَاءٍ بِهِ فَتُشْرِقُ عَلَى وَجْهِهَا آبَتِسَامَةٌ رَاعِدَةٌ، وَبَيْنَ بُحْلِ بِهِ فَتَتَوَلَّوْهُ وَتَدُوبُ آبَتِسَامَتُهَا فِي مَوْجَةٍ مِنَ الْأَسَى السَّاهِمِ. يَبْدُ أَنَّهَا لَمْ تُطْلِقْ فَأُغْمِثَ بَيْنَ عَوَاطِفِهَا الْمُتَنَاقِضَةِ، فَاسْتَنْدَثَ إِلَيْهِ وَجْهَهَا غَافِيَةً تَحْتَ أَطْبَاقٍ مِنَ الدُّمُوعِ، غَيْرَ أَنَّهَا رَمَقَتْهُ أُخِيرًا، وَقَالَتْ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْخَفُوتِ:

«إِلْتَمِسْ غِرَّتَهُ، فَإِنْ أَصَبْتَ شَفِيتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي، وَيُهِنُّكَ الْعَيْشُ مَعِي، وَإِنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزِينَةِ أَهْلِهَا... لَقَدْ صَحَّ عَزْمُهَا فِي النَّهَائَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

وَأَنْطَلَقَ آبَنُ مُلْجَمٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ جَمَاعَتُهُ يَنْتَظِرُونَ عِنْدَ الْحَطِيمِ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ، كَيْفَمَا سَارَ، إِلَّا أَصْوَاتًا رَهِيْبَةً النَّأْمَاتِ، فَيَتَلَفَّتُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يَرَى شَيْعًا، وَلَكِنَّهُ يَقِفُ كَالْمَذْعُورِ يَشُدُّهُ إِلَيْهِ مَوْضِعُهُ أَنَا، وَيَنْطَلِقُ أَنَا كَالِهَائِمِ الْمَشْرُورِ تَتَقَادَفُهُ طَرِيقُهُ مِثْلَ كُرَّةٍ، لَقَدْ عَدَا، تَحْتَ مَا تَجِيْشُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَغْتَلِجُ بَيْنَ حَنَائِيَاهُ مِنْهَا، كَالْمَفْرُورِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْعَكِسُ أَصْدَاءُ نَفْسِهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَيَسْمَعُ صَجَّتَهَا فِي الْخَلَاءِ حَزِيْنَةً أَوْ مُعْتَبِطَةً.

إِنْتَهَى إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَتْرَابِهِ «فَتَذَاكُرُوا أَمْرَ النَّاسِ، وَعَابُوا عَلَى وَلَايَتِهِمْ،

وَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهْرِ فَتَزَحَّمُوا عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُمْ. إِخْوَانُنَا الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةَ النَّاسِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالَّذِينَ كَانُوا لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، فَلَوْ شَرِينَا أَنْفُسَنَا فَأَتَيْنَا الزُّرُوسَ فَالْتَمَسْنَا قَتْلَهُمْ فَأَرْحَنَّا مِنْهُمْ الْبِلَادَ وَثَارْنَا بِهِمْ إِخْوَانَنَا.

قَالَ آبْنُ مُلْجَمٍ - وَتَعَرَّضَ لَهُ طَيْفٌ قَطَامٍ يَبْتَسِمُ لَهُ وَيُبَارِكُهُ - أَنَا أَكْفِيكُمْ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْبَرَكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ بَكْرِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ... فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاقَعُوا بِاللَّهِ: لَا يَنْكُصُ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ حَتَّى يَقْتُلَهُ أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ.

بَعْدَمَا غَابَ آبْنُ مُلْجَمٍ عَنْ عَيْنِي قَطَامٍ، شَعَرْتُ بِغَيْبَةٍ، لَمْ تَلْبِثْ أَنْ مَازَجَتْهَا حَسْرَةٌ كَانَتْ تَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهَا، عَلَى شَكْلِ مَوْجَاتٍ مُتَدَفِّقَةٍ، وَلَمْ تَلْبِثْ أَنْ فَارَتْ وَأَصْطَحَبَتْ. فَحَقَّقْتُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَ تَوَدُّ لَوْ أَدْرَكْتُهُ، وَلَكِنَّهَا تَوَقَّفَتْ وَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ وَلَوْ فِي الْقَتَامِ. فَظَلْتُ تَزُونُ جَاحِظَةً وَشَفْتُهَا بَيْنَ أَشْنَانِهَا، وَظَلْتُ تُنْمِسُكَ وَجِيبَ قَلْبِهَا بِيَدٍ، وَتُكْفِكُفُ مِنْ غَرْبِ دَمْعِهَا بِيَدٍ، وَطَالَ بِهَا الْمَقَامُ وَلَفَّهَا اللَّيْلُ كَأَنَّهُ يُجَلِّبُهَا بِثَوْبِ الْحِدَادِ.

سَمِعْتُ، بَعْدَ حِينٍ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَبَطَ الْكُوفَةَ فَهَالَهَا مَا سَوْفَ يُقَدِّمُ عَلَيْهِ، فَضَمَّتْ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْمِهَا، رَجُلًا آسَمُهُ وَزِدَانُ، تَمَنَّتْ، فِي أَقْصَى عَوَاطِفِهَا، لَوْ أَنَّهُ سَقَطَ طَعْمُ الْفَرِيسَةِ وَنَجَا صَيَاذُهَا الْحَبِيبُ الْمُفْدَى.

مَا لَبِثَ آبْنُ مُلْجَمٍ أَنْ لَقِيَ أَصْحَابَهُ فِي الْكُوفَةِ وَكَاتَمَهُمْ أَمْرُهُ، ثُمَّ سَارَ إِلَى «شَبِيبِ بْنِ بَجْرَةَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قَتَلَ عَلِيٌّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ.

قال: ثَكَلْتُكَ أُمِّكَ. لَقَدْ جِئْتُ شَيْئاً إِذَا، كَيْفَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ؟

قال: أَكْمُنُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ لِصَلَاةِ الْعَدَاةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ، فَإِنْ نَجَوْنَا شَفَيْتَنَا أَنْفُسَنَا وَأَذْرَكْنَا ثَأْرَنَا، وَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

قال: وَيَحْك! لَوْ كَانَ غَيْرَ عَلِيٍّ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ، فَقَدْ عَرَفْتُ بَلَاءَهُ فِي الْإِسْلَامِ وَسَابِقَتَهُ مَعَ النَّبِيِّ (ص)، وَمَا أَجِدُنِي أَنْشِرُحَ لِقَتْلِهِ.

قال: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ النَّهْرِ! إِمَادَ الصَّالِحِينَ؟

قال: بلى... فَأَجَابَهُ، وَأَتَى الثَّلَاثَةَ إِلَى قَطَامٍ وَهِيَ مُعْتَكِفَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، فَدَعَتْ لَهُمْ بِالْحَرِيرِ فَعَصَبَتْهُمْ بِهِ، وَأَخَذُوا أَشْيَاءَهُمْ وَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا عَلِيٌّ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: إِنِّي لِأُصَلِّيَ يَلِكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ فِي رِجَالِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْمَصْرِ، مَا هُمْ إِلَّا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ، مَا يَشْأَمُونَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ، إِذْ خَرَجَ عَلِيٌّ لِصَلَاةِ الْعَدَاةِ، فَجَعَلَ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ. فَتَنَظَرْتُ إِلَى بَرِيْقٍ وَسَمِعْتُ: الْحُكْمَ لِلَّهِ يَا عَلِيٌّ، لَا لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ! فَرَأَيْتُ سَيْفًا ثُمَّ رَأَيْتُ ثَانِيًا ثُمَّ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: لَا يَفُوتَنَّكُمُ الرَّجُلُ! وَشَدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأُخِذَ وَأُذْخِلَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَالَ:

النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنْ أَنَا مِثٌ، وَإِنْ بَقِيَتْ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي... ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى ذَوِيهِ فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لَا أَلْفَيْتُكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ إِلَّا قَاتِلِي، أَنْظِرُوا يَا حَسَنُ، إِنْ أَنَا مِثٌ مِنْ ضَرْبَتِهِ فَاضْرِبْهُ ضَرْبَةً بَضْرِبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلْ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ لَوْ أَنَّهَا بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ... وَلَمْ أَحَسْ دُنُوهُ جَمَعَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ:

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْأَتْبَاعِ الدُّنْيَا، وَإِنْ بَعَثْتُكُمْ، وَلَا تَبْكُوا عَلَى شَيْءٍ

زَوَى عَنْكُمَا، وَقُولَا الْحَقَّ، وَأَرْحَمَا الْيَتِيمَ، وَأَغْنِيَا الْمَلْهُوفَ، وَأَصْنَعَا لِلْآخِرَةِ وَكُونَا
لِلظَّالِمِ خَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، وَأَعْمَلَا بِمَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا تَأْخُذْكُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةً
لَا يَمُ... ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَقَفِيَّةِ فَقَالَ: هَلْ حَفِظْتَ مَا أُوصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ، الْعَظِيمِ حَقُّهُمَا عَلَيْكَ، فَاتَّبِعْ أَمْرَهُمَا
وَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا. ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمَا بِهِ فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا وَأَبْنُ أَيْكُمَا، وَقَدْ
عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ... ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى
قُبِضَ...»

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ!

*

خَاضَ عَلِيٌّ الْكِفَاحَ الْإِسْلَامِيَّ وَلَمْ يُذِرْكَ مَذْرَكَ الرِّجَالِ، وَقَضَى فِي سَاحَةِ
هَذَا الْكِفَاحِ وَهُوَ أَسْمَى الرِّجَالِ...
وَكَأَنَّهُ بِكِفَاحِهِ أَتَمَّ عَلَى الْإِسْلَامِ كِفَاحَهُ، فَالْتَبَّى كَافَحَ الشُّرُوكِ، وَعَلِيٌّ كَافَحَ
النُّفَاقِ...

وَالْتَبَّى ظَفِيرَ بِالْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَعَلِيٌّ ظَفِيرَ بِمَعْرَكَةِ التَّطْهِيرِ الْحَاسِمَةِ أَيْضًا...
فِي كُلِّ عَيْنٍ أَنتَ قُرْئُهَا فِي كُلِّ جِيلٍ أَنْتَ عَلِيَّاهُ!
شَاءَ الْحَقُّ أَنْ يُقَدِّمَ فِي دُنْيَا النَّاسِ نَمُودَجَهُ فَكَانَ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا أَنْ تَعْتَرِضَ مُتَأَلِّقَةً فِي أَفْقِ الْأَحْيَاءِ فَكَانَتْ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ السَّمَاءُ أَنْ لَا تُسَلِّمَهُ إِلَى أَطْبَاقِ الثُّرَى الْمُظْلِمِ، فَاخْتَارَتْهُ مِلءَ عَيْنِ
الْحَقِّ شَهِيدًا...

*

إِسْتَعْبَرَ الْحَسَنُ، وَتَوَلَّى الْحُسَيْنُ مُلْتَاعاً، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ مَاتَ فِيهَا الْبَطْلُ...
وَأَعْوَزَهُ الدَّمْعُ، وَلَكِنَّ عَلِيّاً لَا يُشَيِّعُ بِالْدُمُوعِ...
فَإِنَّ تَكْرِيمَ الْبَطْلِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَضَحِيَّةٍ فِي بُطُولَةٍ، وَبُطُولَةٍ فِي التَّضَحِيَّةِ...
فَبَكَاهُ وَلَكِنْ لَمْ يَبْكِهِ بِالْدُمُوعِ بَلْ بِالْدماءِ الْخَالِدَاتِ!...

*

تَنْظَّمُ عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ إِكْلِيلُ أَسَى، وَلَكِنَّهُ إِكْلِيلُ غَارٍ يُعَبِّرُ عَنْ خَالِدِ
الْمَجْدِ... فَقَدْ ضَمَّ جَدُّهُ وَأُمُّهُ وَأَبَاهُ فِي آخِيبَاكَ وَضِيء...
وَكَانَ شِعَارُهُ أَنَّى سَارَ وَكَيْفَ سَعَى...
وَوَضَلَ الْإِكْلِيلُ كَأَنَّ فِيهِ مَحَلّاً لَزَهْرَةٍ حُمْرَاءَ أَيْضاً...
فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ كَانَ يَتَفَقَّسُهُ تِلْكَ الزَّهْرَةُ الْحُمْرَاءُ...
وَوَضَلَ الْإِكْلِيلُ الْغَارِ الْعَظِيمِ ذِكْرَى رَائِعَةٍ فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ!...

*

إِسْتَعْرَقَ الْحُسَيْنُ فِي أَسَى مُذِيبٍ، وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ مِنْ مَرْثِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ
الدُّوَلِيِّ:

إِذَا اسْتَقْبَلْتَ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ الْبَدْرَ رَاغٍ التَّاطِيرِ
لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنْتَ خَيْرُهَا حَسَباً وَدِيناً
ثُمَّ تَمَّتْ: لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يَقُولُ «أَبِي حُسَيْنٍ»؟...
لَا شَكَّ أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ يُنَادِينِي، يُنَادِينِي أَنَا...
وَيَخْلُقُ بِي أَنْ أُجِيبَ النَّدَاءَ!...

* * *

مِنْ أَيَّامِ الْحُسَيْنِ السَّبِّطِ (٤)

في الهيكل

هَجَرَ النَّاسَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَسَيَّمَ الْحَيَاةَ الصَّاحِبَةَ، وَقَدْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ بِأَرْزَائِهَا،
وَأَتَّصَلَتْ إِلَى قَرَارَةِ حُوبَائِهِ بِأَسْبَابِ بَأْسَائِهَا، فَمَا بَشَّتْ فِي وَجْهِهِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ
ذَلِكَ الْقَلِيلَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَالْفَتْرَةِ بَيْنَ نَجْمَتَيْنِ.

بَلَّةُ فِكْرَتُهُ عَنِ الْحَيَاةِ، وَكَانَتْ لَا تَزِيدُ فِي آعْتِبَارِهِ عَنْ مَسْرُوحِيَّةِ مُرْسَلَةٍ
إِزْسَالاً، لَا تَتَقَيَّدُ بِوَحْدَةِ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، تَسُرُّ فِي بَعْضِ مِنْهَا، وَتُسْقِي فِي بَعْضٍ،
وَتُضْحِكُ وَتُبْكِي وَتُلْدُّ وَتُؤْلِمُ. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُؤْلِمُ حَقِيقَةً كَمَا لَا تُلْدُّ حَقِيقَةً،
وَلَكِنَّهَا تُغْرِي بِالْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى أَشْيَائِهِمَا الشُّعُورُ، فَتُلَوَّنُ بِهَا وَتَعْلُقُ فِي
الْفِكْرِ رَغْبَةً تَصْدِيقُهَا، وَإِلَّا فَهِيَ، فِي حَقِيقَتِهَا، ضِحْكَةٌ نَحْنُ نَفْتَعِلُهَا وَنَحْنُ نَعُودُ
فَنُصَدِّقُهَا وَنُؤَكِّدُهَا.

أَمَّا أَنَّهَا وَاقِعٌ فَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا تَكُونُ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ
قَوْمٍ فَوَائِدُ؟... وَلِمَاذَا لَا تَمْلِكُنَا مَشَاعِرُ وَاحِدَةٍ جِيَالِ الْحَادِثِ الْوَاحِدِ؟

أَلَيْسَ هُوَ حَادِثًا وَاحِدًا لَا يَمْلِكُ هَذَا التَّبَائِنَ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ إِذَا؟ إِنْ كَانَ
الْحَادِثُ عِلَّةً وَالْمَشَاعِرُ الْمَتَّبَائِنَةُ تَنْشَأُ عَنْهُ بِالْعَلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ، فَكَيْفَ اخْتَلَفَتْ؟

وَلِمَاذَا أَقْتَنِعُ أَنَا بِأُسْلُوبٍ وَمَنْطِقٍ لَا يَقْتَنِعُ بِهِمَا الْآخَرُ فِي زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَيْسَا
مُخْتَلِفَيْنِ؟ وَيُجِشُّ كُلُّ مَنَا أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ، وَشَعَرَ بِهِ شُعُورًا فِكْرِيًّا أَوْ

مَعْنَوِيًّا. أما يُحِسُّ كُلُّ مِنَّا، إذا اقْتَنَعَ بِأَمْرٍ أَوْ بِرَأْيٍ، أَنَّهُ انْتَقَلَ مِنْ وَاقِعٍ لَمْ يَغْدُلْ لَهُ هَذَا الْأَسْمُ، إِلَى وَاقِعٍ لَيْسَ سِوَاهُ خَلِيقًا بِإِطْلَاقِ الْأَسْمِ؟ أَلَسْنَا لَا نَبْتَئِسُ وَنَحْنُ نَعْبَثُ جَذَلِينَ بِأَشْلَاءِ الْأَعْدَاءِ وَدِمَائِهِمْ؟

فَالطَّبِيعَةُ الْحَيَّةُ إِذَا تَهَدَّمَتِ الْعِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ فِي نَفْسِهَا، ثُمَّ لَا تَخْضَعُ لِنَامُوسِهَا، وَالْعِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ هِيَ ظَاهِرَةُ الْوَاقِعِ، فَلَا يَدْعُ، بَعْدَ هَذَا، إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ لَيْسَتْ وَاقِعًا، أَوْ لَا تُعَبِّرُ عَنْ وَاقِعٍ فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

إِنَّ الْحَيَاةَ إِنَّمَا تَجِدُ وَاقِعَهَا فِي أَنْفِعَالِنَا الضَّمِيرِيِّ^(١) أَوْ الْوُجْدَانِيِّ، فَكُلُّ مَا لَا يَجِدُ طَرِيقَ أَنْتِهَائِهِ إِلَى مَوْكَزِ الْأَنْفِعَالِ الضَّمِيرِيِّ لَيْسَ بِحَيَاةٍ. فَلِكُنِّي يَكُونُ إِذَا لِلْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ عَمَلٌ فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ فَتَنْتُجَ وَخْدَةٌ أُثَرٍ، لَا بُدَّ مِنْ وَخْدَةٍ زَمَانٍ وَوَخْدَةٍ مَكَانٍ، وَوَخْدَةٍ حَادِثٍ وَوَخْدَةٍ ضَمِيرٍ، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ أَهَمُّ الْوُحْدَاتِ مِنْ حَيْثُ تَجِدُ الْحَيَاةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي بَيْدَائِهَا وَاقِعَهَا. فَأَشْيَاءُ الْحَيَاةِ لَا تَجِدُ حَيَاتِهَا، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَا تَجِدُ حَقِيقَتَهَا، إِلَّا إِذَا اسْتَجَابَ إِلَيْهَا الشُّعُورُ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الْأَلَمُ وَاللَّذَّةُ؟ وَأَيَّانَ تَقُومُ الْمُغْرِيَاثُ وَالْفُتُونُ؟ فَلْتُجَرِّبْ إِذَا جَيِّدًا أَنْ لَا تَضْحَبَ أَلْوَانَ الْحَيَاةِ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا بِاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِ، فَتَنْقَلِبَ مَسْرُجِيَّةً تَافِهَةً الْقِيَمَةِ. وَنَحْنُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْرُجِيَّةِ نَفْسِهَا - وَهِيَ أَفْتِعَالُنَا - نُسَرُّ وَنَأْسَى إِذَا اسْتَجَبْنَا إِلَيْهَا بِشُعُورِنَا، فَسِرُّ مَا يَنْتَابُنَا مِنْ شَقَاءِ الْحَيَاةِ، أَوْ سَعَادَتِهَا، قَائِمٌ فِي الْاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِيَّةِ فَقَطُّ، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ بِمِثْلِكَ سِوَى أَشْمَاءٍ نَحْنُ نُفَرِّغُ فِيهَا مُسَمِّيَاتِهَا. فَإِذَا حُلْنَا بَيْنَ الشُّعُورِ وَالْاسْتِجَابَةِ، أَدْرَكْنَا سِرَّ الْحَيَاةِ وَحَقِيقَتَهَا، وَاسْتَشْعَرْنَا بِهَيْئَتِهَا الْخُلْدِ، وَأَنْشَيْنَا نَتَقَلَّبُ فِي حَيَاةٍ ذَابَتْ عَلَيْهَا كِبَرِيَاءُ أَبَدِيَّةِ السَّمَاءِ، وَكِبَرِيَاءُ مَعَانِيهَا وَأَخْلَامِهَا... رَنٌّ فِي أُذُنِ الْحُسَيْنِ وَهُوَ فِي مَذْهَبِ تَفْكِيرِهِ هَذَا أَوْ تَأْمُلِهِ... فَلْتَنْجِرْذُ! هَلُمَّ إِلَى الْهَيْكَلِ! إِلَى مِخْرَابِ الْمُقْبَدِ، مِخْرَابِ الرُّوحِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ وَالْخَيْرِ!

(١) نَفْيِي بِالضَّمِيرِ هُنَا الْمُضَعَرُّ، أَيِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ دُونَ الْمَعْنَى الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْوُجْدَانِ.

ظَلَّ فِي حَيَاةِ تَمَوُّجِ النَّشْوَةِ وَسَكَرَةِ الْحُلْمِ، وَخَيْنِ الرُّوحِ، وَرَفَّةِ الطُّهْرِ،
وَحَقْفَةِ الْحُبِّ، وَظَلَّ النَّاسُ خَارِجَ الْهَيْكَلِ يَتَقَلَّبُونَ فِي حَيَاةِ تَمَوُّجِ الْفُتُونِ
وَالشَّهَوَاتِ، وَرَشَحَاتِ الْأَعْصَابِ مِنْ لَذَّةِ وَالْمِ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا مِنَ السَّرَابِ.

كَانَ كَأَنَّهُ فِي مِخْرَابِهِ بَيْتَ الْقَصِيدِ فِي أُنْشُودَةِ الْحَيَاةِ، أَوْ أُنْشُودَةِ الطُّهْرِ فِي
شِعْرِ الْوُجُودِ.

ظَلَّ فِي مِخْرَابِ الرُّوحِ رَانِيَا شَاخِصًا، زَمَنًا طَوِيلًا، فِي حِسَابِ مَنْ دُونَ
مُحْدُودِ الْهَيْكَلِ، وَإِنْ كَانَ، فِي حِسَابِهِ، لَمْ يُفْنِ اللَّحْظَةَ الْأُولَى بَعْدُ، وَهَلْ فِي لَحْظَةِ
الْإِشْرَاقِ وَجُودٌ لِلزَّمَنِ؟ إِنَّ لَحْظَةَ الْإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدٌ، وَأَوَّلُ آخِرٍ فِي الْأَبَدِ إِلْغَاءُ فِكْرَةِ
الزَّمَانِ مِنْهُ.

وَفِي لَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ سِرُّ الْحَيَاةِ، وَلِمَكَانِ هَذَا السِّرِّ فِينَا لَا نَفْتًا نَشْدُ النَّشْوَةَ
فِي الْحُبِّ وَفِي الْفَنِّ. وَلَآنَ فِي لَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدِيَّةٌ، لَا يَشْعُرُ الْمُحِبُّونَ بِدُنْيَا
الْحَيَاةِ وَمَا آجَمَعَ فِيهَا، ثُمَّ لَا يَشْعُرُونَ بِغَيْرِ دُنْيَاهُمْ، لَقَدْ آتَنَشَوْا فَهُمْ يَحْلُمُونَ.

فِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ لَفَتَاتُ إِشْرَاقٍ، وَهِيَ تَتَنَادَى بِالْحَيِّ إِلَى التَّائُمْلِ لِيَتَجَوَّزَ
مِنْ عُجَابِ السَّرَابِ، قَبْلَمَا يُعْتَصِرُ فِي الْإِلْتِمَاعِ السَّائِرِ.

إِنَّ لَحْظَةَ الْإِشْرَاقِ فِي الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ فِي الْحُبِّ، وَلَحْظَةُ الْإِشْرَاقِ
فِي الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ فِي الْهَيْكَلِ أَيْ التَّائُمْلِ، وَهُنَا تَزْدَفُ سُدُودُ الشُّعُورِ
فِي الْقَلْبِ، فَتَدْفُقُ لِحْجُ الْإِشْرَاقِ، وَفِي عُجَابِهَا بَاتَ الْحُسَيْنُ يُطْفُو حَالِمًا يَشْمُو بِهِ
الْمَدُّ. إِنَّهُ نَشَوَانُ. أَلَيْسَتْ مُحْشَاشَتُهُ تُنْذِرُهَا خَمْرَةُ اللَّهِ، تُرَابٌ بِقَمِي: إِنَّهَا تَنْدِي بِرَحِيقِ
الْأَزَلِ.

بَدَأَ الْحُسَيْنُ لَا يَرَى شَيْئًا، إِلَّا رَأَى اللَّهَ وَرَاءَهُ، وَانْتَهَى وَهُوَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا
رَأَى اللَّهَ أَمَامَهُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرَى شَيْئًا، فَقَدْ فَتِنَتِ الظَّلَالُ كُلُّهَا فِي الْإِشْرَاقِ،

وَأَمْحَى خَيَالِ الْأَشْيَاءِ فِي مُقَلَّةِ الشَّمْسِ.

فَلَا يَدْعُ إِنْ أَسْتَوَى قَلْبُهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ، كَمَا أَسْتَوَى فِكْرُهُ عَلَى الْقَاعِدَةِ عَيْنِهَا، وَتَمَلَّأَ ضَمِيرُهُ بِالمَثَالِيَةِ وَشَاعَ فِي وَجْدَانِهِ الْحَقُّ بِقَضَايَاهُ الْعَلِيَا. فَهُوَ خَصِيبُ الرُّوحِ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ خُصُوبَةٌ، وَمِنْ فُؤَادِهِ يَتَدَفَّقُ نَمِيرُ صَالِحِ الْخَيْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانِ، وَتَتَفَجَّرُ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ نَيَابِغُ الْفَضَائِلِ. فَظَلَّ مُصْدَرُ نَمُودَجَاتِ تُشِيرُ إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي قِيلَ عَنْهَا: إِنَّهَا أَخْلَامُ الشَّاعِرِ وَأُغْنِيَةُ الْعُنْدَلِيْبِ، أَلَا لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَخْلَامُ الْعَلِيَا تُشِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ وَتَقُولُ: إِنِّي هُنَا!

كَانَ قَدْ آسَظَطِرَ قَلْبُهُ بِالْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَقْتَأُ يَنْشُدُهَا وَيَسْتَعْرِقُ مُتَمَلِّمًا فِي يَبْدَاءِ جَمَالِهَا، فَكَأَنَّهُ وَهُوَ فِي الْحِرَابِ قَدْ جَسَدَ الْحِرَابِ فِيهِ مَعْنَاهُ. فَلَمْ يَعُدْ يَمُدُّ خَيَالِ الْإِنْسَانِ بَلْ غَدَا يَمُدُّ وَاقِعَ الْإِنْسَانِ، حِينَ أَصْحَى مَعْنَى الْحِرَابِ لِنَسَانًا يَعِيشُ فِي النَّاسِ، فَكَانَ مِثَالِ الْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَمِثَالِ الطُّهْرِ كُلِّ الطُّهْرِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مُضَلِّبًا حَتَّى كَأَنَّ حَيَاتَهُ جَاءَتْ عَلَى مِقْدَارِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا سَخِيئًا جَوَادًا حَتَّى كَأَنَّ غَايَةَ الْحَيَاةِ فِي غَايَةِ الْجُودِ، وَإِلَّا مُسْتَطِيبًا صَهَوَاتِ خُبُولِهِ إِلَى مَكَّةَ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْحَجِّ أَنَّهُ - مِثْلَمَا نَعْبُرُ الْيَوْمَ - تَسْجِيلٌ لِلْأَنْسَمِ فِي سِجْلِ التَّشْرِيفَاتِ، وَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ ذَلِكَ؟

لِذَا، كَانَ الْحُسَيْنُ، بِجَاذِبِيَّةِ الرُّوحِ، مَهْوًى الْقُلُوبِ وَنَدَى الْأَفْعِدَّةِ تَحُومُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّهُا تَزُورِي غُلَّتْهَا، فَقَدْ سَقَطَ الْعِطَاشُ مِنْهُ بَعْدَ التَّيِّهِ عَلَى رِقَارِقِ التَّيْبُوعِ، فَمَا كُنْتُ تَرَى النَّاسَ «إِلَّا عُكْفًا حَوْلَهُ» مُنْتَشِينَ، يَنْعَمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحَنِينِ إِلَى الْمَجْهُولِ «كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطُّيْرَ».

فَكَانَ مَحَلُّهُ مِنَ النَّاسِ مَحَلُّ جَدِّهِ النَّبِيِّ، تَجِدُ فِيهِ الْأَرْوَاحَ الشَّارِدَةَ الْحَائِرَةَ مَا تَشْتَهِي مِنْ طُمَأْنِينَةٍ وَمَا تَشَاءُ مِنْ سَكِينَةٍ. فَإِذَا عَبَدَ اللَّهُ بُنُ عَتَاسٍ عَلَى مَكَانَتِهِ يَأْخُذُ بِرِكَابِهِ فِي شُعُورٍ وَدُونَ شُعُورٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا آتَنُ رَسُولِ اللَّهِ،

أَفَلَيْسَ مِنْ سَعَادَتِي أَنْ أَخَذَ بِرِكَابِيهِ؟... وإذا أبو هُرَيْرَةَ يَسِيرُ وَالْحُسَيْنُ فِي بَجَنَازَةٍ
فَأَغْيَا الْحُسَيْنُ وَقَعَدَ، «فَجَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَنْفُضُ الثَّرَابَ عَنْ قَدَمَيْهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ:
وَأَنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تَفْعَلُ هَذَا؟

فَقَالَ لَهُ: دَغْنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمَ لَحَمَلُوكَ عَلَى رِقَابِهِمْ!...
وإذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «يَرَى الْحُسَيْنَ مُقْبِلًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فِي جَمَاعَةٍ،
فَيَقُولُ: هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَيَّ أَهْلِ الْأَرْضِ وَإِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الْيَوْمَ».

وكان، على هذه المكانة، لا تَزْدَهِيهِ كِبَرِيَاءُ الْمُتَخَايِلِ، فَإِنَّ الْكِبَرِيَاءَ شُعُورٌ
بِنَفْسِ الذَّاتِ، وَجَبَرَتْ لِهَذَا النُّقْصِ بِالظَّاهِرِ، وَمَا حَاجَةُ الْعَظِيمِ إِلَى الْأَنْوَابِ،
وَالْعَظَمَةُ ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ أَكْثَرَ أَسْرًا كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ عُويَا.

فَالْكِبَرِيَاءُ مَرَضٌ يَبْنُ أَنْ يَكُونَ فِي الذَّاتِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِذْرَاكِ، وَفِي كِلْتَا
حَالَتَيْهَا تُعْبَرُ عَنْ أَنَّهَا كَشَجَرَةِ الْأُورَاقِ فِي الْحَرِيفِ، أَوْ كَزَعْبِ الثَّعَامِ فِي الْإِغْصَارِ.

زَعَمُوا أَنَّ تُفَاحَةَ نَبْتَتْ فِي أَضَلِّ شَجَرَةٍ بَلُوطٍ، فَأَطَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ عَلَيَّائِهَا
الشَّامِخِ بِخَيْلَاءٍ وَأَزْدِهَاءٍ، وَقَالَتْ: أَنْتِ حَقِيرَةٌ، حَقِيرٌ بَجْنَاكِ الَّذِي تَحْمِلِينَ، حَتَّى
صَوْتُكَ حَقِيرٌ فِي نَجْوَى النَّسِيمِ سَاعَةً يَنْطَلِقُ فِي السَّحْرِ يُغَاوِلُ غَايَاتِ الْأَشْجَارِ
وَيُسَامِرُهَا... وَأَنْتَقَضَتْ تَصَفُّقٌ، فَقَدْ مَرَّ الرِّيحُ يَهْدُهَا، وَذَهَبَتْ تَضْحُكُ مُتَمَايِلَةً
فِي سُخْرِيَّةٍ وَكِبَرِيَاءٍ. وَهَبَتْ فِي أَثَرِ الرِّيحِ أَعَاصِيرُ تَزَارُ فَطَالَتْ ضِخْكَتُهَا وَاسْتَحَالَتْ
فَهْقَهَةً لَمْ تَزَلْ تَمْتَدُّ، وَلَكِنَّهَا أَنْقَلَبَتْ فَجَاءَةً إِلَى مِثْلِ حَشْرَجَةٍ رَهِيَّةٍ أَنْكَفَأَتْ مَعَهَا
تَزَوَّطُ بِالأَرْضِ عِنْدَ قَدَمِ التُّفَاحَةِ، فَمَالَتْ هَذِهِ عَلَيْهَا رَائِيَةً تَقُولُ:

لَعَلَّكَ الْآنَ - أَيْتُهَا الْأَخْتُ - أَضِدُقُ زَمْرًا فِي الْكِبَرِيَاءِ...

وَمَرَّ سَائِرُ طَرِيقِي جَدُّ بِهِ الْمَسِيرُ، فَوَقَّفَ عِنْدَهُمَا تَعْبًا ضَاوِيًا، وَأَهْوَتْ يَدُهُ تَطْعَمُ
مِنْ ثَمَرِ الْبَلُوطَةِ، فَخَبَطَتْهُ مَرَارَةٌ حَادَّةٌ، فَتَقَرَّرَ مُسْتَنْعِصًا كَالَّذِي مَسَّهُ أَفْعَى، وَتَرَايَدَ

به الظلماء، وتَلَبَّثَ في حَيْرَةٍ طويلاً قَبْلَ أَنْ أَخَذَ مِنْ ثَمَرِ الأُخْرَى، فَاخْلَوَى وشاعَ الرُّيُّ في جوانِحِهِ، فقال:

مُبَارَكَةٌ أَنْتِ! فَإِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الذَّاتِ فِي شَكْلِ خُدُودِ الحِسانِ، وَأَمَّا أَنْتِ الأُخْرَى فَبُعْدًا لَكَ! إِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الكِبْرِيَاءِ فِي شَكْلِ جِلَّةِ الجِمالِ! فَسَمِعْتُ كِلْتاهُمَا مُحْكَمَ الحَقِيقَةِ عَلَيَّهِمَا، فَمَا تَاهَتْ إِحْدَاهُمَا، وَهِيَ كَبِيرَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ الوجودِ، وَلَقَدْ تَضَاءَلَتِ الأُخْرَى وَهِيَ عَدِيمَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ فِي العَدَمِ، وَرَاحَتْ وَقَدْ آخُضِرَتْ عَلَيْهَا الكِبْرِيَاءُ كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَى أَشْلَائِهَا مُمَزَّقَةً... وَقِيلَ، بَعْدَ حِينٍ، إِنَّ المَوَاقِدَ أَنْتَهَبَتْهَا، وَحَالَتْ فِي الرَّمَادِ والدُّخَانِ تَقُولُ أَيْضاً: إِنَّنِي لَمْ أَرَلْ كِبْرِيَاءً تَغْلُوا...!

«مَرَّ الحُسَيْنُ بِمَسَاكِينٍ يَأْكُلُونَ فِي الصُّفَّةِ^(٢)، فَقَالُوا: الغَدَاءُ. فَتَنَزَّلَ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ. فَتَعَدَّى ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، قَالُوا: نَعَمْ... فَمَضَى بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لَخَادِمِهِ: أَخْرِجْنِي مَا كُنْتُ تَدْخِرِينَ».

والحُسَيْنُ كَانَ، وَهُوَ فِي الهَيْكَلِ، لَا يَفْتَأُ يُعِينُ النَّظَرَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَعْشَاهَا، يُضْلِحُ فِيهَا وَيُضْلِحُ لَهَا حَتَّى آذَنَهُ الهَيْكَلُ بالخُرُوجِ، كَمَا خَرَجَ جَدُّهُ مِنْ غَارِ جِرَاءَ قَبْلُ، لِيَأْخُذَ الحَيَاةَ طَبَقَ قَاعِدَةِ الإِسْلَامِ، فَتَحَدَّثَهُ أَوْثَانُ الأَحْيَاءِ، فَحَارَبَهُمْ مُنْتَشِرِينَ وَمُجْتَمِعِينَ.

فَالنَّبِيُّ الجَدُّ، مِنْ قَبْلُ، حَارَبَ الوَثَنِيَّةَ فِي الفِكْرِ وَدَحْضَهَا؛ وَالْحُسَيْنُ السَّبْطُ حَارَبَ الوَثَنِيَّةَ فِي المُجْتَمَعِ، وَهُوَ، وَإِنْ لَمْ يَدْحَضْهَا، فَقَدْ رَسَمَ الطَّرِيقَ لِحَرْبِهَا، وَأَبَاحَ ثَوْرَةَ التَّحَرُّرِ عَلَى أَيْةِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا.

*

(٢) المكان المَعْدُ لِطَعَامِ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ.

ذَابَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي الْقُشُورِ...
وَرَاخَ الْأَحْيَاءُ يَتَعَلَّقُونَ مِنْهَا بِالْعُثَاءِ وَالظُّلَالِ...
فِي نَشْوَةِ كَنْشَوَةِ الْخَفْرِ تُعْبِزُ عَنْ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، تَمُدُّ بِالْعَرَبَدَةِ دُونَ مَا
أَحْلَامُ!...

*

وَقَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ نَفَذُوا مِنَ الْقُشُورِ إِلَى اللَّبَابِ...
فَطَعِمُوا الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ هَيْئَةُ الْأَبَدِيَّةِ...
فَاسْتَعْلَوْا وَوَقَفُوا عَلَى هَامِ الْقُشُورِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَلَاءِ...
وَتَحَدَّثَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ رَأَوْا، عِنْدَ أَفْقِ الْأَبَدِيَّةِ، إِنْسَانًا يُمِيعُنُ فِي السَّمَاءِ...
عَرَفُوا فِي طَلْعَتِهِ إِنْسَانَ الْهَيْكَلِ الَّذِي أَغْرَاهُمْ بِاللَّحَاقِ!...

* * *

في وجه الظلم

في جَوْفِ اللَّيْلِ العميقِ عُمَقَ الأَبَدِيَّةِ والمجهولِ، حينَ كَانَ الظَّلَامُ يَنْتَشِرُ على
شَكْلِ أُرْدِيَّةٍ فَاحِمَةٍ، تُلْفَعُ وَجْهَ الكَوْنِ وتُلْقِيهِ في سُكُونٍ حَائِرٍ وشَبَابٍ واجِمٍ
مُخِيفٍ، أَنْطَلَقَتْ أَنَّهُ تَتَّبِعُهَا أُخْرَى وَأُخْرَى، في تَلَاخُفٍ بَدَأَ بَطِيئاً ثُمَّ كَرَّ سَرِيعاً،
وَكَانَتْ أَنَاثٌ تُسَمِّعُ جَرِيحَةً، وَيُخَيِّلُ أَنَّهَا تُرَى دَائِمَةً كَلِمَةً، تَجْتَمِعُ فَتُشَكِّلُ صَرِخَةً
بَاغِتَةً أَوْ بَغْتَةً صَارِخَةً، وَتَتَوَزَّعُ مُتَفَقِّطَةً مُتَنَاوِحَةً فَتُؤَلِّفُ لَحْناً فَانِيَاً، كَأَنَّهُ لَحْنُ
التَّلَاشِيِ الْمُحْتَضِرِ، أَوْ نَعْمَةُ الْفَنَاءِ الذَّائِبِ في أَفْوَاهِ الْقُبُورِ.

أَضْغَى الْحُسَيْنُ إِلَى مَا يَتَنَاهَى فِي سَمْعِهِ، وَمَالَ بِأُذُنِهِ كَأَنَّهُ يَسْأَلُ: مَاذَا؟ وَقَدْ
خَفَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا يُسَابِقُ السَّمْعَ، وَلَكِنَّ التَّأْمَاتِ اخْتَلَطَتْ فَأَدَارَ أُذُنَيْهِ كِلْتَيْهِمَا إِلَى
الْجِهَاتِ كُلِّهَا، وَهَذَا قَلْبُهُ يَتَوَثَّبُ يَمِيناً وَشِمَالاً، يَتَدَّ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَقُولُ فِي مَنْطِقِ
الصَّدَى: أَوَاةُ! وَظَلَّ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَاذَا؟ وَاخْتَلَطَتِ الْآهَاتُ وَأَنْبَهَمَتْ... فَهَبَّ
يَشْتَدُّ خَارِجَ الْهَيْكَلِ مُسْتَطَلِعاً وَهُوَ يُرَدِّدُ:

الْلَّيْلُ لَيْلٌ، وَهَوَّ وَنَيْلٌ وَنَيْلٌ وَسَالَ بِالْقَوْمِ الطُّغَاةِ السَّيْلُ

وَنَيْلٌ لِلظُّلَمِ وَالظَّالِمِينَ، «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَطْلَ مِنَ الْهَيْكَلِ، وَأَطْلَعَ رَأْسَهُ، وَالتَّاسُ مُتَجَمِّهُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ كَالْعَمَامِ

الْمُرْفُ يَقُولُونَ: أَفِي كُلِّ يَوْمٍ صَحِيَّةٌ وَدَمٌ يُطْلُ؟ أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَمَرُّقُ أَكْبَادُ وَتُنْثَرُ أَشْلَاءُ؟

لَقَدْ جَاءَ النَّعِيُّ بِأَنَّ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ طُلَّ دَمُهُ مُنْذُ لَيَالٍ فِي نَقْرِ مِنْ صَحْبِهِ،
وهؤلاءِ وُجوهُ أَهْلِ الْكَوْفَةِ يَسْتَصْرِخُونَ وَيُنْتَصِفُونَ.

قَالَ الْحُسَيْنُ: رَبَّاهُ مَا أَسْمَعُ... أَحُجْرُ يُقْتَلُ وَلَا نَصْنَعُ شَيْئاً؟ فَيَا حَيَاةَ أَشِيحِي
وَأَعْرَبِي، وَيَا دُنْيَا الْآيْمِينَ ذَوِيي وَأَصْمَحَلِي!

وَكَانَ قَدْ آذَنَهُمُ الْفَجْرُ بِالصَّلَاةِ فَعَاجَوْا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالتَّأَمَّوْا صُفُوفاً، وَمَا
أَنْصَرَفُوا حَتَّى تَحَلَّقُوا عَلَى شَكْلِ دَوَائِرٍ فِي بَعْضِهَا... فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكَوْفَةِ
فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْتُمْ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، وَإِلَيْكُمْ تَتَّجِعُ الْأَنْظَارُ
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَإِلَى ظِلَالِكُمْ يَفِيثُونَ قَصْدَ تَطْهِيرِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْأَذْرَانِ.

أَنْتُمْ هُمْ الْأَنْصَارُ، وَبَيْنَكُمْ تَرَعْرَعَتِ الثُّبُوءُ، وَاسْتَدَّتْ قَوَادِمُهَا، وَرَبَّتْ
خَوَافِهَا. فَاسْتَوَى النَّشْرُ وَحَلَقَ صُغْدًا فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْبَغَاثِ،
وَأَهْوَى الْخَفَاشُ إِلَى الْحَفَائِرِ يَسْتَحْفِي. وَلَقَدْ عَادَ النَّشْرُ الْآنَ إِلَى وَكْرِهِ، وَأَخَذَهُ رُقَادٌ
عَمِيقٌ، فَاسْتَنْسَرَ الْبَغَاثُ وَعَدَّتِ الْهَوَامُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ. إِنَّ الْمَدِينَةَ هِيَ نَشْرُ الثُّبُوءِ،
فَأَهْيِوْا بِالنَّشْرِ إِلَى التَّخْلِيقِ لِتَرْتَعِدَ الْهَوَامُّ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَنْسَحِقَ فِي الرُّغَامِ أَبَدًا.

أَلَا فَأَنْتُمْ حَفَظَةُ الْوَحْيِ، وَحَامُو ذِمَارِ الرِّسَالَةِ دُونَ الْعَاطِشِينَ. أَلَا لَقَدْ آوَدَّ
الْمُجْتَمَعُ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ الرُّغْنَاءِ، وَلَكِنْ بَأَثْوَابٍ أُخْرَى تَتَمَاجُجُ مِنْ خِلَالِهَا، وَلَيْتَ هَذَا
فَقَطْ، إِنَّهُ ضَمَّ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ، جَاهِلِيَّةَ كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَبِيلٍ.

أُنْظُرُوا! أُنْظُرُوا! لَقَدْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ عَدُوًّا لِلْمُلْكِيَّاتِ، فَبَشْنَا نَتَقَلَّبُ فِي أَرْدَا
أَشْكَالِهَا. وَعَلَّمَ مُحَمَّدٌ ضَرُورَةَ الْحَدِّ مِنْ طُعْيَانِ رِجَالِ الْمَالِ، فَصَارَتْ كُلُّ الْقُوَى فِي

أَيَّدِيهِمْ. وَأَطْلَقَ مُحَمَّدٌ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ، وَأَعْطَاهُ الْحَقَّ بِالْحَيَاةِ كَيْفَ شَاءَ فِي حُدُودِ الصَّالِحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَامِّ، وَفِي حُدُودِ الْأَخْلَاقِ الْمُسْلِكِيَّةِ وَالضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الشَّامِلِ، فَإِذَا نَحْنُ نَحْيَا فِي اسْتِعْبَادِ اجْتِمَاعِيٍّ مُتَكَبِّرٍ، حَتَّى لَقَدْ تَنَاهَوْا فَانْتَرَعُوا حَقَّ الْحَيَاةِ مِنْ أَيْدِينَا، وَبَاتُوا يُنْعَمُونَ عَلَيْنَا، إِذَا شَاءَتْ شَهَوَاتُهُمْ، بِقَدْرِ حَقِيرٍ بَلِيدٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ الشَّقِيَّةِ، وَأَفْضَلُ مِنْهَا الْمَوْتُ خُطَّةً، وَاللَّهِ.

وَصَحَّ الْكِندِيُّونَ مِنْ أَطْرَافِ الْجُمُوعِ وَبَيْنَهَا: يَا لِنَارَاتِ حُجْرٍ! وَأَنْطَلَقَ الْمُتَكَلِّمُ الْكُوفِيُّ يَصِلُ مَا أَنْقَطَعَ مُلْتَاعاً مُهْتَاجاً: لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي نَارَاتُهُمْ مَضْرَعُ حُجْرِ بْنِ عَدِيِّ الْكِندِيِّ، وَمَنْ يَجْهَلُهُ؟ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْلَامِ الرُّجَالِ، وَنُقْطَةُ الْفَضْلِ مِنْهُمْ، فَقَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ وَأَظْهَرَ أَرْوَاعَ أَنْوَاعِ الْبُطُولَاتِ فِي فَتْحِ الشَّامِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ «أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا وَلَّى الْمُغِيرَةَ بْنِ سَعْبَةَ الْكَوْفَةَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، دَعَاهُ وَأَوْصَاهُ بِشَتْمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ، وَالْعَبْثِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ، وَبِاطْرَاءِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِدْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ. فَأَقَامَ الْمُغِيرَةُ عَامِلاً لِمُعَاوِيَةَ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا، لَا يَدْعُ ذِمَّ عَلِيٍّ، وَالْوُقُوعَ فِيهِ، وَالِدُّعَاءَ لِعُثْمَانَ بِالرَّحْمَةِ، وَالتَّزْكِيَةَ لِأَصْحَابِهِ وَالْمُطَالِبِينَ بِدَمِهِ.

فَكَانَ حُجْرٌ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ: بَلْ إِيَّاكُمْ قَدَّمَتِ اللَّهُ وَلَعَنَ... ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَذَمُّونَ وَتُعَيِّرُونَ لِأَحَقُّ بِالْفَضْلِ... أَلَا لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ سِيَاسَةً تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ فَهْمٍ جَيِّدٍ لِنَفْسِيَّةِ الْجَمَاهِيرِ، وَعَدَمِ تَعَلُّلٍ بَيْنَ خَنَايَاهَا وَفِي خِلَالِهَا، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا التَّنْقِصِ مَا يَكْفِي لِيَبْعَثَ الدَّفَائِنَ وَإِذْكَاءِ نَارِ الْحَفَائِظِ إِذْكَاءَ جَهَنَّمِيًّا سَاجِرًا، قَدْ يَأْتِي عَلَى أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَيُطَوِّحُ بِهَا سَرَّ تَطْوِاحٍ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَنْطَوِي عَلَى أَحْقَادِ طَائِمَةٍ دَفِينَةٍ وَتَغْدُو فِي آتِمَارَاتٍ تُزَوِّي بِهَا سَخَائِمَهَا. نَعَمْ هِيَ حِمَاقَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَزْمِي بِهَا إِلَى جُمْلَةٍ غَايَاتِ:

أ - التَّشْفِي، وتوكيد ما سَبَقَ ونَشَرَهُ مِنْ دِعايَاتٍ ضِدَّ عَلِيٍّ فِي الشَّامِ وسَائِرِ
مَنَاطِقِ نُفُوذِهِ.

ب - بَثَّ عَقِيدَةً سَيِّئَةً تَنُمُو مَعَ الْأَيَّامِ لَدَى النَّاسِ فِي الْبَطْلِ الْإِسْلَامِيِّ
الْخَالِدِ عَلَيٍّ، وَفِي بَنِيهِ، وَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الطَّرِيقَ دُونَهُمْ إِذَا رَامُوا مُحَاوَلَةً مِنْ نَوْعِ
الْمُحَاوَلَاتِ الْكُبْرَى، فَقَدْ سَكَمَ الْجَوُّ عَلَيْهِمْ. وَغَيْرُ خَفِيِّ أَنَّ الْأَرَاءَ وَالْمُعْتَقَدَاتِ إِنَّمَا
تَنْشَأُ بِالتَّلْفِينِ وَالتَّكْرَارِ وَالْمُعَاوَذَةِ.

ج - تَحْرِيكَ أَنْصَارِ عَلِيٍّ لِلتَّمَرُّدِ وَاسْتِثَارَتِهِمْ لِلشَّعْبِ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ
وَالدَّوْلَةِ، وَبِذَلِكَ يَجِدُ السَّبَبَ لِإِدَانَتِهِمْ وَأَخْذِهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَهَذَا مَا وَقَعَ
لِحُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَجَمَاعَةِ كُبْرَى هُنَا وَهُنَاكَ.

ولكن، رُغِمَ أَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى كُلِّ هَذَا، فَقَدْ كَانَتْ سِيَاسَةً هُوَ جَاءَ أَعْمَشُ
فِيهَا غُنْصُرُ الْإِنْتِقَامِ وَغَلَبَ عَلَى قَصْدِ السَّلَامِ الصَّرُورِيِّ إِذْ ذَاكَ، لِإِيجَادِ حَالَةٍ تَوَاضُلٍ
صَحِيحٍ مُخْلِصٍ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالشَّعْبِ.

وَالْمُغِيرَةُ كَانَتْ، إِلَى ذَلِكَ، حَسَنَ التَّأْتِي، فَهوَ يَفْعَلُ مَا يَأْمُرُ بِهِ مَرْجِعُهُ،
وَيُزَوِّكُ لِلنَّاسِ حُرُوتَهُمْ فِي التَّغْلِيْقِ كَيْفَ شَاءُوا. «وَلَمَّا هَلَكَ، سَنَةَ إِحْدَى
وَخَمْسِينَ، جُمِعَتِ الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ لِزِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَذَكَرَ عُثْمَانَ
وَأَصْحَابَهُ فَقَرَّظَهُمْ، وَذَكَرَ قَتْلَهُ وَلَعَنَهُمْ، فَقَامَ حُجْرٌ فَفَعَلَ مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُ
بِالْمُغِيرَةِ، وَرَجَعَ زِيَادٌ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَوَلِيَ الْكُوفَةَ عَمْرُو بْنُ الْحُرَيْثِ، فَبَلَغَهُ - أَيْ
زِيَادًا - أَنَّ حُجْرًا يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ شِيعَةُ عَلِيٍّ، وَيُظْهِرُونَ أَلَهُمْ وَالْبِرَاءَةَ مِنْ مُعَاوِيَةَ
وَعَمَلِهِ. فَشَخَّصَ إِلَى الْكُوفَةِ وَخَطَبَ الْجُمُعَةَ، وَأَطَالَ الْخُطْبَةَ وَأَخَّرَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ
حُجْرٌ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا
خَشِيَ قُوَّةَ الصَّلَاةِ نَارَ إِلَيْهَا وَثَارَ النَّاسُ مَعَهُ. وَلَمْ يَسْغَ زِيَادًا إِلَّا التَّرْوُلَ وَالصَّلَاةَ
بِالنَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي أَمْرِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: أَنْ شُدَّهُ فِي الْحَدِيدِ ثُمَّ

أَحْمِلْهُ إِلَيَّ... فَأَخَذَ زِيَادٌ حُجْرًا وَحَبَسَهُ ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ
سَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا أَقِيلُكَ وَلَا أَسْتَقِيلُكَ، أَخْرِجْهُ فَأَضْرِبُوا غَنَقَهُ... فَقَالَ
حُجْرٌ لِلَّذِينَ يَلُونُ أُمْرَهُ:

دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ!

قالوا: صَلِّ... فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفَّفَ فِيهِمَا، ثُمَّ قَالَ:

لَوْلَا أَنْ تَطَّنْتُمَا بِي غَيْرِ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لِأَخْبَيْتُ أَنْ تَكُونَا أَطْوَلَ يَمًّا كَانْتُمَا، وَلَئِنْ
لَمْ يَكُنْ فِيمَا مَضَى مِنَ الصَّلَاةِ خَيْرٌ فَمَا فِي هَاتَيْنِ خَيْرٌ... ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ
أَهْلِهِ:

لَا تُطْلِقُوا عَنِّي حَدِيدًا وَلَا تُغْسِلُوا عَنِّي دَمًا، فَإِنِّي أَلَاقِي بِهَا مُعَاوِيَةَ غَدًا عَلَى
الْجَادَةِ... ثُمَّ تَتَبَعَ أَصْحَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ، فَقَتَلَ غَمَرُ بْنُ الْحَمِقِ وَرِفَاعَةُ بْنُ شَدَادٍ
إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ لَا يُحْصَوْنَ.

أَلَا يَا سِبْطَ مُحَمَّدٍ! إِنَّ مَبَادِيءَ مُحَمَّدٍ تُنَادِيكَ، وَقُرْآنَ مُحَمَّدٍ يَهَيِّبُ بِكَ،
إِلَى الْعَمَلِ، إِلَى الْعَمَلِ السَّرِيعِ، فَلَمْ يَغْدُ فِي الْقَوْسِ مَنَزْعٌ، وَلَا فِي الصَّبْرِ مُعْتَصَمٌ،
فَقَدْ تَشَقَّقَ الْحِزَامُ عَلَى الطُّبَيْيْنِ، بَلْ تَهَرَّأَ مِثْلَ نَسِيلِ الرَّعْبِ.

وَهَبْتَ تَقُولُ أَحْتُ حُجْرَ بْنِ عَدِيٍّ بِقَوْلِهَا:

تَرْفَعُ أَثْمُهَا الْقَمَرُ الْمُنِيرُ لَعَلَّكَ أَنْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْحَبِيرُ
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالسَّيْدُ
وَأُضْهِتِ الْبِلَادُ بِهِ مُحُولًا كَأَنَّ لَمْ يَأْتِهَا يَوْمٌ مَطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرَ حُجْرَ بْنِ عَدِيٍّ تَلَقَّيْتُكَ السَّلَامَةَ وَالشُّرُورُ

أَخَافُ عَلَيْكَ... مَا أُرْدَى عَدِيًّا وَشَيْخًا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ
أَلَا يَا لَيْتَ مُحْجَرًا مَاتَ مَوْتًا وَلَمْ يُنَحَّرْ كَمَا نُحَجِّرُ الْبَعِيرُ
فَإِنْ يَهْلِكَ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٌ إِلَى هُلُكٍ مِنَ الدُّنْيَا يَصِيرُ
وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ قَامَ قَيْسُ بْنُ فَهْدَانَ يَقُولُ، وَهُوَ مُفْعَمُ الْحُزَنِ كَالَّذِي فَقَدَ كُلَّ
ذَوِيهِ، أَوْ كُلَّ بَنِيهِ:

يَا مُحْجَرُ يَا ذَا الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ يَا ذَا الْقَضَائِلِ نَابَةَ الذِّكْرِ
كُنْتُ الْمُدَافِعَ عَنْ ظُلَامَتِنَا عِنْدَ الظُّلُومِ وَمَانِعَ الثُّغْرِ
كَأَنَّ حَيَاتِكَ إِذْ حَيَّيْتُ لَنَا عِزًّا، وَمَوْتُكَ قَاصِمُ الظُّهْرِ
يَا طُولَ مُكْتَأَبِي لِقَتْلِهِمْ مُحْجَرًا، وَطُولَ خَزَاةِ الْبَصْدِرِ
قَدْ كِدْتُ أَضَعُقُ جَارِعًا أَسِفًا وَأَمُوتُ مِنْ جَزَعٍ عَلَى مُحْجَرٍ
فَدَمَعْتُ مُقَلَّتَا الْحُسَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: لَوْلَا بَيْعَةُ سَبَقَتْ
لَسِرْتُ بِالنَّاسِ، وَتُرْتُ بِالظَّالِمِينَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.
وَبَيْنَمَا هُمْ مُجْلُوسٌ لَمْ يَتَفَرَّقُوا بَعْدُ، جَاءَ الْبَرِيدُ بِكُتُبٍ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ، فَكَانَ هَذَا أَسْرَعَهُمَا إِلَى فَضْلِ الْكِتَابِ. فَإِذَا زِيَادٌ «يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ مُحْجَرٍ
وَأَصْحَابِهِ، فَأَلْقَى الْكِتَابَ رَاجِعًا مُرْتَعِدًا وَهُوَ يَقُولُ كَذَبَ! كَذَبَ! ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ:
إِنِّي حِينَما كُنْتُ فِي الْبَصْرَةِ كَبَّرَ بِي النَّاسُ تَكْبِيرَةً، ثُمَّ كَبَّرُوا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَدَخَلَ
عَلَيَّ زِيَادٌ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ مُطِيعِي يَسْتَقِيمُ لَكَ النَّاسُ... فَقُلْتُ: مَاذَا؟

فَقَالَ: أُرْسِلُ إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، نَاسٍ مِنَ الْأَشْرَافِ، فَأَضْرِبُ رِقَابَهُمْ، فَإِنَّهُ
يَسْتَقِيمُ لَكَ الْأَمْرُ... فَعَلِمْتُ أَنَّهُ صَنَعَ بِمُحْجَرٍ وَأَصْحَابِهِ مِثْلَ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ».

وكان على المدينة يؤمئذ مروان بن الحكم، فترقى الخبر إليه، فكتب إلى معاوية «يُعلمه أن رجالاً من أهل العراق قدِموا على الحسين وهم مقيمون عنده يحتفلون إليه... فكتب معاوية إلى الحسين:

أما بعد: فقد انتهت إليّ أمورُ عنك لست بها حريّاً، إن كانت حقّاً فقد أظنك تركتها رغبةً فدعها، ولعمري لله إن من أعطى الله عهده وميثاقه لجديرٍ بالوفاء، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعةً، من كان مثلك، في خطرِكَ وشرِّكَ ومنزليكَ التي أنزلَكَ الله بها. وإن كان الذي بلغني باطلاً، فإنك أنت أعدلُ الناس لذلك. فِعِظْ نَفْسَكَ، وبِعْهِدِ اللَّهَ أَوْفٍ، فإنك متى تُنكرني أنكرَكَ، ومتى تُكذِّبني أكذَكَ. فاتتني شقّ عصا هذه الأمة، وأن يؤدَّهم الله على يدِكَ في فتنة. فقد عرفت الناس وبلوتهم، فانظروا لتفسيك ولدينك ولأمة محمد، ولا يستخفك الشفهاء والذين لا يعلمون».

وكان وقع كتاب معاوية عند الحسين، وهو يرى من مهازيل الحكم ومآسيه، وقع النار في الهشيم، فما تلبث حتى كتب إلى معاوية كتابه الخالد الذي كان وثيقة اتهامية خطيرة للسلطات العليا، وقائمة إحصاء بالأعمال الاعتيالية التي ارتكبتها، وكان، إلى هذا، استجواباً وإنذاراً شعيباً، قال:

«أما بعد: فقد بلغني كتابك، تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدُّ إليها إلا الله تعالى.

وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنه إنما رقاؤه إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة، المقوقون بين الجمع، ما أزدت لك حزباً ولا عليك خلافاً، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإغدار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين... ألفت القاتل حُجَرَ بن عديّ أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين، الذين كانوا

يُكْرَهُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَفْظِعُونَ الْبِدْعَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا مِنْ بَغْدٍ مَا أُعْطِيَتْهُمْ الْإِيمَانُ الْمَغْلُظَةَ وَالْمَوَاقِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ، جَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ وَاسْتِخْفَافًا بَعْدِهِ؟ أَوْلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرُو أَبِي الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ الْعَبِيدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَهْلَيْتُهُ الْعِبَادَةَ، فَتَحَلَ جِسْمُهُ وَأَصْفَرَ لَوْنُهُ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا أَمْنْتَهُ وَأَعْطَيْتَهُ مِنَ الْغُيُودِ مَا لَوْ فَهِمْتَهُ الْعُصْمَ لَنَزَلْتَ مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟ أَوْلَسْتَ قَدْ سَلَطْتَ زِيَادًا عَلَى النَّاسِ يَقْتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمُلُ أَعْيُنَهُمْ وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى مُجْدُوعِ الثُّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟ أَوْلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِ زِيَادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ أَبِي عَمٍّ الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبَائِكَ تَجَسُّمَ الرَّحْلَتَيْنِ، رِحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: أَنْظِرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَلَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، وَأَتَّقِ شَقِيَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَى فِتْنَةٍ. وَلَئِنِّي لَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْظَمَ نَظَرًا لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَلَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَجَاهِدَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنْكِرُونِي وَإِنْ أَكْذَكَ تَكْذِبُونِي، فِكْذَنِي مَا بَدَأَ لَكَ، فَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرُّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ. لِأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ، وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْغُيُودِ وَالْمَوَاقِيقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا وَقَتُلُوا. وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا، فَقَتَلْتَهُمْ مَخَافَةَ أَمْرٍ، لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرَكُوا.

فَأَبَشِرُوا يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ، وَأَسْتَيْقِنِ الْحِسَابَ، وَأَعْلَمَ أَنَّ لِلَّهِ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا. وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَأَخْذِكَ بِالظُّلْمَةِ، وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى النَّهْمِ، وَنَفْيِكَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دَوْرِهِمْ إِلَى دَارِ الْعُزَّةِ. مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ وَتَبَرَّتْ دِينَكَ، وَغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَأَخْرَبْتَ أَمَانَتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقَالََةَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ، وَأَخَفَّتِ الْوَرَعُ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامَ».

كَانَ جَدِيرًا بِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُحَرِّكَ فِي هَيْئَةِ الْحُكْمِ ضَمَائِرَهُمْ وَيُرْدَهُمْ عَنْ غَوَايَاتِهِمْ، وَيَضَعُ حَدًّا لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلُ يُخَفِّفُ مِنْ أَسَالِبِ الْبَطْشِ وَالْإِعْتِسَافِ. فَإِنَّ صِلَةَ الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ صِلَةُ الْعَاطِفَةِ بِالْمُخْلِصَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ صِلَةُ الْمُنْفَعَةِ بِالْخَالِصَةِ فَهَنَّاكَ يَوْجَدُ أَفْطَحُ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ اللَّصُوصِيَّةِ وَالْإِعْتِصَابِ.

نَعْرِفُ أَنَّ إِحْصَاءَ الْأَخْطَاءِ عَلَى الْمُخْطِئِ يَذْفَعُهُ نَفْسِيًّا إِلَى تَصْحِيحِ الْخَطَأِ، إِلَّا إِذَا بُنِيَتْ النَّفْسُ عَلَى الشُّذُوزِ، كَمَنْ يَتَغَطَّشُ إِلَى الدَّمَاءِ، بِمَا فِيهِ مِنْ رَخِيشَةٍ كَامِنَةٍ، فَهَذَا يُحَسُّ بِلَذَّةٍ فِي نَهْرِ الدَّمَاءِ وَإِهْرَاقِهَا، وَتَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ يَتَرَدِّدُهَا وَتَقْدِدُهَا؛ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَ حُبُّ الذَّاتِ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، فَيَسْتَحِيلُ الْخَطَأُ إِلَى صِفَةٍ نَفْسِيَّةٍ ثَابِتَةٍ أَيْضًا، هِيَ قَصْدُ الْخَطَأِ، فَلَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَقْصِدُ الْأَخْطَاءَ وَيَفْعَلُ الْإِجْرَامَ بِمَحْضِ الرَّغْبَةِ فِي تَوْفِيرِ شَهَوَاتِ الذَّاتِ وَتَنْمِيَةِ كِبْرِيَائِهَا.

وهذا ما قد حَدَّثَ بِالْفِعْلِ فِي حَاشِيَةِ مُعَاوِيَةَ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْكِتَابِ مِنْ أَثَرٍ سِوَى مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ رِوَايَةُ التَّارِيخِ أَتْلَعُ تَغْيِيرًا: لَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ قَالَ:

«لَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ ضَبٌّ - أَيْ حَقْدٌ - مَا أَشْعُرُ بِهِ.

فَقَالَ يَزِيدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجِبْهُ جَوَابًا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، تَذَكَّرْ فِيهِ أَبَاهُ بِشَرِّ فَعَلِهِ... وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةَ:

أَمَّا رَأَيْتَ مَا كَتَبَ الْحُسَيْنُ؟

قال: وما هو؟... فَأَقْرَأَهُ الْكِتَابَ، فقال: وما يَمْنَعُكَ أَنْ تُجِيبَهُ بِمَا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ
نَفْسَهُ؟ قَالَ يَزِيدُ:

أَرَأَيْتَ - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رَأْيِي؟ فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ، وقال:

أَمَّا يَزِيدُ فَقَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِمِثْلِ رَأْيِكَ.

قال مُحَمَّدٌ: قَدْ أَصَابَ يَزِيدُ.

قالَ مُعَاوِيَةُ: أَخْطَأْتُكُمْ. أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَتَيْتُ دَهْبِثُ لَعَيْبِ عَلِيٍّ، فَمَا عَسَيْتُ أَنْ
أَقُولَ فِيهِ، وَمَتَى مَا عَيْبْتُ رَجُلًا بِمَا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لَمْ يَخْفُلْ بِهِ، وَلَا يَرَاهُ النَّاسُ شَيْعًا
وَكَذَبًا، وَمَا عَسَيْتُ أَنْ أُعَيْبَ حُسَيْنًا، وَاللَّهِ مَا أَرَى لِلْعَيْبِ فِيهِ مَوْضِعًا؛ قَدْ رَأَيْتُ
أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ أَتَوَعَّدُهُ وَأَتَهْدُدُهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَلَّا أَفْعَلَ.

بَعْدَ هَذَا لَمْ يَسْعَ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يُشْرِفَ كَثِيرًا مِنْ دُنْيَا الْهَيْكَلِ، الَّتِي يَتَحَنَّنُهَا
وَيُخَيِّلُهَا، إِلَى دُنْيَا النَّاسِ الَّتِي تَعُجُّ بِمَجْمُوعَةِ الْأَحْيَاءِ، وَتُخْتَلِطُ وَتَمُورُ بِالْبَغْيِ، يُضْلِخُ
مِنْهَا مَا وَسِعَتْ إِضْلَاحُهُ وَيَحْدُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُغْيَانِ السُّلْطَاتِ عَلَى الْجَمَاعَاتِ
وَالْأَفْرَادِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ السُّلْطَةَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَانَتْ قَدْ آتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مِنْهَاجَ عَمَلٍ
شَادًّا، فَهِيَ تَسْعَى لِلْحَيَاةِ مَا وَسِعَتْهَا، دُونَ التَّقْيِيدِ بِقَانُونٍ أَوْ نِظَامٍ، فَضَاعَتْ حُقُوقُ
الضُّعْفَاءِ ضِيَاعًا تَامًا، وَأَضْطَرُّ الْأَفْرَادُ إِلَى اسْتِغْمَالِ وَسَائِلِ قُوَّتِهِمْ لِلْإِحْتِفَاطِ
بِحُقُوقِهِمْ، أَوْ دَفْعِ عَادِيَةِ الضُّعِيمِ عَنْهُمْ، حَتَّى آضْطَرُّوا أَخِيرًا إِلَى إِحْيَاءِ الْوَسَائِلِ
السَّائِعَةِ وَاعْتِمَادِهَا قَبْلَ نُشُوءِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ، مِنْ مِثْلِ مَا يُسَمَّوْنَ «حِلْفَ
الْفُضُولِ»، وَهُوَ يُعَبَّرُ عَنْ تَكْتُلِ أَفْرَادٍ، أَوْ جَمَاعَاتٍ، عَلَى وَجْهَةِ نَظَرٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ
وِجَمَاعِيَةِ الضُّعِيفِ. وَتَكُونُ مِثْلُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ ضَرُورِيَّةً فِي غَيْرِ وَسْطِ الْحُكُومَةِ
النَّظَامِيَّةِ بِالطَّبِيعِ، وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي وَسْطِهَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْحُكُومَةَ نَفْسَهَا بَاتَتْ

خَطَرًا عَلَى الْأَمْنِ وَالْحُقُوقِ.

«كَانَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ، وَهَذَا يُؤَمِّدُ أَمِيرَ عَلَى الْمَدِينَةِ، مُنَازَعَةً فِي مَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا، فَتَحَامَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ فِي حَقِّهِ لِسُلْطَانِهِ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ: أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَتُنْصِفَنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَأُخَذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ لَأَدْعُوَنَّ بِخَلِيفِ الْفُضُولِ!

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ عِنْدَ الْوَلِيدِ: وَأَنَا أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَعِنَ دَعَا بِهِ لَأُخَذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ تَمُوتَ جَمِيعًا... وَبَلَغَتْ الْمِشْوَرَةَ بَنَ مَخْرَمَةَ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَبَلَغَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ عُثْمَانَ التَّيْمِي فَقَالَ... وَيُظْهَرُ أَنَّ الْخِلَافَ رُفِعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَاسْتَصْرَحَهُ الْوَلِيدُ عَلَى الْحُسَيْنِ، فَكَانَ مِنْ مُعَاوِيَةَ تَدَخُّلًا، وَكَانَ مِنْهُ مَيْلٌ بِالضَّرُورَةِ إِلَى جَانِبِ الْوَلِيدِ.

«فَقَالَ الْحُسَيْنُ لِمُعَاوِيَةَ: إِخْتَرْتُ مِنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ، إِمَّا أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي حَقِّي، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيَّ، أَوْ تَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ابْنَ عُمَرَ أَوْ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَإِلَّا فَالرَّابِعَةُ وَهِيَ الصَّبْرُ»^(١).

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَمَا هِيَ؟

(١) الصَّبْرُ فِي أَصْلِهِ مَقَاهِدُ السَّيْفِ، ثُمَّ جَرَى كَيْفَاةً عَنِ الْأَخْذِ بِالشَّدَّةِ وَالْمَقَابِلَةِ بِالْعُنفِ. وَجُلِفَ الْفُضُولُ هَذَا، كَانَ وَسِيلَةً أَنْتِصَافٍ مِنْ غَاثِمْ أَوْ ظَالِمٍ، وَهُوَ مَزُورٌ مِنْ مَتَابِعَاتٍ مَا قُتِلَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَشْرَفَ فِيهِ... يُشَارِكُ مَا يُعْرِفُ الْيَوْمَ بِالْإِطْرَابِ الْعَامِ بِمَعَاهُ الْإِيجَابِيِّ أَيْ الْمَضْحُوبِ بِالْمُقَاوَمَةِ، وَلَيْسَ بِالْمَعْنَى السَّلْبِيِّ فَقَطْ أَيْ الْإِمْتِنَاعِ عَنِ الْقَتْلِ.

وَالْمَعْنَى الْإِيجَابِيُّ الْمُبَاحُ لَا يَتَلَعَّ دَرَجَةَ الْعُضْيَانِ التَّمَرُّدِيِّ التَّخْرِيصِيِّ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ: الْقَبْقَبَةُ، وَهِيَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ: الْقَفْقَعَةُ بِالشَّوْنِ أَوْ الْأَشْنَانِ... وَأَخْبِيئُهَا مِنْ قَبْلِ فِي الْأَرْبَعِيَّاتِ لِيَكُونَ مُقَابِلًا لِكَلِمَةِ Sabotage الَّتِي هِيَ مِنْ كَلِمَةِ Sabot الْقَبْقَابِ. وَكَانَ الْعَمَلُ فِي مَطْلَعِ مَدِينَتِنَا الصَّنَاعِيَّةِ يَتَّبِعُونَ الْقَبَاقِبَ الْحَشِييَّةَ فِي أَثْنَاءِ أَدَاءِ الْقَتْلِ وَمُبَاشَرَتِهِ، فَإِذَا نَقَمُوا لِأَمْرِ مَا لَجَّوْا إِلَى الْأَشْتِكَاكِ وَالضَّرْبِ بِالْقَبَاقِبِ عَلَى الْأَلَابِ إِلَى حَدِّ الْإِثْلَافِ أحيانًا.

قال: أَهْتِفُ بِحِلْفِ الْفُضُولِ... ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مُغَضَّباً، فَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَئِنْ هَتَفْتُ بِهِ وَأَنَا مُضْطَّجِعٌ لَأَقْعُدَنَّ، أَوْ قَاعِدٌ لَأَقُومَنَّ، أَوْ قَائِمٌ لَأَمْشِيَنَّ، أَوْ مَاشٍ لَأَسْعِيَنَّ، ثُمَّ لَتَنْفُذَنَّ رُوحِي مَعَ رُوحِكَ أَوْ لَيُنْصِفَنَّكَ! فَبَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا بِالصَّيْلِمْ... ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ آتَعْتَ فَأَنْتَقِدَ مَالَكَ، فَقَدْ آتَيْتَنَاهُ مِنْكَ».

إِنَّ حِلْفَ الْفُضُولِ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ ثَوْرَةِ اسْتِنْكَارٍ مُنْظَمَةٍ غَيْرِ هَائِجَةٍ وَلَا مُتَحَكِّمَةٍ، دَائِمَةُ الْحَيَاةِ دَائِمَةُ التَّزْوِيعِ، يُطْلِقُهَا الشَّعْبُ بِمِقْدَارٍ وَيَضُمُّهَا بِمِقْدَارٍ، يَجْمَعُهَا الصَّالِحُ الْاجْتِمَاعِي كَمَا يَنْشُرُهَا هُوَ أَيْضاً، فِي تَقْدِيرٍ مُوزُونٍ.

*

فِي جِسْمِ الْبَاطِلِ حَاوَلَ الْحَقُّ أَنْ يَجِدَ نُقْطَةً يَزْكُرُ فِيهَا...
وَمَا هُوَ حَتَّى آمَنَدَّ وَتَفَرَّغَ، وَأَخَذَ عَلَى الْبَاطِلِ سَبِيلَ آمْتِدَادِهِ...
فَذَهَبَ فِي ضُمُورٍ شَيْئاً وَرَاءَ شَيْءٍ، وَضَاقَتْ بِهِ الْحَيَاةُ فَلَفَظَتْهُ...
وَإِذَا بِهِ يَبْحَثُ عَنْ وُجُودِهِ فِي عَرَاءِ الْعَدَمِ، وَهُوَ خِصَمٌ سَرَابٍ لَا يَمُتُّ
بِالْوُجُودِ...

*

فِي الْحُيْطِ الْمِلْحِ يُنْبِتُ نَبْعٌ عَذْبٌ يَكُونُ بَيْئَةً لِلآلِيِّ...
فَأُغْرِى الْحُيْطُ بِلَالِيهِ قَرَاخٌ يَغْتَصِرُ طَبِيعَتَهُ فِي مِثْلِهَا...
وَلَكِنَّهُ تَمَحَّضَ طَوِيلاً، وَأَنْكَشَفَ عَنْ حَصَى تَارَةٍ، وَتَارَةً عَنْ دُنْيَا مِنَ الْمِلْحِ
الْمَرِيرِ...

*

في لَوَحِ حَالِكٍ وَقَعَتْ نُقْطَةُ نور...
فَتَشَرَّتْ أَشْعَتُهَا، وَكَانَ السَّوَادُ أَكْثَرَ إِظْهَاراً لَطَبِيعَتِهَا، وَإِنْدَاءً لِمَا آجَمَعَ فِي
وُجُودِهَا مِنْ سَنَى وَسَنَاء...
وراح السَّوَادُ، كُلُّمَا تَغَيَّظَ وَبَالَغَ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ، يُضِيفُ إِلَى كَوْكَبَةِ النُّورِ
جِدَّةً إِشْرَاق...
*

وَكَانَ كُلُّمَا ذَهَبَ يَقُولُ: «أَنَا» يَشْرِقُ بِحَسَنِ الشُّعَاعِ وَأَشْوَكَ الضِّيَاءِ،
فَتُحْتَضَرُ كَلِمَتُهُ دُونَ لِسَانِهِ...
فَلَمْ يَقَعْ فِي سَمْعِ الْحَيَاةِ إِلَّا كَلِمَةً قَالَتْهَا كَوْكَبَةُ النُّورِ، وَمَشَتْ بِهَا الْحَيَاةُ فِي
التَّارِيخِ، وَرَجَعَتْهَا أَبَدِيَّةُ الضَّمِيرِ...
* * *

مع أُرَيْنَب

هناك على شاطئِ دَجَلَة، في زاويةِ خَلِيجِ البَصْرَة، كانتِ الأُبْلَة^(١) مَهْوًى
مُتَمَاجِنِينَ ومُتَمَاجِنَاتٍ، ومَهْبِطَ وَخِي الهَوَى والشَّبَابِ، وملهى كُلِّ قَتَى وقَتَاةٍ تَلَوَّرَ
الْمَرْحُ طَبِيعَتُهُمَا، ثُمَّ أَطْلَّ يَنْظُرُ إِلَى صَوْرَتِهِ فِيهَا. وَلَيْسَ فِي حِسِّ هَوْلَاءِ عَنِ الْحَيَاةِ
سِوَى أَنَّهَا شَيْءٌ يَخْلُو وَيَلْهُو، كَأَنْدَاءِ السَّحَرِ فِي شِفَاهِ الْأَقَاحِ وَالْيَاسَمِينَ،
وَكُلُوثَاتِ الطُّلِّ فِي حُدُودِ الْوُرُودِ وَالرِّيَاحِينَ... فَهُمْ يُفَنُّونَهَا سَكْرَى مَرْحٍ وَنَشَاوَى
مُجَوِّن... وَلَا يَطِيفُ بِسَمْعِهِمْ سِوَى نَعْمَاتٍ تَتَنَاهَى مُتَلَاشِيَةً فِي هَذَا الْقَرَارِ:

يَا لِلشَّبَابِ الْمَرْحِ، التَّصَابِي... زَوَائِحِ الْجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ

فَفِي أَعْمَاقِهِمْ صَوْتُ يُهَيِّبُ بِهِمْ إِلَى التَّجَنُّبِ فِي فَضَاءِ الْمَرَاكِ، وَالْفَنَاءِ فِي لَا
وَعْيِ الظُّلُوفِ الْغَزَلِ... وَهَلِ الْحَيَاةُ، مِنْ وَاجِهَةِ الشَّبَابِ، سِوَى إِغْرَاءَةٍ تَقُومُ فِي اللُّهُوِ
الْعَابِثِ إِلَى أُخْرَى تَسْتَوِي فِي الْحِجَانَةِ اللَّاعِبَةِ؟ ثُمَّ هَلِ الدُّنْيَا سِوَى إِغْرَاءِ مُتَجَلِّبٍ
إِغْرَاءٍ، يُبَالِغُ فِي أَشْرِهِ حَتَّى لَيْسَتْ دُنْيَا إِلَيْهِ مَنِ آخِضِ الشَّبَابِ فِي قُلُوبِهِمْ بِالْعُغْرِ أَوْ
بِالْفِكْرِ، فَيَسْتَهْوِيهِمْ، وَرُبَّمَا آسْتَفَوْاهُمْ أَيْضاً بِمَا يَتَنَفَّسُ بِهِ مِنْ خَلَبٍ:

إِنَّ بِالْحَيَرَةِ قَساً قَدْ مَجَّنَ قَتَنَ الرُّهْبَانَ فِيهَا وَأَفَتَنَ

(١) نَهْزُ الأُبْلَة كَانَ مُقْتَرَحاً مَعْدُوداً فِي جَنَاتِ الدُّنْيَا الثَّلَاثِ.

تَرَكَ الْإِنْجِيلَ حِيناً لِلصَّبَا وَرَأَى الدُّنْيَا مُجُوناً... فَزَكَّنَ

هَذِهِ قِصَّةُ شَابٍّ آخِضٍ الشَّبَابَ بَيْنَ بُرْذِيهِ بِفِكْرَةِ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ كُوَّةِ الْمَقْبِدِ الْمُتَكَلِّلِ بِالصُّمْتِ الْوَقُورِ، فَرَأَى مَا تَجِيئُ بِهِ مِنْ إغْرَاءٍ، وَمَا يَتَمَوَّجُ فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، فَأَخَذَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَاسْتَوَتْ طُيُوفُهَا فِي نَاطِرِيهِ، فَاسْتَيْقَظَ شَبَابُهُ الْغَافِي، وَمَشَتْ رُوحُ الشَّبَابِ تَتَرَاقِصُ فِي قَلْبِهِ سَكْرَى.

مَضَى فِي ظَنِّهِ سَاحِرًا... يُجَرِّبُ هَذَا الْمُجُونَ حِيناً فَقَطْ، وَيَزْهِي ظِلْمَةُ الصَّبَا الْمَكْبُوحِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَحْمِلُ كِتَابَ تَقْوَاهُ... يَبْدَأُ أَنَّهُ رَأَى الدُّنْيَا لَا تَتَكَشَّفُ إِلَّا عَنْ مُجُونٍ. وَكُلَّمَا نَضَتْ ثَوْباً مَسَّتْهُ لَمَسَةُ فُتُونٍ، وَدَبَّ فِي حَنَائِهِ مِنْ شَوَاطِئِ الشَّبَابِ طَائِفُ جُنُونٍ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ رَكَّنَ... وَإِذَا فِكْرَةُ التَّقْوَى لَدَيْهِ تَنَقَّلَتْ هِيَ التَّجَرِبَةُ، وَيَسْتَوِيحِيهِ مُسْتَوِيحِيًّا عَلَى مَتْنٍ مَوْجَةٍ مُزْبَدَةٍ، مِنْ مَجَانَةِ هَذَا الْوُجُودِ الْمَسْحُورِ. بِهَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ الدَّلَالُ^(٢) فِي جَمْعٍ مِنْ ظُرَفَاءِ الْحِجَارِ جَمَعَهُمُ التَّصَادُفُ فِي الْأُبْلَةِ، بَيْنَهُمْ أَشْعَبُ، فَقَالَ لَهُ هَذَا:

مِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّكَ أَبَدًا إِلَّا جَمْعُ الرِّجَالِ إِلَى النِّسَاءِ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا بِصَحْبِ الْمُجُونِ وَعَرَبِدَاتِ الْجُفُونِ. إِنْ كَانَ هَذَا رَأْيَكَ فَعَسَى أَنْ تَضَعِ الْأَقْدَارُ فِي طَرِيقِكَ صَاحِبَنَا الْأَغْرَابِيَّ الشَّوَهَةَ، فَتَمْتَعُ حُزْبَاءَ قَلْبِكَ بِالْمَجَانَةِ إِلَيْهِ، أَشْحَنَ اللَّهُ عَيْنَكَ، إِنَّ الْمُجُونَ لَا يَمْلُحُ إِلَّا مَعَ جَمَالٍ أَوْ ظَرْفٍ... فَقَهَقَ الدَّلَالُ، وَانْقَلَبَ الصَّحْبُ يُسَائِلُونَ أَشْعَبَ عَنْ خَبْرِهِ فَحَدَّثَهُمْ:

دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ أَغْرَابِيٌّ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، أَشَدَّ مَا يَكُونُ قُبْحًا، مُخْتَلِفُ الْخِلْقَةِ مُشَوَّهًا، فَسَبَّحْتُ مُتَأَفِّمًا، وَزَادَ بِي التَّأَفُّفُ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي. أَتَأَذُنُ لِي أَنْ أَسْلَحَ عَلَيْهِ... فَأَبْتَسَمَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَغْرَابِيَّ يَغْرِفُنِي بِالْمِزَاجِ

(٢) الدَّلَالُ كَسَاحِبِ شَخْصِيَّةٍ قَبِيحَةٍ غَرِيزَةٍ، وَكَانَ يَتَعَاطَى سَمْسَرَةَ الزَّوْاجِ، وَلَهُ أَشْبَهُ مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ بِمَكْنَبِ الزَّوْاجِ. رَاجِعْ أَحْبَابَهُ فِي: الْأَغْنَانِي لِلْأَصْفَهَانِيِّ، وَمَحَامِيغِ كُتُبِ الْأَدَبِ كُلِّهَا..

فَيَحْتَمِلُهَا مِنِّي.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ مُتَهَكِّمًا: إِنَّ شَيْئًا... وَمَعَهُ قَوْسٌ وَكِنَانَةٌ، فَفَوْقَ نَحْوِي
سَهْمًا، وَوَأَصَلَ: وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَكُونَنَّ آخِرَ سَلْحَةٍ سَلَحَتْهَا... وَأَنْقَدَحَتْ غَيْنَاهُ،
وَلَمَسْتُ مِنْهُ الْجِدَّ فِي الشَّرِّ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: جُعِلْتُ فِدَاكَ. أَخَذَنِي الْقَوْلُ لِنَجٍّ وَعُشْرُ
الْخُرُوجِ! وَطَفِقَ الصَّحْبُ يَضْحَكُونَ فِي رَنِينٍ مُتَجَاوِبٍ طَوِيلٍ.

كَانَ يَوْمًا مُفْعَمًا بِسَيْلٍ مِنْ غَرَائِقِ الْفَتَيَانِ وَغَوَانِي الْفَتَيَاتِ، هَذَا التَّيَرُورُ...
حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ اتَّخَذَتْ فِيهِ مَغْرَضَهَا، فَأُطْلِعَتْ أَقْصَى مَا فِي إِبْدَاعِهَا الْفَنِّيِّ مِنْ
آيَاتِ الْجَمَالِ النَّاطِقَةِ بِالْهَوَى، وَالِدَّاعِيَةِ بِالْقِيَامِ إِلَى الْحُبِّ، وَالْمُشِيرَةِ بِأَسْرِ السَّحْرِ
فِي الْعُيُونِ وَالشَّفَاهِ إِلَى فُؤَادِ الْخُلْدِ السَّعِيدِ، وَلَا عَجَبَ، فَتَهَرَّ الْأُبُلَّةُ مَغْدُودٌ أَحَدَ
مَسَارِحِ الْجِنَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي حِسِّ هَوْلَاءِ.

وَكَانَ يَزِيدُ - الشَّابُّ الطَّرِيفُ الَّذِي بَالَعَ فِيهِ نَزَقُ الشَّبَابِ، وَذَابَ فِي لُعَابِهِ -
قَدْ ذَهَبَ مَوْغَلًا فِي الصَّحَرَاءِ مُنْذُ حِينَ يَصِيدُ الطُّبَاءَ، وَيَتَّبِعُ آثَارَ السَّوَانِحِ مِنَ الْجَاذِرِ
وَالْأَرَامِ وَالْوُعُولِ وَالْأَيَّامِ، كَيْفَمَا ذَهَبَتْ وَأَنْعَرَجَتْ. وَلَذَّتْهُ الْمَطَارِدَةُ وَأَخَذَتْهُ
نَشْوَتُهَا، فَمَضَى يَلْهُو وَلَا يَأْلُو، وَزُمَرَةُ لَهْوِهِ تَتَّبِعُهُ، إِنَّهُ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ فِي مَدَاهِ.

لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ جُمُوعِ اللَّاهِبِينَ فِي نَهْرِ الْأُبُلَّةِ، فَالْتَفَتَ يَضْحَكُ إِلَى
رِفَاقِهِ مُتَعَجِّبًا: لَقَدْ قَطَعْنَا صَحَرَاءَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَنَحْنُ لَمْ نُدْرِكْ... وَمَالَ يُزْبِتُ
عَلَى كَيْفِ تَزَوُّبٍ مِنْ أَتْرَابِهِ ضَاحِكًا مُنْتَشِيًا، وَيَتَأَبَّطُ ذِرَاعَ هَذَا، وَيَدْفَعُ ذَاكَ لِأُخْرَى
عَابثًا. إِنَّهُ يُحِسُّ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

رَاحَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْجُمُوعِ وَفِي إِثْرِهِ سَرْجُونُ رَاعِي طُفُولَيْهِ وَصِيبَاهُ، وَلَكِنَّهُ وَقَفَ
فَجْأَةً عِنْدَ سُرَادِقِ مُنِيفٍ، عَرَفَ أَنَّهُ سُرَادِقُ أَمِيرِ الْعِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامِ الْقُرَشِيِّ.
فَقَدْ أَخَذَتْهُ بَغْتَةً وَجْهِ غَانِيَةٍ نَصِيفٍ، كَبِغْتَةٍ بَدْرٍ أَنْشَقَ عَنْهُ الْعَمَامُ، وَأَسْتَعْرَى دُونَهُ لَيْلٌ

بِهِمْ حَالِكٌ، فَزَجَّ نَفْسَهُ رَجًّا غَنِيًّا، وَتَلَبَّسَهُ دُورُ الْجَمَالِ الَّذِي مَالَ يَتَلَاشَى بِطَيْمًا
لِيُنْكَسِفَ عَنْ غَفْوَةٍ فِي حُبِّ الْقَلْبِ، وَتَلَهَّفَ الْعَقْلُ السَّلِيبُ، تَمُدُّهُ يَقْظَةٌ فِي الْغَرَائِزِ
الْمُفْعَمَةِ.

كَانَ فِي خَيَالِهِ وَجْهٌ يَتَنَفَّسُ بِمِثْلِ عَبَقِ الزُّهْرِ، وَعَيْنَانِ تَبْثَنَانِ مِثْلَ السُّحْرِ،
وَشَفَتَانِ تَنْطَلِقَانِ بِمِثْلِ دَوْبِ الْغَرَامِ. وَزَادَهُ بِهَا أَنَّ قَلْبَهَا لَا يَتَجَاوَبُ بِصَدَى عَوَاطِفِهِ،
فَتَدُورُ عَاطِفَتُهُ نِصْفَ دَوْرَةٍ وَتَنْكَسِرُ مُتَلَاشِيَةً فَلَا تُتِمُّ دَوْرَتَهَا، بَلْ تَمْحِي رُسُومَهَا فِي
أَنْبِيَاهِمْ كَالْحِجِّ، وَغُمُوضِ يَائِسٍ مُتَجَهِّمٍ وَتَعَوُّرٍ فِيهِ صَحِيحُ الْإِتِحَارِ.

وَالْمَرْأَةُ تَزِيدُ فِيهَا جَازِبِيَّةُ الْأُنُوثَةِ نُضْجًا وَرُوءًا إِذَا أَضْحَتْ زَوْجَةً، فَقَدْ
أَنْحَسَرَتْ أَكْمَامُ طَبِيعَتِهَا الْمُعَلَّقَةِ تَنْشُرُ أَرْبَجَهَا كَالزُّهْرَةِ مَيَّاسَةً نَاعِمَةً فِي الْهَوَاءِ.
إِنَّ الْمَرْأَةَ تُحْيِسُ بِشَيْءٍ مُبْهِمٍ، وَهُوَ جَوْهَرَةُ الْأُنُوثَةِ فِي أَقْصَى كِيَانِهَا، فَهِيَ تَرْعَاهُ بِسِيَاحِ
الْحَيَاءِ وَالْخَفَرِ كَأَنَّهَا تَحْتَضِنُهُ. فَإِذَا اسْتَحَالَتْ زَوْجَةً فَقَدْ اسْتَحَالَتْ الْآنَ فَقَطُّ أَثْنَى
كَامِلَةِ الْمَعْنَى. لَقَدْ أَضْحَتْ لَوْلُؤَةِ الْأُنُوثَةِ الْحَبِيبَةِ فِي حِقَاقِهَا، وَالْمُنْطَوِيَّةِ عَلَيْهَا
صَدَفَتْهَا، وَهِيَ حَلِيَّةٌ مَنْشُورَةٌ.

فِيمَا بَعْدُ عَرَفَ يَزِيدُ عَنْ عُرُوسِ أَحْلَامِهِ هَذِهِ أَنَّهَا أُرْزِنِبُ آئِنَةُ إِسْحَقَ الْأَمِيرِ،
وَسَيِّدَةُ السُّرَادِقِ. فَعَرَضَتْ فِي خَاطِرِهِ كَلِمَاتٌ مُتَقَطَّعَةٌ هَازِيَّةٌ، فَرَاخَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:
كَيْفَ لِي بِهَا؟ بَيْنِي وَبَيْنَهَا هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ، وَمَسَافَةٌ تَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ تَنَائِيًا
وَبُعْدًا...

وَتَلَبَّثَ زَمَنًا لَمْ يَكُنْ بِالْقَصِيرِ، يَرُودُ مَعْنَاهَا وَيُرَاوِدُ قَلْبَهَا، وَلَكِنَّهَا عَرِيضَةٌ
الْأَغْرَاقِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّابُّ النَّصِيرَ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرِينِهَا مَا شَاءَ الْهَوَى الْعَبْقُ، وَمَا
شَاءَتْ سَعَادَةُ الْأَزْوَاجِ الْخُلَطَاءِ.

بَاتَ كَاسِفًا أَرْقًا يُرَدِّدُ وَلَا يَفْتَأُ:

وفي الحَيِّ نَعْمَ قُوَّةُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى وَأَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ نَعْمٍ
وَتَخَوُّفَ مُرَبِّهِ سَرَجُونُ، فَزَيَّنَ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّامِ لَعَلَّهُ يَسْلُو، فَأَجَابَهُ وَعَادَ
بَصَحْبِهِ يُرِيدُونَ دِمَشْقَ. وَبَيْنَمَا هُوَ آخِذٌ بِمَحَاجِزِ الصَّخْرَاءِ وَمَفَاوِزِهَا، حَانَتْ مِنْ يَدِهِ
لَمْسَةٌ وَقَعَتْ عَلَى قَوْسِيهِ، الَّذِي فَصَلَ فِي غُدُوهِ يَصِيدُ بِهِ الطُّبَاءَ، فَتَذَكَّرَ رَيْمَهُ الَّذِي
صَادَهُ... فَشَدَّ الْقَوْسَ إِلَيْهِ وَاعْتَصَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فِي ثَوْرَةِ قَلْبٍ:

حَطَّمِ الْقَوْسَ عَلَى صَخْرَائِهِ وَأَتَكَى يَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ الشَّكَاةِ
أَيْ هَذَا الْقَوْسُ أَنتَ مَثَلٌ مِثْلُ قَلْبِي، حَطَّمْتُهُ الْعَاصِفَاتِ
وَسَأُخِيكَ بِمُنْهَلِ الدُّمُوعِ إِنَّمَا دَمَعُ الْحَبِيبِينَ حَيَاةً
لَمْ يَزِدْهُ بُعَادُهُ فِي دِمَشْقَ إِلَّا كَمَدًا وَأَسَى، وَلَمْ يُورِثْهُ الْهِجْرَانُ إِلَّا لَهْفَةً
وَجَوَى. شَأْنُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ بَعْرَائِرِهِمْ، فَعَوَاطِفُهُمْ أَبَدًا تَكُونُ عَنيفَةً مُهْتَاجَةً عَلَى
الذِّكْرِ، لِأَنَّهُمْ وَخِيَ الْأَعْصَابَ... بَيْنَمَا الْعَوَاطِفُ إِذَا كَانَتْ مِنْ وَخِي الْقَلْبِ أَوْ
حَاسَّةِ الْفَرْ، فَإِنَّهَا تَذَكُّو وَتَشْمُو بِالتَّلَهُّفِ الْعَاطِفِيِّ، فَالْحُبُّ الَّذِي يَكُونُ عَامِلَهُ الْقَلْبُ
أَوْ حَاسَّةُ الْفَرْ، يَذْهَبُ فِي آسْتِحَالَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ: غُدْرِيًّا، فِيمَا لِيَا؛ بَيْنَمَا حُبُّ
الْأَعْصَابِ يَشْتَهِي أَعْصَابًا وَجَسَدًا فَقَطْ، يَهِيْجُ بِالْفَرَاغِ، وَيَهْمَدُ بِالْإِمْتِلَاءِ، أَمْتِلَاءِ
الْيَدِ مِنْهُ.

فَتَنَاهَى «أَمْرُ يُرِيدَ إِلَى ضُمُورٍ» وَسَلَوَى الْمُتَعِ وَالْإِنْكِمَاشِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَيِّ
مَكَانٍ آسْتَمَلَ عَلَيْهِ... فَهَذَا الَّذِي كَانَ يَمْلَأُ الْقَصْرَ لَهَوًا وَمَرَحًا، وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ عَزْبَةً
سَكْرَى، وَيَزِينُ مَعَانِي الْأُنْسِ بِشَاشَةٍ وَحُبُورًا... وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّهِ إِلَّا أَنْ
يَقْطِفَ مِنْ رِيَاضِ الْعَوَانِي الْكَوَاعِبِ بَاقَاتِ زَنَايِقَ وَوُرُودٍ، وَيَهْتَصِرُ مِنْهُمْ غُصُونًا
لَدَنَةً، وَيَعْتَصِرُ عَلَيْهِنَ رُمَانًا شَهِيًّا... غَدَا ذَاهِلًا ذُهُولَ الْمُقْبِلِ عَلَى الْمَوْتِ، ضَاوِيًا
كَأَنَّهُ يَضُو فَلَاقَةً أَوْ مَنَزُوفَ دِمَاءٍ، حَبِيسَ هَوَى وَمُبْتَلَسَ خَيَالٍ، غَيْرَ شَهِيٍّ إِلَى شَيْءٍ

مِنْ مَلَاهِيهِ الَّتِي كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا صَبْرًا، وَلَهَا مُجَابَنَةٌ، وَفِي أَنْتِهَاجِهَا
أَخْتِشَامًا... حَتَّى أَضْطُرَّ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَزْجُرَهُ فِي رِفْقٍ، وَيَأْخُذَ عَلَيْهِ تَهْتِكُهُ فِي تَحْيِيلٍ،
فَقَالَ:

«يَا بُنَيَّ: مَا أَقْدَرَكَ عَلَى أَنْ تَصِيرَ إِلَى حَاجَتِكَ، مِنْ غَيْرِ تَهْتِكٍ يَذْهَبُ
بُرُوءَتِكَ وَقَدْرِكَ، وَأَنْشُدَهُ:

إِنْصَبْ نَهَارًا فِي طِلَابِ الْغَلَا وَأَصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ أَتَى بِالْذُّجَى وَآكْتَحَلْتَ بِالْعَمُضِ عَيْنُ الرَّقِيبِ
فَبَاشِرِ اللَّيْلِ بِمَا تَشْتَهِي فَلَمَّا اللَّيْلُ نَهَازَ الْأَرِيبِ
كَمْ فَاسِقٍ تَحْسَبُهُ نَاسِكًا قَدْ بَاشَرَ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبٍ»
أَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ مُدْنَفٌ كَلِيفٌ مَضْرُوفُ الْهَوَى، لَا يُرَى إِلَّا مُنْتَحِيًا إِلَى نَفْسِهِ،
فِي ظِلِّ شُجَيْرَاتٍ كَانَ يَتَشَهَّى فَيْتَقُهَا سَاعَةً غَزَلٍ أَوْ طَرْبٍ.

وَكَانَ سَرْجُونُ مُرَيِّبِهِ يُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَلْزُمُهُ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَلْمَحَهُ. فَانْتَهَى
إِلَى سَمْعِهِ مِنْ نَجْوَى يَزِيدَ لِنَفْسِهِ:

أَوَاهُ، أَرَيْبُ! يَا مَنْ لَا تَشْعُرِينَ بِوُجُودِي وَآلَامِي وَخَلَجَاتِ قَلْبِي، وَأَرَاكِ مِلْءَ
الدُّنْيَا لَذَازَةً وَمُتَعَةً وَنَعِيمًا، أَوْ لَيْتَكَ تَشْعُرِينَ! إِذَا لَكُنْتُ سَعِيدًا.

أَيَا هَلْ تَصُدَّقُ أَخْلَامِي فَأَرَاكِ عِنْدَ يَدَيَّ، تَنْحَنِينَ عَلَيَّ فَتُضَمِّدِينَ جِرَاحَ
فُؤَادِي، وَتَمْلَقِينَ وُجُودِي إِشْرَاقًا بِأَلْقَى وَجْهِكَ الْعَبْقَرِيَّ الْحُسْنِ. حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَلَكِنَّ
دَوْنَهُ مَفَاوِزَ الْجَحِيمِ الْعَبْقَرِيَّةَ الْأَشْوَالِ وَالْأَهْوَالِ أَيْضًا. ثُمَّ أَطْرَقَ وَتَنَاهَى بِهِ الْإِطْرَاقُ،
وَلَبِثَ طَوِيلًا كَأَنَّمَا آتَبَلَعَهُ ضَبَابُ الْمَسَاءِ فِي لَيْلَةٍ رَمَى بِهَا الشِّتَاءُ فِي الْعَاصِفَةِ. عَلَى
أَنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ أَحْيَرًا، وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي بَرَقٍ مُخِيفٍ، يَقُولُ:

لا لا ! إني لَن أَنتَظِرُ هِبَةَ الأُفْدَارِ حَتَّى تَصْعَهَا فِي طَرِيقِي وَزَدَةَ مُصَوِّحَةً
نَاضِبَةً، إِنَّ الضَّعِيفَ فِي شَرِّعِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ حَمَلٌ مَنُهَوَّبٌ، وَالْقَوِيُّ هُوَ ابْنُ الطَّبِيعَةِ
الْبَكْرُ، وَقَدْ وَهَبَتْهُ، سَائِعاً زُلَالاً، كُلُّ مَا آسَتْطَاعَتْ أَنْ تُلْفَهُ قُوَّتُهُ، أَوْ يَكُرَّ فِي جَوْهَا.
هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْفَدَّةُ الَّتِي نَرَاهَا بَيْنَ أَذْنَى الأَحْيَاءِ وَأَعْلَاهَا، مِنْ بَدْيِ النَّبَاتِ
إِلَى رَفِيعِ التَّكْوُنِ؛ الْإِنْسَانِ.

وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ شَرَعُوا الشَّرَائِعَ وَالنُّظُمَ، وَحَدَّدُوا مَسِيرَ الْحَيِّ فِيمَا سَمَّوْهُ
أَخْلَاقاً، فَإِنَّهُمْ مَجْبَنَاءُ ضُعَفَاءُ وَأَنَانِيُونَ أَيْضاً، قَعَدَتْ بِهِمْ قُوَّتُهُمْ عَنْ أَنْ يُدْرِكُوا أَيَّ
نَصِيبٍ مِنْ مُتَعِ الْحَيَاةِ وَلَدَائِهَا، أَوْ أَدْرِكُوا نَصِيباً حَقِيراً فَأَتَتَكَّرُوا قَانُونََ الأخْلَاقِ
وَالْقَانُونَ، وَحَدَّدُوا سَعْيَ الأَحْيَاءِ وَفَقَّهَا وَعَلَى طَبِيقِهَا، فَأَوْجَدُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَوْفَرَ فُرْصِ
الْحَيَاةِ الْمَائِتَةِ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ أَذْنَأُ مِنْ أَنْ أُحْتَرِمَهُمْ، إِنَّهُمْ ضُعَفَاءُ مُمَوَّهُونَ، خَلَبُوا النَّاسَ
بِأَسَاطِيرِهِمْ، فَيَا وَبِّحَ الْجَاهِلِينَ.

إِنَّهُمْ شَاوُوا الْعَيْشَ عَلَى حِسَابِنَا نَحْنُ الْأَقْوِيَاءُ، وَحِيَازَةَ النَّصِيبِ الْأَوْفَرَ أَيْضاً،
أَلَا كَيْفَ يُفَكِّرُ النَّاسُ الْحَقِيقَى الثَّعَسَاءُ؟ لَا أَدْرِي...

إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِهَذِهِ النُّظُمِ سِوَى أَنَّهَا سُمُومُ الضُّعَفَاءِ، يَنْفُثُونَهَا فِي
جَوْنَا، نَحْنُ الْأَقْوِيَاءُ، لِنَسْتَرْخِي، فَيَجِدَ الضَّعْفُ فِي جَوْ الْقُوَّةِ فُرْصَةَ الْبَقَاءِ.

إِنَّ مَا أَفْهَمُ ، هُوَ هَذَا فَقَطْ، أَنَّ الْحَيَاةَ وَاللَّذَّةَ وَالسَّعَادَةَ فُرْصٌ، وَالْقُوَّةُ وَحْدَهَا
سَبِيلُ الاسْتِخْوَاذِ عَلَيْهَا، فَالْحَيَاةُ هِيَ الْقُوَّةُ.

إِنَّ الْأَسَدَ قَدْ يَعِفُّ - وَهُوَ نَهِيكَ جَوْعٍ - عَنِ الطَّعَامِ الْحَقِيرِ الْوَضِيعِ، لِأَنَّهُ لَا
يَجِدُ فِيهِ لَذَّةَ الْقُوَّةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعِفُّ أَلْبَتَّةَ عَنِ الصَّرَاوَةِ، وَعَنِ الْخَلْتِ وَالْإِفْرَاصِ
أَخْيَاناً، وَهِيَ مَجْلَى الْقُوَّةِ. فَالَّذِي تُمْلِيهِ طَبِيعَةُ الأَحْيَاءِ: قَسْوَةٌ، وَتَغْيٌ، وَلَذَاتٌ. هَذَا مَا

نَجِدُهُ كُلَّمَا حَلَلْنَا غَنَاصِرَ الْحَيَاةِ وَأَنْوَاعَ الْأَحْيَاءِ، فَمَنْ أَمْلَى عَلَى أَوْلَيْكَ الْجُبْنَاءِ
أَسَاطِيرَهُمْ؟ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا سِوَى الْجُبْنِ وَالْعَجْزِ وَخَوْفِ الْآلَامِ.

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

نعم! نعم! إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

أُرَيْبُ! أَنْتِ حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَقَدْ بَتَّ مُتَعَةً قَرِيبةَ الْمَنَالِ مِنِّي!

أُرَيْبُ! لِنَقُصِّمْ فِي سَبِيلِكَ سُيُولَ الدِّمَاءِ وَرَايَا الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ، فَإِنِّي
سَأَسِيرُ عَلَيْهَا إِلَيْكَ، فِي آبِتْسَامَةِ الْقَسْوَةِ وَفَهْقَةِ جَبَرَوَاتِ الْبَطْشِ! إِنْ أُنِينَ الْفَرِيَسَةِ
- وَعِظَامُهَا تَتَقَصَّقُضُ بَيْنَ فَكِّي الْأَسَدِ - يُطَرِّبُهُ وَيُشَهِّيه، لِأَنَّهُ مَقَاطِعُ مِنْ أَنْشُودَةٍ
كَبِيرَاءِ الذَّاتِ وَكَبِيرَاءِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ مَعْنَى نَشِيدِ الْأُنِينَ: أَنْتَ أَنْتَ هُوَ الْجَدِيرُ بِالْوُجُودِ
وَحَذِّكَ... وَلِذَا كَانَ الْأَسَدُ لَا يَطْعَمُ إِلَّا عَلَى أَلْحَانِ نَائِي الْأَشْلَاءِ.

أُرَيْبُ! أَنْتِ عَرُوسُ أَحْلَامِي، وَسَتُصْبِحِينَ عَمَّا قَرِيبٍ عَرُوسَ لَذَاتِي! فَمَا
أَجْمَلَهَا نَشْوَةً، وَجِسْمُكَ الْبَضُّ أَهْتَصِرُهُ بَيْنَ ذِرَاعِي الْمُشْتَعِلَيْنِ، وَأَعْتَصِرُهُ فِي وَقْدَةِ
الصُّلُوحِ الْمُتَلَطِّطَةِ، وَقَوَائِمِكَ يَتَأَطَّرُ وَيَتَنَتَّنِي الْأَفْعَوَانِ، وَيَتَلَوَّى تَلَوَّى الْخَيْرَانِ.
فَمَا أُحْيِلِي قَوْلِكَ!... إِنَّهُ دُنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ الْعَذَابِ، وَلَوْ لَفَّ فِي جَحِيمِ الْعَذَابِ!

أُرَيْبُ! إِنَّنِي سَوْفَ أَلْهُو بِكَ أَمْدًا كَالرُّهْرَةِ تَرُودُهَا النُّحَالُ بَتْلَهْفٍ إِلَى
الْإِمْتِصَاصِ، ثُمَّ سَيَانٍ عِنْدِي أَذْكُرُوكَ أَمْ نَسِيْتُكَ بَعْدُ، أَلَسْتَ أَمْرًا، وَالْمَرْأَةُ لُغْبَةٌ
الرَّجُلِ وَمُتَعَتُهُ فَقَطُّ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَهُمَا؟ ثُمَّ أَلَيْسَتْ النِّسَاءُ فِي النَّوْعِ رِيَاحِينَ كَمَا
قِيلَ، وَهِيَ تَذْهَبُ فِي سَمَاتٍ أَوْ دُونِهَا، وَتَبْلَى فِتْنَتُهَا... فَاعْتَنِمِهَا فَوْصَةً لَذَاذَةً
كُبْرَى مُعْرَبَدَةً، وَأَنْتِ فِيهَا فَوَاحَةٌ بِالْعَبِيرِ.

آه! إِنْ ظَلَمَائِي لَا يَزُودُهُ إِلَّا سَيْلٌ مِنْ دِمَاءٍ، إِذَا وَقَفَ فِي وَجْهِهِ ذَلِكَ الْعِلْجُ
أَبْنُ سَلَامٍ. إِنَّنِي أَحْسُ بِأَسْنَانِي تَتَأَكَّلُ كَأَنَّ عَلَيْهَا حِكَّةَ جَرَبٍ. إِنَّهَا تَشْتَهِي مُضْغَةً

مِنْ كَبِيدِهِ أَلَوْكُهَا! إِنِّي لَأَشْعُرُ أَنَّ فِي أَسْنَانِي هِنْدَ جَدَّتِي يَوْمَ أَحَدٍ، وَهِيَ تُحْرِقُ الْأَرَمَ عَلَى كَبِيدِ حَمْرَةٍ! سَوْفَ أَبَارِزُهُ فَأَقْتُلُهُ أَوْ أُرْصِدُهُ فَأُعِمِدُ فِيهِ وَرَاءَ السَّيْفِ يَدِي.

وَلَمْ يَزَلْ مَعَ طُيُوفِهِ الَّتِي أَخَذَتْ تَتَجَسَّمُ لَهُ، فَيَرَاهَا قَرِينَةً مِنْهُ دَانِيَةً إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ طَيْفَ آبْنِ سَلَامٍ عَرَضَ لَهُ فِي بَعْضِ الطُّيُوفِ، فَهَبَّ يَخْتَرِطُ سَيْفَهُ، وَقَبَضَ عَلَى قَائِمَتِهِ، وَهَزَّهُ فِي الْهَوَاءِ هَزَاتٍ، ضَحِكَ فِي إِثَرِهَا ضِحْكَاً عَصِيْباً، وَفَجْأَةً تَقَلَّصَتْ تَقَاطِيعُ وَجْهِهِ، وَآزَتْ إِلَى الْوَرَاءِ فِرْعَاءً مُتَعَقِّدَ الْأَيْدِي يَقُولُ، وَقَدْ عَرَضَ لَهُ طَيْفُ الْعَدَالَةِ: إِنِّي يَزِيدُ! يَزِيدُ الْأَمِيرُ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ إِلَى الْوَرَاءِ فِي دُغْرِ يَقُولُ: لَسْتُ، لَسْتُ أَنَا! هِيَ هِيَ أَغْرَثَنِي!... وَغَرَاهُ دُورًا، فَقَدْ أَخَذَتْهُ أَعْرَاضُ حُمَى خَبِيثَةٍ، وَكَانَ يَهْدِي تَحْتَ وَطْأَةِ الدَّاءِ. فَوَجَلَ سَرْجُونُ وَجَلًّا شَدِيدًا، وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَنْتَعِزَّ لَهُ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ خَيَالَاتٍ.

أَفَاقَ بَعْدَ جِينٍ، وَزَائِلُهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ هَذْيَانٍ، فَقَدْ تَمَائَلَ نَحْوَ الشِّفَاءِ وَالْإِبْلَالِ مِنَ الدَّاءِ، وَبَقِيَ فِي تَضْمِيمِهِ ثَابِتًا: اغْتِيَالُ الرَّجُلِ وَانْتِرَاعُ مَعْشُوقَتِهِ أَنْتِرَاعًا، رَضِيَتْ أَمْ أَبَتْ. وَعَرَفَ مِنْهُ سَرْجُونُ ذَلِكَ الْعَزَمَ وَخَشْيَ مُجَازَفَتَهُ، فَأَسْرَ إِلَى الْوَلَدَيْنِ مَيْسُونَ آثَنَةً بِحَدَلِ الْكَلْبِيَّةِ بِكُلِّ خَبْرَةٍ، فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا، وَقَالَتْ:

فَذَاكَ مَرَضُهُ إِذَا... وَكَانَ يَزِيدُ وَلَيْدَهَا الْأَوْحَدَ الْمُفْدَى، فَلَمْ تُطِقْ أَلَامَهُ فِي سَبِيلِ امْرَأَةٍ، وَلَمْ تُطِقْ أَلْبَسَةَ لِرَجُلٍ، مَهْمَا كَانَ خَطَرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ، أَنْ يَحُولَ بَيْنَ أَبْنَاهَا وَرَغْبَاتِهِ، فَقَالَتْ تُخَاطِبُ سَرْجُونُ: وَمَنْ هَذَا آبْنُ سَلَامٍ زَوْجُهَا؟
قَالَ: هُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ مِنْ قَبْلِ الْمَلِكِ... فَانْقَلَبَتْ ضَاحِكَةً، تَقُولُ:

يَكُونُ مِنْ عُمَّالِنَا وَيُقِيمُ لَهُ يَزِيدُ هَذَا الْوَزْنَ؟ إِنَّا نَحْنُ نَرْفَعُهُ أَوْ نَحْفِضُهُ. ثُمَّ هَلْ هُوَ إِلَّا مُنْقَذٌ لِرَغْبَاتِنَا عَلَيْهِ، هُوَ صَنِيعُنَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ إِحْدَى إِمَائِنَا، نَتَصَرَّفُ فِيهِ وَفِيهَا كَيْفَمَا نَهْوَى. إِنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ وَاجِمًا مِنْ أَجْلِ امْرَأَةٍ

يَشْتَهِيهَا، وَلَسْتُ أَطِيقُ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّهُ يُمْنَعُ عَنْهَا بِالْعَةِ مَا بَلَغَتْ مِنْزِلَتَهَا.
بَلِّغِ الْمَلِكَ أَنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ مَحْزُونًا يَبْكِي، بَلِّغُهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يَجِبُ
أَنْ تَكُونَ فِي مَجْمَلَةٍ لِإِمَاءِ يَزِيدَ يَعْتَبُ بِهَا وَيَلْهَوُ!
قَالَ سَرْجُونُ: لَعَلَّ زَوْجَهَا لَا يُرْضِيهِ تَزْكُهَا، أَوْ لَعَلَّهَا لَا تَرْضَى هِيَ إِنْ كَانَ
مِنْهُ ذَلِكَ...

قَالَتْ، وَضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى رِسَادَةٍ بِجَنْبِ مَقْعِدِهَا: وَمَا قِيَمَةُ رِضَاهُ أَوْ
رِضَاهَا؟ إِنَّا نُرِيدُ ذَلِكَ وَكَفَى!

فَاتَّبَعَسَ سَرْجُونُ وَقَالَ: أَظُنُّ الْأَمِيرَةَ لَا تَغْنِي تَمَامًا مَا تَقُولُ، أَوْ لَا تَجِدُ كُلَّ
الْجِدِّ. فَلَا بَنٍ سَلَامٍ خَطَرُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِذِي خَطَرٍ فَلَا يَسْعُنَا أَنْتِهَاكُهُ أَنْتِهَاكًا
مَكْشُوفًا، وَتَحْدِيهِ فِي شَرْفِهِ. وَلَكِنْ نَسْتَأْذِنُهُ فِي غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ.

قَالَتْ مُتَأَفِّفَةً مُتَبَرِّمَةً وَهِيَ تَهْرُ كَتِفَيْهَا: إِنَّنِي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِحْشِيَّتِكَ...
فَقَالَ، وَتَمَثَّلَ لَهُ عَهْدُهُ فِي بِلَاطِ الْعَسَاسِيَّةِ، وَهُوَ أَكْثَرُ رِعَايَةٍ لِلْحَقُوقِ:
وَلَكِنَّكَ تَفْهَمِينَ فَقَطْ مَعْنَى خَدَشِ كَرَامَةِ الرَّجُلِ؟

قَالَتْ: إِذَا كُنْتُ تَرَى فِي ذَلِكَ بَأْسًا فَاسْتَأْذِنِي كَيْفَ شِئْتُ، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ يَصِلَ
يَزِيدُ إِلَى غَرَضِهِ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَيْسَتْ تَهْمُنِي الطُّرُقُ الَّتِي سَتَسْلُكُهَا. إِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ
تَقَرَّ عَيْنُ يَزِيدَ بِهَا، وَلَا يَغْنِينِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ... فَاسْتَدَارَ سَرْجُونُ عَلَى عَقَبَيْهِ وَهُوَ
يَقُولُ:

أَمَّا كَذَلِكَ فَتَعَم...

*

دَخَلَ سَرْجُونُ مَجْلِسَ الْمَلِكِ، وَمِنْ حَوْلِهِ حَاشِيَتُهُ يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ يَزِيدَ، وَمَا

عَسَاءُ أَنْ يَكُونَ طَرّاً عَلَيْهِ. وَبَدَأَ مُعَاوِيَةُ مُغْتَمّاً، فَهُوَ لَا يُطِيقُ سَمَاعَ أَنْ يَرِيدَ مُكْتَبِتَ، وَهُوَ بِكُرِّ الإِمَارَةِ الْمُتَرَعُّجِ بِالدَّلَالِ، وَفِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنْ يَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِهِ، كَمَا زَادَ بِهِ ضَنْناً بَعْدَ أَنْ «أَصَابَ مِنْهُ سَيْفُ الْخَارِجِيِّ مَسْرَى الْبَنِينَ».

كَانَ فِيمَا يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمَجْلِسِ مِنْ وُجُومٍ، مَا جَعَلَ سَرَجُونَ يَقِفُ طَوِيلاً قَبْلَمَا أَسَرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِشَأْنِ آبْنِهِ الْبَكْرِ، رُغْمَ قُرْبِهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمُنْزِلِيهِ الْمَرْفُوعَةِ الْحِجَابِ لَدَيْهِ. وَظَلَّ وَاجِماً هُوَ أَيْضاً، فَقَدْ عَدَّتْهُ رُوحُ الْمَجْلِسِ، وَسَيَّطَرَ عَلَيْهِ جَوْهُ، حَتَّى قَطَعَ الْوُجُومَ عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ بِقَوْلِهِ:

وَمَاذَا تَظُنُّونَ أَصَابَتْهُ وَهُوَ فِي جِسْمِ الْفِيلِ وَنَشْطَةِ النَّمْرِ؟... وَابْتَسَمَ، لَعَلَّ إِحْدَى غَانِيَاتِهِ الْمُدَّكَلَاتِ فَارَكَّتْهُ وَقَطَعَتْ أَسْبَابَ وَدِّهِ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذَا يَا عَمْرُو؟

قَالَ: لَمْ يَقَعْ فِي مَدَى خَاطِرِي سِوَى هَذَا، وَعَلَى كُلِّ «فَهُوَ أَمْرٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ وَالِدَتِهِ»، لَعَلَّهَا تَنْتَرِجُ مِنْ بَيْنِ شَفَثَيْهِ كَلِمَةً سِرِّهِ الرَّهِيْبِ... وَأَطَالَهَا كَالسَّاحِرِ... وَهُنَا وَجَدَ سَرَجُونَ مُنَاسَبَةَ الْإِفْضَاءِ إِلَيْهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ يُسَارُهُ، وَمَا لَيْتَ أَنْ ضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَهُوَ يَقُولُ:

عِنْدَ ظَنِّكَ يَا عَمْرُو، وَلَكِنَّهَا غَانِيَةٌ جَدِيدَةٌ!

قَالَ عَمْرُو: وَإِنْ شِئْتَ قُلْ صَبِيَّةٌ جَدِيدَةٌ... فَأَبْتَسَمَ الْحُضُورُ، وَطَلَبَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَخْلُوَ بِنَفْسِهِ سِوَى عَمْرُو، فَقَالَ:

مَنْ أَرَيْنَبُ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئاً؟

قَالَ: نَعَمْ، هِيَ مِنْ «أَغْرَقِ الْحِجَارِيَّاتِ نَسَباً، وَأَكْثَرَهُنَّ مَالاً، وَمَثَلٌ فِي الْجَمَالِ بَيْنَ غَرَائِرِ زَمَانِهَا»، كَانَتْ عِنْدَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَمِيرِ الْعِرَاقِ الْيَوْمَ.

قال معاوية: ترى أنه عزيز علينا اضطياؤها؟

قال: هو ذاك، وأمنع ما تكون.

قال: ولكن كيف برغبة يزيد الحارة، فإنه يحز في نفسي أن يبيت أسفاً، لا يقضي لبائته، ويشبع شهوة نفسه، ويروي ظمأ قلبه.

قال: وما هذا؟ أأنت أيضاً تُسايِرُه في مجونه وعبيته، وما يُدريك لعل ما يتظاهر به من كمد هو من حيله على المجون، ومن دلاله على التثويل كي يجعل منا مطايا شهوات وأوطار. إن الناس تحمّلوا منا ضراوة في السياسة، وضراوة في الأموال، إلى ضراوة وضراوة في الأحكام، ولا أراهم إلا ثائرين بنا، إذا جعلنا بيوتهم هدفاً لضراوة شهواتنا أيضاً...

قال معاوية: هو ذاك. ولكن كيف لي بالتروفيه عن يزيد، فإنني لا أقدر أن أراه كاسفاً؟ ألا تفكروا معي وتحاول ما وسعك لباقة الحيلة. ففكروا ملياً وكان عمرو أسبقهما، فهتف: لقد وجدتها، وإن كان فيها تشخيرك إيتي حتى ليشهوات ولدك أيضاً.

قال معاوية يغيطة: هاب! هاب! وعساها أن تكون من وحي شيطانك يوم صيفين، وخذعة كخدعة رفع المصاحف... يعني موفقة...

قال عمرو: أأأخذها علي وبها أئنقذك وبؤأئك عرشك، وجمعت بها عليك ما هو مجتمع في يدك من أسباب الملك، ومحتبك عليك من مظاهر السلطان؟ قال: كانت من أجل دنيا جزيناك عليها بدنيا، وما أظنني بحسبك الأجر. وكسر جفن عينه اليسرى، وكان لا يفعل هذا إلا «وهو يتحدى» وما يجهل عمرو منه ذلك.

فقال وسملته رهبة: رؤيدك، إنني لا أتحداك وإنما ظننتك تعمر علي...

فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَدْ أَذْرَكَ سِرَّ رَهْبَتِهِ، وَقَالَ:

لَكَ الْعُثْبَى يَا عَمْرُو حَتَّى تَرْضَى. وَهَلْ مِثْلُكَ يُنْخَسُ قَدْرُهُ وَيُرْوَعُ؟ وَإِنَّمَا قَصَدْتُ مَدَاعِبَتَكَ فَلَا تَتْرِبْ عَلَيْكَ. لَطَالَمَا خَدَمْتُ آلَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَسْتُ أَنْسَى بِالْأَمْسِ كَيْفَ أَنْقَذْتَنِي وَكَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدِي، وَأَنَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ تَأْتِيكَ لِإِنْقَاذِ يَرِيدٍ وَلَدِي، وَهِيَ يَدٌ لَكَ عِنْدَهُ لَيْسَ يَنْقُضُهَا.

قَالَ عَمْرُو: حُمَادَاكَ، فَإِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ... رَأَيْتُ أَنْ تَشْتَدِّجَ آبَنَ سَلَامٍ بِالْأَلْطَافِ «وَكِرَائِمِ الْأَمْوَالِ وَالْخَلِيعِ»، وَثَرِيَّةَ جَانِبِ الْوُدِّ مِنْكَ، وَثَرِيَّةَ بَرِيَارَتِكَ وَالْقُدُومِ عَلَيْكَ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَبَعْدُ؟

قَالَ عَمْرُو: ذَلِكَ عَلَيَّ حِينَهُ...

*

فَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ مَدَا أَقْتَرَنَ بِأُرَيْبِ، وَهُوَ يَرَى حُلُمَ سَعَادَتِهِ يَنْتَشِرُ لِيَجْتَمِعَ فِي حُدُودِهَا، فَأَحْلَاهَا مِنْهُ مَحَلُّ الْقَلْبِ، فَكَانَ إِذَا خَلَا إِلَى قَلْبِهِ وَجَدَ أُرَيْبَ، وَإِذَا خَلَا إِلَى أُرَيْبِ وَجَدَ قَلْبَهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا: لِيَخِيلُ إِلَيَّ أَنَّكَ لَسْتَ سِوَى قَلْبِي مُصَوَّرًا، وَشَاءَ أَنْ يَتَجَسَّدَ فِي شَكْلِ بَنَاتِ الْحُلْدِ، فَيُرِيَنِي كَمْ هُوَ سَعَادَةٌ، وَكَمْ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ بِهِ سَعِيدًا. لَوَدِدْتُ يَا أُرَيْبُ أَنَّي أَتَحَوَّلُ هَالَةً فِي أَبَدِيَّةِ عَيْنَيْكَ الْفَاتِنَتَيْنِ... أُرَيْبُ! آه أُرَيْبُ!...

آه! يَا مَا أَسْعَدَ الْأَزْوَاجَ إِذَا كَانَ لِكُلِّهِمْ مِثْلُ أُرَيْبِ!...

وَكَانَتْ أُرَيْبُ لَا تَقِيلُ عَنْهُ إِحْسَاسًا بِسَعَادَتِهَا بِهِ، فَقَدْ عَاطَنَتْ مِنْهَا أَيْضًا مِثْلَ عَوَاطِفِهِ فَقَالَتْ: أَوْ قُلْ مَا أَسْعَدَهُنَّ حَقًّا إِذَا كَانَ لِكُلِّهِنَّ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ.

قالت له صباح يوم، وقد قطعنا أول إشراقه من شعاعه الشمس: لا أدري لماذا؟ لماذا يعاودني في أقصى هواجسي العميقة الحفيدة منذ ليال، أنك لم تغد لي، وتغتادني طيوف حبيثة أطل منها في رهبة؟ وتعلقت به. إني خائفة.

تفرقت في عينيها دمتان كبيرتان، تراخت إحداهما ساقطة، واستمسكت الأخرى متبلورة بين جفنيها اللذين كانا في نصف إغماضة، فأهوى يضئها إليه ضماً غنياً كأنه يحاذر، فقد غراه مثل هاجسها أو شر منه، غراه أن هناك من يحاول اختطافها، فهو يشدّها إليه، يضئ بها ويفتديها.

استويا في مقعدهما، ثم لم يخطوا إلا قليلاً في حديقة القصر، حتى استأذن حامل البريد يسلمه كتاب الملك.

استطير فرحاً، واستخفه الإنعام الملكي عليه، وكان مفاجئاً حتى لقد ذهّل عن أنه يعاود زوجته الحفيدة عنده، دون أن يلقي عليها نظرة وامقة تشير إلى أنه سيعود إليها، بعد متعة قصيرة بالنظر إلى ما أهدي إليه.

وقفت تنظر باهتة وعادتها هواجسها. فلم تطلق وقوفها طويلاً، فانتشت إلى مقعد قامت من فوقه متعاقبات «البواري» في شكل جعل منه وكن عاشقين أو طيرني حب. وقالت ثناجي نفسها: أه! لقد وقع ما كنت أهنس به في خاطري، والذي كان يحبك في صدري من وساوس؛ لبت الهدايا التي استخفته كانت عند قدمي لأطأها مستخفة بأنفس ما فيها، ولا أقطع على نفسي لحظة قلب كان يخفق فيها بمغنى الحب، وهو كل الحياة وكل السعادة...

اتسغله عني هدايا حقيرة؟! مهما بلغت نفاستها، فلن تكون إلا حقيرة بجانب ما هو دون حسوة طائر من نشوة ما كنا فيه، بل بجانب خلجة راعشة من تلك الخلجات المفعمة...

الآن فقط، بدا لي طفلاً تَفْتِنُهُ لُغْبَةٌ عن لُغْبَةٍ، وَيَأْخُذُ أَيُّمَا وَقَعَ عَلَيْهِ بِكُلِّ بَصَرِهِ. لم يَكُنْ إِذَا إِلَّا طِفْلاً، ولم أَكُنْ، كُلَّ هذا الْوَقْتِ، سِوَى لُغْبَةٍ كَبِيرَةٍ يَلْهُو بها دُمِيَّةٌ، ودُمِيَّةٌ حَيَّةٌ تَمْتَعُ قَلْبُهُ الْبَارِدَ بِحَرَارَةِ أَنْفَاسِهَا الْمُنْدَاقَةِ... وهؤلاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْمَوَاةَ دُمِيَّةً ذَاتَ حَرَارَاتٍ، هم بَارِدُو الْقُلُوبِ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ فِيهَا الْأَصْطِلَاءَ وَالذَّفَاءَ فَقَطْ، أَمَا أَنَا، وَأُحِسُّ بِقَلْبِي مُشْتَعِلاً، فَأُرِيدُ قَلْباً مُشْتَعِلاً أَيْضاً يَفْتِنَانِ عَلَيَّ بَغْضِهِمَا فِي تَلْهُبٍ جَمِيعاً...

أَفْ لِلرَّجُلِ! إِنَّهُ طِفْلٌ فِي حِسِّ الْقَلْبِ وَلَا يَرِيدُ، ثُمَّ لَا يَشْعُرُ مِنَ الْعَاطِفَةِ إِلَّا عَلَى مِقْدَارِ الْعَبَثِ، وَلَيْسَتْ لِلْأَشْيَاءِ قِيَمَةٌ عِنْدَهُ، إِلَّا عَلَى قَدْرِ مَا تَمْلِكُ مِنْ إِحْيَاءِ اللَّهْرِ عَلَيْهِ وَتُسْغِيغِهِ فِيهِ.

لا، لَا لَسْتُ أَرْضَى أَنْ أَكُونَ عِنْدَهُ مَتَاعاً صِنْتُ هَذِهِ الْهَدَايَا، بَلْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَخَفَرْتُ مِنْهَا فِي نَظَرِهِ. فَعَاذَرَنِي يَخْفُ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَتْرُكْ، عِنْدَ مَوْقِفِنَا، نَظْرَةَ أَشْغَلُ بِهَا حَتَّى يَوُوبَ، إِنَّهَا أَخَذَتْ بِكُلِّ هَوَاهُ، حَتَّى لَمْ أَعُدْ شَيْئاً أَذْكَرُ...

أَفْ لِلرَّجُلِ! إِنَّهُ فِي دُنْيَا الْقَلْبِ طِفْلٌ، وَأَيْضاً طِفْلٌ ذُو طَبْعٍ بَلِيدٍ خَشِينٍ...

يَا لَكَ مِنْ هَدَايَا مَشْؤُومَةٍ! إِنَّكَ هَدَايَا فِيكَ كُلُّ مَا فِي السُّمُومِ مِنْ رُوحٍ، وَكُلُّ مَا فِي الْأَفَاعِي مِنْ مَغْنَى مُخِيفٍ وَوُجُودٍ رَاعِبٍ... وَمَا يُدْرِينِي فَلَعَلَّهَا حَبَائِلُ وَشِبَاكٌ مَنَسُوجَةٌ مِنْ حُمَاتِ الْعَقَارِبِ وَأَوْبَارِهَا... وَمَا هُوَ حَتَّى رَأَتْهُ مُقْبِلاً مُغْتَبِطاً، تَشِيْعُ الْابْتِسَامَةُ الْمُسْتَعِةُ الضَّاحِكَةُ فِي وَجْهِهِ، يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَرَائِمَ الْجَوْهَرِ وَعُقُودَ اللَّالِيَةِ الْبَعِيدَةِ السُّطُوعِ، الْمُتَمَاوِجَةَ بِالسَّنَى وَالسَّنَاءِ، يَقُولُ وَهُوَ يُقَلِّبُهَا فِي كَفِّهِ:

إِلَيْنِكَ! إِلَيْنِكَ! لَقَدْ جَاءَتْ كَأَنَّهَا تَقُولُ: كُنْتُ جَوْهَرَةً يَتِيْمَةً حَتَّى وَجَدْتُكَ! أَمَا تَسْمَعِينَ؟ أَمَا تَسْمَعِينَهَا؟... وَرَاحَ فِي تَشْوَةِ ضَاحِكَةٍ، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ جَامِدةً لَا تُحِيرُ جَوَاباً. فَبِهِتَ وَغَرَاهُ خَدَرٌ كَالذُّهُولِ، فَاسْتَرْخَى كَفَاهُ، وَتَسَاقَطَ مَا آسَتْوَى

عَلَيْهِمَا مِنْ دُرِّي الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ لَمْ يُحَسِّ. وَكَانَتْ تَنْظُرُ وَتَرَى، فَأَلَمْتُ بِمَا
عَرَاهُ فَأَعْتَبْتُ، وَلَمْ تَلْبَثْ حَتَّى أَخَذْتُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا نَشْوَى.

عِنْدَ شُرُوفِ الصَّبَاحِ، بَعْدَ أَيَّامٍ، حَيْثُ كَانَا وَاقِفَيْنِ يُنْظَرَانِ إِلَى الْأَفْقِ الْبَعِيدِ،
قَالَ، وَهُوَ يَحْسِبُ بَعْضاً مِنْ أَنْفَاسِهِ الَّتِي أَحَسَّ أَنَّهَا تَخْرُجُ جُمْلَةً ثُمَّ لَا تَعُودُ:

لَعَلِّي لَا أَغِيبُ عَنْكَ طَوِيلًا، وَسَوْفَ... قَالَتْ مُرْتَعِدَةً:

تَغِيبُ عَنِّي؟ مَاذَا تَقُولُ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟

قَالَ: رَأَيْتُ مِنْكَ، يَوْمَ الْهَدَايَا، أَنَّكَ غَيْرُ مُعْتَبِطَةٍ فَلَمْ أُخْبِرْكَ. جَاءَ فِي كِتَابِ
الْمَلِكِ أَيْضًا أَنَّهُ يَغْرِمُ عَلَيَّ بِالْحُضُورِ، وَلَا أَذْرِي لِمَذَا؟ هَدَايَا مُفَاجِئَةً وَدَعْوَةً مُفَاجِئَةً!
وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ سَعَادَتِي بِكَ جَذَبَتْ إِلَيَّ سَعَادَةً أُخْرَى... وَرَبَّتْ عَلَى كَتِفَيْهَا.

إِنْتَفَحَتْ أَوْدَاجُ أَرْيَنَبَ، وَغُصَّتِ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهَا، وَلَكِنَّهَا حَوَّلَتْهَا
كَأَنَّهَا تَلُوكُ حُرُوفَهَا لَوْكَا:

أَيْثُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا فَإِنَّ مَا تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

فَقَالَ يُدَاعِبُهَا: هَذَا قَوْلُ أَوْسَ بْنِ حَجَرٍ يَزُثِي بِهِ. وَهَا أَنَا فَجَسِي يَدِي...
قَالَتْ، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ تَأْخُذُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، فَقَدْ أَرْهَبَهَا مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ ظَنُّهُ وَلَوْ مُدَاعَبَةً:

إِنِّي لَسْتُ أَزُثِي سِوَى نَفْسِي إِلَى نَفْسِي... وَحَاوَلْتُ الْكَلَامَ فَقَطَعْتُهُ عَلَيْهِ
بِقَوْلِهَا: لَسْتُ مُعْتَبِطَةً بِسَفَرِكَ، وَبِوَدِّي أَنَّكَ لَا تَذْهَبُ، بَلْ بِوَدِّي أَنْ تَزُدَّ عَلَيْهِ عَمَلَهُ
وَتَعْتَزَلَ. فَلِي مِنْ أَمْوَالِي الْكَثِيرَةِ وَدُنْيَايَ مَا يُغْنِيكَ عَنْ أَمْوَالِهِ وَدُنْيَاهُ، وَلَكَ مِنْ
سَيَادَتِكَ وَنَشَبِكَ مَا يُغْنِيكَ عَنِ التَّسَوُّدِ بِهِ.

إِنَّهُ يُزْهِبُنِي! إِنِّي لَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَبِهِ تُحِيطُ عِصَابَةٌ لَا أَذْرِي بِمَاذَا أَنْعَتْهَا...

إِنْتَزَعَتْهَا مِنْ لِسَانِهَا كَلِمَةً: إِنَّهَا دَمَوِيَّةٌ تَجْرِي وَرَاءَ شَهَوَاتِ حُمَرَاءَ، ثُمَّ لَا يَحُولُ بِهَا عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ عَارِفَةٍ أَوْ قَانُونٍ.

قَالَ: هُوَ ذَاكَ؛ وَلَكِنِّي لَا أَذْرِي كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْهِ. إِنْ هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَصِيرَاتُ الْمَدَى، أَعُودُ إِلَيْكَ عَلَى أَثَرِهَا، وَأَصِيرُ إِلَى رَغْبَتِكَ بِأَغْتِرَالِ عَمَلِهِ... وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ تَرَوِّعُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَزْهَلَ، وَحَانَتْ مِنْهَا لَفْتَةٌ فَرَأَتْ أَفْرَاسَ الْبَرِيدِ جَاءَتْ تَحْمِلُهُ؛ فَلَمْ تُطِيقْ تَرَاهُ يَسِيرُ، فَذَهَبَتْ تَذْفِيقُ وَجْهَهَا فِي رَاخَتَيْهَا، وَتُجْهِشُ كَأَنَّمَا هِيَ مُنْخَرِطَةٌ فِي نَشِيجِ مَرِيرٍ، وَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ، وَقَدْ تَمَادَى بِهِ الْمَسِيرُ، وَلَفَّهَ قَتَامُ الرُّكْبِ.

وَكَمْ تَشَبَّهَتْ بِي يَوْمَ الرِّيحِ ضَحَى وَأَذْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمَعُهُ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا بِالْكَوْخِ مِنْ قَلِكِ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ
وَدَّعُهُ وَبِرْدِي لَوْ يُودَّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ، وَأَتِي لَا أُوَدَّعُهُ...

*

كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، بَعْدَ أَيَّامٍ لَمْ تُكُنْ طَوِيلَةً، فِي غَيْرِ حِسِّ أُرَيْيَبٍ وَحِسَابِ عَبْدِ اللَّهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْأَلْطَافِ وَالْأُنْسِ النَّاعِمِ، فَعَجِبَ كَثِيرًا وَفَكَّرَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ لَوَجْهِ الْأَمْرِ، وَتَحَيَّرَ بِهِ تَقْدِيرُهُ، فَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى أَيِّ وَجْهِ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِ. بَيَدَ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَانَ مُغْتَبِطًا، وَتَرَايَدَ بِهِ الْإِغْتِيَاطُ إِذَا مَا يَلْقَى مِنْ خِفَاوَةٍ وَآخِثَامٍ وَرِعَايَةِ مَقَامٍ، حَتَّى لَمْ يَعُدَّ يُفَكِّرُ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ لَا عَهْدَ لَهُ بِالزَّمَنِ.

لَمْ يَصِدْقًا فِي كُلِّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَظَاهِرٍ، وَبَاتَ أَمِلًا بِشَيْءٍ لَمْ يَذَرِ كُنْهَهُ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ بُشْرَى عَلَى أَيِّ حَالٍ. لَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مَدْعُوًّا إِلَى مَجَالِسِ أُنْسٍ مُعَاوِيَةَ، وَأُنْدِيَةِ السَّمَرِ الْغَزَلِيَّةِ، وَإِلَّا مُنْتَشِشًا عَلَى مِثْلِ الطُّيُوشِ فِي لِيَالِي الْقُصُورِ الشَّرْقِيَّةِ الْمَاجِنَةِ، الَّتِي كَانَتْ ذَاتَ نَسَبٍ قَرِيبٍ بَلِّيَالِي أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا بَعْدَ، الْعَارِقَةِ فِي أَخْلَامِ الشَّهَوَاتِ الْمُعْزَبَةِ.

إِسْتَيْقَظْتُ فِي نَفْسِ آبِنِ سَلَامٍ صَبُوءٌ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُهَا، صَبُوءٌ مِنْ نَوْعِ
الصَّبُوءِ الْحَادَّةِ، فَلَمْ يُعَدِّ يُفَكِّرْ فِي مَدَى أَنْطِلَاقِهَا إِلَّا بِإِزْوَائِهَا، وَدَارَتْ فِيهِ نَهْمَةٌ
كَأَنَّهَا أَنْفَطَرَتْ مِنْ طَبِيعَةِ الظُّمَأِ. فَقَدْ هَبَطَ مِنْ فِرْدَوْسِ الْحُبِّ الْقَلْبِيُّ السَّعِيدِ،
أَنْبَعَثَتْ حَيَاتُهُ عَلَيْهِ، نَزَوَاتٌ كَانَ يَكْبُثُهَا الْقَلْبُ فِي نَشْوَاتِهِ الْعَبَقَرِيَّةِ الْإِلْتِهَابِ،
الْمُتَلَطِّئَةِ بِالشُّعْلِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ فِي هَذَا الْجَوْ الحَمَرِيِّ اللَّذَاتِ الْمَهْجُودِ بِحَمَائِلِ الشَّهَوَاتِ، مَا أَحَالَ
أُرْيَنْبَ، فِي جَوْ نَفْسِهِ، إِلَى ذِكْرِ مِنَ الصَّبَابِ لَمْ تَزَلْ تَتَلَبَّدُ وَتَحْتَجِبُ، وَعَادَ لَا
يَذْكُرُ إِلَّا مَا هُوَ فِيهِ، وَتَمَتَّى لَوْ طَالَ أَمَدُ هَذِهِ الْمُتَعَةِ اللَّازِوَرْدِيَّةِ فِي لِسَانِ اللَّهَبِ،
وَتَشَهَّى أَنْ لَا تَنْقُضِي، وَكَانَ مُنْذُ قَرِيبٍ لَا يَسْتَطِيعُ سَاعَةً بُعَادٍ عَنْ أُرْيَنْبِ مَهَاتِهِ
النَّايِضَةِ بِالطُّهْرِ فِي وَثْبَاتِ الْحُبِّ الْقَلْبِيِّ الْخَالِصِ...

إِنَّهُ أَسَفٌ مُنْجِدِرًا إِلَى مُحِيطٍ مِنَ الْحَمَاقَةِ الْبَعِيدِ الْقَرَارِ، وَأَصْفَتْ عَلَى نَاطِرِيهِ
الْوُحُولُ فَلَمْ يُعَدِّ يَرَى، وَأَتَمَّا بَاتَ يُجَسُّ فِي طَرَاوَةِ الْوُحُولِ نُعُومَةُ الرُّبْدِ، فَرَاخَ يَهْيِمُ
فِي خَيَالِ الْوُحُولِ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي حَقِيقَتِهِ رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ، وَيَتَعَبَّرُ آخَرُ رَغْبَةٍ فِي التَّحْوِيلِ،
وَلِمَكَانِ الشُّعُورِ بِوُجُودِ الذَّاتِ يَذْهَبُ الْكَائِنُ، إِذَا صَدَّمَ مَشَاعِرَهُ أَنْفِعَالٌ خَدِيرٌ
كَأَنْفِعَالَاتِ اللَّذَّةِ عَلَى أَنْوَاعِهَا، يُحَاوِلُ الْإِسْتِحَالَةَ بِهَذَا الْإِنْفِعَالِ إِلَى وُجُودِ شُعُورِيٍّ
آخَرَ، وَلَا يَزَالُ يُبَالِغُ، تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يَتَزَايَدُ وَضُوحًا، رَغْبَةً بِالْإِسْتِحَالَةِ
حَتَّى يَطْلُبَ مُلَاشَاةَ كِيَانٍ فِي كِيَانٍ، حِينَمَا تَشْتَوِي هَذِهِ الرُّغْبَةُ فِي الْأَعْصَابِ،
وَكُلَّمَا زَادَتْ تَمَكَّنًا وَأَسْتَوَاءً زَادَ الْكَائِنُ نَهْمًا، وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ الَّذِي أَتَقَلَّقَ آبِنُ
الرُّومِيَّ بِقَوْلِهِ:

أُعَانِقُهَا وَالتَّنَفُّسُ بَعْدَ مَشُوقَةٍ إِلَيْهَا، وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي؟

وَأَلَيْتُمْ فَاها كَي تَزُولَ صَبَابَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمْتَرِجَانِ

فالْحُبُّ البَقَائِي، أَوِ الرُّؤُوسِي، رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ فِي الْوَلَدِ، وَالْحُبُّ الْإِسْتِغْلَائِي رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ فِي الْعَاطِفَةِ فِي الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ؛ فِي الرُّبَانِيَّةِ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ الشَّهْوِي رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ فِي الشَّهْوَةِ.

وَإِذَا كَانَتْ رَغْبَةُ الْإِسْتِحَالَةِ فِي كُلِّ الْوُجُودِ، فَفِي طَبِيعَةِ الْوُجُودِ إِذَا طَبِيعَةُ الْحُبِّ، بَلِ الْبَقَاءِ لِحَظَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ رَغْبَةِ الْإِسْتِحَالَةِ، وَأَسْتِحَالَاتٍ بِالْفِعْلِ، فَإِذَا انْقَطَعَتْ تَقَلَّصَتْ أَسْبَابُ الْبَقَاءِ، وَذَهَبَ مُضْمَجًا.

تَمَلَّكَ أَهْنُ سَلَامٍ، فِي لَيَالِي الْقَصْرِ الْمَشْحُورِ، أَنْفِعَالَاتٍ حُبِّ شَهْوِيٍّ طَلَبَ مَعَهَا التَّمَادِي فِي دُنْيَا الشَّهَوَاتِ، وَامْتَلَأَ رَغْبَةً بِالتَّعَرُّفِ إِلَى كُلِّ فُنُونِهَا وَفُنُونِهَا، وَشَتَّى أَلْوَانِهَا.

فِي لَيْلَةٍ مَاتِعَةٍ مِنْ لَيَالِي الْقَصْرِ الرَّاهِيَةِ الْعِيقَةِ، أَذْنَاهُ مُعَاوِيَةُ مِنْهُ، وَعَاطَاهُ حَدِيثًا مُذَهَّبَ الْأَطْرَافِ، مُغْرِي الْبَدَوَاتِ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ:

هَلْ لَكَ زَوْجَةٌ؟

قَالَ: نَعَمْ... فَضَرَبَ يَدًا عَلَى يَدِهِ، وَأَصَابَ وَجْهَهُ بِبَعْضِ يَدِهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ عَمْرُو، وَقَدْ أَظْهَرَ أَنَّهُ اعْتَمَّ مِنْ إِيْجَابِيَّتِهِ، وَسَارَّهَ:

يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ الْمَلِكَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَكَ ابْنَتَهُ لِمَا عَرَفَ مِنْ شَرَفِكَ، «وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا تَدْخُلُ عَلَى ضَرَائِرٍ».

فَقَالَ لِعَمْرُو: كَيْفَ الْحِيلَةُ؟

قَالَ لَهُ: إِذَا دَخَلْتَ غَدًا وَسَأَلْتَكَ، «فَقُلْ لَيْسَ لِي زَوْجَةٌ فَقَدْ طَلَّقْتُهَا»

وَأَشْهَدْتُ أبا هُرَيْرَةَ وأبا الدَّرْدَاءِ... باتَ لَيْلَتَهُ أَرْقَا، فَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ ذِكْرَى أَرْيَبَ
الْغَايَةِ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ قَوِيَّةً عَنِيقَةً، وَأَخَذَتْهُ طُيُوفُهَا الْبَادِيَةُ كَالْمَلَائِكِ فِي أَثْوَابِ
طَهَارَتِهَا...

فَرَاخَ يُتَمَتِّمُ: أَلَا أُخَوِّنُهَا. أَأَنَا؟ كَلَّا يَا مَلَاكِي! لَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِ
رَعْنَاءٍ تَذَوُّبٍ لَذَائِهَا سَرِيعاً، وَتَبْقَى آلَامُهَا مُسْتَطِيرَةً مُسْتَفْجِلَةً... وَإِذَا بِهِ يَبْدُو
مُبْتَسِماً، فَقَدْ بَارَكَهُ طَيْفُهَا، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ حَتَّى تَسْتَجِيشَ بِهِ شَهَوَاتُ مَوَارَةِ، تُرْبِهِ
الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةَ، بَلْ وَالْخُلْدَ فِي حُدُودِهَا، وَتُطْلِعُ لَهُ رُؤُوسَ فُتُونِهَا، فَيَسْتَرْخِي وَهُوَ
يَرَى السُّلْطَانَ وَالْجَاهَ وَكِبْرِيَاءَ الْحُكْمِ تَعْنُو أَمَامَ قَدَمَيْهِ، إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى مُعَاوِيَةَ،
وَرَضِي مِنْهُ بِالْأَقْبَرَانِ إِلَى آتِيَتِهِ... وَتَمَتَّتْ:

حَسْبُ أَرْيَبٍ بِكُرْنَا خَالِدٌ، وَأَنَا إِذَا طَلَّقْتُهَا فَلَمْ أَفَارِقْهَا وَإِلَى الْأَبَدِ، فَصِلَةٌ
بَيْنَنَا أَبَدًا وَلَيْدُنَا الْعَزِيزُ... وَصَمَّتْ قَلِيلًا، وَعَادَ يُنَاجِي نَفْسَهُ:

وَأَنَا إِذَا فَعَلْتُ، أَلَسْتُ أَخُونُ خَالِدًا أَيْضًا فَوْقَ خِيَانَتِي أُمِّهِ؟ أَلَسْتُ أَكُونُ قَدْ
دَفَعْتُهُ إِلَى الْحَقْدِ عَلَيَّ؟ وَكَيْفَ أَطِيقُ هَذَا، وَلَوْ فِي التَّصَوُّرِ وَالْخِيَالِ؟ إِنَّنِي لَا أَطِيقُ...
وَبَدَا لَهُ طَيْفٌ وَلَدِهِ خَالِدٍ فِي طُفُولَتِهِ السَّاذِجَةِ بِالْحُبِّ، كَأَنَّهُ يَرُوحُ أَنْ لَا يَفْعَلَ،
وَسَاوَرَتْهُ عَاطِفَةُ قَلْبِهِ مُسَاوَرَةً، فَصَرَخَ مَعَهَا:

لا. لا. لَنْ أَفْعَلَ... وَاسْتَعْرِقَ فِي لَحْظَةٍ تَهْوِي أَنْكَشَفَتْ لَهُ فِيهَا زَوَايا الْمَجْهُولِ
مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ اسْتَفَاقَ وَعَلَى لِسَانِهِ:

أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّسَوُّدِ الشَّامِخِ مَا يَخْدِمُ وَلَدِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ؟ فَلَا شَكَّ فِي
أَنَّهُ يَغْفِرُ لِي خِيَانَتِي، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أَرْيَبَ تَغْفِرُهَا لِي أَيْضًا. فَأَصْبَحَ وَقَدْ عَزَمَ
عَلَى الْخِيَانَةِ يُعْلَلُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا خِيَانَةً قَلْبٍ وَلِذَلِكَ هُوَ لَنْ يَنْسَاهَا، وَحَمَلَ
الْهَوَاءَ قُبْلَةَ وَدَاعٍ مِنْ بَعِيدٍ، فَهَذَا آخِرُ الْعَهْدِ بِأَرْيَبٍ...

وَتَعَرَّضَتْ لَهُ أَطْيَافُ رَاقِصَةٍ مِنْ بَدَوَاتِ الْأَطْمَاعِ الْكُبْرَى، فَسَارَ فِي بَهْجَتِهَا
كَأَنَّهُ يَجْنَحُ طَائِرًا، وَكَأَنَّ يَجْتَهِدُ أَلَا يَذْكُرُ شَيْئًا، يَجْتَهِدُ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ مَخْلُوقُ الْيَوْمِ،
وَلَيْسَ لَهُ عَهْدٌ سَابِقٌ بِالْوُجُودِ.

سَارَ غَيْرَ مُثْقَلٍ بِأَيَّةٍ ذَكَرَى مِنَ التَّارِيخِ، وَأَيَّةٍ فِكْرَةٍ تَتَّصِلُ بِمَاضِيهِ، إِنَّهُ وَلِيدٌ
مُصَادَفَةٌ جَدِيدَةٍ، وَلَوْلِدٌ بَهْجَةٍ جَدِيدَةٍ، يُقْبَلُ عَلَيْهَا بِمَا تَشَاءُ مِنْ بَهْجَاتٍ، فَكَانَ مِنْهُ
مَا أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ:

«أَدْخُلَا عَلَى ابْنَتِي فَأَعْلِمَاهَا بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ... فَظَاهَرَتْ لَدَيْهِمَا
بِالْاهْتِمَامِ وَالشُّرُورِ، وَصَرَفَتْهُمَا لِتَسْأَلِ عَنْ دَخِيلَةِ أَمْرِهِ «وَأَنْتَ عَلَى ابْنِ سَلَامٍ».

وَلَكِنْ ابْنُ سَلَامٍ شَعَرَ، فَوَزَّ طَلَاقَهُ أَرْزَنْبَ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَغْدُ لَهُ كَمَا كَانَ،
بَلْ عَدَا يَلْقَاهُ بِفُتُورِ نَفْسٍ، وَأَنْكِمَاشٍ تَوْجِيحٍ، فَأَوْجَسَ سَرًّا «وَأَسْرَعَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ
وَصَاحِيهِ يَسْتَحِجُّهُمَا» فَأْتِيَا ابْنَةَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ:

«إِنِّهَا سَأَلَتْ عَنْهُ فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا تُرِيدُ... فَلَمَّا بَلَغَاهُ لِحْنُ جُنُونِهِ،
وَأَسْقَطَ فِي يَدِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ ذَهَبَ صَحِيَّةً خِدْعَةً لثِيْمَةً لَيْسَ يَدْرِي غَايَتَهَا.

إِنْقَلَبَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلزُّوْلَةِ، فَوَجَدَهَا تَعُجُّ بِالْأَشْبَاحِ الْمُخِيفَةِ، وَتَزْأُرُ
فِي مِثْلِ تَجَاوِبِ الذُّنَابِ، فَاسْتَطِيرَ دُغْرًا، وَمَشَى فِي أَنْفَاسِهِ هَلَعٌ نَكِيرٌ، فَفَرَّ يَغْدُو إِلَى
الْحَلَاءِ وَقَدْ أَنْطَبَعَتِ الْأَشْبَاحُ فِي عَيْنَيْهِ، وَالتَّقَّتِ الْأَصْوَاتُ تَمُورٌ فِي أُذُنَيْهِ. فَرَاخَ
يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَكَفَاهُ عَلَى أُذُنَيْهِ يَجْرِي، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ لَا يَرَى وَلَا يَسْمَعَ، يُرِيدُ غَفْوَةً فِي
الدُّهُولِ وَلَا هَذِهِ الْيَقَظَةُ الْمَجْنُونَةِ. وَمَا اسْتَرْخَتْ كَفَاهُ عَنْ أُذُنَيْهِ حَتَّى اسْتَعْوَى بِهِ
صَوْت:

خَائِنٌ! خَائِنٌ! وَعَلَى يَدَيْكَ دِمَاءُ الْجَرِيْمَةِ، تَمْشِي عَلَيْهَا أَرْوَاحُ صَحَايَا ثَلَاثٍ:
قَلْبُ زَوْجَةٍ هِيَ تِمْتَالُ الْإِخْلَاصِ فِي الْحُبِّ، وَقَلْبُ غَلَامٍ هُوَ تِمْتَالُ طُفُولَةِ الْأَخْلَامِ

البريعة البيضاء، والثالثة هي قلبك أنت...

بعد ذلك أضحى ينطلق كالذي فار في خياله جنون، ينقل الواقعة، ويبث الشكاة، وينثر الطعن نثراً دون رهبة أو وعي. وتسامع الناس بالخبر، وعلقوا عليه بأشمئزاز ونفور، وبات الكثير ينظر بعضهم إلى بعض في شفاه مقلوبة وتنكر، وهكذا ذاع أمره وشاع، وتناقله الناس إلى الأمصار، وتحدثوا به في الأسفار. ورثوا كثيراً لما انتهى إليه حاله، فكنت لا تسمع في كل مكان إلا من يقول:

أتبلغ القصة بهذه العصابة حد التأمير بسعادة أسرة هائبة، تمرح في حب وتسرّح في وإرف إخلاص، أما يسرها يوم، أما تحلو لها حياة، إلا إذا ولعت في دم أو عبت بكرامة، لقد عدوا أقدار أنفسهم، فلا يرون إلا راقصين على الأشلاء، لاهين بالجماجم.

وتناهت بعبد الله الحال إلى حيرة يائسة وذوول شقي يائس، تلاحقه طيوف وتتنكر له أشباح، وتتفوز من حوله الآلام، وكان لا يفتأ يقول، يناجي نفسه:

لوددت أنني أفر إلى أرينب، ولكن هيهات! أنا الذي نكبتها وأشقيتها، أزيدها شقاءً بوجهي الذي غدا يمثال الخيانة الزوجية على أفتح صورها؟ فلا تجزع آلام قلبي وغصص ضميري ومرارتي وحيداً منعزلاً كيف أعتر إلىها؟ كيف أستغفر وليدي الصغير؟...

رحمك ربي وحنانك! أبق اللهم على قلبي لا يتمزع!

*

طلت أرينب، منذ غادرتها زوجها الحبيب، لا تشيع على شفيتها إلا آتسامة متماوتة إذا ألحت عليها أحاديث وصيفاتها بالابتسام.

وكان الاكثاب يترايدها، يوماً بعد يوم، في إحساس يُلح عليها بهول

غامِضٍ تَشْعُرُ بِهِ فِي أَعْمَاقِهَا يُنْذِرُ بِالْوَيْلِ.

وكانَ لها في كُلِّ يَوْمٍ جَلِيسَةٌ، تَارَةً عِنْدَ مَقْعَدِ أَصْطِباحِهما في أَفْياءِ البَواري
المُحَيَّماتِ، وتَارَةً في شُرْفَةِ المَساءِ تُودِّعُ النَّهارَ، وتَسْتَقْبِلُ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ تَبْثُها نَجْواها
وزَفَراتِها، وتَتَوَلَّاهُ في وَقْفَةٍ إِلى ذَوْبِ الشَّفَقِ الَّذي كائِنَ ذَوْبُ قَلْبِها.

وفي يَوْمٍ، على عَادَتِها وهي في شُرْفَةِ المَساءِ، رَأَتْ عِنْدَ أَقْصى الصَّحراءِ،
الَّتِي تَسْتَرْخِي مُتَكَيِّفَةً على عَتَبَةِ دارِها وفي فَنائِها، قافِلَةً كائِنَها مُقْبِلَةً مِنْ جَانِبِ
الشَّامِ، فَلَبِثَتْ تَنْشُدُ فيها أَمَلِها، وإنْ لَمْ تَطْمَئِنْجْ بِهِ فلا أَقْلَ مِنْ أَنْ تَرُسِمَ هَذِهِ القافِلَةُ
في نَفْسِها رُسوماً مُبْهَمَةً، إِلا أَنَّها مُفْرِحَةٌ أَيضاً، تَتَنَفَّسُ في فُؤادِها بِنَدَى رَوِيِّ.
مَرَّتِ القافِلَةُ تَحُبُّ تَحْتَ شُرْفَتِها، وكانَ حادي الإِبِلِ يُشْجِي الرُّكَبَ بِصَوْتِهِ
العَذْبِ النُّعْمانِ:

أَرَيْنِبْ لَيْتَنِي وَسُدْتُ قَبْراً وَلَمْ أَفْعَلْ، فَفِي الْأَحْشاءِ نازِ
«نَدِمْتُ نَدَامَةً الْكُسْعِيِّ لَمَّا غَدْتُ مِنِّي مُطْلَقَةً نُوازِ»
يَطْطِيفُ على فُؤادِي رُوحُ آهِ وَذَوْبُ أَسَى، وفي كَيْدِي أَنْفَطارُ
أَرَيْنِبْ، أَنتِ ذِكْرِي مِنْ نَعِيمٍ وَمِنْ طُهْرٍ، وَمِنْ عَبَقِ يُنْثارُ
أَرَيْنِبْ، هَلْ تَرِفُّ عَلَيَّ دُنْيا مِنْ الْأَخْلامِ، هَلْ تُؤَبِّ يُعَارِ؟
ذَكَرْتُ وفي فُؤادِي نَوْحُ بالِ هَوانِ، والضَّمِيرُ بِهِ أَوَّارُ
وَهَلْ قَدَّرَ يُطالِعُنَا بِفَجْرِ وَيَمْرَحُ في مَسارِجِهِ النَّهارُ
فَنَسْعَدَ، والأَصِيلُ لَهُ أَفْتِرازُ ونَشْى، والغَدُوُّ لَهُ آزْدِهازُ

فَسَقَطَتْ على نَفْسِها هَلْكَى. وَلَمْ تَكُ إِلا أَيْامٌ مِنْ حُلُولِ الرُّكَبِ حَتَّى شاعَ
خَبَرُ عَبيدِ اللَّهِ في العِراقِ، وَتَناهى إِلى سَمْعِها، فَلَمْ تُعْذُ نَعِي. وَكانَتْ لا تُرى إِلا

مَوْلَاهُ حَتَّى عَنْ وَحِيدِهَا الْمَفْدَى. وَكَانَتْ لَا تَرَى إِلَّا مُعْتَنِقَةً لَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا مُدْلَهَةً،
كَأَنَّهَا تَطْلُبُ فِيهِ رِيًّا، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ ظَلْمَاى، وَظَلَّتْ كَأَنَّهَا لَا هَيْئَةَ تَطْلُبُ النَّدَى
وَالرَّيَّ.

لَمْ تُطِقْ بَقَاءً فِي الْعِرَاقِ بَعْدُ، فَقَدْ آسَوَدَّتْ نَوَاحِيهِ فِي نَوَاحِي نَفْسِهَا،
فَانْطَلَقَتْ بِحَشَمِهَا وَذَوِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، تَطْلُبُ فِيهَا دُنْيَا جَدِيدَةً، تُغْرِى خَيَالَهَا فِي
أَنَّهَا أَصْبَحَتْ مَخْلُوقًا جَدِيدًا آخِضِرَ فِي نَفْسِهِ الْمَاضِي، وَالذُّكْرِيَّاتِ. رَثَّتْ لَهَا نِسَاءُ
الْمَدِينَةِ، وَذَهَبْنَ يَوَاسِيَتِهَا بِكُلِّ مَا عِنْدَ الْمَوَاةِ مِنْ خِصْبٍ عَاطِفَةٍ، وَالنِّسَاءِ يُحْسِنْنَ،
بِالْمَاسِي بِنُوعٍ خَاصٍّ، مُكَبَّرَةً ذَاتَ مُبَالِغَاتٍ، وَفِي شُعُورِهِنَّ شُيُوعٌ، فَهِنَّ يُحْسِنْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ فِي كُلِّ مَأْسَاةٍ تَقَعُ، وَيَجِدْنَ قُلُوبَهُنَّ فِي التَّكْبَاتِ، وَهَذَا الشُّيُوعُ فِي
الشُّعُورِ جَعَلَهُنَّ يَشْعُرْنَ بِأَخْدِاثِ الْآلَامِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَجَعَلَهُنَّ أَصْدَقَ تَطْلُعًا،
وَأَرْهَفَ حِسًّا بِالْجَانِحَاتِ الصَّاعِدَاتِ مِنْ أَعْمَاقِ الْمَجْهُولِ، وَالْغَارِبَاتِ الْهَابِطَاتِ
إِلَى أَعْمَاقِهِ.

فَتَجَاوَزَتِ الْمَدِينَةَ بِمَأْسَاةٍ أُرِينَبَ، عَلَى مَا أَضَافَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ مِنْ رُوحِهِنَّ
الْآسِيَةِ، فَكَانَتْ لِادِّعَةِ الْوَقْعِ، وَفِيْدَةِ الْأَثَرِ، شَائِكَةً فِي نَوَاحِي الضَّمِيرِ...

أَرْسَلَ مُعَاوِيَةَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ، رَسُولَيْنِ مِنْ قَبْلِهِ، يَخْطُبَانِ أُرِينَبَ عَلَى
أَنِّيهِ يَزِيدَ، فَذَهَبَا إِلَى الْعِرَاقِ، فَلَبَّغَهُمَا أَنَّهَا آتَتْكَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَنَّتَا رَوَاجِلَهُمَا إِلَيْهَا.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ، إِذْ ذَاكَ، قَبَسَ الْهِدَايَةِ، وَمَشَكَاةَ الطُّهْرِ، وَنَمُوْدَجَ الْأَخْلَاقِ
الْفَاضِلَةِ، وَقَبَلَةَ الْأَنْظَارِ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ، مُفْرَعُ الْهَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ الظُّلْمِ، وَفِي
رِحَابِهِ يَنْتَصِفُ مَهْضُومُو الْحُقُوقِ الضُّعَفَاءُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُحْسِنُ فِي أَعْمَاقِهِ أَنْ
وَاجِبًا عَلَيْهِ أَنْ يَخْشَعَ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَشْعُرُونَ، فَوْقَ ذَلِكَ، أَنَّهُ رَأْسُ
الْوَاجِبَاتِ. فَلَمْ يَجِدْ كُلُّ مَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَصَاحِبِهِ، حَيْثَمَا هَبَطَا الْمَدِينَةَ، بُدْأَ مِنْ أَنْ
يَبْدَأَ بِرِيَارَتِهِ قَبْلَ أَيِّ وَاجِبٍ آخَرَ، مَهْمَا سَمَتْ بِهِ قِيَمَتُهُ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَدِّمَانِ

إليه أنواع الاحترام بمُناسبة قُدميهما، أنس إليهما وقابلهما بحفاوته التي تعودها
الناس منه، على اختلاف منازلهم، وكانت فيه خليقة وطبيعة.

لكنه أحس، مع ذلك، أن في مقدّميهما المفاجيء حدثاً هاماً، فقال لهما:

ألا أمر قد ثَمّا؟

قالا: نعم.

قال: وما هو؟ فما كتماه أن معاوية وجههما في خطبة أرينب على أبيه
يزيد. فابتسم الحسين أبينامة من قد أدرك كل شيء، ومن قد فهم غاية المناورة
وبالغة المداورة التي بات معاوية يحيك خيوطها، ويتسجها كالعنكبوت حول
فريسته... ونعى إلى نفسه «خدعه معاوية حتى طلق امرأته، ولما أرادها لأبيه.
فبئس من استوعاه الله أمر عباده، ومكنه في بلاده، وأشركه في سلطان، يطلب أمراً
بخدعة من جعل الله إليه أمره»... وواصل: لن تهتأ لي حياة إلا بإعادة مياه
حياتيهما إلى مجراها، ولن تفر غنائي وأشد، إلا إذا قوت عيناها بالعودة وسعدا،
ففي سعادة قلبين مخلصين ينبضان بالحب، ويخفقان بالعاطفة البريقة سر سعادتي.
فعلي أن أهديم على معاوية أحاييله، وأصيده بشباكه. أف للغاشمين الذين يرفصون
على الأشلاء، ويتيسمون في دموع الناس ويتششون كما لو بها يغتسلون؟ لقد
استغوا فبات ابن سلام طعماً في جبالته.

فقال الحسين لهما: لقد «كنت أردت نكاحها، وقصدت الإرسال إليها،
فأخطبنا علي وعليه، وأعطياها من المهر مثل ما بذل عن أبيه ولتخبر»...

إشتاذها بالدخول، وبعد أن استوى بهما مقعدهما، قال أبو الدرداء:

أي بُيعة! إنك لم ترالي شابة في غنوان الشباب وميعة النشاط، وأنا بك
جد ضنين أن تذهبي نهياً للحواطر، وتذهب نضارتك شعاعاً في اكتئاب. وإذا

سَأَلِكِ مِنْ آتِنِ سَلَامٍ مَا لَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ وَمَا لَمْ تَكُونِي بِهِ جَدِيرَةً، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي سِوَاهُ بَدَلٌ خَيْرٌ.

قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ يَا أَبَتِ، فَقَدْ خَبِرْتُ الرِّجَالَ وَبَلَوْتُ عَاطِفَةَ قُلُوبِهِمْ فَمَا حَمِدْتُهَا، وَبَحَسْبِي فَنَائِي أَرْعَاهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَعَنَيْتُ لَوْ كُنْتُكَ، وَقَعَلْتُ مَا يُشِيرُ بِهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ... فَأَبْتَسَمَتْ وَهِيَ لَا تَنْتَظِرُ مِنْ مِثْلِهِ مُدَاعَبَةً، وَوَاصَلَ: وَهَلْ مِثْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ يُرَدُّ وَيُخْتَلَفُ عَلَيْهِ... وَلَمْ يَزَالَا بِهَا، وَتَعَرَّضَتْ لَهَا خِيَانَةُ عَبْدِ اللَّهِ فَمَالَتْ إِلَى التَّكَايَةِ، وَرَغِبَتْ بِالْإِنْتِقَامِ.

فَقَالَتْ: وَبَعْدُ... فَعَرَفَا بِذَلِكَ إِجَابَتَهَا.

فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَرَادَكَ لِنَفْسِهِ «أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآبِنُ مَلِكِهَا، وَوَلِيُّ عَهْدِهِ وَالْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ. وَكَذَلِكَ أَرَادَكَ الْحُسَيْنُ ابْنُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ جِئْنَاكَ خَاطِبَيْنِ عَلَيْهِمَا، فَأَخْتَارِي أَيُّهُمَا شِفَتْ...» وَهِيَ مَا سَمِعَتْ أَسْمَ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ حَتَّى وَجَعَتْ، وَكَظَمَتْ بُزُكَانَ خَفِيطَتِهَا، وَهَلْ هَدَمَ سَعَادَتَهَا، وَهَنَاءَهُ مَا كَانَتْ فِيهِ إِلَّا هَذَانِ وَعِصَابَتُهُمَا؟! وَهِيَ الَّتِي طَالَمَا حَدَرَتْ شَقِيقَ قَلْبِهَا مِنْ شَبَابِكِهِمَا، وَوَدَّتْ لَوْ آغْتَزَلَ عَمَلُهُمَا، فَهَلْ تُلْقِي نَفْسَهَا، بِكُلِّ اخْتِيَارٍ وَطَوَاعِيَةٍ، فِي قَبْضَتَيْهِمَا الْقَاسِيَةِ الرَّهِيْبَةِ، فَتُغْتَصَرَ لَا! لَا! إِنِّي لَسْتُ فَاعِلَةً وَلَوْ أَوْطَأَنِي يَزِيدُ الدِّيَابِجَ وَأَحَاطَنِي بِمِثْلِ زَعْبِ النُّعَامِ!

لَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ أَرْضَى بِهِ، وَهَلْ آجَتَوَيْتُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِسَبِيلٍ مِنْهُمَا؟ وَهَلْ فَرَزْتُ وَتَشَرَّدْتُ إِلَّا عَنْهُمَا؟ لَوَدِدْتُ أَنْ أَعِيشَ فِي دُنْيَا لَا تَعْرِفُ عِصَابَتَهُمَا أَوْ لَا يَغْرِقُونَهَا. وَطَالَ بِهَا الصُّمْتُ وَهِيَ فِي مَعْرِضِ خَوَاطِرِهَا، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

غَلَامَ عَوَلَتْ؟ وَأَيُّهُمَا آخَتَرْتَ؟ فَقَدْ خَيَّلَ لِي صَمْتُكَ أَنَّكَ غَدَوْتَ دُؤْمِيَّةً لَا

تَنْطَلِقِينَ... فَأَنْقَطَعَتْ سِلْسِلَةُ خَوَاطِرِهَا، وَكَرِهَتْ رَدَّ وَسِيلَتَيْهِمَا، فَقَالَتْ:

وَمَنْ تَخْتَارُ أَنْتِ؟

قَالَ: الْأَمْرُ إِلَيْكَ.

فَقَالَتْ، مُعْرِجَةً لَهُ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ لَنْ يُفْضَلَ يَزِيدَ بِحَالٍ: لَوْ أَنَّ «هَذَا الْأَمْرَ جَاءَنِي وَأَنْتَ غَائِبٌ، لَأَشْخَصْتُ فِيهِ الرُّسْلَ إِلَيْكَ وَآتَبَعْتُ فِيهِ زَائِكَ، فِكَيْفَ وَأَنْتَ الْمُرْسَلُ. فَقَدْ قَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، فَأَخْتَرْتُ لِي أَرْضَاهُمَا.

فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَةٍ! إِنَّ «ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَرْضَى عِنْدِي، وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِخَيْرِهِمَا إِلَيْكَ»... فَأَتَبَعْتُ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

نَعَمْ. نَعَمْ. وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَقْدُمُ أَحَدًا عَلَى صَاحِبٍ قَبْلَهُ رَسُولَ اللَّهِ، فَيَا لِيْغِيْطَتِكَ بِهَذَا الْقَمِ وَهَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ! لَيَتَنِي كُنْتُ أُرِيْبُ، إِذَا لَسَالُ لُعَابِي وَتَلَمَّظَ... فَقَالَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ مِنْ قَوْلِهِ:

قَدْ أَخْتَرْتُهُ.. فَتَرَوُجَهَا الْحُسَيْنُ وَسَاقَ لَهَا مَهْرًا عَظِيمًا، وَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَتَعَاظَمَهُ، وَلَا مَهْمَا أَشَدَّ لَوْمٍ، وَقَرَّعَهُمَا أَعْنَفَ تَقْرِيعٍ، وَلَكِنَّهُ أَنْقَلَبَ مَعَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

كَانَ جُهْدُ الْحُسَيْنِ، بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهَا، أَنَّهُ يُوَاسِيهَا، وَإِذَا ذَكَرَتْ أَبْنَ سَلَامٍ وَمَا سَمِعَتْهُ خِيَانَةً زَوْجِيَّةً، أَثْنَى عَلَيْهِ وَهَوَّنَ فِعْلَتَهُ، وَأَفْهَمَهَا إِيْسَاهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي رَاحَتْ تَفْهَمُهَا عَلَيْهِ، وَأَبَانَ لَهَا أَنَّ الْحَادِثَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ عَظِيمٌ نَكِيرٌ، فَإِنَّمَا هُوَ إِقْدَامٌ مِّنْ هَيَأَ لَهُمَا أَشْبَابُ الشَّقَاءِ. ثُمَّ أَلَمَ تَقُولِي فِي بَعْضِ كَلَامِكَ إِنَّهُ طِفْلٌ، فَلَا عَجَبَ إِذَا اخْتَلَبُوا فِيهِ عَقْلَهُ، وَاسْتَبَدُّوا بِهِوَاهُ. فَإِذَا هِيَ تَنْظُرُ إِلَى مَا أَفْتَرَفَ أَبْنُ سَلَامٍ مِنْ أَفْقٍ جَدِيدٍ، وَإِذَا هِيَ تَرَى فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صَحِيَّةً أَغْرَاضٍ وَأَهْوَاءٍ وَشَهَوَاتٍ مِثْلَهَا، وَإِذَا بِهَا تُدْرِكُ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُوَاسِيَهُ بِجُهْدِهَا، وَقَدْ بَاتَ شَقِيئًا. فَبَدَأَتْ تَحِيْرُ

إليه، وبدأت تُعاوِدُها ذِكْرُها في رَغِيبةِ قَلْبٍ، وكانَ الحُسَيْنُ يُحِسُّ هذا مِثْلَها، فَيَفِيضُ بِشْراً وَتَتَنَصَّرُ تَقاسِيمُ وَجْهِهِ بِشَاشَةٍ وإِشْراقاً، فَقَدْ نَجَحَ وأَذْنَى قَلْباً باتَ نَفوراً، مِنْ قَلْبٍ باتَ وَقَدْ تَشَطَّرَ وَبِلَلاً وَثُبوراً.

*

أما عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فَقَدْ ظَلَّ في الشَّامِ يَوْمِي الهَيْئَةَ الحَاكِمَةَ بِكُلِّ سَناءٍ وعارٍ، وَيَطْعَنُ فيها أَلْبَغَ ما وَسِعَهُ الطَّعْنُ، وهو لا يُبالي غَضَباً ولا رِضىً، إِنَّهُ مَفْجُوعٌ مَوْتُورٌ.

فَأَطْرَحَهُ مُعاوِيَةُ لِمَكَانٍ هذا الطَّعْنِ والتَّعْرِيزِ بالشُّنُيعِ، وَعَزَلَهُ عَنِ إِمارةِ العِراقِ، وَقَطَعَ عَنْهُ رِوافِدَهُ، فَقَلَّ ما في يَدَيْهِ قَلَّةً باتَ مَعَهَا مُعْدِماً، وَعَدَا مَثَلاً لِلْبُؤْسِ الحَيِّ والشَّقَاءِ الشَّاحِصِ.

وَتَحَتَّ إلْحاحِ البُؤْسِ عَلَيْهِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ كانَ قَدْ اسْتَوْدَعَ أَرْيَنِبَ مالاً عَظِيماً، وَتَذَكَّرَ أَنَّها أَضْحَتْ في عِصْمَةِ الحُسَيْنِ، وهو لَنْ يَدَعَ لها سَبِيلاً لِلانْتِقَامِ «فَتَجَحَّدَهُ إِيَّاهُ لَطافِها مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»، فَانْتَقَلَ إلى المَدِينَةِ وَلَقِيَ الحُسَيْنَ وَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، وهو في سَكَلِ الصُّحْبَةِ الشَّقِيَّةِ، والفَرِيسَةِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ آثارُ أَثِيابِ السَّيْفِ بارِزَةً فيها، راسِمةً أَنْكَرَ آياتِ وَخِشْيَتِها، فَرُثِيَ لِمَوَّاهِ، وَرَقَّ لَهُ كَثِيراً وَواسِاهُ كَثِيراً. فَدَخَلَ الحُسَيْنُ عَلَيْها وَحَضَّها على رَدِّ مالِهِ إِلَيْهِ، فَقالَتْ:

ها هو بِطاعِيهِ لَمْ أَمْسِسْهُ... وَقَصَدَ حُسَيْنٌ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَيْها بِشَقائِهِ، فلا بُدَّ أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِشَفَقَتِها وَحِنايَها دُونَ غِلْظَةٍ أو جَفْوَةٍ. وَكَذلِكَ كانَ، فَتَلَقَّيا وَاسْتَصْبِرا طَوِيلاً في ذُھولٍ وَوُجُومٍ، وَغَفْلاً عَنِ وُجُودِ الحُسَيْنِ بِقُرْبِهِما، فَتَوافَقَتْ نَظَرَاتُهُما ناطِقَةً بِالْحُبِّ والدَّمْعَةِ طافِئَةً، يُخَيِّلُ لِمَنْ رَأَها أَنَّ مِنْ وَراءِ عَيْنَيْهِما قَلْبَيْنِ يُطْلانِ، وَقَدْ تَدانِيا كَثِيراً حَتَّى رَسَما دائِرَةً تَدورُ فيها لَحْظَةُ حُبٍّ نَشوى.

وكانت عينا الحسني تبتغان بالشروع؛ وأخذ طريقه إلى الهيكل وقد أنصرف
عنهما زوجين، كي يشتيل عليه الحراب من جديد، إنه جد مغتبط الروح.

*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كتف غصن يمس، وكانت ناعمة
تلهو بأعاني سعادتها...

فبصر بها عنكبوت صغير، ود لو يزوي بهناءتها شهوات نفسه الحري...
وما لبث حتى جاء قوم العناكب يادرو، وراح ينسج شباكه من حولها...
وإذ ذاك حوّم بلبل غريد كان ينشر بألحانه في الأزواج نشوات منوعات،
وحطّ حيث انتصبت أشارك المأساة...

فنقد القمر نقدة، ومضى يغرد تغريداً كان مغناه: «ومكروا ومكر الله، والله
خير الماكرين...».

*

ظنّ «الصغير» أنّ القوة هي كلّ شيء، وفوق كلّ شيء...
وظنّ «الكبير» أنّ الحيلة هي كلّ شيء، وفوق كلّ شيء...
ولكن حين وقع الحق في شخص الإنسان الكامل، «بطل ما كانوا يعملون،
فعلبوا هنالك وأنقلبوا صاعرين»!...

* * *

تقوى

كَانَ يَوْمًا أَرْدَهَتْ فِيهِ دَمَشْقُ بِكُلِّ أَفَانِيْنِهَا، وَبَرَزَتْ فِيهِ بِكُلِّ قُتُونِهَا، هَذَا
الْيَوْمُ الَّذِي أَطْلَلَ مَعَهُ الرِّبِيْعُ فِي آيْتِسَامَةِ الْأَزْهَارِ وَعَبَقِي آيْتِسَامَتِهَا، مُرْصَعًا بِخُيُوطِ
الشَّمْسِ الْمُقْنَعَةِ يَقْنَاعٍ مِنَ الْمُزْنِ الرِّقِيقِ الشَّفَافِ.

كَانَ عَادَةً، عِنْدَ نَاسِهَا، آسْتِقْبَالُ الرِّبِيْعِ بِأَشْيَاءِ الْأَنْسِ وَالْحَفَاوَةِ، وَبِمَا تُوحِيهِ
الْمُنْتَعَةُ الْمُسْتَبْشِرَةُ، فَكَانَ يُحَيَّلُ لِلْمُشَاهِدِ أَنَّهُمْ نَسُوا حَتَّى الزَّمَانَ فِي وُجُودِهِمْ، ثُمَّ لَمْ
يَذْكُرُوا إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَشْبَابِ اللَّهْوِ الْعَابِثِ الْبَرِيِّ، فَيُقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِلَهْفَةِ الظَّامِ
عَلَى الْيَنْبُوعِ، وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى كُلِّ مَعْنَى نَضِيرٍ، وَيَنْتَثِرُونَ أَنْتِثَارَ الطَّيْرِ فِي كُلِّ
فَضَاءٍ.

فَمِنْ هُنَا تَنْبَعُ ضَحِكَاتٌ، وَمِنْ هُنَاكَ تَنْطَلِقُ زَقَزَقَاتٌ مِنْ غَنَنِ الطُّفُولَةِ،
وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ جَمْعٌ يَحْلُمُونَ فِي أَنْسٍ وَمُنْتَعَةٍ شُرُودٍ، وَعَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ قَوْمٌ يَنْعَمُونَ
فِي مِثْلِ وَثْبِ الطُّبَاءِ وَخَطَرَاتِ الْوُعُولِ، وَتَلَفَّعَتِ الْآفَاقُ، فِي حِسِّ هَوْلَاءِ اللَّاهِيْنَ،
بِكَلَلٍ مِنْ أَلْقَى فَوْحَهُ كُبْرَى.

وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ كَأَنَّهُ، فِي حِسِّ الْفَلَكَ، سَاعَةً مِنْ لَاوَعِي الزَّمَنِ، يَسْبِيحُ مِنْهَا
فِي عَرَبْدَةٍ حَالِمَةٍ أَوْ أَحْلَامٍ مُعَرَّبَةٍ. وَعَزِيْزٌ عَلَى الْحَيِّ الشَّاعِرِ، أَنْ تَطْيِفَ بِهِ هَذِهِ
السَّاعَةُ مِنْ لَاوَعِي الزَّمَانِ، وَلَا يَغْرُقَ مَعَهَا فِي خِصَمِّ النَّسِيَانِ مِنْ قُبُودِ الْوَعْيِ
وَالْفِكْرِ.

في هذا اليومِ كَانَ مُعَاوِيَةُ فِي قَصْرِهِ الْمَشِيدِ، وَفِي الْجَنَاحِ الْغَارِقِ بِالْمُتَعِ، يَقْطِفُ مَعَ جَمْعٍ مِنْ حَاشِيَتَيْهِ زَنْبَقَةَ زَهْوِ الْيَوْمِ. وَكَانَ بُدَيْحُ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ يُؤْنِسُهُمْ بِطَرَائِفِ أَخْبَارِهِ وَمُلَحِ نَوَادِرِهِ، فَأَنْتَهَى بِهِ الْحَدِيثُ إِلَى أَخْبَارِ صَابِقَةِ الْإِغْرِيْقِ الْحَرَائِيَيْنِ، وَعَجَائِبِ مَا شَاهَدَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ:

كَأَنَّ نِسَاءَهُمْ خُلِقْنَ مِنْ طَبِيعَةِ الْجَمَالِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ فِكْرُهُ الْجَمَالِ صِغَتْ مِنْ طَبِيعَتَيْنِ، بَلْ لَعَلَّهُنَّ فِي بَحْرِ الْجَمَالِ لَآلِيُهُ. فَقَدْ آفَتْنَ فِيهِنَّ إِبْدَاعُ الْخَلْقِ حَدًّا أَزْرَزَهُنَّ مُثَلًّا نَاطِقَةً بِالْفَنِّ... فَأَيُّهُ تَقَاطِيعُ فِي أَيِّ وَجْهِ؟... وَدَارَ بِهِ نَاطِرُهُ كَالَّذِي تَذَكَّرُ صَبَابَةَ قَدِيمَةٍ طَبَعَ عَلَيْهَا الْإِخْفَاقُ، فَأَرْسَلَ آهَةً طَوِيلَةً أَخْتَنَقَتْ فِي حَلْقِهِ قَبْلَ نِهَآيَتِهَا...

قَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: لَكَ بَيْنَهُنَّ ذِكْرَى طَرِيقَةٌ بِمَوْقِعِهَا عَلَى قَلْبِكَ، وَإِنْ قَدَّمَ بِهَا الْعَهْدُ... فَرَاخَ يُحَاوِلُ الْإِخْفَاءَ عَلَى شَتَّى مَزَاهِيهِ وَأَسَالِيهِ، وَلَكِنْ كَانَ فِي عَيْتِيهِ مَا يُفْصِحُ بِكُلِّ خَبَرٍ قَلْبِهِ، فَقَدْ عَدَدْنَا تُغْفِيَانِ تَحْتَ هَبَاءَةِ كَثِيفَةٍ مِنَ الدُّهُولِ، حَتَّى لَيْضُنَ النَّاطِرُ إِلَى مُقْلَتِيهِ أَنَّهُمَا جَمَدَتَا فِي غَيْرِ حَيَاةٍ، لَوْلَا بِصِيصُ رَفِيعِ الْخُيُوطِ كَانَتَا تُرْسِلَانِيهِ قَلْقًا، عَلَى أَنَّهُ مَالٌ يَتَخَافُ فِيمَا تَمَوَّهَتْ بِهِ عَيْنَاهُ مِنْ دَمْعٍ رَقِيقٍ، لَمَّا يُؤْذَنُ لَهُ فَيَتَحَدَّرُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى تَرْسُلِهِمْ وَتَبَسُّطِهِمْ، أَسْتَأْذَنَ الْحَاجِبُ، وَأَعْلَمَ الْمَلِكَ أَنَّ كَبِيرَ النَّحَّاسِينَ أَتَى بِجَارِيَةٍ فَائِقَةٍ «يَوَدُّ عَرَضَهَا» فَقَدْ كَانَ مُتَعَارِفًا أَنَّهُ يَبْدَأُ بِالْقَصْرِ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ مَا يَهْيِطُ بِهِ مِنَ الْإِمَاءِ وَالْعِلْمَانِ، فَأَذِنَ الْمَلِكُ، وَأُجْرِيَتْ «مَرَاسِيمُ» الدُّخُولِ.

وَكَانَ عَجَبُ الْحُضُورِ كَبِيرًا حِينَمَا مَثَلَتْ بَيْنَهُمْ، فَهِيَ تَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ الرُّؤْيَى فَوْقَ الْخَوَالِبِ مِنَ الْقَسَمَاتِ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَتَرَاى لِلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُنْصِرُونَ مَنْظَرًا مِنْ جَمَالِ فَنِّ خَيَالِيٍّ، يَجِيءُ مِنْ دُونِهِ كُلُّ مَا فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ

مِنْ فَنِّ الْجَمَالِ.

هَبَطْتُ عَلَى جَمْعِهِمْ هُبُوطَ الزَّرْعَةِ عَلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فِي الْغَابِ مَعَ ظَلَامِ
الْمَسَاءِ. فَاهْتَزَّتْ أَغْصَابُهُمْ كَالْأَوْتَارِ، وَنَطَقَتْ بِلَحْنِ الْحَيْنِ الْمَوَاجِ، فَحَامَتْ فِي
مَدَى بَدَوَاتِ هَذَا الْإِنْدَاعِ. كَانَتْ عَلَى أَغْصَابِهِمْ صَدْمَةٌ جَمَالٍ فَعَلَتْ فِيهَا مِثْلَمَا
تَفْعَلُ صَدْمَةُ الضُّوءِ، أَوِ النَّعَمِ، الَّتِي يَتَجَاوَبُ مَعَهَا فُضَاءُ النَّفْسِ الْخَلَاءِ بِنَوْعِ
أَهْتِزَازِهَا، فَتَمِيدُ أَوْ تَذْهَلُ، وَالصَّدْمَةُ الشُّعُورِيَّةُ كُلَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنَ الْأَغْصَابِ
كَانَتْ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا، وَأَدْوَمَ أَمْدًا.

وهذه الفتاة الكاعبة تَرَكَتْ فِيهِمْ أَثْرًا أَتَّخَذَ حَادًّا لَمْ يَزَلْ يَتَزَايَدُ، حَتَّى باتوا
مِنْهَا مِثْلَ النُّحَالِ، وَقَدْ عَرَضَ لَهَا مِضْبَاحٌ كَثِيرُ التَّوَقُّدِ وَالْأَلْقِ فِي لِسَانِ الشَّعَاعِ.
وَكَانَ فِي هَذَا الدُّهُولِ الَّذِي عَرَاهُمْ، مَا جَعَلَ أَحَدًا لَا يَفْطِنُ إِلَى مَا اسْتَبَدَّ
بِبُدَيْحٍ مِنْ أَضْطِرَابٍ، وَمَا تَمَلَّكَهُ مِنْ تَلَهُّفٍ، كَمَا لَمْ يَفْطِنُ أَحَدٌ أَيْضًا إِلَى مَا
سَاوَرَهَا مِنْ خَلَجَاتٍ غَنِيَّةٍ كَطَمَنَتِهَا، فَعَرَبَدَتْ عَلَى قِمَمِ مُقْلَتَيْهَا نَاطِقَةً بِاللُّحْظِ
الْوَثَابِ. كَانَ لِناظِرٍ أَنْ يَقْدُرَ أَنْ بُدِيحًا أَكْثَرُهُمْ أَخَذًا بِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ تَذَوُّقًا
لِلْجَمَالِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْدُرَ أَنَّهَا بِالذَّاتِ نَفْسٌ فَاتَيْنِيهِ الَّتِي احْتَفَظَ بِهَا ذِكْرِي نَدِيَّةً
بِالْغَرَامِ، وَعَرَضَتْ لِنَفْسِهِ مُنْذُ هُنَيْيَةِ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ، فَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ يَقَعُ فِي
مَذْهَبِ الْخَاطِرِ الْمَوْسَلِ.

لَقَدْ قَطَعَ هَذَاةَ وُجُومِ الْإِنْجِدَابِ، مُعَاوِيَةَ بِقَوْلِهِ مُخَاطِبًا كَبِيرَ النُّحَاسِينَ: لَسَدٌ
مَا أَذْهَشْتَنَا حَوْرَاؤُكَ، فَمِنْ أَيْنَ هِيَ؟ وَمَا أَسْمُهَا؟

قَالَ الرَّجُلُ: «إِسْمُهَا هَوَى»... فَانْبَعَثَ بُشْرُ بْنُ أَرْطَاةَ أَنْبِعَاءً يَقُولُ:

«هِيَ وَاللَّهِ كَأَسْمِهَا هَوَى»، تَخْفِضُ مِنْهُ وَتَرْفَعُ، وَتُطِيلُ بِهِ وَتُقْصِرُ، وَتَنْشُرُ
مِنْهُ وَتَطْوِي.

قال عمرو بن العاص: وماذا يكون الهوى إن لم تكنه؟ وكان بدويح قد
صَبَطَ أَرْشِيَّةَ قَلْبِهِ الْفَائِرِ بِالذِّكْرِى وَالْحُبِّ، وَالْآلَامِ وَالْبُعْدِ وَالْقُرْبِ، أَوْ الْقُرْبِ الَّذِي
كَانَ فِي مَعْنَاهُ نُقْطَةُ الْعَوْرِ فِي الْبُعْدِ السَّحِيقِ. شَعَرَ الْآنَ فَقَطُّ أَنَّهَا نَأَتْ عَنْهُ وَإِلَى
الْأَبَدِ، أَمَّا عَرِضَتْ عَلَى الْمَلِكِ وَنَالَتْ أَسْتِحْسَانَهُ وَخَطِيطَتِ بِإِعْجَابِهِ، فَهُوَ لَا مَحَالَةَ
سَيَصُصُّهَا إِلَى جُمْلَةِ وَصَائِفِ الْقَصْرِ وَوَلَائِدِهِ، فَكَانَ فِي حِسِّ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ يَعْصُ
عَلَى جَانِبِ قَلْبِهِ يَمْضَعُهُ.

كَيْفَ لَمْ يَبْتَعِثْهُ الْقَدَرُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ هُنَيْهَةً وَيَتَلَقَّاهَا عَرَضًا، فَقَدْ كَانَ
يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدُّخُولِ وَيَحْطِي بِهَا لِنَفْسِهِ، وَهُوَ الَّذِي ظَلَّ يَتَمَنَّى حَيَاتَهُ لَحْظَةً
لِقَاءِ مِنْهَا. لَقَدْ مَدَّهُ الْقَدَرُ بِسَاعَةِ لِقَاءِ عَفْوًا، وَلَكِنْ فِيهَا مَرَارَةُ التَّكَايَةِ وَالتَّلْوِيحِ
الْيَائِسِ، فَفَاضَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ، يَبْدَأُ أَنَّهُ ظَلَّ يُعَالِجُ مَشَاعِرَهُ، وَيَحْتَمِي وَرَاءَ بَرَايِقِ
صَفِيقَةٍ مِنَ التَّجَلُّدِ، فَقَالَ:

مِثْلَمَا هِيَ بَرَاعِمُ الْأَزْهَارِ كَانَتْ حَقًّا لِلْجَمَالِ وَالْعَبِيرِ فِي الزَّهْرَةِ، فَلِلْعَوَاطِفِ
الْحَيَّةِ حِقَاقٌ أَوْ بَرَاعِمُ، تَتَفَتَّقُ عَنْ زَهْرَةٍ جَمَالٍ أَيْضًا، وَعَنْ زَهْرَةٍ هَوًى أحيانًا، وَعَنْ
زَهْرَاتٍ مَعَانٍ أُخْرَى أَيْضًا.

وهذه الغادة كما أراكم مُحْشُونَ - بُوعَمَةُ الْهَوَى فِي دُنْيَا الْقَلْبِ الشَّاعِرِ -
تَتَنَفَّسُ بِأَرْبَعِهِ مَعَ السَّحْرِ النَّدِيِّ كَمَا تَتَنَفَّسُ الْوُرُودُ. وَفِي حِسِّي أَنَّ الْأَزْهَارَ
تُعَبِّرُ عَنِ الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي قَلْبِ الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ، كَمَا تُعَبِّرُ هَذِهِ الْغَانِيَاتُ عَنِ
الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي صَمِيرِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ، وَقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

وَفِي غَايِرِ أَيَّامِي، مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ شَبَابِ الْقَلْبِ، أَحَدْتُ هَوًى وَأَحَدْتُ
فِيهِ بِهَذَا الْمَعْنَى شِعْرًا:

يَا وَرْدَةً فِي رِيَاضِ الْحُبِّ يَا نَعَّةً تُرْجِي الْهَوَى، كُلَّمَا مَرَّ الْهَوَا فِيهَا
هَيَّا أَنْشُرِي عِطْرَكَ الْغَانِي الَّذِي آمَتَزَجَتْ بِهِ الدُّمُوعُ، وَرَوَّثَتْهُ مَاقِيهَا

فَسِرُّ عِطْرِكَ هَذَا، أَذْمُغُ سَكَبْتُ عَلَى جُذُورِكَ فِي نَجْوَى لَيَالِيهَا
ثُمَّ اسْتَحَالَتْ عَبِيرًا مِنْ طَهَارَتِهَا فَتَوَهَّى بِالْهَوَى مَا شِئْتَ تَنْوِيهَا
فَأَنْتِ ذِكْرِي مُجِبٌّ طَالَمَا آخَتَبَسْتُ أَنْفَاسُهُ، ثُمَّ خَانَتْهُ خَوَافِيهَا
كَمْ مِنْ صَرِيحِ هَوَى، قَدْ عَاجَ مُنْتَجِحًا إِلَى ظِلَالِكَ شَاقَتْهُ مَعَانِيهَا
فَرَاخَ يَنْظِمُ آهَاتٍ مُقَطَّعَةً وَرَاخَ يَنْثُرُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا
حَتَّى أَنْتَهَى، فِي خِصَمِّ الدَّهْرِ مِثْلَ صَدَى وَأَنْتِ ذِكْرِي هَوَاهُ بِتِ تَحْيِيهَا^(١)

وَكَانَ بُدَيْخُ يُنْشِدُهَا بِصَوْتِ زَافِرِ الرِّثَابِ، خَافِتِ المَقَاطِعِ وَالكَلِمَاتِ، وَبَوَاجِ
سَاهِمِ النَّظَرَاتِ بَادِي الدُّهُولِ، حَتَّى لَقَدْ خُيِّلَ لكَثِيرٍ بِمَنْ خَضَرَ أَنَّهُ اسْتَحَالَ صَدَى،
كَمَا رَاخَ يُنْشِدُ وَيَقُولُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَكَأَنِّي بِكَ، يَا بُدَيْخُ، أَخَذْتُ بِهَا هَوَى جَدِيدًا.

قَالَ بُدَيْخُ: بَلْ إِنَّمَا تَعَلَّقْتُ بِأَسْبَابِ هَوَى قَدِيمٍ، وَأَسْتَيْقِظُ فِي قَلْبِي رَسِيسُ
حُبِّ ضَاقٍ بِهِ النَّشِيَانُ. وَأَنْقَطَعَ بِهِمْ عَارِضُ الْحَدِيثِ، فَعَادَ النَّخَاسُ إِلَى مَقَالِهِ:

وَهِيَ صَابِغَةُ الْمَنِيِّ وَالنُّجَارِ، تَرْقَى إِلَيَّ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لَتَكُونَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ
رَبَّةِ الْجَمَالِ عِنْدَهُمْ، وَالصَّابِغَةُ يَتَخَرَّوْنَ فِي مِثْلِهَا أَنْ تَكُونَ نَسَقًا فِي الْمَلَامِجِ
وَالنَّقَاطِيعِ وَالشُّكْلِ مَعَ آلِهَتِهِمْ، لِيُتَرَزَّ لَهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَعْيَادِ، وَكَأَنَّ رَبَّةَ الْجَمَالِ
بَرَزَتْ لَهُمْ أَوْ تَقَمَّصَتْهَا، فَانْتَهَتْ بِهَا صُرُوفُ الْأَقْدَارِ إِلَى حَيْثُ تَرَى.

وَالْعَجَبُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهَا ذَاتُ فَلَسْفَةٍ فِي الْحَيَاةِ رَغِبَتْ بِهَا عَنْ مُتَعِ
الْحَيَاةِ، أَلْقَتْهَا فِي مِثْلِ الزُّهْدِ.

(١) من قصيدة لي في وردة كُنْتُ غَرَسْتُهَا «أَيَّامَ زَمَانٍ»، كما يقولون، حين كانت لي دَاوٍ وكانت لي
حديقة... كما هو الشأن في المقطعات الشعرية الأخرى المبثوثة في أقصوصة «مع أزينب».

وَأَعْجَبَ مِنْ هَذَا أَنَّهَا سَكَنَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَطْمَأْنَنْتْ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَقَتْهُ،
وَأَنْتَ فِي فَهْمِهِ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ نَاشِطًا: كَيْفَ تَقُولُ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ... فَضَمَّهَا إِلَى قَضْرِهِ، وَقَدْ بَدَلَ فِيهَا «مِائَةَ أَلْفٍ
دِرْهَمٍ». وَوَصَلَ: لَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ بُدَيْخٌ فِي مَا مَضَى يُحَدِّثُكُمْ بِهِ...
وَلَكِنْ لَمْ تَبْغِدِ الْوَصَائِفُ بِهَا، حَتَّى آسَتَوَى وَكَانَ مُتَكِيًا، فَقَالَ:
«لِمَنْ تَصْلُحُ هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟»

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: مَنْ «سِوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْلُحُ لَهُ؟» وَكَذَلِكَ «قَالَ
آخَرُ وَآخَرُ»، وَمُعَاوِيَةُ يَقُولُ لَا، وَيَبْتَسِمُ كَالَّذِي يُعَايِيهِمْ.

وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ الشُّوْفُ مَا أَخَذَهُ، وَتَزَايَدَهُمُ التَّلَهُّفُ - وَالرَّاعِبُ يَكُونُ
أَمِلًا أَبَدًا - فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَشَوُّقًا بُدَيْخَ، فَقَدْ عَرَضَ فِي خَاطِرِهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَرَأَ قَلْبَهُ.
وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَتِ التَّطَلُّةُ الْبَادِيَةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَيْضًا، وَبَعْدَ لَأْيٍ، قَالَ لَهُمْ
مُعَاوِيَةُ:

إِنَّهَا بِرُوحِيَّتِهَا وَكَمَالِهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْحُسَيْنِ، «فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِهَا، لِمَا لَهُ مِنَ
الشَّرَفِ، وَلِمَا كَانَ قَدْ سَجَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَبِيهِ»... فَازْتَسَمَّتْ عَلَى وَجْهِ الْحُضُورِ آثَارُ
مَشَاعِرَ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ. أَمَّا بُدَيْخُ فَكَانَ مَحَلًّا لَأَنْوَاعِ شَتَّى مِنَ الشُّعُورِ، فَقَدْ
أَنْشَرَحَ وَأَكْتَأَبَ، وَطَرَبَ وَحَزَنَ، فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَنْفَعَالِ. إِنَّهُ أَمَلَ أَنْ يَكُونَ
مَوْضِعًا لِسُقُوطِ هَذَا الثَّدْيِ، وَتَمَتَّى، وَهُوَ الظَّامِئُ بِالْهَوَى، أَنْ تَكُونَ رِيَّةُ هَذِهِ
الْغَادَةِ الَّتِي هِيَ غَادَةُ قَلْبِهِ، وَلَكِنْ خَابَ أَمَلُهُ فَانْكَتَأَبَ. يَبْدُو أَنَّهُ مَشَى فِي حَوَاشِي هَذَا
الْاِكْتِنَابِ عِنْدَهُ أَنْشِرَاحٌ، مَصْدَرُهُ أَنَّ الْحُسَيْنَ، وَهُوَ الْمُنْتَشِي بِرَحِيقِ الْهَيْكَلِ
وَالْمُسْتَعْرِقُ فِي التَّأَمُّلِ الْإِلَهِيِّ، أَضْحَتْ صِنُوقُ مَقَامِهِ بَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، هُوَ يَتَشَهَّى

أَنْ تَكُونَ قَرِيبَةً مِنْهُ وَكَفَى، إِنَّهُ يُرِيدُهَا مُتَعَةً قَلْبٍ وَقَدْ سَقَطَ عَلَى أَفْنِيَّتِهِ مِنْهَا.

فَقَارَ فِي نَفْسِهِ يَنْبُوعُ بَشَرٍ، ضَحِكَ مَعَهُ ضِحْكاً خَفِيفاً فِي الْخَيَالِ، وَزَادَ بِهِ حَتَّى أَنْفَجَرَ يَضْحَكُ كَالْمَعْرُودِ الْغَرْدِ، يَمَّا جَعَلَ الْحُضُورَ يَوْمُقُونَهُ بِأَسْتِغْرَابٍ، وَطَافَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ: مَا بَالُ بُدَيْحٍ؟... وَلَكِنْ قَطَعَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

إِنَّهَا سَتَكُونُ مُفَاجَأَةً لَذَّةِ الْوَقْعِ عَلَى الْحُسَيْنِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ رَبِّةِ الْجَمَالِ، وَهُوَ الْحَالِمْ الْهَائِمُ بِالْجَمَالِ الْمُفْعَمِ بِهِ ضَمِيرُ الْوُجُودِ.

بَعْدَمَا تَنَاوَلَتْهَا الْوَصَائِفُ بِالتَّطْرِيبِ وَالْهَنْدَمَةِ مَعَ أَصْلُوبِ الْقَصْرِ، بَرَزَتْ كَالرَّبَّةِ الَّتِي تَحْلُمُ، وَالْبَحِيرَةُ تَضْطَفِقُ بِأَمْوَاجِهَا الرَّقِيقَةِ عِنْدَ الشَّاطِئِ.

كَانَتْ سَاحِرَةً اللَّفْتَةِ صَارِخَةً الْفِتْنَةِ، مُغْرِيَةً الْجَمَالِ، وَلَكِنَّهَا تُرَى، مَعَ ذَلِكَ، كَالْهَائِمَةِ مَعَ ضَمِيرِهَا. فَلَمْ تَكُنْ يَمُنْظَرُهَا تُشِيرُ أَصْدَاءُ الشَّهَوَاتِ، بَلْ تَنْشُرُ أَخْلَاماً نَشَوَى مِنْ أَخْلَامِ الرُّوحِ، تُلْقِي النَّاطِلَ قَسْراً فِي مِثْلِ الْمِحْرَابِ الَّذِي يُشِيعُ فِي الْقَلْبِ مِثْلَ مَعْنَى صَلَاةٍ خَاشِعَةٍ.

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْجَمَالِ غَيْرُ مُحَبَّبٍ إِلَّا لِلْهَائِمِينَ فِي دُنْيَا ضَمَائِرِهِمْ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ الَّذِينَ يَهَيِّمُونَ فِي دُنْيَا أَغْصَابِهِمْ وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى رُسُومِهَا، فَإِنَّهُمْ يَنْفَرُونَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الَّذِي يُغْرِيبُهُمْ بِمَعْنَى مُبْنِهِمْ لَا يَتَذَوَّقُونَهُ، فَيَطْعَمُونَ فِيهِ مَرَارَةً الْفَقْدِ، ثُمَّ لَا يُحَرِّكُ أَيْ وَتَرٍ مِنْ أَوْتَارِ قَيْثَارَةِ خَيَالِهِمْ الْمُرَكَّبَةِ تَرْكِيباً لَا تَنْطِقُ مَعَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَمَالِ، أَوْ تَنْطِقُ بِنَعَمَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ تُوحي بِالْمَرَارَةِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ مُرَكَّبَةً تَرْكِيباً نَعْمِيّاً (مُوسِيقِيّاً) لِأَنَّهُ مُتَنَاعِمٌ بِطَبِيعَةِ تَأْلِيفِهِ الْعُصْوِيِّ، وَهِيَ - عَلَى نَسَقِ أَوْتَارِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ بَرِيشَةِ الْبَوَاعِثِ، إِذَا صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ - مُتَنَوِّعَةٌ الْأَلْحَانِ وَالْإِيحَاءِ. فَمِنْهَا مَا يُوحِي بِالشَّهْوَةِ، وَمِنْهَا مَا يُغْرِي بِالتَّأَمُّلِ، وَمِنْهَا مَا يَجِيئُ بِالْذَّمِّ، وَمِنْهَا مَا يَمُورُ بِالْحَنَانِ وَالْحُبِّ، وَمِنْهَا مَا يَدْفَعُ إِلَى

الاستغلاء. إِنَّ اللَّذَّةَ، فِي حَقِيقَتِهَا، أَنْطِبَاعَاتٌ وَأَرْسَامَاتٌ، فَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّفْسِ
نَمَازِجُهَا اسْتَجَابَتْ إِلَيْهَا، وَتَحَرَّكَتْ مَعَهَا حَرَكَةُ أَنْسِجَامٍ لَذَّةٍ.

أَمْضَتْ فِي الْقَصْرِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَانَتْ لَا تَفْتَأُ خِلَالَهَا تُفَكِّرُ فِي مُصَادَفَةِ هَذَا
اللقاءِ مَعَ بُدَيْحٍ، وَهِيَ الَّتِي بَاتَتْ فِي يَأْسٍ مِنْ لِقَائِهِ، وَقَدْ بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابٌ
وَأَزْمَانٌ.

وَدَهَبَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: وَيَحْ بُدَيْحِ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي مِثْلِ يَقْظَةِ عَوَاطِفِهِ لَيْلَةً
لِقَائِنَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، بَيْنَ أَرْوَاقِ هَيْكَلِ فِينُوسَ. وَيَحْ بُدَيْحِ! لَقَدْ كَاتَبْتُ فِي سَبِيلِي كَثِيرًا،
وَتَحَرَّعَ أَمْرُ الْغُصَصِ وَالْآلَامِ مِنْ أَجْلِي، ثُمَّ تَنَاهَى بِهِ بُعَادٌ يَغْتَصِرُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، فَكَمْ ذَا
يُقَاسِي؟

يَا مَا أَلَذَّ وَفَقَةً أَنْتَظِرُ، فِي لَحَظَاتِ تَوَلُّهِ وَتَلَهُّفِ، كُنْتُ أَقِفُهَا عِنْدَ بَعْضِ
أَعِمَّةِ الْهَيْكَلِ، وَبُدَيْحُ مُقْبِلٌ تَحْتَ رِداءِ اللَّيْلِ يُمْتِنِعُنِي بِنَفْسِهِ فِي جُلُوءِ قَلْبٍ مُغْرَمٍ،
أَصْفَتْ عَلَيْهَا خُلُوءَ الْأَحْلَامِ! يَا مَا أَقْدَسَ تِلْكَ الرَّعْشَاتِ، وَأَعَذَبَ وَقْعُهَا!!

إِنِّي لِأَذْكُرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ هَبَّتْ فِيهَا الْأَعَاصِيرُ، وَلَعِبَتْ فِي مَسْرِحِهَا
الْعَاصِفَةُ، وَكَانَتْ الْآفَاقُ تَزْأُرُ زَثِيرًا مُخِيفًا، وَالْعَمَامُ يَهْبِطُ مَعَ جُنْحِ الظَّلَامِ كَثِيفًا
كَثِيفًا، كَأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَطْمُرَ الْأَرْضَ بِمَا هُوَ مُنْزَرَعٌ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ، وَكَانَتْ
الرِّمَالُ تَتَعَالَى وَتَتَعَانَقُ فِي شَكْلِ الْأَقْوَاسِ، وَدُعِرَتْ فِيهَا حَتَّى طُبُورُ اللَّيْلِ،
فَانْكَفَأَتْ مُنْكَمِشَةً مُنْخَنِسَةً... فِي الْمَغَاوِرِ وَالْحَفَايِرِ، وَقَدْ أُمْسَكَتْ حَتَّى الرُّكُزَ
وَالْهَمْسَ مِنْ نَأْمَتِهَا.

وَإِنِّي لَتَمَيَّنْتُ، وَأَنَا وَاقِفَةٌ عِنْدَ عَمُودِ الرُّوَاقِ الدَّاخِلِيِّ، أَنْ لَا يَأْتِيَنِي فِي لَيْلَةٍ
بُؤْسَانِ السَّمَاءِ. وَبَيْنَا أَنَا وَاجِفَةُ اللَّبِّ بِالتَّخَوُّفِ وَالتَّرْقُبِ، أُحْرِقُ قَلْبِي لِلرَّبِّ قُرْبَانًا
كِي تَحُوطَهُ وَتَرْعَاهُ، إِذَا هُوَ مُقْبِلٌ كَأَنَّمَا رَمَى بِهِ الْإِعْصَارُ فِي الْعَرَاءِ، وَتَمَحَّصَتْ عَنْهُ

العاصِفَةُ وَوَضَعَتْهُ فِي التَّيَّارِ الدَّائِرِ فِي جُنُونٍ.

أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ أَعْتَنَيْتُهُ دُونَ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ يُلْفُنِي كُثْلَةَ طُفُولَةٍ، حَدَرًا عَلَيَّ مِنْ طَيْشِ هَذَا اللَّيْلِ، وَفِي الْهَيْكَلِ آسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي كَالَّذِي خَرَجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ظَافِرًا، يُجَدِّدُ حَيَاتَهُ فِي حِسِّ مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، إِنَّهُ خَرَجَ ظَافِرًا مِنَ مَعْرَكَةِ الْعَنَاصِرِ، وَقَدْ آسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ بَضْرَاوَتُهَا. إِسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي وَأَطْمَأَنَّ كَأَنَّهُ يَجِدُ فِيهِ يَنْبُوعَ حَيَاةٍ، فَهُوَ يَسْتَمِدُّهُ بَعْضُ مَا آتَتْهُنَّ الْعَاصِفَةُ، وَهُوَ يُصَارِعُ الْإِغْصَارَ.

قُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أَدْعُدُّ جَبْهَتَهُ وَأَعْبْتُ بِشَعْرِهِ الْمُتَطَلِّلِ^(٢) الَّذِي كَمَنْتُ فِيهِ أَصَابِغَ الْعَاصِفَةِ: لِمَاذَا رُكُوبُكَ الْإِغْصَارَ إِلَى مِخْرَابِ حُبِّنَا؟ لَكَأَنَّكَ مِنْ عَدَمِ مُبَالَايِكَ مُجِبِّ فَوْقَ بُرْكَانٍ... فَأَبْتَسَمَ وَأَخَذَ وَجْهِي بَيْنَ كَفَيْهِ يَقُولُ:

أَعْرِفُ أَنَّكَ تُصَلِّينَ فِي مِخْرَابِ الْحُبِّ وَلَا أَسْعَى إِلَيْكَ بِأُجْنِحَةِ الطَّيْرِ، كَيْ أَشَارِكَ تَوْنِيْمَةَ الْهَوَى وَتَوْنِيْلَةَ الْهَيْامِ؟ إِنَّكَ لَتَفْسِنَ عَلَيَّ فِي الظَّنِّ بِي.

قُلْتُ: عَفْوَكَ! أَرَدْتُ أَنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مِخْرَابًا فِي الذِّكْرَى، وَلَا تَتَجَشَّسَ هَذِهِ الْأَخْطَارَ إِلَيَّ.

قَالَ: إِنَّ مِخْرَابَ الذِّكْرَى يُغْرِي بِالظَّمِّ فِي الْحُبِّ وَيُضَاعِفُ شُعُورَهُ، وَأَمَّا الرَّؤْيُ فِي الْحُبِّ فَإِنَّمَا يَهْبِطُ فِي مِخْرَابِ هَذَا الصَّدْرِ الَّذِي يَمْرُخُ فِي فَضَائِهِ قَلْبٌ يَمْدُ بِنَدَى الْعَرَامِ.

إِلَيْهِ غَادَةَ أَحْلَامِي! لَيْسَتْ الْعَاصِفَةُ الرَّعُوبُ هِيَ الَّتِي تَشْهَدِينَ فِي حَوَاشِي هَذَا اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَاصِفَةُ الْقَلْبِ وَقَدْ فَارَتْ فِيهِ فَائِزَةُ آلِيبَاعِ، بَلْ تِلْكَ، بِجَنْبِ هَذِهِ، زَعْرَدَاتُ وَأَبْتِسَامَاتُ وَزَفَرَقَاتُ تُرْسِلُهَا الطَّيْرُ مَعَ السَّحْرِ... قَسَمًا لَوْ حَالَتْ دُونَكَ أَرْضٌ زُرِعَتْ فِيهَا كُلُّ الْبَرَاكِينِ، لَتَخَطَّيْتُهَا إِلَيْكَ مُغْتَبِطًا مَسْرُورًا.

(٢) نَغْنِي بِالْمُتَطَلِّلِ الْمُتَّخِذِ شَكْلِ الْأُطْلَالِ، وَتَقَعْلَ بِهِدَا الْمَغْنَى قِيَاسِي.

فَقُلْتُ مُعْتَرِضَةً: لَا تُبَالِغْ، فَإِنَّ هَذَا بَيْنَ الْبَشَرِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ طِبَاعِ
الرَّيَّاتِ وَالْأَرْبَابِ... فَذَهَبَ ضَاحِكاً يَقْصُ عَلَيَّ قِصَّةَ ذَلِكَ الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ الَّذِي
طَلَبَتْ مِنْهُ فَتَاهُ هَوَاهُ وَزِدَّةَ حُمْرَاءٍ وَأُخْرَى صَفْرَاءَ، وَكَانَتْ حَدِيقَةُ الْوُرُودِ فِي يَقْظَةٍ
حُرَّاسٍ أَشِدَّاءَ، وَفِي عَيْنٍ أَسْوَدَ غِضَابٍ، وَيُفْصِلُ دُونَهَا نَهْرٌ يَعُجُّ بِالتِّيَّارَاتِ، فَانْطَلَقَ
الْعَاشِقُ فِي مَدَى رَعْبَتَيْهَا يَخْوِضُ النَّهْرَ، وَتَقَلَّبَ فِي حَدِيقَةِ الْوُرُودِ يَبْتَخِثُ عَنِ
الْوَزْدَةِ الْحُمْرَاءِ فَلَمْ يَجِدْهَا. فَعَادَ مُبِلَّلَ الثِّيَابِ يَقُولُ لَهَا مُبْتَهِجاً: لَقَدْ أَتَيْتُكَ
بِهِمَا... فَإِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ فِي يَدَيْهِ الْوَزْدَةَ الصَّفْرَاءَ، وَأَمَّا الْوَزْدَةُ الْحُمْرَاءُ فَكَانَ يَحْمِلُهَا
فِي صَدْرِهِ تُعْرَةُ فَوَارَةٍ بِالْدمَاءِ، فَقَدْ أَصَابَ سَهْمُ الْحُرَّاسِ قَلْبَهُ فَسَطَّرَهُ...

قُلْتُ لَهُ مُفْجَعَةً: أَيْكُونُ ذَلِكَ حَقًّا؟!

قَالَ: لَيْسَ هُوَ بَعِيداً عَنْكَ، أَلَا فَامْتَحِنِي فِي الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ. أَقُولُ لَكَ وَأَنَا
أَعْنِي مَا أَقُولُ، لَوْ تَحَدَّثْتَنِي كُلُّ أَرْبَابِ الْأَوْلِيَّاتِ كَمَا تَحَدَّثُ هِرْقَلٌ لِقَاوِمَتِهَا فِي سَبِيلِكَ
سَاحِرًا بِقُوَّتِهَا... فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِغْرَارِ، وَقُلْتُ لَهُ:

بِحَقِّي لَا «تُجَدِّفْ» عَلَى الْأَرْبَابِ، وَأَيْضاً فِي هَيْكَلِ رَبِّةِ الْجَمَالِ فِينُوسَ، إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكَ... فَانْقَلَبَ يَقْهَقُهُ قَائِلاً:

لِمَاذَا لَا تُفَكِّرِينَ أَنَّكَ أَنْتِ الرَّبَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَمَّا فِينُوسُ فَرَبَّةٌ خَيَالِيَّةٌ أَثِيرِيَّةٌ
فَقَدَتْ حَرَارَتَهَا، وَيَإِبْرَازِيكَ كَاهِنَةٌ فِي هَيْكَلِهَا، يَمْدُونُ وُجُودَهَا الْبَارِدَ فِي الْخِيَالِ،
بِحَرَارَةِ أَنْتِ تَنْشُرِينَهَا وَتُورِّعِينَهَا. فَوَضَعْتُ يَدِي مُتَوَلِّهَةً عَلَى فَمِهِ أَقُولُ:

لَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَجْدِيفاً. آهٍ لَقَدْ فَجَعْتَنِي، أَأَنْتِ أَيْضاً يَا بُدَيْحُ
تَتَكَلَّمُ بِ «الْهَرُوطَاتِ»؟...

لَقَدْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مُؤْمِنَةً بِقُدْرَةِ الرِّبَّاتِ، وَأَنَا أَرْغَبُ عَلَى مَنْ أُحِبُّ
بَأَنْ يَكُونَ مِثْلِي رَأياً وَإِيمَاناً، لَكِنِّي عَرَفْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ بُدَيْحاً كَانَ أَعَمَّقَ مِنِّي

مَعْرِفَةً وَأَهْدَى تَفْكِيرًا.

لَقَدْ كُنْتُ مُفَعَّمَةً بِالْإِيمَانِ، فَصَوَّرَهُ لِي حَدِيثُهُ صُورَةً مُنْكَرَةً تُوْحِي بِالشَّرِّ الْكَرِيمِ، فَانْقَبَضَتْ عَنْهُ وَذُعِرْتُ مِنْهُ، وَبَالَغَ بِي هَذَا الدُّعْرُ فَكَرِهْتُهُ، وَعُدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَحَاشَاهُ وَأَنْفِرُ مِنْهُ، أَوْدُ أَنْ لَا أَرَاهُ. وَكُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي: أَيْكُونُ بُدَيْخٌ مُجَدِّفًا وَهوَ فِي نَفْسِي صُورَةً مِنْ مَلَائِكَةٍ؟ كَلَّا لَا أَوْدُ أَنْ أَخْتَنُقَ بِيَدِي بُدَيْخًا الْعَائِشَ فِي خَيَالِي، أَوْدُ أَلَّا تَتَشَوَّهَ صُورَتُهُ فِي نَفْسِي، وَأَنَا، إِذَا اجْتَمَعْتُ إِلَى بُدَيْخٍ سَتَمَتُّهُ يَدُهُ إِلَى تَشْوِيهِ مَا آسَتَوَى فِي خَيَالِي عَنْهُ. وَلَكِنْ بُدَيْخًا الْخَيَالِيِّ مُحَبَّبٌ إِلَيَّ الْحُبُّ كُلُّهُ، وَأَتَمَنَّى أَنْ أَظَلَّ مُتَمَتِّعَةً بِهِ، مُتَتَشَبِّهَةً بِمِثَالِيَّتِهِ، وَمِثْلِي كَاهِنَةً رَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَى الْأَخْلَامِ، إِنَّمَا تُحِبُّ فِي أَخْلَامِ الرُّوحِ دُونَ حُبِّ فِي أَخْلَامِ الْأَعْصَابِ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ كُنْتُ أَتَوَارَى كُلَّمَا تَعَرَّضَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ. وَهَذَا مَا يَقَعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ الْإِيمَانُ فِكْرَةً فِي النَّفْسِ، بَلْ كَانَ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ؛ أَوْ أَرْمَةً فِي الْوِجْدَانِ. وَكُلَّمَا كَانَ إِيمَانُ الْمَرْءِ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ تَكُونُ عَوَاطِفُهُ قَاصِرَةً عَلَى مَنْ يُشَارِكُهُ هَذَا الْإِيمَانُ دُونَ سِوَاهُ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ فَتُساوِرُهُ نَزَغَاتُ يَتَحَرَّكُ مَعَهَا تَعَضُّبُهُ.

أَمَّا الْفِكْرُ الْمُجَرَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَعَضُّبًا، وَإِنَّمَا التَّعَضُّبُ فِي مَكَانِ الْوِجْدَانِ مِنَ النَّفْسِ، فَهِيَ، أَيُّ نَزَوَاتِ النَّفْسِ، تَتَحَرَّكُ بِالْعَوَاطِفِ وَتُكْسِبُهَا لَوْنَهَا. وَكُلَّمَا كَانَ الْفِكْرُ أَكْثَرَ ضَيْقًا، وَالْوِجْدَانُ أَكْبَرَ عُقْدًا، فَهُنَاكَ يَوْجَدُ شَرُّ أَنْوَاعِ التَّعَضُّبِ، وَعِنْدَهُ يَسْتَضِيْقُ الْمَرْءُ حَتَّى يَوْجِدَ مَنْ لَا يُشَارِكُوهُ عَقِيدَةَ الْإِيمَانِ عَلَى لَوْنٍ مَا وَنَحْوِ مَا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا بَعْضُ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْبَشَرِيِّ وَلَا أَقُولُ الْإِنْسَانَ، فَإِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ فِكْرُهُ إِيمَانًا فَهُنَاكَ تَدْيِينٌ صَحِيحٌ عَلَى نَهْجِ إِنْسَانِيٍّ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ إِيمَانًا فَهُنَاكَ أخطَرُ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْفَكْرَاءِ.

فَنَزَعَةُ التَّدْيِينِ الصَّحِيحَةِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ الْإِيمَانَ بِالْفِكْرِ، دُونَ الْعَكْسِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ أَرْمَةِ نَفْسٍ وَيُولَدُ أَرْمَةً نَفْسٍ وَحَيَاةٍ أَيْضًا. أَمَّا الْفِكْرُ فَلَيْسَ يَقْبَلُ

عُقْدَةً، بَلْ مِنْ وَظِيفَتِهِ أَنْ يَحُلَّ الْعُقْدَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ... وهو إذا قَبِلَ الْعُقْدَ أحياناً فإِنَّمَا يَقْبَلُهَا فِي ضَرْبٍ مِنَ الْامْتِحَانِ، وَفِي ضَرْبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الْاِزْتِيَابِ، فَالْفِكْرُ يُرَادِفُ الْامْتِحَانَ أَوْ النَّقْدَ الْمُجَرَّدَ. وَتَقَدُّمُ الْإِنْسَانِ مَعْنَاهُ تَقَدُّمُهُ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يُنتِجُ حَلَّ أَكْبَرَ مَقْدَارٍ مِنَ الْعُقْدِ. وَفِي ظَنِّي الْيَوْمَ أَنَّ تَقَدُّمَ الْفِكْرِ لَيْسَ مَعْنَاهُ الْقُدْرَةُ أَوْ الْغِنَى فِي التَّفْكِيرِ، بَلْ مَعْنَاهُ الْكِفَاةُ عَلَى التَّفْكِيرِ بِدُونِ أَغْصَابٍ، أَيْ بِتَجَرُّدٍ لِلْفِكْرِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا تُحِبُّ أَوْ تُكْرَهُ وَفَقَّ مَا نَعْتَقِدُ وَنَهْوِي، وَلَا يَضُرُّ بِنَا الْقُرْبُ أَوْ الْبُعْدُ، بَلْ تَمَّحِي فِكْرَتُهُمَا ثَمَّ لَا تَتَصَرَّفُ بِعَوَاطِفِنَا تَبَعاً لِهَما.

لَيْسَنِي كُنْتُ أَغْرِفُ هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِذَا مَا جَفَوْتُهُ وَنَفَرْتُ مِنْهُ، وَظَلَلْنَا فِي مُثْعَةٍ الْحُبِّ الْخَالِدِ... لَقَدْ رَأَى بُدَيْحٌ مِنِّي ذَلِكَ الْإِعْرَاضَ فَلَمْ يُطِيقِ الْحَيَاةَ وَاجْتَوَاهَا، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ، لَا أَذْرِي أَيْنَ رَمَتْ بِهِ يَدُ الْأَقْدَارِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَسْتُ وَاللَّهِ، بَعْدَ مَا فَقَدْتُهُ، بِالْأَسَى الْوَاحِشِ الْأَسِيفِ، فَطَلَبْتُ السَّلَوةَ فِي الشُّرُودِ بِالْمَعْرِفَةِ، فَانْدَفَعْتُ إِلَى فِكْرِ جَدِيدٍ؛ وَهَجَرْتُ الْهَيْكَلَ وَأَبْتَدَأْتُ رِخْلَتِي وَرَاءَهُ مِنْ نُقْطَةِ هَائِمَةٍ، فَانْتَهَتْ بِي قَرَايِنُهُ الرُّومِ إِلَى حَيْثُ مَكَانِي، وَكَانَ قَدَرًا مَايَعَا، فَقَدْ رَأَيْتُ بُدَيْحًا...

بَعْدَ مَقَامٍ قَصِيرٍ فِي الْبِلَاطِ «لَحِمَلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَشْفُوعَةً بِأَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ وَهَدَايَا كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمُحَاطَةً بِكُوكِبَةٍ مِنَ الْفُرْسَانِ، وَزَوْدَ الْمَلِكِ رَئِيسِ الرُّكْبِ كِتَابَةً إِلَى الْحُسَيْنِ، جَاءَ فِيهِ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اشْتَرَى جَارِيَةً فَأَعَجَبْتُهُ فَأَتَرَكَ بِهَا».

أَدْخَلْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ وَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى قُرَائِهِ، سَابِخُ فِي مَدَى تَأْمُلَاتِهِ يَقْرَأُ «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَايَ، هَذَا غُلَامٌ. وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

وكان في الجوّ الذي يكتنف الحُسَيْنَ ما أعادَ إليها ذِكرى الهَيْكَلِ، ونَقَلَهَا إلى مِثْلِ الحِرَابِ، وزادَ بها هذا الشُّعورُ، فأَعْتَقَدَتْ يَقِيناً أَنَّها لم تُعَدِّ في شَيْءٍ يَمَّا يَبْصُلُ بِدُنْيَا النَّاسِ، فَحَفَنَتْها سَكِينَةً، وَلَفَّتْها هَذَاهُ رُوحٌ، وَغَرَقَتْ في خِصَمٍ بَعِيدِ القَرَارِ. وَأَحْسَسَتْ أَنَّها مِثْلُ غُرْنِيقِ (طَيْرِ المَاءِ) تَتَرَجَّحُ به الأمواجُ الحَالِمَاتُ، وكانتْ سَكْرَى بِمَا يَسْأَقُطُ إلى سَمْعِها مِن نَعَمَاتِ مَسْحُورَةٍ، تَشْعُرُ بها في مَدَى رُوحِها عَذْبَةٌ نَدِيَّةٌ.

كانتْ لها هَذَاهُ طَوِيلَةٌ لم تُفِقْ منها إلّا على صَوْتِ الحُسَيْنِ يَسْتَقْبِلُ رَئِيسَ الرُّكْبِ، وراحَ هذا يُخْبِرُهُ بِكُلِّ خَبَرِها، وَيَزْوِي له كُلُّ ما تَرَفَّى إلى سَمْعِهِ مِن أُنْبَائِها. فَالْتَفَتَ الحُسَيْنُ إليها في آبِتِسامَةٍ مُواسِيَةٍ يَقولُ:

لَطَنِي بِكَ، وَأَنْتِ جَدِيدَةٌ عَهْدٍ بِالْاِغْتِرَابِ، أَنْكِ مَوْحِشَةُ النَّفْسِ، وَبِوَدِّي أَنْ تَتَذَارَكَكِ حَالٌ تَأْنَسِينَ بها وَتَطْمَئِنِّينَ.

قالتْ لَهُ هَوَى: كُنْتُ خَلِيقَةً بِالْوَحْشَةِ في غَيْرِ مَكَائِكَ. وَلَكِنِّي، وَأَنَا فِيهِ، فَإِنِّي جَدِيرَةٌ بِأَطْمَئِنَانٍ فِي النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ...

شاعَتْ على وَجْهِ الحُسَيْنِ آبِتِسامَةٌ هادِئَةٌ هانِئَةٌ، وقالَ دَهْشاً: لَقَدْ سَبَقَ إلى طَنِّي أَنْكِ لا تُجِيدِينَ العَرَبِيَّةَ على نَسَقِ ما أَسْمَعُ، وَلَكِنْ أَمَّا وَأَنْتِ مِثْلُ أَصِيلَةٍ في اللِّسانِ، فَلَنْ تَكُونِي غَرِيبَةً عَن حَيَاةِ بَيْعَتِنَا العَرَبِيَّةِ، إِنْ لَمْ تَتَذَوَّقِيها مِثْلَ أَصِيلَةٍ فِيها أَيْضاً...

فَأَبْتَسَمَتْ في أَشْتِخَاءٍ وإِغْضَاءٍ وَقالتْ: بَلْ يا مُؤَلَايَ - لأَجِسُ في كَنَفِكَ أَنِّي عَرَبِيَّةٌ صَلِيبَةٌ، عَرِيقَةُ الهَوَى وَالْقَلْبِ في مَوَاقِعِ رَغَبَاتِها ومُيُولِها، وَلَقَدْ حَبَّبَ إِلَيَّ لِسَانَ العَرَبِ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِن وَحْيِ الطَّبِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ، ففِيهِ صُورٌ وَأَصْدَاءٌ، وَمَنَاطِرُ تَأْمَةٍ صادِقَةٌ أَنْتَزَعَتْ مِنَ الطَّبِيعَةِ مُباشِرَةً، وَشَكِبَتْ في قَوَالِبِ

الألفاظ بدقة وحقيقة، بل لقد أفرغت الطبيعة أشياء ذاتيتها في الكلمات، كأنها طلبت حركتها الحية في اللغة.

وفي لسان العرب أيضاً مشاعر وأحاسيس إنسانية وحيوية، لم تتحرف وتتكسر بتحكم الفكر واختلافه، وبعبارة أصح تشويبه. فهذا اللسان طبيعة وحياة وإنسانية في أصدق ألوانها، ومفرداته كلمات الطبيعة أول ما تحركت ونطقت، فقد تصيدها العربي وانتحتها، وهو بعد يتوجه بالريشة النقية، دون آلتواءات الفكر والتفافاته، فهي أنقى ما تكون لغة في مذهب التعبير.

ولقد عمدت إلى كهف روحي فوجدته قائماً حالكاً، ورأيت مضباح فكري خائياً، وهو إذا توقد وسع، فلا يضيء كهف روحي، وأظلم منه في ديجور، فقد حيل بينهما بشدود كثيفة صفيقة، لكنني وجدت دينكم الجديد قد حاول، ونجح إلى أكبر حد، في رفع هذه الشدود القائمة في دروب النفس، وأدكى شغلة الفكر، فاتصل ما بين الفكر والروح بالشعاع وبث متألقه المعنى، فسكنت إلى دينكم، وطعمته أيضاً فتعشقت، إنه رفع الشدود في دروب روحي، وكانت هائمة متخبطة بين سدّ وسدّ، وأطلال خرافات وأساطير.

قال: لله أنت! أكننت حكيمة أم أديبة؟ هل «تجدين القرآن» تلاوة؟

قلت: نعم.

قال: فأقرئي عليّ، إن شئت... فراحت تثلو «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليفضى أجل مسمى، ثم إليه مرجعكم، ثم يُبْعَثُكُمْ بما كنتم تعملون. وهو القاهر فوق عباده، ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ... وَكَانَتْ تَتَوَاجَدُ فِي تِلَاوَتِهَا تَوَاجَدَ مَنْ قَدْ أُحِذَ بِنَشْوَةِ مُفَعَّمَةٍ.

قَالَ لَهَا: يُحَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ أَكْثَرُ وَغِيًّا لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، لِمَا رَأَيْتُ عَلَيْكَ مِنْ سَبَحَاتِ الْحَشْيَةِ.

قَالَتْ: يَبْذِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ ظَنِّ مُؤَلَايَ بِي. وَلِمَ لَا يَغْرُونِي مَا قَدْ عَرَانِي؟ وَأَنَا أَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ الْقَوَارِعَ الَّتِي تَجْعَلُنِي فِي مُحِيطِ عِلْمِ اللَّهِ وَكَأَنِّي كُلُّ مَا فِي الْحُيْطِ أَوْ لَيْسَ غَيْرِي فِيهِ، عَلَى أَنَّنا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي مَسَرِّحِ نَقُومِ عَلَيْهِ بِأَدْوَارِنَا، وَلَسْنَا نَذْرِي أَمْحُسِنُونَ نَحْنُ فِي أَدْوَارِنَا أَمْ مُسِيْعُونَ، ثُمَّ هَلْ هُنَاكَ أَنْتَقَى تَصْوِيرًا لِعَلَّاقَةِ اللَّهِ السَّبَبِيَّةِ فِي الْوُجُودِ، وَلِعَلَّاقَةِ اللَّهِ الْأَدَبِيَّةِ بِالْإِنْسَانِ؟ أَمَا فِي كُلِّ هَذَا مَا يَبْعَثُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالْحَشْيَةِ جَمِيعًا؟ أَمَا فِيهِ مَا يُغْرِي الرُّوحَ بِلَحْظَةِ سَكِينَةٍ وَهَذَا؟ تَأْمَلُ؟

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُقَاطِعُهَا بِقَوْلِهِ: إِلَيْهِ! إِلَيْهِ أَيْ بُنْيَّةً، فَقَدْ أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ!...

وَوَاصَلَتْ تَقُولُ: أَمَا يَجِدُ مُؤَلَايَ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا التَّعْبِيرِ «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ» مَا يَبْعَثُ عَلَى التَّأْمَلِ الطَّوِيلِ، وَيُنْشُرُ فِي الْقَلْبِ وَجْهَةً تَفْكِيرٍ مَدِيدٍ؟ هَذَا التَّعْبِيرُ الَّذِي يَرِثُهُ الْغَيْبُ فِي الْخَيَالِ عَلَى هَيْئَةٍ أَذْرَاجٍ قَامَتْ عَلَيْهَا الْأَغْلَاقُ، وَفِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ وَالطَّبِيعَةِ غَيْبٌ مَسْتَوْرٌ، أَوْ فَضَاءٌ وَدُنْيَا مِنْ عَالَمٍ غَيْبِيٍّ مَحْجُوبٍ، فَالْشَّيْءُ مِنَ الْوُجُودِ دَرَجٌ غَيْبِيٍّ يَنْسَبُخُ فِيهِ عَالَمٌ خَفِيٌّ مَدِيدٌ، وَعِنْدَ اللَّهِ مِفْتَاحُهُ، وَمَا مُحَاوَلَاتُنَا الْحَثِيئَةَ فِي آسْتِكْنَاهِهِ إِلَّا غَوْصٌ وَوُقُوفٌ عِنْدَ الشَّاطِئِ بِإِزَاءِ هَذَا الْمَجْهُولِ الْمُتَنْظَرِ وَضُوحُهُ بِكَلِمَةِ «مِفْتَاحِ» الدَّائِرَةِ فِي حَرَكَتِهَا عَلَى الْأَغْلَاقِ.

قَالَ: لَقَدْ زِدْتَ عَلَى الْإِحْسَانِ، أَيْ بُنْيَّةً... وَأَضْفَى صُمُوتٌ طَوِيلٌ كَانَ

مَسْرَحَ خِوَاطِرِ شَتَّى، وَلَكِنَّ الْحُسَيْنَ قَطَعَهُ بِقَوْلِهِ:

أَلَا تَزْوِينَ «شَيْعاً مِنْ شَيْعِرِ الْعَرَبِ» وَأَذْبِهِمْ؟

قَالَ: بلى... وَكَانَتْ لَمْ تَزَلْ فِي إِثَارَةٍ مِنْ صَوْفِيَّتَيْهَا، فَأَنْشَدَتْهُ أَيْبَاتاً جَاءَ

بَيْنَهَا:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

وَلَذَّاهَا الْإِنْشَادُ فِي هَذَا اللَّوْنِ الْمُبْطِنِ بِالزَّوْجِ وَلَفْتَاتِ الْإِشْرَاقِ، فَأَنْشَدَتْهُ شِعْراً
سَبَقَ لَهَا أَنَّهَا أَنْشَأَتْهُ مُعَبَّرَةً عَنْ شُعُورِ نَفْسِهَا «فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ»، وَمَا قَدْ كَوَّنَتْهُ مِنْ
نَظَرَةٍ إِلَى الْحَيَاةِ وَقِيَمَتِهَا وَمُجْهِدِ الْحَيِّ فِيهَا:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَمْضِي وَيَجْمَعُ مُجْهِدُهُ رَجَاءَ الْغِنَى، وَالْوَارِثُونَ قُعُودُ

وَمَا لِلْفَتَى إِلَّا نَصِيبٌ مِنَ الثَّقَى إِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ يَعُودُ

فَلَمْ يَمْلِكِ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يَتَوَاجَدَ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَاضَ فِي قَلْبِهِ يَنْبُوعُ حَنَانٍ،
تَنَدَّتْ مَعَهُ مُقْلَتَاهُ، وَتَبَلَّوْرَ فِيهِمَا مِثْلُ الدَّمْعِ، وَإِلَّا فَهُوَ عُصَارَةُ شُعُورٍ بَعَثَتْ الثَّقَى.
ثُمَّ قَالَ لَهَا: إِذْهَبِي «فَأَنْتِ حُرَّةٌ، وَمَا بَعَثَ بِهِ مُعَاوِيَةُ مَعَكَ فَهُوَ لَكَ»، عَلَى أَنَّكَ
عِنْدِي أَبَدًا مِثْلُ كَرِيمَةٍ عَزِيزَةِ الْمَكَانِ فِي هَوَى أَهْلِهَا...

وَمَا هُوَ حَتَّى أَقْبَلَ بُدَيْعَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَوْفَدَهُ مَوْلَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ
إِلَى دَعْوَةِ الْحُسَيْنِ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى مَهَاةَ قَلْبِهِ مَرَّةً أُخْرَى، بَيَّنَّ
أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ أَغْنَفَ شُعُوراً بِهَا، فَقَدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ هَوَاهُ فِي دِمَشْقَ، وَقَدْ
أَحَالَتْ قَلْبَهُ الَّذِي كَانَ كَثِيلُو تَنَاهَى فِي حُبِّ ضَاوِرٍ قَدِيمٍ، إِلَى قَلْبٍ جَدِيدِ حَيَاةٍ،
أَنْصَبَ فِيهِ جَدِيدُ حُبٍّ مَا فَضَلَ عَنْهُ أَمْسٌ وَعَدَّ. فَتَاهَتْ حُرُوفُ كَلِمَاتِهِ فِي فَمِهِ،
وَأَخْضِرَتْ مُضْطَرِبَةً عَلَى لِسَانِهِ، وَقَسَرَأَ وَجَمَ فِي دُحُولِ طَالٍ بِهِ مَدَاهُ...

وَتَدَارَكُهَا مِثْلُ شُعُورِهِ وَغُصَّةِ قَلْبِهِ فَانْخَطَفَ لَوْنُهَا، وَالْحُسَيْنُ يَرَى فَأَطْرَقَ
إِطْرَاقَةً مَائِجَةً بِالْإِيحَاءِ. مَرَّ فِي خَاطِرِهِ مَعَهَا أَنَّ بُدَيْحاً يَنْتَهِي إِلَى مِثْلِ غُرْبَتِهَا، فَغَيْرُ
بَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ ذَاتَ هَوًى بِهِ وَضَرَبَ الزَّمَانُ بَيْنَهُمَا، فَبَاعَدَهُمَا قَدَرٌ عَادَ فِي دَوْرَةِ
أُخْرَى يَضُمُّهُمَا... وَجَدِيذٌ بِي أَنْ أَكُونَ خَطَّ النِّهَايَةِ فِي دَوْرَةِ الْقَدَرِ الْمُبْهَمَةِ،
فَالْتَفَتَ إِلَى بُدَيْحٍ وَقَالَ:

كُنْتُ عَلَى أَهْبَةِ أَنْ أَسْتَقْدِمَكَ إِلَيَّ يَا بُدَيْحُ، فَسَقَطْتُ مِنْ نَفْسِي عَلَى مَوْعِدٍ،
أَنْتَ عِنْدِي مِثْلُ كَرَمٍ عَزِيزٍ، وَهِيَ عِنْدِي مِثْلُ... فَاسْتَحَفَّ بِبُدَيْحٍ عَاصِيفُ فَوْحَةٍ
كُبْرَى، حَتَّى كَأَنَّهُ دَفَعَ إِلَى الْخُلْدِ مِنْ نَافِذَةٍ، بَعْدَ أَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَابِ طَوِيلًا.
وَلَمْ يَزَلْ مُكَبِّبًا عَلَى يَدِ الْحُسَيْنِ يُقْبِلُهَا، فِي مَوْضِعٍ تَلَاقَى عَلَيْهِ ثَغْرَانِ: ثَغْرُهُ وَثَغْرُهَا.
وَكَانَ فِي مَنْظَرٍ وَضَعِيهِمَا مَا أَفْعَمَ قَلْبَ الْحُسَيْنِ بِغِبْطَةِ الرُّوحِ «فَفَاضَتْ مُقْلَتَاهُ»
بَدْمَعِ الشُّرُورِ، الشُّرُورِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ. وَبَذَلَ لَهُمَا «أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَامَ إِلَى صَلَاتِهِ»
هَانِيءَ الْقَلْبِ رَيَّانَ، نَاعِمَ الصَّمِيرِ نَشْوَانَ...

*

جَاوَرَا يَفْتَنِيصُونَهُ بَغَانِيَةً مِنْ فُتُونِ الدُّنْيَا...
لَعَلَّهُمْ يَهَيِّطُونَ بِهِ إِلَى مِثْلِ خَضِيضِهِمْ وَرُغَامِهِمْ...
بَيِّدَ أَنَّهَا مَا آسَتْهُوَتْهُ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ آسَتْهُوَاهَا...
فَقَدْ مَسَّهَا بِشُغْلَةٍ مِنَ الْإِشْرَاقِ، غَدَّتْ بِهَا خَلْقًا آخَرَ...

*

وَجَدَ قَلْبًا حَائِرًا يَنْحُثُ عَنْ قَلْبِ تَائِهِ...
وَكُلَّمَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْتَقِيَا، يُضْبِعَانِ الطَّرِيقَ مَرَّةً أُخْرَى...

فَكَانَ هُمُ أَنْ يَصْنَعَهُمَا سَعِيدَيْنِ.. فَضَمَّ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ، وَمَزَجَ نَفْسًا
بِنَفْسٍ!....

* * *

إستشارة

أَفَاقَ مَنْ فِي الْبَلَاطِ الْأُمَوِيِّ، عَلَى حَرَكَاتٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ، أَمْتَارَتْ بِالنَّشَاطِ فِي تَجْمُعَاتِ تَشَاوِيرِ هَامِسٍ، وَكَانَ جَوْ هَذَا التَّجْمُوعِ مَطْبُوعاً بِطَابِعِ الْاهْتِمَامِ وَالْحِدِّ، فَقَدْ أَرْمَعَ أُسَاطِينُهُ إِحْدَاثَ أَنْقِلَابٍ خَطِيرٍ يَمَسُّ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحُكْمِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ أَرْمَعُوا عَلَى أَخْذِ الْعَرَبِ بِحُكُومَةِ الْفَرْدِ، بَعْدَ أَنْ رَاضُوهُمْ عَلَيْهَا أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ، وَبِأَسَالِيبِ كُلِّهَا الْعُنْفُ وَالْاِغْتِسَافُ فِي فَتْرَةٍ طَالَتْ دَوَابَّتُهَا، فَكَانَتْ تَارِيخًا أَمْتَلًا بِشُهَدَاءِ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ فِي مَذْهَبِ الْحُكْمِ.

وَكَانَ قَدْ سَبَقَ الْمَلِكُ وَوَجَّهَ دَعْوَةً عَامَّةً إِلَى أُمَرَاءِ الْأُمَصَارِ، فَاجْتَمَعُوا لَدَيْهِ يَنْتَظِرُونَ سَمَاعَ الْمُفَاجَأَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ هَذَا الْاهْتِمَامِ أَنْ يَنْطَوِيَ عَلَيْهَا. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَكَلَّمَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَكَانَتْ السُّنُّ قَدْ تَنَاهَتْ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَبِينُ، فَقَالَ: تَعْرِفُونَ أَنَّكُمْ الشُّعُورُ دُونَ الدُّنَا عِنْدَ الْمَلِكِ، فَعَلَيْكُمْ يَعْتَمِدُ، وَأَنْتُمْ الْبِطَانَةُ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَّكِلُ، فَمَصَالِحُكُمْ مُزَبَّطَةٌ، وَأَمْرُكُمْ بِأَمْرِهِ مُتَّصِلٌ، وَقَدْ آتَجَّهَ رَأْيِي الْمَلِكُ إِلَى أَمْرِ خَطِيرٍ أَحَبُّ أَنْ يُفَاوَضَكُمْ بِهِ، وَيَشْتَشِيرَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْتَرِمُهُ وَيَعْقِدَهُ... فَاشْرَأَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ وَتَطَلَّعُوا فِي إِضْغَاءٍ مُوَهَّفٍ، وَوَاصَلَ الْمُغِيرَةَ:

رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ لَا يُثْرَكَ النَّاسُ، بَعْدَهُ، سُدِّي «كَالضَّأْنِ لَا رَاعِي لَهَا»، وَقَدْ اخْتَارَ أَبْنَهُ الرَّشِيدَ يَزِيدَ، وَمَنْ أَكْفَأُ بِأَعْيَاءِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ؟ وَزَمَاهُمْ بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ

مُتَحَدِّثِيَّةٍ، وراحوا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَفَّهُمْ صَمْتُ طَوِيلٍ قَطَعَهُ زِيَادٌ بِقَوْلِهِ:

«إِنَّ عِلَاقَةَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَضْمَانُهُ عَظِيمٌ، وَزَيْدٌ صَاحِبُ رِسَالَةٍ وَتَهَاوُنٍ، مَعَ مَا قَدْ أُولِعَ بِهِ مِنَ الصَّيْدِ، فَوَزَيْدُنَا بِالْأَمْرِ... فَأَقِمْنَ أَنْ يَتِمَّ لَنَا مَا نُرِيدُ. وَلَا نَعْجَلْ، فَإِنَّ دَرْكَاً فِي تَأْخِيرٍ، خَيْرٌ مِنْ تَعْجِيلٍ عَاقِبَتُهُ الْفَوْتُ»، فَقَدَفَهُ الْمُغِيرَةَ بِنَظَرَةٍ شَزْرَةٍ صَاعِقَةٍ، وَقَالَ:

أَكُنْتُ تَظُنُّ أَنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَغْنَاهَا إِبْدَاءُ الرَّأْيِ؟ وَهَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَأْيِ أُمْنَالِكَ؟ إِنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَغْنَاهَا السَّمَاعُ وَالتَّنْفِيدُ وَالطَّاعَةُ فَقَطْ حَسَبُ. فَهَبْ عُثَيْدُ بْنُ كَعْبٍ التَّمِيمِيُّ، وَكَانَ مُشْتَشَارَ زِيَادٍ، يَشْرُحُ كَلَامَهُ وَمَا قَصَدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

نَعَمْ. هُوَ مَا تَقُولُ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَزِيَادٌ «لَمْ يُرِدْ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى الْمَلِكِ رَأْيَهُ وَيُمَقِّتَ إِلَيْهِ آبَتَهُ. وَلَئِنَّمَا قَصَدَ أَنْ يُخَوِّفَ زَيْدَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ لِهَيْبَاتِ يَتَقِمُونَهَا عَلَيْهِ، فَتَسْتَحْكِمَ لِلْمَلِكِ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْهَلُ لَهُ مَا يُرِيدُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: نَعَمْ مَا قُلْتَ، وَنَعَمْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ زِيَادٌ».

وَلَمْ يَكُنْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى أُعْلِنَ ذَلِكَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ عَلَى النَّاسِ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ قَدْ حَفَلَ لَهُ، وَطَلَبَ الْوُفُودَ مِنْ كُلِّ الْأَمْصَارِ، «وَقَرَأَ عَلَى الْجُمُوعِ عَهْدَهُ، وَفِيهِ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِيَزِيدَ»، فَأُصِيبَ بَعْضٌ بِمِثْلِ الذُّهُولِ، وَبَعْضٌ بِمِثْلِ الطُّيْشِ، وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ صَنَائِعُ ذَهَبُوا يُطَرَّبُونَ وَيُزَيَّنُونَ، «فَقَامَ الصُّحَاكُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَالٍ بَعْدَكَ، وَالْأَنْفُسُ يُغْدِي عَلَيْهَا وَيُرَاحُ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، وَلَا تَدْرِي مَا يَخْتَلِفُ بِهِ الْعَصْرَانِ. وَزَيْدُ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي مُحْسِنٍ مَعْدِنِهِ وَقَصْدٍ سِيرَتِهِ، مِنْ أَفْضَلِنَا جِلْماً وَأَحْكَمِنَا عِلْماً، فَوَلَّهِ عَهْدَكَ، وَاجْعَلْهُ لَنَا عِلْماً بَعْدَكَ. فَإِنَّا قَدْ بَلَوْنَا الْجَمَاعَةَ وَالْأُلُفَّةَ، فَوَجَدْنَاهَا أَحْقَنَ لِلدَّمَاءِ وَأَمَنَ لِلشُّبُلِ وَخَيْرَآ فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ».

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ:

«أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ يَزِيدَ أَمَلٌ تَأْمَلُونَهُ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ، طَوِيلُ الْبَاعِ، رَخْبُ الدَّرَاعِ، إِذَا صِرْتُمْ إِلَى عَدْلِهِ وَسِعَتْكُمْ، وَإِنْ طَلَبْتُمْ رِفْدَهُ أَغْنَاكُمْ. جَذَعٌ قَارِغٌ، سُوبِقٌ فَسْبَقٌ، وَمُوجِدٌ فَمَجَدٌ، وَقُورِعٌ فَقَرَعٌ. خَلَفًا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا خَلَفَ مِنْهُ...»
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنْ جَلَسَ، أَبَا أُمَيَّةَ، فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ.

فَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: «أَنْتَ أَعْلَمُ بِيَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَمَذْخِلِهِ وَمَخْرَجِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ لِلَّهِ رِضَى وَلِهَذَا الْأُمَّةِ، فَلَا تُشَاوِرِ النَّاسَ فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا تُزَوِّدُهُ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَذْهَبُ إِلَى الْآخِرَةِ». فَأُحْسِنَ يَزِيدُ بْنُ الْمُقَفِّعِ، فَوَثَبَ مُزْعِدًا مُبْرِقًا، وَقَالَ:

«أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا» وَأَشَارَ إِلَى مُعَاوِيَةَ «فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا» وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ، «فَمَنْ أَبِي فَهَذَا...» وَأَشَارَ إِلَى السَّيْفِ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: آجِلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخُطَبَاءِ.

وَقَامَ الْمَشْكِينُ الدَّارِمِيُّ الشَّاعِرُ، فَأَنْشَدَ:

إِذَا الْمَيْتَرُ الْغَرْبِيُّ خَلَّاهُ رَبُّهُ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ
وَتَهَيَّأَ مُعَاوِيَةُ، فَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْمُبَايَعَةِ «فَقَالَ رَجُلٌ: أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ».

قَالَ مُعَاوِيَةُ لَهُ: تَعَوَّذْ مِنْ شَرِّ نَفْسِكَ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْكَ، وَبَايِعْ.

فَقَالَ: إِنِّي أَبَايِعُ وَأَنَا كَارِهٌ لِلْبَيْعَةِ.

قَالَ لَهُ: بَايِعْ أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا».

وما هو إلا أن حمَلَ النَّاسَ على البيعة في الشَّامِ والعِراقِ، فَتَوَجَّهَ مُعَاوِيَةُ لِإِعْدَادِ الرَّأْيِ العامِّ في المَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ البيعةِ. «فَكَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، وَكَانَ عَامِلُهُ على المَدِينَةِ، أَنْ آذِخَ النَّاسَ عِنْدَكَ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، فَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ والعِراقِ قد بَايَعُوا. فَخَطَبَهُمْ مَرْوَانُ فَخَضَّهْمُ على الطَّاعَةِ وَحَذَّرَهُمُ الفِتْنَةَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، وَقَالَ هِيَ سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ الهَادِيَةِ المَهْدِيَّةِ».

فَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَقَعُ النَّارِ في الهَشِيمِ، وَسَرَتْ بَيْنَ الْجُمُوعِ نَأْمَاتُ اسْتِنْكَارٍ، وَأَصْوَاتُ تَسْخِطٍ، وَتَزَايِدَ بِهِمْ هَذَا الاسْتِنْكَارُ وَهَذَا التَّسْخِطُ، فَأَنْدَفَعُوا يَطْعَنُونَ وَيُقْذِعُونَ فِي الطَّعْنِ، وَمَضَوْا يَنْشُرُونَ الاِخْتِجَاجَ نَفْراً دُونَ رِعَايَةِ وَحَذَرٍ.

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: «مَا صَدَقْتَ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ والعَشِيرَةَ، وَبَايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينُهُ وَأَمَانَتُهُ، وَأَخْتَارَهُ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ... وَتَرَادَا طَوِيلًا، وَأَنْتَقَلَ بِهِمَا التَّجَاوُزُ إِلَى التَّشَاوُشِ والمُهَايَزَةِ مِنْ قِبَلِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ «هَذَا الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: «وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفْ لَكُمْ، أَنْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفِينَا تَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ؟»...

وَقَطَعَ الحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا، إِذْ هَبَّ وَاقِفًا، وَعَلَى سِمَائِهِ مَشَتْ غَضَبُهُ مَكْظُومَةٌ رَاحَتْ تَنْطَلِقُ، وَقَدْ وَجَدَتْ سَبِيلَهَا:

«إِلَى النَّارِ تَذْفَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ الْعَارِ»، لَقَدْ حَمَلُوا أَطْمَاعَكُمْ مُتَبَرِّمِينَ، وَتَرَكَوْا لَكُمْ أَنْتِهَابَ الدُّنْيَا كَمَا شِئْتُمْ وَشَاءَ الهَوَى، وَلَكِنْ آخِلَوْا فِي أَفْوَاهِكُمْ المُسْتَوْخَمَ فَتَخَطَّيْتُمُ الدُّنْيَا إِلَى الْعَبَثِ بالدِّينِ، فَأَخْرَبْنَا أَنْ تَذْفَعَ النَّارَ بِالنَّارِ.. وَمَا هُوَ حَتَّى هَبَّ النَّاسُ يُنْكِرُونَ وَلَايَةَ يَزِيدَ فِي مِثْلِ الزُّرْئِيرِ الدَّامِي.

فَكَتَبَ مَرْوَانُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِذَلِكَ ، فَأَقْبَلَ إِلَى المَدِينَةِ فِي أَلْفٍ، فَلَمَّا قَارَبَهَا تَلَقَّيْتُهُ

الْجُمُوعُ عِنْدَ مَا تِيهَا وَمَدَاخِلُهَا، وَمَا أَخَذَ نَظْرُهُ الْحُسَيْنَ حَتَّى قَالَ: مَوْحِبًا بـ «سَيِّدِ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ»، قَرَّبُوا دَائِبَةً لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ. وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلِابْنِ الزُّبَيْرِ. ثُمَّ أَنْطَلَقَ بِهِمْ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَقَضَى حُجَّه، وَلَمَّا أَرَادَ الشُّخُوصَ أَمَرَ بِأَتْقَالِهِ فَقُدِّمَتْ، وَأَمَرَ بِالْمُنْبَرِ فَقَرَّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَهُنَا بَدَأَ مُفَاجَأَتَهُ الْإِنْتِخَابِيَّةَ دُونَ تَقْيِيدِ بَعْضِهِ أَوْ قَانُونٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعُصْبَتِهِ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِمْ مَا يَفْتَلِحُ فِي نَفْسِهِ، فَاجْتَمَعُوا وَتَدَبَّرُوا الْأَمْرَ مِنْ كُلِّ وَجْهِهِ، وَتَرَكَوا الْمُرَادَّةَ وَالْمُدَارَهَةَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَوَحَّشَ بِهِمْ، وَقَالَ:

«قَدْ عَلِمْتُمْ نَظْرِي لَكُمْ وَتَعَطُّفِي عَلَيْكُمْ وَصِلَتِي أَرْحَامَكُمْ، وَزَيْدُ أَخُوكُمْ وَابْنُ عَمِّكُمْ. وَلَئِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ الْأَمْرَيْنِ النَّاهِيَيْنِ يَدِيهِ». فَزَادَ ابْنُ الزُّبَيْرِ:

«عِنْدَنَا إِحْدَى ثَلَاثٍ، أُيُّهَا أَخَذَتْ فِيهِ لَكَ رَغْبَةً وَفِيهَا نِيَّازٌ، إِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص)، قَبِضْهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَحْلِفْ، فَدَخَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ لِأَنْفُسِهِمْ. وَإِنْ شِئْتَ فَمَا صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ: عَهْدَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَاصِيَةِ قُرَيْشٍ، وَتَرَكَ مِنْ وَلَدِهِ وَمِنْ رَهْطِهِ الْأَذْنَيْنِ مَنْ كَانَ لَهَا أَهْلًا. وَإِنْ شِئْتَ فَكَمَا صَنَعَ عُمَرُ: صَيَّرَهَا إِلَى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَخْتَارُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ، وَتَرَكَ وَلَدَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَوْ وَلِيَهَا لَكَانَ لَهَا أَهْلًا».

قَالَ مُعَاوِيَةُ: هَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِينَ: مَا عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ عَلَى مَا قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنِّي أَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ أَغْدَرَ مَنْ أُنْذَرَ، «فَأَنَا قَائِمٌ فَقَائِلٌ مَقَالَةً، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَئِنْ رَدَّ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ كَلِمَةً فِي مَقَامِي هَذَا، لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِ كَلِمَتُهُ حَتَّى يُضْرَبَ رَأْسُهُ»... وَأَمَرَ أَنْ يَقُومَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، وَخَرَجَ وَأَخْرَجَهُمْ مَعَهُ حَتَّى رَقِيَ الْمُنْبَرِ، وَخَفَّ بِهِ أَهْلُ الشَّامِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ.

فَقَالَ، بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالشَّائِءِ عَلَيْهِ: «إِنَّا وَجَدْنَا أَحَادِيثَ النَّاسِ ذَاتَ غَوَارٍ، قَالُوا: إِنَّ حُسَيْنًا، وَأَبْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَأَبْنَ عُمَرَ، وَأَبْنَ الزُّبَيْرِ لَمْ يُبَايَعُوا لِيَزِيدَ، وَهَؤُلَاءِ الرَّهْطُ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارُهُمْ لَا نُبْرِمُ أَمْرًا دُونَهُمْ، وَلَا نَقْضِي أَمْرًا إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِمْ، وَإِنِّي دَعَوْتُهُمْ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَبَايَعُوا وَسَلَّمُوا وَأَطَاعُوا»... ثُمَّ قُرِبَتْ رَوَاجِلُهُ فَرَكِبَ وَمَضَى إِلَى الشَّامِ، تَارِكًا النَّاسَ فِي دَهْشَةٍ الْمَفَاجَأَةِ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنَهَالُوا أَحْيَرًا عَلَى الْحُسَيْنِ وَأَصْحَابِهِ يَشْتَبِهُونَهُمْ، فَأَجَابُوا: «كَأَنَّا بِكُمْ وَكَأَدَّكُمْ بِنَا».

كَذَلِكَ أَنْتَهَتْ الْمَفَاجَأَةُ الَّتِي حَبَّكَهَا مُعَاوِيَةُ، وَطَلَعَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، غَيْرِ عَابِيءٍ بِأَنَّهُ أَقَامَ وِلَايَةَ وَلَدِهِ عَلَى الْبُرُكَانِ، وَوَضَعَ الْقُنْبَلَةَ فِي أُسُسِ الْبِنَاءِ.

فَإِنَّ الْحُسَيْنَ - الَّذِي شَهِدَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْحُكْمِ أَزْمَانَ جَدِّهِ وَأَبِيهِ وَمَنْ يَتَّبِعُهُمَا، وَتَقَلَّبَ فِي الثُّورَةِ عَلَى الْحُكْمِ الشَّاذِّ، وَخَاضَ مَعْمَعَةَ الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى الَّتِي كَالَهَا وَالِدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَأَشَّبَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الشَّعْبِ وَخُصُومُ حُرِّيَّتِهِ، وَرَافَقَ حَرَكَةَ التَّطْهِيرِ الَّتِي بَدَلَتْ فِيهَا مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ - يَجِبُ أَنْ يُغَضَّبَ، وَأَنْ يَتَنَمَّرَ، وَأَنْ يَتُدْفَعَ مُتَلَطِّيًا، وَأَنْ يَثُورَ مُبَغِّثًا فَبِنَاءً.

فَإِنَّ الْبِنَاءَ عَلَى الْفَسَادِ تَزْمِيْمٌ لِلْفَسَادِ، وَأَصْطِنَاعٌ لِفَسَادٍ آخَرَ جَدِيدٍ. بَيِّنْدُ أَنَّهُ فِي صُورَتِهِ الْجَدِيدَةِ فَسَادٌ مُرَكَّبٌ، وَهُوَ أَغْقَدُ أَمْرًا، وَأَكْثَرُ حَيَوِيَّةً، وَأَطْوَلُ بَقَاءً وَنِضَالًا.

لِذَلِكَ كَانَ عَمَلُ الْمُصْلِحِينَ الْحَقِيقِيِّينَ هَدْمًا وَبِنَاءً، وَلِذَلِكَ كَانَ الشَّطْرُ الْأَوَّلُ دَائِمًا أَرْوَعَ وَأَشَقَّ وَأَقْدَسَ، فَهُوَ كِفَاحٌ وَتَضَحِّيَّةٌ وَتَغْيِيدٌ.

وَبِهَذَا، وَلَهُ فَقَطْ، رَأَيْنَا الْحُسَيْنَ يُوَلِّي وَجْهَهُ قِبَلَ الثُّورَةِ، قِبَلَ الْإِنْتِشَاءِ وَالْخَلْقِ مِنْ جَدِيدٍ.

*

فَلَمَّا يَبْزُزُ الْأَسَدُ، إِلَّا عِنْدَمَا تَتَنَاقُحُ الْأَرْجَاءُ بِالْعَوَاصِفِ...
كَأَنَّهُ يَأْبَى عَلَيْهَا أَنْ تُبَدِّدَ أَمْنَ الْغَابِ وَشُكُونَ جَلَالِهِ...
وعندما آخَتَدَمَتْ عَوَاصِفُ الْأَهْوَاءِ، أَنْطَلَقَ أَسَدُ الْإِنْسَانِيَّةِ يَدْفَعُ الْعَادِيَاتِ
عَنِ الْإِنْسَانِ...

*

الْبُزُكَانُ نَذِيرٌ بِالْإِنْفِلَابِ...
وَكَانَ الْحُسَيْنُ بُزُكَانَ الْإِصْلَاحِ...
وَقَدْ مَضَى كُلُّ مُصْلِحٍ بِقَبَسٍ مِنْ ذَلِكَ الْبُزُكَانِ، يُزِيلُهُ مَنَاراً يَهْدِي فِي
الْحَلَكِ!...

* * *

الحمد لله

في صَبِيحَةِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ، أَفَاقَ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى أَصْوَاتِ
الْغِلْمَةِ، يَمْرُحُونَ فِي الْأَرْقَةِ، وَهُمْ يَتَنَاشِدُونَ مَقَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَلَالِ السَّلُولِيِّ:

إِصْبِرْ يَزِيدُ... فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَّةٍ وَأَشْكُرُ جِبَاءَ الَّذِي بِالْمَلِكِ حَابَاكَ

لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ، قَدْ عَلِمُوا بِمَا رَزِئْتَ، وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ

فَأَذْرَكُوا أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَدْ قَضَى، وَأَنَّ يَزِيدَ قَدْ خَلَفَهُ، فَانْقَلَبُوا وَبَعْضُهُمْ يُحْرِقُ
الْأُرُومَ، وَيَتَمَيِّزُ حَقَقًا، وَبَعْضُهُمْ يَشُدُّ عُضْوَتَهُ تَجْهَمًا، وَيَدْعُ وَجْهَهُ يَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ
دَهْشَةً وَرُغْبًا. وَمَشَى الْخَبَرُ كَمَا يَمْشِي النَّعْيُ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى الْحُسَيْنِ فَعِينَ عَلَيْهِ
حَتَّى الْإِعْمَاءِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ دَارَتْ بِهِ دَوْرَتَهَا سَرِيعَةً سَرِيعَةً، وَاللَّمْ بِهِ إِطْرَاقُ عَنيفٍ،
كَانَ مَزِيحًا مِنَ اللَّوْعَةِ الْمُرَّةِ، وَالْأَسَى الْحَادِّ، وَالتَّنَمُّرِ الْعَضُوبِ. عَلَى أَنَّهُ طَفِيقٌ يُنَاجِي
نَفْسَهُ، وَقَدْ تَبَدَّتْ لَهُ مَاضِيَاتُ الثَّبَوَةِ وَدُنْيَا الْقُرْآنِ وَجَلَائِلُ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ:

إِلَهِي! مَاذَا أَسْمَعُ؟ أَيْكُونُ يَزِيدُ خَلِيفَتَكَ فِي عِبَادِكَ، وَهُوَ مَنْ عَزَفْتَهُ صَارِمًا لَا
يَشْعُرُ بَعِيرُ وُجُودِهِ، أَوْ يَشْعُرُ بِوُجُودِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ فِي مَذْهَبِ نَهْمِهِ الدَّامِي
الْمُفْتَرِسِ، مِثْلَمَا تَشْعُرُ الذُّنَابُ بِوُجُودِ فَرَائِسِهَا الَّذِي هُوَ مُبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ الشُّعُورِ بِغَيْرِ
وُجُودِهَا فَقَطُّ، إِنَّهُ يَشْعُرُ بِهِمْ شُعُورَ الْإِمْتِصَاصِ وَإِزْوَإِ نَهْمِ الذَّاتِ، إِنَّ ظُمَأَتَهُ
تَطْلِفُ بِهِمْ مُحَاوَلَةً لَوْ تُحِيلُهُمْ قَطْرَةً تُنْثِي بِهَا لُعَابَهَا.

أَيَكُونُ يَزِيدُ الْقَائِمُ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِكَ؟ وَشَرِيعَتُهُ ذَوْبٌ رَحْمَةٍ فِي ذَوْبٍ
عَدَالَةٍ وَرَفَقٍ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَجِدَ مَكَانَهَا فِي غَيْرِ ضَمِيرٍ فِيهِ مِنْ مَعْنَاهَا، وَفِيهِ مِنْ
رُوحِهَا؛ وَإِلَّا فَهِيَ عَافِيَةٌ كَالطَّلَلِ، وَذَاوِيَّةٌ كَالْهَشِيمِ يَغْبُثُ بِهَا الْهَوَى، وَيَتَقَادُّفُهَا
مِثْلَ أَوْرَاقِ الْحَرِيفِ، فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ، وَيَتَنَزَّلُ الْمَغَاوِرِ وَالْكُهُوفِ الضَّاحِجَةِ بِالْفُسُوقِ.

إِنَّ الشَّرِيعَةَ، كَكُلِّ تَعْلِيمٍ، كَائِنٌ يَزْدَوِجُ بِالْحَيَاةِ، فَيَتَفَعَّلُ بِهَا لِيُحْيَا، وَيَفْعَلَ فِيهَا
لِتَوْقَى. فَإِذَا لَمْ يَتِمَّاسًا ظَلَّتِ الْحَيَاةُ جَامِخَةً فَاجِرَةً، وَظَلَّتِ الشَّرِيعَةُ مِثْلَ شَرَارَةِ
مَخْرُونَةٍ لَمْ تَنْقَدِخْ فِي قَمِ الْمِضْبَاحِ فَتُحْيَا بِهِ وَيَنْطِقُ بِهَا، صَادِعًا بِلِسَانِ الضَّيَاءِ،
وَمُغْلِنًا بَبْدَاءِ الثُّورِ.

إِنَّ شَرِيعَةَ رَسُولِكَ وَجَدَتْ حَيَاتَهَا فِي حَيَاتِهِ، وَاسْتَمَدَّتْ رُوحَهَا مِنْ رُوحِهِ،
فَقَرَّامَتْ بِالضَّيَاءِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَطَبَعَتْ بِحَقِيقَتِهَا مَادَّةَ الزَّمَانِ، فَسَعِدْنَا حِينَا بَدُنَا
الْقُرْآنَ.

على أَنَّهُ عَادَ إِلَى اسْتِعْرَاقِهِ، وَكَانَ أَيْضًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ لَمْ يَبْرَحْ حَتَّى سَاوَرَهُ
غَضَبٌ مَكْظُومٌ اسْتَعَلَّ فِي عَيْنَيْهِ، وَرَاحَ يُنَاجِي نَفْسَهُ فِي نَبْرَاتٍ حَادَّةٍ كَأَنَّهَا
تَلْتَهَبُ:

نعم. نعم. نحنُ بَايَعْنَا اللَّهَ عَلَى التَّقْوَى، وَلَنْ تُبَايِعَ إِلَّا عَلَيْهَا، أَوْ نَمُوتَ فِي
سَبِيلِهَا. أَلَا إِنَّهُ اخْتَارَنَا لِحَمَلِ أَمَانَتِهِ الْعُظْمَى، وَانْتَظَرَ مِنَّا الْوَفَاءَ وَالْإِفْتِدَاءَ بِكُلِّ
عَظِيمٍ. وَمَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فَقَدْ أَرْخَصَهَا لَهُ.

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيُبْعِثُكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ السَّمَوَاتِ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ لَمْ يَتَأَنَسْ قَلْبُهُ بِالْإِشْرَاقِ - عَاهَدَ إِنْسَانًا،
وَاسْتَجَابَ حِينَ دَعَاهُ الْوَفَاءُ، وَكَانَ دَامِيًا.

إِسْتَجَابَ جَاهِلِيٌّ لِلشَّرَفِ، فَكَيْفَ لَا أَسْتَجِيبُ لِلإِيمَانِ؟ إِنِّي إِذَا لَنَكَلُ
نَحْوًا...
«أَلَمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ...»

وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ...

وَاللَّهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، جَارِي...»

فَكَفَيْتَ إِذَا بِالْعَارِ وَالنَّارِ، أَجْمَعَهُمَا عَلَى نَفْسِي فِي دُنْيَا الظَّالِمِينَ...!
وَيَنْمَا الْحُسَيْنُ فِي سَبْحَاتِهِ الْقُدْسِيَّةِ وَنَجْوَاهُ الْمَائِجَةِ بِرُوحِ الْأَصْطِفَاءِ، تَبَدَّى
لِنَظَرِيهِ، فِي وَجْهَةِ قَلْبِهِ، أَطْيَافٌ يَسْتَمِلُهَا الرِّضَا، وَتَلْفَعُهَا نَشْوَةُ الْأَغْتِبَاطِ، وَهِيَ
ثُبَارُكُهُ وَتَشْدُ عَزْمُهُ، وَتُهَيِّبُ بِهِ إِلَى الْوَثْبَةِ، إِلَى الْوَثْبَةِ الْكُبْرَى، فَهَتَفَ مُسْتَبْشِرًا:
رَبَّاهُ! مَاذَا أَرَى؟ إِنَّهَا أَطْيَافُ جَدِّي الْمُصْطَفَى، وَأَبِي الشَّهِيدِ، مِنْ وَرَائِهِمَا
الْمَلَائِكُ، تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ، إِلَى التَّضْحِيَةِ الْعُظْمَى.

كَانَ الْكَبْشُ، فِي يَوْمٍ، فِدَاءَ نَبِيِّ «فِي حِكَايَةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْنَيْهِ»...

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ الْفِدَاءُ الْأَعْظَمُ...

وَحَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْفِدَاءَ... «فِي حِكَايَةِ الْأَسْتِشْهَادِ يَوْمَ
كَرْبَلَاءَ».

*

كَانَ الْحُسَيْنُ لَمْ يَزَلْ فِي نَجْوَاهُ، حِينَ «أَسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ»، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، رَسُولُ
الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ يَدْعُوهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْحُسَيْنُ بِالْإِنْقِلَابِ إِلَيْهِ، وَقَامَ
الْحُسَيْنُ، وَجَمَعَ بَعْضًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَمَوَالِيهِ، وَأَمَرَهُمْ بِحَمْلِ السَّلَاحِ، فَأَنْتَهَى إِلَى
الْوَلِيدِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ:

إِذَا دَخَلْتُ فَاجْلِسُوا عَلَى الْبَابِ، وَإِنْ دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتِي قَدْ عَلَا،
فَاقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُخْرِجَ إِلَيْكُمْ. فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى
الْوَلِيدِ - وَمَرَوَانَ عِنْدَهُ - وَجَلَسَ، فَأَقْرَأَهُ الْوَلِيدُ الْكِتَابَ، وَنَعَى إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ
الْحُسَيْنُ:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أَمَّا الْبَيْعَةُ فَإِنَّ مِثْلِي لَا يُعْطَى بِبَيْعَتِهِ سِرًّا، وَلَا أَرَاكَ
تَقْنَعُ بِهَا مِثِّي كَذَلِكَ... قَالَ: أَجَلُ. قَالَ: فَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى النَّاسِ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى
الْبَيْعَةِ دَعَوْتَنَا مَعَهُمْ، فَكَانَ الْأَمْرُ وَاحِدًا. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: عَلَى آسَمِ اللَّهِ، حَتَّى تَأْتِيَنَا
مَعَ جَمَاعَةِ النَّاسِ.

قَالَ مَرَوَانُ لَمَّا وَلَّى: عَصَيْتَنِي وَاللَّهِ، لَا قَدَرْتَ مِنْهُ عَلَى مِثْلِهَا أَبَدًا، حَتَّى
تَكُتَّرَ الْقَتْلَى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ... وَكَانَ مَرَوَانُ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ آتِبْعَثَ إِلَى الْحُسَيْنِ، فَإِنْ
بَايَعَ، وَإِلَّا فَاضْرِبْ عُقْقَهُ.

قَالَ الْوَلِيدُ: وَيَحْكُ! أَتُشِيرُ عَلَيَّ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ؟ وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يُحَاسِبُ بَدَمَ
الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَخَفِيفُ الْمِيزَانِ عِنْدَ اللَّهِ.

رُغِمَ مَا يَغْتَلِجُ فِي قَلْبِ الْحُسَيْنِ مِنْ عَاصِيفِ يَكَاذٍ يَنْطَلِقُ، وَبُزُكَانٍ يَكَاذُ
يَثُورُ، أَبْدَى فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرَجِ الدَّقِيقِ أَقْصَى مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ ضَبْطِ الْأَعْصَابِ،
وَحُسْنِ الثَّأْتِي الْفَائِقِ فِي تَصْرِيفِ الْأُمُورِ، وَاللَّبَاقَةِ الْبَالِغَةِ فِي الْحِوَارِ السِّيَاسِيِّ.

خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَانِ الْوَلِيدِ مُزْمِعًا عَلَى خُطَّةٍ، وَإِنْ تَكُنْ رَهْبِيَّةً، خَفَقَ لَهَا
قَلْبُهُ، وَاسْتَجَابَ إِلَيْهَا بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ، حَتَّى لَبَدَتْ عَلَى سِيمَائِهِ وَجَزَتْ عَلَى لِسَانِهِ،
وَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْمُقْبِرِيُّ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ يَزِيدَ بْنِ
رَبِيعَةَ بْنِ مُفَرِّغٍ:

لَا دَعَرْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصُّبِّ حِجْ مُغِيرًا، وَلَا دُعِيتُ يَزِيدًا
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضَيْمًا وَالْمَنَايَا يَرُضْدُنَنِي أَنْ أَحِيدًا

وما هو حتى هبط بأهله مَكَّةَ لثلاثِ مَضَبَيْنِ مِنْ شَعْبَانِ سَنَةِ سِتِّينَ، وَلَبِثَ فِيهَا
حَتَّى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ...

*

فِي مَكَّةَ، حَيْثُ الذُّكْرِيَّاتُ الْمُلهِمَاتُ الَّتِي تَصْفُرُ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَرْضِهَا
وَسَمَائِهَا، وَعِنْدَ مُعْتَنَقِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، حَيْثُ يَقَعُ الْأَفْقُ الْمُكَلَّلُ بِالْوَحْيِ، لَبِثَ
الْحُسَيْنُ يَوْمَهُ، وَقَدْ ذَابَتْ فِي نَظَرَاتِهِ أَوْهَامُ النَّاسِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

إِنَّ نَظَرَهُ اعْتَلَقَ بِالْأَبَدِ الْفَسِيحِ الَّذِي تَبْدُو الدُّنْيَا، بِكُلِّ أَشْيَائِهَا مِنْ آفَاقِهِ،
صَدَفَةً حَقِيرَةً فِي لُجِّ الْفَنَاءِ.

وَقَدْ رَأَى هُنَاكَ أَنَّ الْأَحْيَاءَ يَعِيشُونَ فِي عَالَمٍ أَعْمَالِهِمْ عَلَى حَقَائِقِهَا،
وَالْأَعْمَالُ فِيهِ لَيْسَتْ مَاتِي فَقَطْ تَتَقَضَّى مَعَ آنِهَا وَجِينِهَا، بَلْ هِيَ مَوَالِيدُ يَخْيَاهَا
الْمَرْءُ فِي خَلَاوَتِهَا وَمَرَارَتِهَا، وَفِي نُورِهَا وَظِلَامِهَا. وَالْمَرْءُ هُنَاكَ لَا يُحْسِنُ بِالْأَلَمِ أَوْ
اللَّذَّةِ، وَالْفُتُوحِ أَوْ الْجَمَالِ، إِحْسَاسًا مِثْلَمَا هُوَ شَأْنُ إِحْسَاسِ الْفَنَاءِ، بَلْ تَحْيَا فِيهِ
كُلِّيَّاتُ هَذِهِ الْمَعَانِي حَيَاةً جَوْهَرِيًّا.

وَكَانَتْ تِلْكَ الذُّكْرِيَّاتُ الْخَالِدَاتُ لَا تَفْتَأُ تَتَنَادَى بِهِ إِلَى آسْتِئْنَافِ الْجِهَادِ،
آسْتِئْنَافِ الْجِهَادِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَدَأَهُ جَدُّهُ الْمُصْطَفَى، مُكَافِحًا وَحِيدًا وَبَطْلًا فَرِيدًا،
حَتَّى أَمَالَ دُنْيَا وَأَثْبَتَ دُنْيَا، وَمَا قَعَدَ بِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ إِلَبَّ، وَهُوَ
وَحْدَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ تَنْتَشِرُ مِثْلَ شُعَلَاتِ.

تُحْرِقُ فِي مَدَاهَا كُلَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

فَإِذَا لَهَا عَلَى الْأَرْضِ ضِيَاءٌ، كَمَا لَهَا فِي السَّمَاءِ ضِيَاءٌ.

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

كَانَتْ تَمْثُرُ بِهِ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ، وَقَدْ مَسَحَهَا جَوْ مَكَّةَ بِمَا فِيهِ مِنْ أَقْدَاسٍ
وَذِكْرِيَّاتٍ عَزَمَ لَا يُقْفَهُزُ، فَهَبَّ نَاشِطاً فِي مِثْلِ الزَّرِيرِ الَّذِي يُبَادِرُ الانْطِلَاقَ، غَيْرَ
ثَابِتٍ أَمَامَ نَاطِرِيهِ إِلَّا «وَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وَأُسُوتِي بِهِ، أَنْ أَجَالِدَ جِلَادَهُ، وَأَنْ أُنَافِخَ مُنَافَحَتَهُ، وَأَنْ أَنْتَهِيَ لِعَايَتِهِ.

أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَّ الْبَغْيِ وَالْبَاغِي، وَذَكَ دُنْيَا الْأَوْثَانِ بِمَا فِيهَا، وَإِنَّ الْبَاغِي
الْيَوْمَ يُحَاوِلُ الْإِنْفِلَاتَ، وَأَوْثَانُ الْآلِهَةِ آسْتَوْلَدَتْ أَوْثَانَ النَّاسِ. فَكَيْفَ أَتَلَبُّثُ دُونَ أَنْ
أُغْلُ ذَاكَ، وَأُعْتَصِرَ هَذَا، وَمَا أُبَالِي أَكَانَتْ فِيهِ مَبِيتِي أَمْ كَانَتْ فِيهِ أَفْئِيتِي...

وَإِنَّ مُحَمَّدًا أَخْرَجَ مُهَاجِرًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مُبَالَعَةِ الْغُيُونِ وَالْأَرْصَادِ، فَكَيْفَ
لَا أَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَيْهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِالْحَيَاةِ، وَلَا مُكْتَرِبٍ بِالْمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ؟

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أَقْتُلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي

وَكَفَى بَعْمَلِي عِنْدَ اللَّهِ رِضًا، أَنْ يَكُونَ الْهَجْرَةُ الثَّانِيَّةَ.

إِنَّ الْهَجْرَةَ الْأُولَى، هَجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْبِنَاءُ.

وَإِنَّ الْهَجْرَةَ الثَّانِيَّةَ، هَجْرَةُ سَبْطِ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْحِفَاظَةُ عَلَى
ذِيَالِكَ الْبِنَاءِ.

وَمَا هُوَ حَتَّى تَسَامَعَ النَّاسُ بِعَزَمِ الْحُسَيْنِ، وَمَا هُوَ حَتَّى مَشَى الْكَثِيرُونَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ غَايَتِهِ، يَوْعِبُونَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَيُتَبَطِّطُونَ مِنْهُ وَيُوهِنُونَ مَا آسَتَوَى عَلَيْهِ
عَزْمُهُ. فَقَالَ آبْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ آبْنُ الزُّبَيْرِ، وَبَدَّهَهُ هَذَا، وَثَنَى ذَاكَ، إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ،
وَكُلُّهُمْ قَوْمٌ عَشِيرٌ، وَقَحْرٌ قَبِيلٌ.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَكَأَنَّهُ بَطْلُ الْمَعْرَكَةِ الْمُنتَظَرِ، يَرَى فِي تَحَامِي

الْفُوسَانِ جُبْنًا أَكْبَرَ عَارًا، فَيَزِيدُهُ تَلْظِيًا وَحِمِيَّةً، وَفِي تَقَهُّقِرِ الشُّجْعَانِ خَوْرًا أُبْلَغَ غَوْرًا
وَأَعَمَّقَ أَثْرًا، فَيَرْقُدُهُ عَزْمًا وَيَضْطَظِعُهُ شَكِيمًا.

إِحْتِضَارُ نَسْرِ... فِي هَمْسٍ كَالزَّيْرِ

مَرَّ نَسْرٌ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْآكَامِ، فَتَكَثَّفَتْهُ بُعَاثُ النَّسْرِ- أَيِ ضِعَافِهَا - مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ...

تُهِيبُ بِهِ أَنْ لَا يَمُضِيَ بَعِيدًا، فَهُنَاكَ صُقُورٌ تَعِيثُ فُسَادًا وَتَبَثُّ رُغْبًا.
وَلَكِنَّ النَّسْرَ شَدَّ جَفْنَيْهِ طَوِيلًا، كَأَنَّهُ لَا يُصَدِّقُ أَنَّ هَذِهِ لُغَةٌ نَسْرِ...
عَلَى أَنَّهُ مَضَى، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ النَّسْرَ شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَيْسَ شَيْئًا فِي
الشَّكْلِ...

فَإِذَا اسْتَحَالَ الْمَعْنَى شَكْلًا فَقَطْ، فَهُنَاكَ مُسَوِّخٌ لَا نُسُورًا...
ثُمَّ انْطَلَقَ يَهْوِي غَيْرَ مُبَالٍ بِمَا سَوْفَ يَعْتَرِضُهُ.

*

وَمَا هُوَ حَتَّى وَائْتَبَتْهُ جَمَاعَةُ الصُّقُورِ، فَنَالَ مِنْهَا كَثِيرًا وَنَالَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا...
عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُعْتَبِطًا أَيْضًا، فَقَدْ هَمَسَ فِي أَنْفَاسِ الْمُحْتَضِرِ...
سَوْفَ يَظَلُّ فِي الْأَجْيَالِ أَنَّهُ هُنَا يَرْقُدُ نَسْرٌ وَجَدَ حَقِيقَتَهُ...
وَهُنَاكَ تَحْيَا نُسُورٌ فَقَدَتْ حَقِيقَتَهَا...

إِنَّنِّي أَقْضِي، وَيَقِفِي فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ أَنَّ اقْتِحَامَ الطَّرِيقِ، دَائِمًا فِي
الْإِمْكَانِ...

مَتَّ مَوْتَ هَذَا النَّسْرِ، عَيْنٌ فِي مُقْلَةِ الشَّمْسِ وَجَنَاحٌ لَهُ فِي الْآفَاقِ...

وَلَمْ تَمُتْ مَوْتَ الْبَهْمِ عِنْدَ الشُّفُوحِ، لِتَظَلَّ عَلَى لِسَانِ الدُّهُورِ وَتَعَاقِبِ
الْعُصُورِ، أُسْطُورَةَ تُزَوِّى...

*

إِنْطَلَقَ الْحُسَيْنُ مُودَّعًا الْكَعْبَةَ، بَيْتَ اللَّهِ، حَامِلًا رُوحَهَا يَتَيْنَ جَنْبَيْهِ، وَشُعَلَتَهَا
يَكِلْتَا يَدَيْهِ...

تَوَارِكَبُهُ الْمَلَائِكُ وَتُبَارِكُهُ، وَتَطْيِفُ بِهِ كَأَنَّهَا حَذِيرَةٌ عَلَيْهِ...
فَإِنَّهُ الْبَقِيَّةُ مِنْ إِرْثِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ!...

*

رَغِيًّا لِذِكْرِكَ أبا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرُوحِ الْأَخْلَاقِ فِي رُوحِ الْوُجُودِ...
فَأَرَدْتُ الْحَيَاةَ دُنْيَا مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْحُبِّ...
وَأَرَادَهَا الْآخِرُونَ دُنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالرَّذِيلَةِ وَالْأَحْقَادِ...
أَرَدْتُهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الرُّوحِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الْأَعْصَابِ بِالْأَلَمِ...
وَأَرَادُوهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الْأَعْصَابِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الرُّوحِ بِالْأَلَمِ...
فَأَسْتَحَالَتِ الْآلَامُ الْكُبْرَى، فِي جِسِّ النَّاسِ، لَذَّةً كُبْرَى فِي جِسِّكَ!...

*

حَتَّى لَقَدْ شَعَرْتُ حِيَالَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ، أَنَّهُ شَفَقٌ مِنْ شُعَاعِ الرُّوحِ...
وَرَأَيْتُ، فِي مُحَمَّرَةِ الدِّمَاءِ، لُؤْلُؤَةً جَمَالِ الْحُسْنِ...
وَلَا يَدْعُ، فَقْدِيمًا قَلِيلَ الْمَثَلِ السَّائِرِ: «إِنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ»...

* * *

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطَّبعة (ز) - (ل)
الفاتحة (م) - (س)
مُقَدِّمة (ف) - (ث)

يوم المدينة (٢٥) يوم الميلاد (٦٧)
يوم القرآن (٤١) مشاهد (٧٧)
يوم الايمان الشامخ (٥٥) يوم الدولة (٨٩)
دموع (٩٩)

من أيام العهد الراشدي

مع خليفة (١٠٩) في الثورة (١١٩)
جهاد الشباب (١١٣) في الزوينة (١٣٩)
إلتياح (١٦١)

من أيام الحسين السبط (ع)

في الهيكل (١٧٥) تقوى (٢٢٧)
في وجه الظلم (١٨٣) استشارة (٢٤٥)
مع أُرَيْنب (١٩٧) إلى الله (٢٥٣)

... فمُحمَّد لم يصنع أُمَّةَ بَيرِ الأُمَمِ، بَلْ صَنَعَ
أُمَّةً فِي عِدَادِ الرُّسُلِ إِلَى كُلِّ أَلَمٍ، وَأَكْبَرُظِيٍّ
أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَنْطَلِقُ فِي جِسمِ العَالَمِ المُتَدَاعِي، كَمَا
تَنْطَلِقُ العَصَاةُ، وَفِيهَا الحَرَارَةُ والحَيَاةُ والحَرَكَةُ.



9 782910 355005

ISBN: 2-910355-00-4